

الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد غفر له

المتوفى ٥٠٥ هـ

المجلد الثالث

دار المعرفة

بيروت - لبنان

الحياة العملية للإمام

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبدئ به كتاب

المغنى عن حمل الأسفار في الأيسار

في تجميع ما في الإتيان من الأخبار

للمعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن الحسن الملقب

المتوفى في سنة ٨٠٠ هـ

وعاماً للفتح فمحضاً بالكتاب في ثفره ثلاثه كتب:

الأول : تعريف لأسماء بعض أئمة الإحياء العلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله
بن شيخ بن عبد الله العبد دؤوس بأعلو ك

الثاني : الإطلاع على إسكالات الإحياء الإمام المزالى ، و قد به اعترافات
أورد بها بعض المعاصرين له على بعض واضع من الإحياء .

الثالث : عوارف المعارف : للمعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

دار المعرفة

دار المعرفة

بمروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تحرير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش في مبادئ إشراق أنواره الاحداق والنواظر ، المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، المستغنى في تدبير ملكته عن المشاور والموازر ، مقرب القلوب وغفار الذنوب ، وسائر العيوب ، ومفرج الكرب .

والصلاة على سيد المرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين . وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .
أما بعد : فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستمداده لمراقبة الله سبحانه ، التي هي في الدنيا جماله وكأله وغره ، وفي الآخرة عذته وذخره ، وإنما استمدد المعرفة بقلبه لأجراحة من جوارحه ؛ فالقلب هو العالم بالله . وهو المتقرب إلى الله ؛ وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكافئ بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات ، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك العبد . واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحبوب عن الله إذا صار مستغنيا بغير الله ، وهو الطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفعل إذا زكاه ، وهو الذي يغيث ويشقي إذا دنسه ودساه ؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذي ينشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ؛ وباطلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إثم ينضج بما فيه ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه . وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية قلبه بين أصبهين مع أصابع الرحمن ، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين ، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين . ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويتروص لما بلوح من خزان الملكوت عليه وفيه ، فهو بمن قال الله تعالى فيه (نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) فقرة القلب وحقيقة أوصافه

أصل الدين وأساس طريق السالكين .

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والمعادات - وهو العلم الظاهر ، ووجدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات - وهو العلم الباطن ؛ فلا بد أن نقدم عليه كتابين : كتابا في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نتلخص بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات .

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام ، فإن التصريح بعجائبه وأسواره الفاخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب . ويقل في لحول العلماء من يحيط بهذه الأسماء واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغالط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسماء واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح في معنى هذه الأسماء ما يتعلق بفرضنا :

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين (أحدهما) اللحم الضویری الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعده ، ولنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للبشر . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نمن به ذلك ؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين . (والمعنى الثاني) هو لطيفة ربانية روحانية لها هذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعالج والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسماني ، وقد تمحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ؛ فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالمرسوفات ، أو تعلق المستعمل بالكالة بالآلة . أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما تتوقاه لمعنيين : (أحدهما) أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة (والثاني) أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح وذلك مما لا يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ^(١) فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها ذاتها وعلم المعاملة يقتصر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يقتصر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثاني : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : (أحدهما) جسم لطيف منهجه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة السروق الضواریب إلى سائر أجزاء البدن ، وجرياته في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت ؛ فإنه لا يلتصق إلى جزء من البيت إلا ويستدير به ، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيوان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ

حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم في الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح . وفيه . فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم ، فقلت أنه يوحى إليه . الحديث ، وقد تقدم .

الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنفجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يبالغون الأبدان ؛ فأما غرض أطباء الدين المجالين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً . (المعنى الثانى) هو اللطيفة العالة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراد الله تعالى بقوله ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وهو أمر عجيب رباى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضاً مشترك بين معان ، ويتعلق بفرضنا منه معنيان : (أحدهما) أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »^(١) . (المعنى الثانى) هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها ﴿ يابئنا النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ؛ فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكرتها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعتزة عليها سميت النفس التوامة ؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره عن عبادة مولاه . قال الله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس الواتمة ﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمتعضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى لإخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز ﴿ وما أبرئ نفسى وإن النفس لأماراة بالسوء ﴾ وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء : هى النفس بالمعنى الأول ، فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بفرضنا من جهتها معنيان : (أحدهما) أنه قد يطلق ويراد به العلم بمقتضى الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى عمله القلب . (والثانى) أنه قد يطلق ويراد به الإدراك للمعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة سالمة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به عمل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل »^(٢) : فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وأن يكون المحل عطفاً قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب معه . وفى الخبر : أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له أدير فأدير ... الحديث .

فإذا قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسائى ، والروح الجسائى ، والنفس الشهوانية ، والعلم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة يحملها تتوارد عليها ، فالمعاني خمسة ، والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين ،

(١) حديث « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » أخرجه البيهقي فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفى عهد ابن عبد الرحمن بن غزوان أحد الرواضين . (٢) حديث « أول ما خلق الله العقل » وفى الخبر أنه قال له : أقبل فأقبل وقال أدير فأدير ... الحديث . تقدم فى العلم .

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الالفاظ وتواردوا : فترام يتكلمون في الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس ، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الاسماء ، ولاجل كشف الغطاء عن ذلك قدّمنا شرح هذه الاسماء ، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقهه من الإنسان ويعرف حقيقة الاشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستتملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعاقبها الأول بالقلب وكأنه عاقلها وعلمتها وعلميتها ، ولذلك شبه سهل القسرى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرسى ، ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسى بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضا لا يليق بفرغنا فلنجاوزه .

بيان جنود القلب

قال الله تعالى ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ فله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من الموالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بفرغنا ، وله جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند لا يرى إلا بالبصائر ، وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان ، فهذا معنى الجند : فأما جنده للمشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها عادمة للقلب ومسخرة له ، فهو للتصرف فيها والمرد لها ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح افتتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والخواص للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا ، بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإنما يفترقان فى شيء : وهو أن الملائكة عليهم السلام عالة بطاعتها وامتثالها ، والأجنان طليع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب ، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والوارد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه ، فلأجله خلقت القلوب . قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وإنما مركبه البدن وزاده العلم . وإنما الأسباب التى توصله إلى الواد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح ، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا : لأنها أدنى المنزلتين ، فاحفظ أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به إلى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه ، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين : باطن ، وهو الشهوة . وظاهر ، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء ، خلق فى القلب من الشهوات ما احتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن ، وهو الغضب الذى يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء . وظاهر ،

وهو اليد والرجل اللذين هما يعمل بمقتضى الغضب ، وكل ذلك بأمر خارجة ؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها ، ثم المحتاج إلى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه ، فافتقر للمعرفة إلى جنتين : باطن ، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللس والذوق ؛ وظاهر ، وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة . وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به .

فجملته جنود القلب تنحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث : إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المناق كالغضب ، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة . والثاني : هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة : وهي جنود ميثونة في سائر الأعضاء لأسباب العضلات منها والأوتار . والثالث : هو المدرك المتعزف للأشياء كالحواسيس : وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللس ، وهي ميثونة في أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من اللحم والعصب والدم والمغزى التي أعدت آلات لهذه الجنود ، فإن قوة البصر إنما هي بالأصابع ، وقوة البصر إنما هي بالعين ، وكذا سائر القوى ، ولنا تنكلم في الجنود الظاهرة أعني الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة ، وإنما تنكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى مافد أسكن المنازل الظاهرة وهي الحواس الخمس : أعني السمع والبصر والشم والذوق واللس وإلى ما أسكن منازل باطنة : وهي تجاويف الدماغ ، وهي أيضا خمسة ، فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ، ثم يتفكر فيما يحفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر مافد نسيه ويعود إليه ، ثم يجمع جملة مصافي المحسوسات في خياله بالחס المشترك بين المحسوسات ؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والتفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه ؛ فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأما كتبها أيضا باطنة ، فهذه هي أقسام جنود القلب ، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن يلتفت به الأقوياء والفحول من العلماء ، ولكننا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندي الغضب والشهوة قد يتقادان للقلب انقياداً تاماً ، فيعينه ذلك على طريقته الذي يسلكه وتحسن مراعاتهما في السفر الذي هو بصده ، وقد يستصيان عليه استصاء يفي وتمرد حتى يملكاه ويستعبده ، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد ، وللقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكير ، كما سيأتى شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فلأنهما قد يلتفتان بحرب الشيطان . فإن ترك الاستمانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مينا ، وذلك حالاً أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه ، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أن نقول : مثل نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك في مدينته وملكته

فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينها ، وجوارحها وقوامها بمنزلة الصانع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالشهير الناصح والوزير الماقل . والشهوة له كالعبد السوء يطلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب لليرة كذاب مكار خداع خبيث يشغل بصورة الناصح ويحتفصه الشراييل والسلم القاتل ، ودينه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتديبراته حتى لا يتخلل من منازعته ومعارضته ساعة ، كأن الرائي في مملكته إذا كان مستغنيا في تديبراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته في أن الصواب في قبض رأيه ، أدبه صاحب شرطته وسامه لوزيره وجهه لمؤتمرا له مسلطا من جهة على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد موسوا لا ساكسا ، ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا ، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه ؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمة الغضب ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداها على الأخرى تارة بأن تقال مرتبة الغضب وغلوها بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقيح مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع هواه فشه كمثل السكب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى ﴿ وأمان غاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجلود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى .

المثال الثاني : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل - أعني للدرك - من الإنسان كملك مدبر لها ، وقواه للدركة من الحواس الظاهرة والباطنة بكجوده وأعوانه ، وأعضائه كرعيته ، والنفس الإمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعندق ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته ، فصار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كتميم فيه رابط ، فإن هو مجاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى ﴿ والجاهلون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وإن ضيع ثمره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة : ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك ^(١) كما ورد في الخبر . وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « رجعتان المجاهد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ^(٢) » .

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشبهه كفرسه وغضبه كسكبه ، فتي كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جوحا والكلب عقورا فلا فرسه يثبت تحته متقادا ولاكلبه يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن يبال ما طلب ، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته ، وجماع الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج ، وعقر السكب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسأل الله حسن التوفيق بطلغه .

بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ما ذكرناه قد أُنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الأدنى ؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس

(١) حديث . يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ... الخبر ، لم أجد له أصلا

(٢) حديث « رجعتان من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقي في الرهد من حديث جابر وقال : هذا إسناد فيه ضعف .

الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبا فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن .
فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى علم وإرادة :

أما العلم فهو العلم بالأمور الدينية والأخرية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة ، وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص لحكمه على جميع الأشخاص زائد على مادركه الحس . وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر .

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالمقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبثت من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة . فإن الشهوة تنفر عن القصد والحجامة ، والعقل يريد ما يطلبا ويذل المال فيها . والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والعاقل يجد في نفسه زاجرا عنها ، وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل للمعرف بمواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضالما على التحقيق .

فإن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة يفك عنها سائر الحيوان بل يفك عنها الصبي في أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب والخواص الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي .

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان ؛ إحداهما : أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ؛ كالملم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية : أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها . وهذه غاية درجة الإنسانية . ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها ؛ إذ تحصل لبعض القلوب بالمهام إلى على سبيل المبادأة والمكاشفة ، وبعضهم يتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول . وفي هذا المقام يتباين منازل العلماء والحكام والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها . وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، يكشف إلى في أسرع وقت ، وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والعفة لا بالمسكان والمسافة ومراق هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنزل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب ، كما أننا تؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي ، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المين وما يتفتح له من

العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبياؤه من مزايا لطفه وروحته ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ وهذه الرحمة مبدولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم : إن ربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها ^(١) . والتعرض لها بتطهير القلب وتركيبته من الحب والكندورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة - كما سيأتى بيانه - وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له ، ويقول عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل : لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقاءهم أشد شوقا ^(٢) ، ويقول تعالى : من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ^(٣) ، كل ذلك لإشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة النعم - تعالى عن البخل والنع عزوا كبيرا - ولكن حجب تحجب وكندورة ومنع من جهة القلوب فإن القلوب كالآواني فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ^(٤) ، ومن هذه الجملة يبين أن غاصية الإنسان العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان وفي كماله سعاده وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فاليدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وغاصيته التى لأجله خلق . وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويحتص عنه غاصية الكثر والفز وحسن الهيئة فيكون الفرس غلوفا لأجل تلك الغاصية ، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويغارقها في أمور هي غاصيته وتلك الغاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين . والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار الحيوان ، ومن حيث صوره وقامته فكالمصورة المنقوشة على الخائط ، وإنما غاصيته معرفة حقائق الأشياء .

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة ؛ تحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحيب يوسف عليه السلام بقوله ﴿ ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ومن صرف همه إلى اتباع الفادات الدينية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غراكتور ، وإما شرها كحزير . وإما ضريا ككلب أو سنور ، أو حقودا كجمل . أو متكبها كتمر ، أو ذاروغان كعسلب ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد .

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى - كما سيأتى بيان طرف منه في كتاب الشكر - فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وغاب . وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده ، والدار الآخرة مستقره ، والديناميزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء

(١) حديث « إن ربكم في أيام دهركم لنفحات .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم .
(٢) حديث « يقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى . . الحديث » لم أجده له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرج من حديث أبي الردهاء ولم يذكر له ولله في مستند الفردوس إسنادا . (٣) حديث « يقول الله من قرب إلى شبرا قربت إليه ذراعا » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه وقد تقدم في الصيام .

خدمه . فيستقر هو - أعنى المدرك من الإنسان - في القلب الذى هو وسط ملكته كالملك ، ويجرى القوة الخيالية للودعة في مقدم الدماغ بجري صاحب بریده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ بجري خازنه ، ويجرى اللسان بجري ترجمانه ، ويجرى الأعضاء المتحركة بجري كتابه ، ويجرى الحواس الخمس بجري جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صنع من الأصقاع ؛ فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، والشم بعالم الروائح . وكذلك سائرهما فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التى هى كصاحب البريد ، ويسلها صاحب البريد إلى الخازن وهى الحافظة ، ويمرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير ملكته وإتمام سفره الذى هو بصدده ، وقمع عنده الذى هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موقفا سعيدا شاكرًا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة ، أو في عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة ؛ كان غدولا شقيًا كافرًا بنعمة الله ته الى مضيعها لجنود الله تعالى ناصرا لأعداء الله غدلا لحرب الله فيستحق المقت والإبادة في المقلب والمعاد . نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الذى ضربناه أشار كعب الأبحار حيث قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت ؛ الإنسان عينا هاد وأذناه قع ولسانه ترجمان ويده جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك ^(١) فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقلت : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب ؛ إن لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها إليه تعالى أرضها وأصفأها وأصلبها ؛ ثم فسره فقال : أصلبها فى الدين وأصفأها فى اليقين وأرفعها على الإخوان ، وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال أبى بن كعب رضى الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقيله وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات فى بحر لئجى ﴾ مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ وهو قلب المؤمن . وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكبرى فهذه أمثلة القلب .

بيان جامع أوصاف القلب وأمثله

اعلم أن الإنسان قد اصطلح فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى : الصفات السبية والبيمية والشيطانية والربانية . فهو من حيث سطره عليه الغضب يتماطى أفعال السباع من المداوة والبضاض والتجمل على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطه عليه الشهوة يتماطى أفعال البهائم من الشره والحرص والسبق وغيره . ومن حيث إلهه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ فإنه يدعى نفسه الربوية ، ويجب الاستيلاء والاستعلاء ، والتخصص ، والاستيلاء بالأمور كلها ، والتنزه بالرباية ، والانسلاخ عن ربة البهودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعركة ، والإحاطة بمخافتات الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل . والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالهجر على جميع الخلائق من أوصاف الربوية ، وفى الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز فى

(١) حديث عائشة : الإنسان عينا هاد وأذناه قع ولسانه ترجمان ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الطب النبوى والطبرانى فى مسند الشاميين والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله واحد من حديث أبى ذر : وأما الأذن فسمع وأما العين ففرقنا بوضع القلب ولا يسمع منها شيء .

استبطاء وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخذاع ، ويظهر الشر في معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة . أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية . وكل ذلك مجموع في القلب . فكان المجموع في إهاب الإنسان : خنزير وكلب وشيطان وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً لونه وشكله وصورته بل لجشعه وكابه وحرصه .

والكلب هو الغضب فإنه السبع الضار والكلب العقور ليس كلباً وسبباً باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر ، وفي باطن الإنسان ضروة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبهه . فالخنزير يدعو بالشر إلى الفحشاء والمنكر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير ويغيب السبع ويفرى أحدهما بالآخر ويحسن لها ماها مما يجبولان عليه . والحكيم الذى هو مثال العقل مأثور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تليسه بصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته ، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في ملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم ، وإن عجز عن قهرها قهره واستخدمه ، فلا يزال في استبطاء الحيل وتدقيق الفكر ليشيع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير .

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء ، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه وكشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل المكاشفين إما في النوم أوفى اليقظة لراى نفسه ماثلاً بين يدى خنزير ساجداً له مرة وراكماً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره . فهما حاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته ، أو رآى نفسه ماثلاً بين يدى كلب عقور عابداً له مطيعاً سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساعٍ في مسرة شيطانه فإنه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويحثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بمبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ولفظه وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعياً طول النهار في عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك لملوكا والرب مروباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تقرأ كم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ويميت له ، أما طاعة خنزير الشهوة فتعصر منها صفة الرقاقة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والتهتك والنجاسة والعبث والحرص والجشع والملك والحسد والحقد والشائنة وغيرها . وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذلة والبذخ والصلف والاستقامطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها . وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخذاع والحيلة والدماء والجرأة والتلبس والتضريب والغش والحب والحناء وأمثاله . ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية : لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بمقتضى الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه ، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لسجال العلم وجلاله ، واستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولانشر إليه

من ضبط خنزير الشهوة وردة إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والتقناعة والمعدو والزهد والورع والتقوى والاتباط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الراجب صفة الشجاعة والكرم والتجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتياط والعفو والتبات والتبيل والشهامة والوقار وغيرها :

فالقلب في حكم مرآة قد اكتشفت هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل واصله إلى القلب . أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونورا وضياء حتى يتلأل فيه جليلة الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه ^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ ^(٢) . وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يترام على قلبه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الزين قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقال عز وجل (أن لو نشاء أصنام بذنوبهم ولطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كاربطة السماع بالتقوى فقال تعالى (واتقوا الله واسمعوا - واتقوا الله ويعلمكم الله) ومهما تراكت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستبين بأمر الآخرة ويستظلم أمر الدنيا ويصير مقصورا هم عليها . فإذا قرع سهمه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخروج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يجره إلى التوبة والتدارك وأولئك (يتسوا من الآخرة كما يتس الكفار من أصحاب التور) وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما لفت به القرآن والسنة ،

قال ميمون بن مهران : إذا أذن البعد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل ، وإن عاذ زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الزان وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهو وقلب الكافر أسود منكوس ^(٣) ، فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصفلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة وعماؤها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح ، فإنها لا تخلو عن كدورة . وقد قال صلى الله عليه وسلم : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ^(٤) ، فثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمددها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمددها التبع والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ؟ وفي رواية : ذهبت به . قال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسمع من السيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بقاء الله تعالى .

(١) حديث : إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة ولسانه جيد . (٢) حديث : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ . لم أجده له أصلا . (٣) حديث : قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهو ... الحديث . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو يعني الحديث القى عليه . (٤) حديث : القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهو ... الحديث . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري . وقد تقدم .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن عمل العلم هو القلب ؛ أعنى العطفة المدبرة لجميع الجوارح وهى المطاعة الخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات ؛ فكأن للتلون صورة ومثال تلك الصورة يتطبع في المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة وتلك الحقيقة صورة تطبع في مرآة القلب وتتضح فيها ، وكأن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهى ثلاثة أمور . فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه . فالعلم عبارة عن القلب الذى فيه يعمل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة .

وكأن القلب مثلا يستدعى (قائضا) كاليد (ومقبوضا) كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد - بحصول السيف في اليد - ويسمى (قبضا) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما ، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلًا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب ، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلًا لعدم وقوع السيف في اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب ، فمن علم النار لم يحصل عين النار في قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتشبهه بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له . وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم في القلب يسمى علما .

وكأن المرآة لا تكشف فيها الصورة خمسة أمور (أحدها) نقصان صورتها بكورها الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل . (والثاني) لثنته وحدته وكدوره وإن كان تام الشكل . (والثالث) لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . (والرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة . (والخامس) للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه . (والثاني) لكدوره المعاصي والحيث الذى يترام على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلائه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكبه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارظ ذنباً فارقه عقل لا يهود إليه أبداً »^(١) أى حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها إذ غايته أن يقبه بحدة يحويه بها ، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لأزداد لاحتالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنه لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يرد بها نوراً . فهذا خسران مبین ونقصان لأحيلة فليست المرآة التى تتدنس ثم تسمح بالمصقلة كالتى تسمح بالمصقلة لزيادة جلالها من غير دنس سابق ؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يحل القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى (والذين جاءوا فإنا نهدىهم سبيلنا) وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم »^(٢) .

(١) حديث « من قارظ ذنباً فارقه عقل لا يهود إليه أبداً » لم أره أصلاً . (٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث أس وقد تقدم في العلم .

الثالث أن يكون مددولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس عازيا برآته شطر المطلوب : بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية ، فلا يتكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها ، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإن كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جليته الحق فاذنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي ؟ .

الرابع : الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا يتكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والتبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن يتكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتصنين للذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورحمت في قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق .

الخامس : الجهل بالجهة التي يقع منها الشور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فمقد ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتصر إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لا يحصل إلا عن عشرين سابقين يألفوا ويردوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل التاج من ازدواج الفحل والأثني . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأثني ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم فله إعلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم للمستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة ليراه وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفاه فلا يظهر فيها القفا ، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تتطبع صورة القفا في المرآة المخاذبة للقفا ، ثم تتطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين ، ثم تدرك العين صورة القفا ، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجبية فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يمر على بسط الأرض من يبتدى إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات . فهذه هي الأسباب الممانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل تلب فهو بالقطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر باتي شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف . وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ إشارة إلى أن له عاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطلقا لحل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحل الأمانة ومطبق لها في الأصل ولكن يثبطه عن التوضو بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإعما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (١) « وقول رسول الله

صلّى الله عليه وسلم ، لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء ^(١) ، إشارة إلى بعض هذه الأسباب التي هي الحجاب بين القلوب وبين الملكوت .

وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل لرسول الله ، يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء ؟ قال في قلوب عباده المؤمنين ^(٢) ، وفي الخبر : قال الله تعالى : لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن الذين الودع ^(٣) ، وفي الخبر : أنه قيل يا رسول الله من خير الناس فقال : كل مؤمن محوم القلب ، فقيل : وما محوم القلب ؟ فقال : هو التي التي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد ^(٤) ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : رأي قلبي ربي . إذ كان قد رفع الحجاب باليقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تعجّل صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض ، أما جعلها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكثاف فهو متناه على الجلة ، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له ، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ونسكه في نفسه وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ، وملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك القلب هي الجنة بيننا عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلّى له من الله وصفاته وأفعاله . وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها نصفي القلب وتزكّيته وجماله (قد أطلع من زكاه) ومراد تزكّيت حصول أنوار الإيمان فيه أي إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى (فمن يراد أنه أن يهديه يشرح صدره للإسلام . أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) .

نعم هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب (المراتبة الأولى) إيمان العوام وهو إيمان التقليد المنحصر . (والثانية) إيمان المتكلمين وهو مزيج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام (والثالثة) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

ونبين لك هذه المراتب بثال : وهو أن تصديقك يكون زيد مثلاً في المال له ثلاث درجات .

الأولى : أن يتبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا تنهته في القول ، فإن قلبك يسكن إليه ويعطئن بغيره بمجرد السماع ، وهذا الإيمان بمجرد التقليد ، وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آياتهم وأهماتهم وجود الله تعالى وحله وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبينة الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به قبله وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم ينظر بأيامه خلاف ما قاله لهم لحسن ظنهم بآياتهم وأهماتهم ومصلحتهم ، وهذا الإيمان سبب التجارة في الآخرة وأمله من أوائل رتب أصحاب اليقين وليسوا من المتقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانفراج صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الأحاديث بل من الأحاديث فيما يتعلق

(١) حديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... الحديث . تقدم . (٢) حديث ابن عمر : أين الله ؟ قال : في قلوب عباده المؤمنين . لم أجده بهذا اللفظ ، ولعل المراد من حديث أبي حنيفة الخولاني رحمه الله الذي صلّى الله عليه وسلم قال : « لن الله آتية من أهل الأرض وآتية ربكم قلوب عباده الصالحين ... الحديث » فيه بنية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث . (٣) حديث « قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن الذين الودع » لم أره أصلاً وفي حديث أبي حنيفة عند الطبراني بعد قوله « وآتية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألبها وأرقها » . (٤) حديث : قيل من خير الناس ؟ قال : كل مؤمن محوم القلب ... الحديث « أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح .

بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمونه من آياتهم وأهماتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم أتى إليهم الخطأ ، وللسلون اعتقدوا الحق للاحاطاعهم عليه ولكن أتى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدليه على كونه في الدار فيكون إيمانك وتصديقك وبينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإنه إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازدادت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص ؛ وهذا إيمان مزوج بدليل والخطأ أيضا يمكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للهمة موحضا ولا يقدر في هذا التليس والمحاكاة غرضا .

الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتظر إليه بينك وتجاهده ؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة القرين والصديق لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فيطوون في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بميزة يئنه يستحيل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقايير العلوم ودرجات الكشف .

أما درجات الكشف فمثاله أن يصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أوفى وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ؛ ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والحفايا من صورته . ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدات للأمور الإلهية .

وأما مقايير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرًا وبكرًا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا ففرقة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لاعتادة . فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم وانه تعالى أعلم بالصواب .

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدينية والأخرية

اعلم أن القلب بغيره مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحمل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية . والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة . والمكتسبة إلى دنيوية وأخرية .

أما العقلية : فنحن بها ماتفق بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسباع ؛ وهي تنقسم إلى ضرورية : لا يدري من أين حصلت وكيف حصلت ؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والثيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا ؛ فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له ؟ أعني أنه لا يدري له سببا قريبا ، وإلا فليس ينبغي عليه أن الله هو الذي خلقه وهذاه . وإلى علوم مكتسبة : وهي الاستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا .

قال على رضي الله عنه : رأيت العقل عقليين فطبيع ومسموع

ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعل « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل »^(١) ، والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعل رضي الله عنه ، إذا تحرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك^(٢) ،

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذي المحكم في نوارد الأصول بإسناد ضيف وقد تقدم في العلم . (٢) حديث « إذا تحرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم من حديث علي بإسناد ضيف

إذ لا يمكن التقرب بالغرزة الغفيرة ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة . ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين ، فالقلب جوار مجرى العين وغرزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين ، وقوة الابصار لطيفة تنفذ فى العمى وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل ، والعلم الحاصل منه فى القلب جوار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ورؤيته لأعيان الأشياء . وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وضيان نورها على المبصرات . والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب مجرى مجرى قرص الشمس . وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتبأ بعد لقبول نفس العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر قال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصف خلقه ، فليس قلبه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض ؛ فالوازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما فى الشرف ؛ فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى الطليقة المذكورة ، وهى كالفارس والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضرب على الفارس من عمى الفرس بل لانسبة لأحد الضررين إلى الآخر . ولوازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ﴿ ما كذب للفؤاد ما رأى ﴾ سعى إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ، ولذلك سعى عند إدراكه عمى فقال تعالى ﴿ فلما لم تسمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ فهذا بيان العلم العقل .

أما العلوم الدينية : فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك يحصل بالتعلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع ، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الادواء والأمراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها ، كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الادوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء ، إذ مجرد العقل لا يبتدى إليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكليّة جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، وإياك أن تكون من أحد لفريقيّن وكان جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستعجز بالإنقاذ متى فاتته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب لا يبرك علاجها إلا بالأدوية المستفادّة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لا يدأوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استعجز بها كما يستعجز المريض بالإنقاذ . وظن من يظن أن العلوم العقلية منافضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نموذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيجمع بينهما . فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيستعجز به فيفسل من الدين انسلاخ الشعرة من العجين . وإنما ذلك لأن معجزه فى نفسه خيل إليه نقضا فى الدين وهيبات . وإلا مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم قتمش فيها بأوانى الدار فقال لهم : ما بال هذه الأواني

تركزت على الطريق لم لاترد إلى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأواني في مواضعها ! وإنما أنت لست تهتدى الطريق لئلا قال الصجب منك أنك لا تحصيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك ؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية .

والعلوم العقلية تنقسم إلى دينية وأخرى . فالدينية : كعلم الطب والحساب والهندسة والتجويد وسائر الحرف والصناعات . والأخرى : كعلم أحوال القلب وأفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله . كما فصلناه في كتاب العلم . وبما علمنا متافيان - أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأثر . ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدينار الآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككتفى الميزان ، وكالمشرق والمغرب ، وكالضربين إذا أرضعت أحدهما أضطت الأخرى .

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا في أمور الآخرة . والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا في أكثر علوم الدنيا ، لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعا في الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال في الثاني . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البه (١) » ، أى البه في أمور الدنيا .

وقال الحسن في بعض مواضعه : لقد أدركنا أقواما لو رأيتهم لقلتم بجانين ولو أدرككم قالوا شياطين . فهما سمعت أسرا غريبا من أمور الدين جمعه أهل الكياسة في سائر العلوم ، فلا يفتنك جودهم عن قبوله إذ من المحال أن ينظر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وقال صر وجل ﴿ فأعرض عن تولي عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فالجمع بين كمال الاستيعار في مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر إلا لمن رصفه الله لتدبير عبادته في معادهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التي تنسج لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق فلها إذا استغلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية

في استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال - تختلف الحال في حصولها فتارة تهجم على القلب كأه أنى فيه من حيث لا يدري ، وتارة مكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدلائل يسمى إلهاما ، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا . ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من البعد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له من أين حصل ؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استمد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب . والاول : يسمى إلهاما ونشأ في الروح والثاني : يسمى وحيا وتخصص به الأنبياء . والاول يختص به الأولياء والأصفياء . والذي قبله هو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء . وحقيقة القول فيه أن القلب مستمد لأن تجل في حقيقة الحق في الأشياء كلها ،

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البه » أخرجه البزار من حديث أنس وصفه وصحة القرطبي في التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عسك .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخسة - التي سبق ذكرها - فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو متقوس بجميع ماضى الله به إلى يوم القيامة . وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يعانى انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند الختام فيعلم به ما يكون في المستقبل . وتنام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضا في البقطة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيلعب في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالي إلى حد ما . ودوامه في غاية التدور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الرحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد العلم ، فإن العلم إنما يصل في قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي ما يشاء)

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون والبحث عن الآثار والادلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقدم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل به بتقوية أنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر للملكوت ، وانتشع عن وجه القلب حجاب الغيرة بلطف الرحمة وتلاآت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعشش التام والترصد بدهام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالرهدة في الدنيا والتبرى من علائقها وتفرغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كالنار لله . وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها وقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يغلو بنفسه في زوايا مع الانقصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب بمجموع الهمة ، ولا يفرق فكره بقرارة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتبة حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه : الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جاوية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يحس أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يحس عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضا لتفضات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كافحتها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلعب لواضع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه

كالبرق الخاطف لا يثبت ؛ ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً ؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير بعض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما التظار وذو الاعتبار فلم يتكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على التدور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعوا هذا الطريق واستبطأوا ثمرته واستبدوا استجتماع شروطه ، وزعموا أن نحو الملائق إلى ذلك الحد كالتعذر وإن حصل في حال ثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وعاطريشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد تغلباً من القدر في غلباتها ^(١) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٢) » ، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بمحطات العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يذول ويتقضى العمر قبل النجاح فيها ، فكأن من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد اتقن العلم من قبل لانتفع له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فلا تشتغل بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى النرض . وزعموا أن ذلك يضاهي ما لترك الإنسان تعلم الفقه . وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضاً ربما انتهت في الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثورة على كثر من الكوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قاله ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم يتكشف لسائر العلماء فساءل ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب غارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس وما لبس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين :

أحدهما : أنه لو فرضنا حوضا مغفورا في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء السفلى ، فينضج الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الحس مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يتمثل علما ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالحفلة والبرالة وفض البصر ويعمد إلى عنق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله .

« فلأن قالت : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو غال عنه ؟ فأعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين . فكأن أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر

(١) حديث « قلب المؤمن أشد تغلباً من القدر في غلباتها » أخرجه أحد المالكية وصححه من حديث المنذاد بن الأسود .

(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر .

السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في الوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصوره تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم ينفض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه يظن إليها ، ولو انعدمت السماء والأرض وبين هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدها وينظر إليها ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال . والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم للوجود في نفسه عارضا من خيال الإنسان وقلبه . والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في الوح المحفوظ .

فكان للعالم أربع درجات في الوجود : وجود في الوح المحفوظ وهو سابق على وجودها الجسائي ، وبقية وجوده الحقيقي ، وبقية وجوده الحقيقي وجوده الخيالي - أعتى وجود صورته في الخيال - وبقية وجوده الخيالي وجوده العقلي - أعتى وجود صورته في القلب -

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسيانية . والروحانية بعضها أشد وروحانية من البعض ؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدتك على صغر حجمها بحيث تطبع صورة العالم والسموات والأرض على أنساع أكثافها فيها ، ثم يسرى من وجودها إلى الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود في القلب فإنك أبدا لا تدرك إلا ما هو وأصل إليك ، فلو لم يعمل العالم كله مثالا في ذاتك لما كان لك غير ما يبين ذاتك ، فسدحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعتى من دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبسجائها .

ولنرجع إلى الفرض المقصود فنقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورة تارة من الحواس وتارة من الوح المحفوظ ، كما أن العين تتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها . فهما ارتفع الحجاب بينه وبين الوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عين الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة الوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ؛ فإذا القلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو الوح المحفوظ وعالم الملكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الحس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا كما في عالم الملكوت نوعان من الحكمة . فاما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يفي عليك . وأما انفتاح باب الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة الوح المحفوظ فتعطله علما يقينيا بالتأمل في عجائب الرقيا وإطلاع القلب في القوم على ما سيكون في المستقبل أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما يفتتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « سبق الفزودون » قيل ومن هم المفردون يا رسول الله ؟ قال « المتفردون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفاة » ثم قال في وصفهم إنبارا عن الله تعالى فقال « ثم أقبل يوجهي عليهم أترى من واجهته وجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ؟ ثم قال تعالى : أول ما أعطهم أن أقذف الثور في قلوبهم فيخبرون عني كأخبر عنهم ^(١) » ومدخل

(١) حديث « سبق الفردون » قيل ومن هم ؟ قال « المستفردون بذكر الله ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة متصرا على أول الحديث وقال فيه : وما الفردون ؟ قال « الذين هم في كثرة الله كثيرا وألحركات » ورواه الحاكم بنقله « قال البخاري » =

هذه الأخبار هو الباب الباطن فلذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المفتوح إلى عالم الملكوت ، و علم الحكمة يأتي من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالم الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم المعاملة . فهذا مثال يبلللك الفرق بين مدخل المالمين

المثال الثاني يبركك الفرق بين العاملين ، أعنى عمل العلماء وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيها وتصقيلها فقط ، قد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباها بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم لأهلهم صفة لينتش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ويرى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغربية مالا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يحملون جانبهم ويصقلونه ، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً فمجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؟ فقيل : وكيف فرغتم من غير صبغ ؟ فقالوا : ما عليكم أرفعوا الحجاب ، فرفعوا وإذا بما بينهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراف وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة الجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بزيد التصقيل ؛ فكذلك غاية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتركيبه وصفائه حتى يتلألأ فيه جليلة الحق بنهاية الإشراف كمثل أهل الصين ، وغاية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم ، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعليه عند الموت لا يحى وصفاءه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمه الله عليه بقوله : التراب لا يأكل عمل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى .

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا مساعدة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال . فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزانة المزعمة غنى ، وتفاوت درجات السعادات بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تفاوتت درجات الأغنياء بحسب قلل المال وكثرته ، فالمعارف أنوار ولا يسمى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم تالله تعالى ﴿ يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقد روى في الخبر : « إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم أصفر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إلهام قدمه فيضيء مرقه ينطفيئ أخرى فإذا أضاء قدمه فضيء وإذا طفى تمام ، وسرورهم على الصراط على قدر نورهم ففهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كفضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه ، والذي أعطى نوراً على إلهام قدمه يحبو حبوا على وجهه ويديه ورجليه يمر يداً ويطلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص ^(١) » الحديث فهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان المالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضاً يضاهي قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السراج كلها لرجح ؛ فلئما آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمس ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم ، وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما يكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع

== يستهترون بذكر الله ، وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقي في الشعب « يشع الفكر منهم أنهم لما توفوا يوم القيامة خفا » ورواه هكذا الطبراني في المعجم الكبير من حديث أن البراءة دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره وكلامه ضيف . (١) حديث « إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل حتى يكون أسنم رجل يعطى نوره على إلهام قدمه ... الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

اتساع انظارها ولا يتكشف في نور السراج إلا زوايا خفية من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لتلوب المعارف . ولذلك جاء في الخبر « أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة ^(١) » ، كل ذلك عليه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لا تمتنع دخول النار ، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وإن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود في النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن ^(٢) » ، إشارة إلى تفضيل قلب المعارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام . وقد قال تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن المعارف دون المقلد . وقال عز وجل ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم ويميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف .

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ أوتُوا العلم درجات ﴾ فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعة درجة بين كل درجتين كابين السماء والأرض ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البه والعلوين لذوى الأبواب ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ^(٤) » ، وفي رواية « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ، فهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغاين إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والمحترمان ، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كمنظر التقي الذي يملك عشرة دراهم إلى التقي الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من ينحسر سطه من ذلك « ولاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب

المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يدري فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عورة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم وأمره الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ^(١) » ، وقال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ من الإشكالات والشبه « ويرزقه من حيث لا يحتسب » يعلمه

(١) حديث « يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله « ربع مثقال » . (٢) حديث « ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن » أخرجه الطبراني من حديث سلمان بنك في « الإنسان » ولأحمد من حديث ابن عمر « لا أعلم شيئا خيرا من مائة مثقال إلا الرجل المؤمن » وأساندا حسن (٣) حديث « أكثر أهل الجنة البه والعلوين لقوى لأبواب » يندم دون هذه الزيادة ولا يجد هذه الزيادة أصلا (٤) حديث « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وقد يندم في الأصل وكذا في الرواية الثانية . (٥) حديث « من عمل بما علم ... الحديث » يندم في الأصل دون قوله « ووفقه فيما يعمل » لم أرها .

علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من التشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه من سؤال التور فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم اعطني نورا وزدني نورا واجعل لي في قلبي نورا وفي قبري نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا حتى قال في شعري وفي بشري وفي لحي وعظامي ^(١) ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ أَفَنُشْرِحَ لَكَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة إن التور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس ، اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ^(٣) ، وقال علي رضي الله عنه : ما عندنا شيء أسره النبي صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبدا فهما في كتابه وليس هذا بالتعلم ^(٤) ، وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إنه الفهم في كتاب الله وقال تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو البرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر وقيق والله إنه الحق يقذفه الله في قلوبهم ويحميه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى ^(٥) ، وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ قَدْ يَبِينُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وروى الحسن بن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : العلم علان فعمل باطن في القلب فذلك هو العلم النافع ^(٦) ، وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن من أمي عديدين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم ^(٧) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا نَحْنُ ﴾ يعني الصديقين والمحدث هو الملمه ، والملمه هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لامن جهة المحسوسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْنُونَ ﴾ خصصها بهم وقال تعالى ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء ؟ بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوساطة تدليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدني الذي يفتتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولوجع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والأخبار الخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر وظاهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما تأسف رضي الله عنها عند موته : إنما هنا أخراك وأختاك ، وكانت زوجته

(١) حديث « اللهم اعطني نورا وزدني نورا ... الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : سئل عن قوله تعالى أفنشرح له صدره للإسلام ... الحديث . وفي المستدرک من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم . (٣) حديث « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم في العلم . (٤) حديث علي : ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في كتابه . تقدم في آداب تلاوة القرآن . (٥) حديث « اتقوا فراسة المؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم . (٦) حديث « العلم علان ... الحديث » تقدم في العلم . (٧) حديث « إن من أمي عديدين ومكلمين وإن عمر منهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « لقد كان فيها قبسكم من الأمم محدثون لأن بك في أمي أحد قله عمر » ورواه مسلم من حديث عائشة .

حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه في أثناء خطبته : يا سارية الجبل الجبل ! إذ انكشف له أن المدقة قد أشرف عليه لحذره لمعرفته ذلك ، ثم يلوح مره إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريق فظنرت إليها شررا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على جبينه أما علمت أن زنا المبين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت : أوحى به الله تعالى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . وعن أبي سعيد الخزاز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت في نفسي : هذا وأشباهه كل على الناس ، فناداني وقال (والله يعلم ما في أنفسكم فأخبروه) فاستغفرت الله في سرى فناداني وقال (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) ثم غاب عني ولم أره .

وقال زكريا بن خازم : دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي - وهو عليل وكان ذاهبا ولم يعرف له سبب يعيش به - قال : فلما كنت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بي يا أبا العباس رد هذه الحمة الدينية فإن الله تعالى ألقاها خفية . وقال أحد التقيين . دخلت على الشبل فقال مفتونا : يا أحمد فقلت : ما الخبر ؟ قال : كنت جالسا جارى بخاطري أنك مجنون ، فقلت : ما أنا بمجنون ، فمادني خاطري وقال : بل أنت مجنون ، فقلت : ما أنتع اليوم على شيء إلا دفعتني إلى أول فقير يلقاني ، قال : فما أستم المخاطر حتى دخل على صاحب مؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال : اجعلها في مصالحك ، قال : وقت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكثوف بين يدي من زين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدينارين ، فقال : أعطها المزين ، فقلت : إن جعلتها كذا وكذا ، قال : أوليس قد قلنا لك إنك مجنون ؟ قال : فناولتها المزين فقال للمزير : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا ، قال : فرميت بها في دجلة وقلت : ما أترك أحد إلا أدله الله عز وجل . وقال حمزة بن عبد الله المولى : دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا أكل في داره طعاما ، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال : قصده مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستورا فقلت في نفسي : ضاعف وقال إبراهيم الرقي : قصده مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكذب يقرأ الفاتحة مستورا فقلت في نفسي : ضاعف سرفق فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدي سيع فمديت إلى أبي الخير وقلت : قصدي سيع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تعرض لضيقاني ؟ فتشجى الأسد فظهرت فلما رجعت قال لي : اشتغلت بتقويم الظاهر فخطمت الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخطفنا الأسد .

وما حكي من نفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائم يخرج عن الحصر بل ما حكي منهم من مشاهدة الحضر عليه السلام والسؤال منه ، ومن سماع صوت الهاف ، ومن فزح الكرامات عاراج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل التاطع الذي لا يقدر أحد على جرده أسرار أحدهما : بحجاب الرقيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب ولذا جاز ذلك في الترم فلا يستحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق الترم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكمن من مستيقظ غافض لا يسمع ولا يبصر لا يشتغل بنفسه 1 والثاني : لإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن ولذا جاز ذلك النبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ الثاني عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا (٤ - ليا . علوم الدين - ٣)

لا يسمى نبيا بل يسمى وليا، فن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لاحالة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفس في الروح والوحى ، فإذا أفرجها جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التمل ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة هيبيل إليه فهذا ما ينبئ على حقيقة ما ذكرناه من عجب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثل الموحى إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلتقتصر على ما ذكرناه فإنه كاف للاستبانات على المجاهدة وطلب الكشف منها . فقد قال بعض المكاشفين ظهر لي الملك فسأني أمني عليه شيئا من ذكرى الحقي عن مشاهدتي من التوحيد وقال : ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل فقلت : ألسنا كتبناك الفرائض ؟ قال : بلى ، قلت : فيك شيئا ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض السالكين : سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شاه فقال : ما تقول رحلتك ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال : ما تقول رحلتك الله ؟ ثم أطرق لي صدره وقال : ما تقول رحلتك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعت فسألت عن التفاته فقال : لم يكن عندي في المسألة جواب عتيده ، فسألت صاحب الشهاب فقال لا أدري ؛ فسألت صاحب النجاشي وهو أعلم منه فقال لا أدري ، فنظرت إلى قلبي وسألته لحدني بما أجبته فإذا هو أعلم منها . وكان هذا هو معنى قوله عليه السلام : إن في أمي محدثين وإن عمر منهم . وفي الآخر : إن الله تعالى يقول : أيما عبد اطلمت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه وعادته وأنيسه . وقال أبو سليمان البدائي رحمه الله عليه : القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلفة فأبواب فتح له عمل فيه ؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملا الأعلى ، وابتفتح ذلك الباب بالمجاهدة والروح والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أسراء الأعداء : احفظوا ما تسمعون من الطغيين فإنهم ينجلوهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيا الله لهم من الحقي . وقال آخر : لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال امرأة منصوبة تحت جناح الصور المختلطة فتترامى فيها صورة بعد صورة ولا تخطر عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما يدخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا حاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر وإن كعب عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال يقتل القلب من حال إلى حال آخر . والمقصود أن القلب في التنوير والتأثر دائما من هذه الأسباب . وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الحواطر ؛ وأعي الحواطر ما يحصل فيه من الأفكار ، والأذكار ، وأعي به إدراكه علومها إما على سبيل التجرد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى حواطر من حيث إنها تنحدر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والحواطر هي الحركات والإدابات

فإن الشية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المتوى بالبال لاعامة ، فبدأ الإصمان الحواطر ، ثم الحاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك الشية ، والشية تحرك الأعضاء . والحواطر المحركة للرغبة تقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعني إلى ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما عاطران مختلفان فافترا إلى اثنين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما ، والخاطر الذموم أعني الداعي إلى الشر يسمى وسواسا ، ثم إنك تعلم أن هذه الحواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فهما استقارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستقارة .

وكذلك لا توار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا ، والقلب الذي يتأثر به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذي به يتأثر لقبول وسواس الشيطان يسمى لغواء وحذلانا ، فإن للمعانى المختلفة فتقتر إلى أسأى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفادة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالتحشاه ؛ والتخويف عند الهام بالخير بالفقر . فالوسوسة في عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالتحشاه ؛ والتخويف عند الهام بالخير بالفقر . فالوسوسة في مقابلة الإلهام ، والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الحذلان . وإليه الإشارة بقوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) فإن للوجودات كلها مقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجادب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « في القلب لثان لمة من الملك إيمان بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولة من العدو إيمان بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستد بالله من الشيطان الرجيم - ثم تلا قوله تعالى (الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) (١) الآية . وقال الحسن إنما هما صان يحولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو ، فرحم الله عبدا وقف عند همه فإكان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده .

ولتجادب القلب بين هذين السلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) » ، فانه تعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقلب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقلب والترديد كما أنك تتماطى الأفعال بأصابعك . والله تعالى يفعل ما يفعل باستخار الملك والشيطان وهما مستخران بقدرته في قلب القلوب ، كما أن أصابعك مسخرة لك في قلب الأجسام مثلا . والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يرجع أحدهما على الآخر ، وإنما يرجع أحد الجانبين بانباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن انبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عيش الشيطان ومعده لأن الهوى هو مرضى الشيطان ومرمته ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتبته بأخلاق اللائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر لللائكة ومهيأ لهم ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ما منكم

(١) حديث « في القلب لثان لمة من الملك إيمان بالخير ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى في الكبرى من حديث ابن مسعود (٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين ... الحديث » تقدم

من أحد إلا وله شيطان ، قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال : « وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير ^(١) ، وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تتبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر فالشيطان المتدفع بها لا يأمر إلا بالخير . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان بجلا فوسوس ، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك والمهم . والتطارد بين جندی للملايكة والشياطين في معركة القلب حاتم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا . وأكثر القلوب قد فتحتا جنود الشياطين وتملكتها فامتلات بالسواوس الناعية إلى إثارة العاجلة وإطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى . ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتغلبة القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر للملايكة . وقال جابر بن عبيدة المدوني : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به الصوص فإن كان فيه شيء عالجه وإلا مضوا وتركوه . يعني أن القلب الخالي من الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلب الله عليه الشيطان . وقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وهو إشارة إلى أن من الهوى لإلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو ابن العاص لثبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقرآني فقال : « ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتمهل على يسارك ثلاثا » قال : ففعلت ذلك فأذهب الله عني ^(٢) .

وفي الخبر « إن للوثرة شيطانا يقال له الولمان فاستنيدوا بالله منه ^(٣) » ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى ما يوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انطمس منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجزأ أيضا أن يكون بجلا للشيطان ، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بعنقه ومنه جميع وسواوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرى عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم والاحول والافترة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ قال : هو متبسط على القلب ؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى وسوسة الشيطان كالتطارد بين الثور والظلام وبين الليل والنهار ، ولتضادها قال الله تعالى ﴿ استمعوا لعليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله ﴾ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى اتقم قلبه ^(٤) » ، وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة لم يتعلم يتب مسيح الشيطان وجهه يده

(١) حديث « ما منكم من أحد إلا وله شيطان ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث ابن أبي العاص : أن الشيطان حال بيني وبين صلاتي ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص .

(٣) حديث : أن الوسوسة شيئا يقال له الولمان ... الحديث « أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال شريب وليس استاده بالقرى عند أهل الحديث . (٤) حديث أنس « أن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه مكاييد الشيطان وأبو يعلى الواسلي وابن عدى في الكامل وضحه .

وقال : بأبي وجه من لا يفلح ^(١) .

وكما أنَّ الشهوات بمنزلة بلع ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحيطه بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ بِجَرَى الدَّمِ فَضَيَّقُوا مَجَارِيَهُ الْجَوْعُ ^(٢) . وذلك لأنَّ الجوع يكسر الشهوة ويجري الشيطان الشهوات . ولأجل اكتناف الشهوات لقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس (لَأَقْعِدَنَّ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) وقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ لَانَ آدَمَ بِطَرَقٍ فَقَدْ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ : أَتَسْلِمُ وَتَتَرَكُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟ فَمَضَاهُ وَأَسْلَمَ ، ثُمَّ قَدْ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ : أَتَهَاجِرُ أَرْضَكَ وَسَمَائِكَ ؟ فَمَضَاهُ وَهَاجَرَ ، ثُمَّ قَدْ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ : أَتَجَاهِدُ وَهُوَ تَلَفَ النَّفْسَ وَالْمَالِ فَتَقَاتِلُ فَتَقْتُلُ فَتَسْكُحُ لِنِسَاؤِكَ وَيَقْسِمُ مَالُكَ ، فَمَضَاهُ وَجَاهَدَ ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَاتَّكَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ ، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للجهاد أنه يقتل ويتكسح لنسائه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة . فإذا الوسواس معلوم بالمعاينة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولا يتصور أن ينفك عنه آدمي وإنما يختلفون بعصبانته ومتابعتها ، ولذلك قال عليه السلام : « ما من أحد إلا وله شيطان ^(٤) » .

فقد أنضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والترقيق والتخللان فيبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف وأوليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم ؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المأملة . بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في نياحه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لوئها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لإحالة ، وعلم أنَّ الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدو فقد عرف العدو لإحالة فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَ لِيكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ) وقال تعالى (أَلَمْ أَعِهدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) فينبغي العبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكته . نعم ينبغي أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كافى للمؤمن . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته - نعوذ بالله منه - وحقيقة اللاتكليف فلذلك ميدان العارفين المتغلفين في علوم المكاشفات فلا يحتاج في علم المأملة إلى معرفته . نعم فينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا ينبغي كونه وسوسة ، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إلهاما ، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان ؟ فإن من مكاييد الشيطان أن يمرض الشرقي معرض الخير ، والغريب في ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لا يقدر على دعاتهم إلى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوط : أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل ملكى من الغفلة قد أشرقوا على النار ؟

(١) حديث ابن وخطاب : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يقب مسح الشيطان بيده وجهه وقال : بأبي وجه من لا يفلح ، لم أجد له أصلا . (٢) حديث : أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . (٣) حديث : أن الشيطان قد لَانَ آدَمَ بِطَرَقٍ . أخرجه النووي من حديث سيرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح . (٤) حديث : « ما من أحد إلا وله شيطان ... الحديث » .

أما لك رحمة على عباد الله تتقدم من المعاصب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الحق إلى الصراط المستقيم ؟ وهو لا يزال يتوزر ذلك في نفسه ويستجوزه بلطف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ، ثم يدعو بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتنصع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يمتدوا إلى الحق . ولا يزال يتوزر ذلك عنده وهو في أمانته يؤكد فيه شوائب الرياء ويقول الحق ولادة الجاه والتميز بكثرة الاتباع والعلم والنظر إلى الحق بين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ؛ فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول ، فهلاك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِقَوْمٍ لَا خِلَافَ لَهُمْ** ^(١) . . . **وَدِ الْإِلَهِ اللَّهُ** فقال له : قل لا إله إلا الله فقال : كلمة حق ولا أقولها بقلوك . لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تنتهي وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الحق من يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي المكشوفة .

وسند ذكر جملة من مكاييد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيس في البلاد والعباد لاسيما في المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها . كل ذلك إغماضا لتلبيسات الشيطان ومكايده .

الحق على العبد أن يقف عند كل م ينظر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمين النظر فيه بين البصيرة لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا**) أي رجعوا إلى نور العلم (**فَإِذَا هُمْ بِمَرْصُومٍ**) أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإغماض بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلظه ويتجمل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى (**وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ يُهَكِّدُونَ**) قيل هي أعمال غثوها حسنت فإذا هي سيئات . وأغض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكاييد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أمهله الحق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتفسد عداوته وطريق الاحتراز عنه . ولا ينجي من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر . وأبواب الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل السموات وعلاقات الدنيا . والخلة في بيت مظلم تسد باب الحواس . والتجود عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخييلات الجارية في القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى . ثم إنه لا يزال يجاذب القلب ويتنازع ويليه عن ذكر الله تعالى فلا يذمن مجاهدته ، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتصل أحد من الشيطان مادام حيا . نعم قد يقوى بحيث لا يتقاده لا يدفع عن نفسه شره بالمجاهدة ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجري في بدنه . فإذا مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تتلقا وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها - كآسيات شرها - ومهما كان الباب مقفولاً والمدفوع غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة .

(١) حديث « **إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خِلَافَ لَهُمْ** » أخرجه السائق من حديث أنس بإسناد جيد . (٢) حديث « **إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ** » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم .

قال رجل الحسن يا أبا سعيد أتيتم الشيطان ؟ فقسم وقال : لو نام لاسترخا . فإذا نال خلاص المؤمن . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته . قال صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن يبغي شيطانه كما يبغي أحدكم بغيره في سفره ^(١) ، وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول . وقال قيس بن الحجاج . قال لي شيطانى ، دخلت عليك وأنا مثل الجور وأنا الآن مثل المصفور ، قلت : ولم ذلك ؟ قال : تدينى بذكر الله تعالى . فأهل التقوى لا يتفرد عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة ، أعنى الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التى تقضى إلى المعاصى الظاهرة ، وإنما يمتثلون في طرقه النامضة فلمهم لا يمتدون إليها فيحسسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ والمثلك أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد ، وقد اتبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالسافر الذى يبق في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بالعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة . والعين البصيرة ههنا هى القلب للصنى بالتقوى . والشمس المشرقة هو العلم التزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدى إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا (وأن هذا صراطى مستقيما فابعوه ولا تتبعوا السبل) لتلك الخطوط ^(٢) فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه .

وفد ذكرنا مثالا للطريق النامض من طرقه وهو الذى يتخذه به العلماء والعباد المسالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصى الظاهرة ، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يفتنى إلا أن يعنط الأذى إلى سلوكه . فوذلك كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان راهب في بني إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية تخلفها وألقى في قلب أهلها أن دراما عند الراهب ، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يرألوا به حتى قبلها ، فلما كانت عنده ليما لها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى وأقبحا لحملت منه ، فوسوس إليه وقال : الآن تنفضن بأنيك أهلها فاقبلها فإن سألوك فقل ماتت ، فقبلها ودفنها ، فأبى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أجلبها ثم قتلها ودفنها ، فأبى أهلها فسألوه عنها فقال : ماتت ، فأخذوه ليقبلوه بها فأبى الشيطان فقال : أنا الذى خفقتها وأنا الذى ألقيت في قلوب أهلها فاطعن تنج وأخلصك منهم قال : بماذا ؟ قال : أجدد لى مجدين ؛ فسجد له مجدين فقال له الشيطان : لى برى منك . فهو الذى قال الله تعالى فيه (كثر الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال لى برى منك) ^(٣) فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر ، وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر حين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنه فيحسن ذلك في قلبه يبغي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجهز البعض إلى البعض بحيث لا يجد عيصا : فعند ذاك من تنصيص أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ^(٤) .

(١) حديث : إن المؤمن يبغي شيطانه ... الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وفيه ابن لينة .

(٢) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال : هذا سبيل الله ... الحديث . أخرجه النسائي في الكبرى والمالك وقال صحيح الإسناد . (٣) حديث : كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية خلفها وألقى في قلوب أهلها أن دراما عند الراهب ... الحديث بطوله في قوله تعالى (كثر الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) ورواه ابن أبي شيبة في الشيطان وابن مردويه في تنبيهه في حديث عبيد بن أبي ربيعة مرسل والحاكم نحوه موقوف على ابن أبي طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطين في مسنده من حديث علي . (٤) حديث : من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . متفق عليه من حديث النعمان ابن بدير . من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع . لفظ البخارى .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أنَّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلته ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه ، لحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية بحرى اللروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فن أبوابه العظيمة : النضوب والشهوة ؛ فإنَّ النضوب هو غول المقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كإيلبب الصبي بالكرة : فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسائه وكلبك تكلبا وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فأشفع لى إلى ربى أن يتوب على ، فقال موسى : نعم ؛ فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه : أد الأمانة ، فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن يتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك امرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ؟ ثم قال له : يا موسى إن لك على حقا بما شفعت لى إلى ربك فاذا كرتى عند ثلاث لا أهلكك فهين : اذ كرتى حين تنضب فإن روى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك بحرى الدم : اذ كرتى إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه فادى يدرى ما يصنع ، واذ كرتى حين تلقى الزحف فإنى أتى ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يول ، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات حرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتكك بها وأقتنها بك . فقد أشار بهذا إلى الشهوة والنضوب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لأدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله . وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال : أخذه عند النضوب وعند الهوى ، نقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال : الحدة فإن العبد إذا كان حديدا فليناه كما يقبل الصبيان الكرة : وقيل : إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ؟

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فهما كان العبد حريصا على كل شئ أعماه حرصه وأعمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حيك الشئ يعمى ويصم »^(١) ، ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاء الحسد والحرص لم يعصر خبيثته يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وأفاشا . فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى ، فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك ، فقال له نوح : أخرج منها يا عدو الله فإنه لك لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلكك بين الناس وسأحدثك منهن ثلاث ولا أحدثك بالثنتين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح : أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين ، فقال له نوح :

(١) حديث « حيك الشئ يعمى ويصم » أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .

ما لا فتان ؟ فقال : هما اللتان لا تكدبان هما اللتان لا تخلفان بهما أهلك الناس ؛ الحرص والحسد ، فبالحسد لعت وجعلت شيطاناً رجياً ، وأما الحرص فإنه أيسر لأدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص .

ومن أبوابه العظيمة : الشيع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً ؛ فإن الشيع يقوّ الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له : يا إبليس ما هذه للمعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال : فهل فيها من شيء ؟ قال : ربما شبت فتفتلك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال : لا ، قال له على أن لا أملاً بعنى من الطعام أبداً ، فقال له إبليس : وقله على أن لا أنصح مسلماً أبداً . ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة ؛ أولها : أن يذهب خوف الله من قلبه . الثاني : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شياع . والثالث : أنه يشغل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلاماً بالحكمة لا يجده رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس : أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعو إلى عارة الدار وتزيين سقفها وحيطانها وترسيع أثنيها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقفه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلا يزال يودبه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان وأتباع الهوى ويغشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر لمود بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع في الباس : لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزال الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبس حتى المطموع فيه كأنه معبود فلا يزال يتشكر في حيلة التودد والتعجب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله التناء عليه بما ليس فيه والمداينة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس يمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعليك به فقال : لا حاجة لي به . قال : انظر فإن كان خيراً أخذت وإن كان شراً رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة ؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت ؟ فإني أملكك إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة : المجلة وترك التثبت في الأمور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « المجلة من الشيطان والثاني من الله تعالى ^(١) » ، وقال عز وجل (خلق الإنسان من عجل) وقال تعالى (وكان الإنسان عجولاً) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد البصيرة والمعرفة ، والبصيرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والمجلة تمنع من ذلك ، وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري . فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أمت الشياطين إبليس فقالوا : أصبحت لآسام قد نكست رؤوسها فقال هذا حادث ، مكانكم ! فطار حتى أتى خافق الأرض فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبياً قد ولد بالبراحة ما حدث أثني قط ولا رخصت إلا وأنا حاضرها إلا هذا ، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتروا بني آدم من قبل المجلة والحقبة . ومن أبوابه العظيمة : الدرام والفتانير وسائر أصناف الأموال من الروض والدعاب والمقار ؛ فإن كل ما يربد

(١) حديث « المجلة من الشيطان والثاني من الله » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بقفظ الأئمة وقال حسن .
(هـ) — لخواص علوم الدين — (٣)

على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبسط من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيها ما وجد بل يحتاج إلى تسعة مائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً ، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً وقد صار محتاجاً إلى تسعة مائة ليشتري داراً يعمرها وليشتري حمارية وليشتري أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به . وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواء . قال ثابت البناني لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشيأطينه : لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ماندرى ؟ قال : أنا أتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال : قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قال : لجل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون عابثين ويقولون : ما بعثنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمضي ذلك ، فقال لهم إبليس : رويداً بهم صلى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا (١) . وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوماً حجراً فربه إبليس فقال : يا عيسى رغبت في الدنيا ؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرى به من تحت رأسه وقال : هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجراً يتوسد به عند التوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر ، يمكن أن يتوسده ؟ فلا يزال يدعو إلى التوم وإلى أن يتوسده ، ولو لم يكن ذلك لكان لا يضطر له ذلك ببال ولا تحرك رغبته إلى التوم . هذا في حجر فكيف بمن يملك الخاد الميثرة والفرش الوطية والمنزهات الطيبة في ينشط لعبادة الله تعالى ؟ .

ومن أبوابه العظيمة . البخل وخوف الفقر ؟ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادعار والكفر والمذئاب الآثم وهو الموعود للكافرين كما نطق به القرآن العزيز . قال غيثة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول : ما غلبني ابن غلبة فلن يغلبني على ثلاث ، أن أمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، ومنعه من حقه . وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن يربه ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هي معشش الشياطين . وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجلاً فجعل لي بيتاً قال الحرام ، قال : اجعل لي مجلساً قال الأسواق وجميع الطرق ، قال : اجعل لي طعاماً قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لي شرباً قال كل مسكر ، قال : اجعل لي مؤذناً قال المزمار ، قال : اجعل لي قرآناً قال الشعر ، قال : اجعل لي كتاباً قال الرشم ، قال : اجعل لي حديثاً قال الكذب ، قال : اجعل لي مصايد قال النساء (٢) .

ومن أبوابه العظيمة التوصل : التمسب للنزاهة والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستعقار ، وذلك مما يهلك المباد والفساق جميعاً فإن العلم في الناس والاستغفال بذكر قصصهم صفة مجبولة في

(١) حديث ثابت : لما بعث صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشيأطينه . لقد حدث أمر ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان هكذا مرسل . (٢) حديث أبي أمامة : « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجلاً فجعل لي بيتاً قال الحرام ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً .

الطبع من الصفات السبية ، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبيعته غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهوسا في اتباع الشياطين ، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاطي لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له إذ موالى أبي بكر من أخذ سيله وسار بسيرته وحفظ ما بينه وبينه ، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا ينيه فأتى لهذا الفضول أن يدعى ولاده وجه ولايسير بسيرته ؟ وترى فضوليا آخر يتعصب لمل رضي الله عنه وكان من زهد على وسيرته أنه ليس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسخ ، ونرى الفاسق لا يلبس الثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة ، وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه ويتنتب شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاده فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمتحذرون للمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أوليائه الله تعالى ؟ لابل لو كشف النطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجرؤوا على اللسان ذكرهم مع فتح أنفاسهم ؟ ثم إن الشيطان يحيل إليهم أن من مات عبدا لأبي بكر وعمر فالتار لاثوم حوله ، ويحيل إلى الآخر أنه إذا مات عبدا لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه (١) « اعملي فإني لأغني عنك من الله شيئا (٢) » ، وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء . وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس بسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له : كان مذهبي العمل دون الحديث بالسان ، وكان الحديث بالسان لأجل العمل لا لأجل الحديث ؛ فبالك عاقلتي في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا ؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أملاكه أكثر العالم ، وقد سلت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستبتياع حرصهم ولم يتسكنوا من الاستبتياع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينهزموا على مكاييد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فآسروا الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فآله تعالى يتوب علينا وعليهم ، وقال الحسن - بلننا أن إبليس قال : سؤلت لامة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فؤلت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء . وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها ؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبدالله بن مسعود . جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقبهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون . وليس إمام يريد . فقام الذين يذكرون الله تعالى

(١) حديث « فاطمة بضعة مني » متفق عليه من حديث المسود بن مخرمة . (٢) حديث « اني لأغني عنك من الله شيئا » قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم

ومن أبوابه حل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكير في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يلينها حدّ عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين ، أو يخيّل إليهم في الله تعالى خيالات يتشالّى عنها بصيراً أحدهم كما فرأى أو مبتدعاً وهو به فرح مسرور مبتهيج بما وقع في صدره ، يظن ذلك هو للمعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشدّ الناس حفاة أقوام اعتقاداً في عقل نفسه وأثبت الناس عقلاً أشدّهم انهماماً لنفسه وأكّرم سؤالاً من العلماء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل أمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ^(١) » ، والتبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يحمده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويستغفروا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعالمى لو يزنى ويسرق كان خيراً له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إيمان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري ، كن ركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالمعتقد والمذاهب لا تحصر ولما أردنا بما أوردناه للمثال.

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعث الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالنسبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتراخى في إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه . وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للظن فقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا مواضع الإثم ^(٢) » حتى احتذر هو صلى الله عليه وسلم من ذلك . روى عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً في المسجد قالت : فأثيبت فتحدثت عنده فلما أسيئت انصرفت فقام يمشي معي فر به رجلاً من الأنصار فسلمنا ثم انصر فأنفادها وقال « إنما صفية بنت حيي » فقالا يارسول الله ما نظن بك إلا خيراً ، فقال « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من المسجد وإني خشيت أن يدخل عليكما ^(٣) » فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فخرسهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعملهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الزورع المعروف بالدين في أحواله ؟ فيقول : مثلى لا يظن به إلا الخير إجماعاً منه بنفسه . فإن أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كلية ولكن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر . فبما رأيت إنساناً يسمى الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه ، ولأنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب للمآذير وللتناقض يطلب العيوب ، وللؤمن سلم الصدر في حق كافة الخلق . فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبى على غيره فليس في الأدنى صفة

(١) حديث عائشة « ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله ... الحديث » أخرجه أحمد والبخاري وأبو يعلى في مسانيدهم ورواه تواتر وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اتقوا مواضع الإثم » لم أجد له أصلاً . (٣) حديث « سبية بنت حيي » : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفاً فأثيبت فتحدثت عنده ... الحديث . وفيه « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » متفق عليه .

مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

ه فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك بما يطول ذكره . وغرضنا في هذا الرّبع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد على ما سيأتي شرحه - نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان الشيطان بالقلب جتيازات وخطرات ولم يكن لها استقرار ويمتعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد حارة القلب بالقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ خصص بذلك المتقن فقل الشيطان كمثل كلب جالس يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه يذجر بأن يقول له : أخشأ ، فيجرد الصوت يذفقه . فإن كان بين يديك لحم وهو جالس فإنه يهجم على اللحم ولا يتدفع بمجرد الكلام ، فأقلب الحال في عتوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويادته فيستقر الشيطان في سوياء القلب . وأما قلوب المتقين الحالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لحلوها بالغلبة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ فاستمذم بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر .

قال أبو هريرة : التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهمين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : مالك مهزول ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأكل جائلاً وإذا شرب سمى الله فأكل عطشاناً ، وإذا لبس سمى الله فأكل عرياناً ، وإذا أدمن سمى الله فأكل شعثاً ، فقال : لكني مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك فأنا أشارك في طعامه وشرابه ولباسه . وكان عبد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدواً بصيراً بعبودنا يرانا هو وقيله من حيث لا نراه اللهم فأبسه منا كما أبسته من رحمتك وقطعه منا كما قطعت من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير . قال : فتمثل له إبليس يوماً في طريق المسجد فقال له : يا ابن واسع هل تعرفني ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال : وما تريد ؟ قال : أريد أن لا تلم أحد هذه الاستمادة ولا أنمرض لك ، قال : والله لا أضمنها من أراد فاضنع ما شئت . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتوعد فلا يذهب ، فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له : قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يليج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يمرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه ^(١) وقال الحسن : نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم أنا ابني الشيطان فخانني ثم خانني فأخنت

(١) حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى : كان الشيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعة من نار ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان هكذا مرسلًا ولما في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلًا ورواه ابن عبد البر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زبارة عن عياض الشامي عن ابن مسعود ورواه أحمد والبخاري من حديث عبد الرحمن بن جبير وبطلان له : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين ؟ فذكر حمود (٢) حديث الحسن : نبئت أن جبرائيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتاً من الجن يكيدك ... الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في مكابد الشيطان هكذا مرسلًا

صلته فوالذي بعثي بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريقا في المسجد ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما سلك عمر جبالا سلك الشيطان لجأغرا الذي سلكه عمر ^(٢) ، وهذا لأن القلب كانت مطهرة عن سرعي الشيطان وقرته وهى الشهوات فهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كن يطعم أن يشرب دواء قبل الاحتيا والمعدة مشغولة بتهيئة الأطعمة ، ويطعم أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتيا وتخليئة المعدة ، والذكر الدواء والتقوى احتيا وهى تحل القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تدفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وقال تعالى (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان ^(٣) ولم تفهم أن أكثر عوومات الشرع خصوصه بشروط قلها علماء الدين فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كاليمان ، وتأمل أن تمتد ذكرك وعبادتك الصلاة : فراق قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب الماعدين وكيف يتم بك في أودية الدنيا وممالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيت من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا يردم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت ؟ فالصلاة حك القلب فيها يظهر عاصيا ومساريا ؛ فالصلاة لاقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كأن الدواء قبل الاحتيا ربما يزيد عليك الضرر ، فلو أردت الخلاص من الشيطان فقم الاحتيا بالتقوى ثم أرفده بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صدقته في السر ؛ أى أنت مطيع له . وقال بعضهم : يا عجبا لمن يعصى الحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بظلمانه . وكما أن الله تعالى قال (ادعوني استجب لكم) وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لقد شرط الذكر والدعاء .

قيل لأبراهيم بن آدم : ما بالنا ندعوه فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى (ادعوني استجب لكم) ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذى أماتها ؟ قال : ثمان خصال ؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده ، وقتلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقتلتم نفشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى (إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا) فواطأوه على المصاى ، وقتلتم نخاف النار وأرهمتم أبدانكم فيها ، وقتلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم واقرشتم عيوب الناس أمامكم فأصغلتكم ربكم ، فكيف يستجيب لكم ؟

« فإن قلت فالداعي إلى المصاى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فأعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في العامة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته . كل البقل يوقى ولا تسأل عن المبقلة ، ولكن الذى

(١) حديث « إن الشيطان فتازعنى ثم نازعنى فأخذنى بحقه .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الثعلبي مرسلا هكذا ولا يخارى من حديث أبي هريرة « أن عمر بن الخطاب قال قلت لرسول الله - ﷺ - أكلت لحمي - ليطلع على صلاتي فأمكنني أقمته ... الحديث » والسنائي في الكبرى من حديث عاتقة : كان يصلى فأباه الشيطان فأخذ نصر عنقه قال حتى وجدت برد لما فعلت بدي ... الحديث » واستناد جيد . (٢) حديث « ما سلك عمر جبالا سلك الشيطان لما فيه له » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص فقط . (٣) الحديث الوارد بأن الذكر يطرده الشيطان . تقدم

يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار : أنهم جنود جندة وأن لكل نوع من الماعى شيطانا يخصه ويدعوا إليه فأما طريق الاستبصار فذكره بطول ويكفيك القدر الذى ذكرناه وهو أن اختلاف المسليات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور التار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال بجده : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : بهر والأعور وميسوط وداسم وزنبور . فأما بهر : فهو صاحب المصائب الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية . وأما الأعور : فإنه صاحب الزنا يأمر به وبزنته . وأما ميسوط : فهو صاحب الكذب . وأما داسم : فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالميب عندة ويفضبه عليهم . وأما زنبور : فهو صاحب السوق فيسببه لا يزالون متظللين . وشيطان الصلاة يسمى خنزب^(١) وشيطان الوضوء يسمى الولمان^(٢) وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة .

وكأن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة . وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكل بالؤمن مائة وستون ملكا يذنون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك ؛ للبصر سبعة أملاك يذنون عنه كما يذب الذباب عن فصمة العسل في اليوم الصائف ، وما لم يبدل لكم لرايتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغراه ، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفه عين لاشتغفته الشياطين^(٣) .

وقال أيوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر ابن عبد الله : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يارب هذا الذى جعلت بيني وبينه عداوة إن لم تثنى عليه لا أقوى عليه ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك ، قال : يارب زدنى ، قال : أجرى بالسبي سبيته بالحسنة عشرا إلى ما أريد ، قال : رب زدنى ، قال : باب التوبة مفتوح مادام في الجسد الروح ، قال : إيليس : يارب هذا العبد الذى كرمته على إن لم تثنى عليه لا أقوى عليه ؟ قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد : قال : يارب زدنى ، قال : تجرى منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا ، قال : رب زدنى ، قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبي البرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وصقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل) وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله^(٤) ، وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إيليس تشمل ليبيح بن زكريا عليها السلام وقال : إنى أريد أن أنصلك ، قال : لا حاجة لي فنصلك ولكن أخبرني عن بني آدم قال : هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا فقبل على أحدهم حتى نفتكه وتتمكن منه

(١) حديث « إن شيطان الصلاة يسمى خنزب » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي التماس وقد تقدم أول الحديث

(٢) حديث « إن شيطان الوضوء يسمى الولمان » تقدم وهو عند الترمذى من حديث أبي .

(٣) حديث أبي أمامة « وكل بالؤمن مائة وستون ملكا يذنون عنه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف (٤) حديث أبي البرداء « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصرا : في الجن فقط ثلاثة أصناف . من حديث أبي لمبة الحنفى وقال صحيح الإسناد .

فيترجع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركا منه ثم نعود إليه فيعود فلا نحن نبأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء . وأما الصف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم تقلبهم كيف تشاء قد كفونا أنفسهم . وأما الصف الثالث فهم مثلك معصومون لا تقدر منهم على شيء .

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دين البعض ، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فأعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتها ولا تدرك حقيقة صورتها بالمشاهدة إلا بأوار النبوة ، فأرأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين ^(١) وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالقيع وظهر له مجردا فسادا لافق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدي غالبا ^(٢) فكان يراه في صورة دحية الكلبي ^(٣) وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكشف أهل المكاشفة من أبواب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة ، فيراه بينه وبينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما يشكف في المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رتبة لا يعمه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس . ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة ، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جائم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الحيفة مثال الدنيا . وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لا يذو وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر . وقد بينا أن القلب له وجهان : وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي ، وجه إلى عالم الشهادة . فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التليس . أما الصورة التي تحصل في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا عاكية للصفة وموافقة لها ، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها ، فلا جرم لا يرى المعنى التيسع إلا بصورة قبيحة ، فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وشعير وغيرهما ، ويرى الملك في صورة جملة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني وعاكية لها بالصدق ، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث ، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعمير . وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المأملة . وإنما المقصود أن تصدق

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل في صورته فلا مرتين أخرجه الشيطان من حديث عائشة : وسئل هل رأى محمد ربه ؟ وفيه : وليكنه رأى جبريل في صورة مرتين . (٢) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة الآدي غالبا أخرجه الفيضان من حديث عائشة وسئل : فأين قوله ثم هنا فتدل قالت ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل الحديث ... » (٣) حديث : أنه كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي أخرجه الشيطان من حديث أسامة بن زيد : أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة « من هذا » قالت : دحية . الحديث

بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك ، تارة بطريق التثليل والمحاكاة كما يكون ذلك في التورم ، وتارة بطريق الحقيقة . والأكثر هو التثليل بصورة محاكية للمنى - هو مثال المنى لأعين المنى - إلا أنه يساعد بالعين مشاهدة محقة ويفرد بمشاهدة المكاشف دون من حوله كالتأميم .

بيان ما يؤخذ به العبد من وساوس القلوب وهما وخراطرها

وقصودها وما يعنى عنه ولا يؤخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسة العلماء بالشرح . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « عن أي متحدث به نفوسهم ما لم يتكلم به أو تعمل به »^(١) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله آلى يقول للشفعة : إذا هم عبيد بيئته فلا تكتبوها فإن عملها فكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فكتبوها حسنة فإن عملها فكتبوها عسرا »^(٢) ، وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهما بالسيئة . وفي لفظ آخر : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت » وفي لفظ آخر ، « وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنما أغفرها له ما لم يعملها ، وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخاة فقوله سبحانه (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويمدب من يشاء) وقوله تعالى (ولا تحف باليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعنى عنه وقوله تعالى (ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتسبها فإنه آثم قلبه) وقوله تعالى (لا يؤخذكم الله بالغف في آياتكم ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم) والحق عندنا في هذه المسألة لاوقف عليه ما يقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح .

فنقول . أول ما يرد على القلب الحاطر ، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت إليها لرأى . (والثاني) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع وهذا يتولد من الحاطر الأول ونسبه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . (والثالث) حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تلبث الهمة والثبات ما لم تدفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء وأخوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الحاطر والميل . (الرابع) تصميم العزم على الالتفات وحزم النية فيه وهذا نسيجهما بالفعل ونية وقصدا ، وهذا المهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصر القلب إلى الحاطر الأول حتى طالبت مجاذبته للنفس تأكد هذا المهم وصار إرادة مجرومة فإذا انجزمت الإرادة فرميا يتدم بعد الجرم فيترك العمل وربما يغفل بمارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعرفه طائق فيتعذر عليه العمل .

فهنا أربع أحوال القلب قبل العمل بالمحاربة : الحاطر وهو حديث النفس ، ثم الميل ، ثم الاعتقاد ، ثم المهم . فنقول : أما الحاطر فلا يؤخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان

(١) حديث « عن لأمي عما حدث به نفسي » متفق عليه من حديث أبي هريرة « وإن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ... الحديث » (٢) حديث أبي هريرة « يقول الله إذا هم عبيد بيئته فلا تكتبوها عليه ... الحديث » قال المصنف أخرجه مسلم والبخاري في الصحيحين قلت هو كما قال والمصنف لم يلقها واقعة أعلم قدمه في الفكر .

أيضا تحت الاختيار، وما للرادان بقوله صلى الله عليه وسلم «عنى عن أمتى ما حدثت به نفوسها» فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يقبها عزم على الفعل، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة، قال: «مهلا إن من سننى التكاح»، قال: نفسى تحدثنى أن أحب نفسى، قال: «مهلا خضاه أمتى دواب الصيام»، قال: نفسى تحدثنى أن أترهب، قال: «مهلا رهبانية أمتى الجهاد والحج»، قال: نفسى تحدثنى أن أترك اللحم، قال: «مهلا فإنى أحب ولو أصبته لا كنته ولو سألت الله لأطعمنيه^(١)»، فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وبم بالفعل.

وأما الثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل فهذا ترتيب أن يكوننا خطارا أو اختيارا، والأحوال تختلف فيه فلا اختيارى منه يؤخذ به والاختيارى لا يؤخذ به.

وأما الرابع وهو الهم بالفعل، فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فلن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وتندما على همه كتب له حسنة لأن همه سيئة وامتاعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع يمايل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتاع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة تجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكنت له حسنة لأنه رجح جده في الامتناع وهمه به على همه بالفعل، وإن تموى الفعل بماضى أو تركه بمدر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فلن همه فعل من القلب اختيارى.

والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفسلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قلت للملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه، فلن هو عملها فأكبرها له بمنزلها وإن تركها فأكبرها له حسنة إنما تركها من جزأى^(٢)»، وحيث قال: فلن لم يعملها: أراد به تركها لله، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف كتبت له حسنة؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم «إنما يحشر الناس على نياتهم^(٣)»، ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصيح ليقتل مسلما أو يزني بأمرأة فأت تلك

(١) حديث: لن عثمان بن مظعون قال يا رسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة قال: «مهلا إن من سننى التكاح .. الحديث» أخرجه الترمذى المحكم في نوادر الأصول من رواية على بن زيد عن سعيد بن المسيب مهلا نحوه وفيه التماس بن سعيد الله العسرى كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والدارى من حديث سعد بن أبي وقاص: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذى كان من ترك النساء بث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا عثمان لاني لم أومر بالرهانية .. الحديث» وفيه «من رغب من سننى النفس منى» وهو متذكر بلفظ: «رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتيل ولو أذن له لاختبنا .. والبنوى والطبراني في معجمى الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون: أنه قال يا رسول الله إنى رجل تشق على هذه الزوجة في المنزلى فتأذن لى يا رسول الله في الحساء فأخصى قال: «لا»، ولكن عليك يا ابنى مطون بالصيام فإنه مجفرة» ولأحد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو: «خضاه أمتى الصيام والقيام» وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف: أن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله إننى لى في الاختصاص، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن الله قد أبدنا بالرهانية الحثيفة المسعة والتكبير على كل شرف .. الحديث» وابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث عائشة «الزكاح من سننى» ولأحد وأبو يعلى من حديث أنس «لكن لى» وقال أبو هريرة «لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وفيه زيد النسى وهو ضعيف ولأبو داود من حديث أبي أمامة «لن سياحة أمتى الجهاد في سبيل الله» وإسناده جيد.

(٢) حديث: قالت الملائكة رب ذاك مدكر يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر .. الحديث. قال المنفى أنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث: «لما يحشر الناس على نياتهم» أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله «لما» وله من حديث أبي هريرة: «لما يبعث الناس على نياتهم» وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة «يبعثهم الله على نياتهم» وله من حديث أم سلمة «يبعثون على نياتهم»

الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقد هم بيته ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالتقاتل والمقتول في النار » ، فقيل يارسول الله هذا القتال فما بال المقتول ؟ قال : « لأنه أراد قتل صاحبه »^(١) . وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والمهم ؟ بل كل من دخل تحت اختيار المبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ، وتقضى العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة ، فأما قول الممراد بماق فليس بحسنة . وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالواخذة به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : « كلفنا مالا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لملكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا »^(٢) ، فأُزيل الله الفرج بعد سنة بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر به أن كل ما لا يدخل تحت الرفع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به . فهذا هو كشف النطاء عن هذا الالتباس . وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والتفاق والحسد وجملة الجباث من أعمال القلب ؟ بل السمع والبصر والقواد كل أولئك كان عنه مستولا ؟ أي ما يدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بفير اختيار على غير ذم عزم لم يؤاخذ به فإن أتبها نظرة ثانية كان مؤاخذ به لأنه عتار فكذا خواطر القلب تجري هذا الجري بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التقوى هنا وأشار إلى القلب »^(٣) ، وقال الله تعالى ﴿ إن يال الله لموعها ولا حمأؤها ولكن يناله التقوى منك ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « الإيمان حواز القلوب »^(٤) ، وقال « البر ما أطمان إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك »^(٥) ، حتى إذا حكم القلب المقي يلعاب شيء وكان خطا فيه . صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تظهر فعله أن يصل . فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوسأ كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصي بوطئها وإن كانت زوجته . وكل ذلك ينظر إلى القلب دون الجوارح .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ؟

اعلم أن العلماء المراقبين القلوب الناظرين في صفاتها ومجاراتها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق :
فقال فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال : « فإذا ذكر الله خلس »^(٦) ، والحنس هو السكوت فكأنه يسكت .

- (١) حديث « إذا التقى بسيفهما فالتقاتل والمقتول في النار » الحديث متفق عليه . من حديث أبي بكر .
(٢) حديث : لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالا نطيق . الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس نحوه . (٣) حديث « التقوى هنا » وأشار إلى القلب . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال — إلى صدره — (٤) حديث « الإيمان حواز القلوب » هدم في العلم . (٥) حديث « البر ما أطمان إليه القلب ولن أفتوك وأفتوك » أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة ولاخذ نحوه من حديث وابصة وفيه « وإن أفتك الناس وأفتوك » وقد هتما (٦) حديث « وإذا ذكر الله خلس » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أسى في أثناء حديث « إن العيطان واضح خله على قلب ابن آدم » . الحديث « وقد هدم قريبا .

وقالت فرقة : لا يندم أمه ولكن يجرى في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان مجربا عن التأثير بالوسوسة كالمشغول بهمه فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه .

وقالت فرقة : لا تنقطع الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تنقطع غلبتها القلب فكانه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

وقالت فرقة : ينعدم عند الذكر في لحظة ويندم الذكر في لحظة ، ويتماقبان في أزمة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوية وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدركتها بسرعة تواسلها بالحركة ، واستدل هؤلاء بأن الخلق قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا .

وقالت فرقة : الوسوسة والذكر يتساوون في الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع ، وكأن الإنسان قد يرى بعينه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون يجري لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما من عبد إلا وله أربعة أعين : عينان في رأسه يصير بهما أمر دنياه ، وعينان في قلبه يصير بهما أمر دينه ^(١) ، وإلى هذا ذهب المحاسبي . والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس ، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صف واحد من الوسواس فأخبر عنه .

والوسواس أصناف : الأول : أن يكون من جهة التليس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التعمم بالذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم ، فعند هذا إذا ذكر البعد عظيم حق الله تعالى وعظم ثوابه وعقابه وقال لنفسه : الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ، ولا بد من أحدهما فإذا ذكر البعد وعد الله تعالى ووعدته وجحد إيمانه وبقية خفس الشيطان وهرب ، إذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المصيبة لا تنفضي إلى النار ، فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه . وكذلك يوسوس إليه بالمعجب بعمله فيقول : أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده ؟ فما أعظم مكانتك عند الله تعالى ! فيتذكر البعد حيثئذ أن معرفته وقلبه وأعضائه التي بها عمله وعليه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يجب به ؟ فيخفس الشيطان إذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله . فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن المعارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصف الثاني . أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجتها ، وهذا ينقسم إلى ما يعلم البعد يقيناً أنه مصيبة وإلى ما يظنه بالشك . فإن عليه يقيناً خفس الشيطان عن تهيج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخفس عن التهيج وإن كان مظنوناً ، فربما يبق مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبية . الصف الثالث : أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكير في غير الصلاة مثلاً فإذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويمود ، ويندفع ويمود ، فيتماقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب . وبمجرد جذا أن يندفع هذا الخفس بالكلية بحيث لا يخطر ، ولكنه ليس محالاً إذا قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما

(١) حديث « ما من عبد إلا وله أربعة أعين عيان في رأسه يصير بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يصير بهما أمر دينه » أخرجه أبو منصور المبرلي في مسند القردوس من حديث ماذ يلفظ « الآخرة » مكان « دينه » وفيه الحسين بن أحمد بن محمد المروعي السامخاني الحافظ كذب الحاكم والأقاة منه .

نفسه بشئ من أمر الدنيا غفله ما انتقم من ذنبه ^(١) ، فلولا أنه متصور لما ذكره ، إلا أنه لا يتصور ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالسهر ، فإننا قد نرى المستوعب القلب بدق تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا ينظر بياله غير حديث عدوه ، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في عبادته محبوه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا ينظر بياله غير حديث محبوه ، ولو كله غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لا يراه . وإذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاء فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجهها في عمل مخصوص .

وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلاً بعيد جداً ، ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وسوس الشيطان بالخواطر وتيسر الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى : أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رأى بذلك الثوب وقال « شغلني عن الصلاة » وقال « اذهبوا به إلى أبي جهنم واتنوني بأبجائيته » ^(٢) ، وكان في يده خاتم من ذهب ففطر إليه وهو على المنبر ثم رى به قال « نظرة إليه ونظرة إليكم » ^(٣) ، وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحويله لثقة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب . وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رى به . فلا تقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدتها إلا بالرى والمفارقة . فما دام يملك شيئاً وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره ، وأنه كيف يحفظه ؟ وفيماذا ينقذه ؟ وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد وكيف يظهره حتى يباهى به ؟ إلى غير ذلك من الوسوس . فمن أنشب غلبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العمل وظن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال . فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة . قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتي ابن آدم من قبل الماصي ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة ، فإن أبى أمره بالتعزج والشدة حتى يحرم ماله من بصرام ، فإن أبى شككه في وضوءه وصلاته حتى يخرجها عن العلم ، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراء الناس صابراً صفيهاً فتنبيل قلوبهم إليه فيمجب بنفسه وبه يهلكه ، وعند ذلك يشتد إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها ، فكانته هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإنما أصابه شئ يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضافه فتغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه ، وإن جذبته شيطان إلى شر جذبته شيطان آخر إلى غيره : وإن جذبته ملك إلى غير جذبته آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعا بين ملكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان . لا يكون قط مهملًا . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في مجاميع القلوب وتقلبه كان يختلف

(١) حديث « من صل ركعتين لم يحدث فيها نفسه بشئ من الدنيا .. » تقدم في الصلاة .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة . الحديث . تقدم . (٣) حديث : كان في يده خاتم من ذهب ففطر إليه هو المنبر فملا فقال « نظرة إليكم » أخرجه النسائي من حديث ابن عباس وتقدم في الصلاة .

به فيقول « لا ومقلب القلوب ^(١) » وكان كثيراً ما يقول « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا أو تنصاف يا رسول الله ؟ قال « وما يؤمنني والقلب بين أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ^(٢) » وفي لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيحه أزاغه »

وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة : فقال « مثل القلب مثل الصغور يتقلب في كل ساعة ^(٣) » وقال عليه السلام ، مثل القلب في قلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا ^(٤) » وقال « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبعن ^(٥) » وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في قلبها من حيث لا نهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحرامهم مع الله تعالى .

والقلوب في التباين على الخير والشر والتردد بينهما ، ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياسة وظهر عن خبايا الأخلاق تنفتح فيه خواطر الخير من خزان الغيب ومدخل الملكوت ، فيصرف العقل إلى التفكير فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فيكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحسب بأنه لا بد من فعله فيستحس عليه ويدعوه إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستتباً بفضائه العقل معموراً بأنوار المعرفة فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً ، فعند ذلك يتجه بمجنون لا ترى ويهدي إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ، ولا يتأخر إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يبقى فيه الشوك الحقي الذي هو أخفى من ديب الخلة السوداء في اليلة الظلمة ، فلا يبقى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شيء من مكابد الشيطان ، بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول فروراً فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المللعات يصير على القرب معموراً بالمحجيات - التي سندكرها - من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكير والمحاسبة وغير ذلك . وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب للطلعت المراد بقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ يأتينا النفس الطمئة ﴾ .

القلب الثاني : القلب المخدول المشحون بالهوى ، المندس بالأخلاق للدمومة والخبائث ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه أن ينفتح فيه خاطر من الهوى ويهجم فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستقي منه ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنسبه واستمر على استبطاء الخيل له وعلى مساعدة الهوى ، فقتلوا النفس وتساعد عليه فيفسح الصدر بالهوى وتنبسط فيه

(١) حديث « لا ومقلب القلوب » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر (٢) حديث « يا منقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه الحاكم من حديث جابر وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصحبه على شرط البخاري ومسلم من حديث الثواس بن سيمان « ما من قلب إلا بين أصابع الرحمن شاء أقامه ولذا شاء أزاغه » والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٣) حديث « مثل القلب مثل الصغور يتقلب في كل ساعة » أخرجه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي حنيفة بن الجراح . قلت رواء البهوتي في مصبه من حديث أنس عيه غير مدحوب وقال لا أدري له صحة أم لا .

(٤) حديث « مثل القلب في قلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث المنذر بن الأسود (٥) حديث « مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة » أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن والبخاري نحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف .

ظلمته لاحتباس جند العقل عن مدافسته . فيقوى سلطان الشيطان لانتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأمان ، ويوحى بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضنف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبر نور البقين بخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تطفئ أنواره ، فيصير العقل كالمين التي ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر ، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبق للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمن عن الفهم ، وصم عن السمع ، وهاجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان ، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ ويقول عز وجل ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ ويقول ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشبهات كالذي يتوزع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالذي لا يملك نفسه فيها في الجاه والرياسة والكبر ، ولا يبق معه مسكة للثبوت عند ظهور أسبابه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحق وذاكر عيب من عيوبه ، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهاك عليه تهاك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى ، فكل ذلك تصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والإيمان ويسمى في تحصيل مراد الشيطان .

القلب الثالث : قلب يبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتهما إلى نصره خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتمتع ، فيلبث العقل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويضج فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشرقة أكثراتها بالعواقب فتميل النفس إلى فصع العقل فيحمل الشيطان حمله على العقل فيقوى داعي الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك ؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه ؟ أفترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى عروماً شقياً متموياً يصحلك عليك أهل الزمان ؟ أفتريد أن يربد مضحكك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتيت ولم يتمتعوا ؟ أمانى العالم الغلابى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شراً لامتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتقلب إليه ؛ فيحمل الملك حمله على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة ؟ أفتمتنع بأذى سيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستقبل ألم الصبر عن شهواتك ولا تستقبل ألم النار ؟ أفترى بفضلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيبك ؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حر الشمس ولا تخالفهم خوفاً من حر النار ؟ فعند ذلك تمثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يردد بين الجندين متجاذبين الحزبين إلى أن يخلب على القلب ما هو أولى به فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضاً عن حرب الله تعالى وأوليائه ، ومساعد أحزاب الشيطان وأعاده ، وجرى على جور حواره بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصح القلب إلى لغواء الشيطان

وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أى بين تجاذب هذين الجندين وهو الثالب أعنى القلب والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فتأخر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن القلب إلى عالم الشهادة بواسطة خزنة القلب فإنه من خزائن الملكوت ، وهي أيضا إذا ظهرت كانت علامات تميز أرباب القلوب سابق القضاء . فن خلق الجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق النار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يفر الحق بقوله : **إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ فَلَا تَبَالُ** ، وإن الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم ، وإن العمر طويل فأصبر حتى تتوب غدا (يعدم وينهم وما يعدم الشيطان إلا غرورا) يعدم التوبة وينهم المغفرة فيهلكهم يؤذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر (فن رد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصمد في السماء - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) فهو الهادى والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لأراد لحكمه ولا معقب لقضائه . خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصي . وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال (**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**) ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم « هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي » (١) ، فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

ولنتصير على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة ، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقع بالطواهر ولا يجترئ بالقشر عن الباب بل يقتوى إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب . وفيما ذكرناه كفاية له ومقتع إن شاء الله تعالى والله ولى التوفيق .
تم كتاب عجائب القلب والله الحمد والمنة . ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطنع .

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره ، وزين صورة الإنسان بحسن تهيجه وتقديره ، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره ، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد لتسميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهل على خواص عبادته تهذيب الأخلاق بترويقه وتيسيره ، وأمن عليهم

(١) حديث « قال الله عز وجل هؤلاء ألى الجنة ولا أبالي وهؤلاء الى النار ولا أبالي » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب انه مضطرب الاستناد .

بتسهيل صعبه وعسيرة ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره ، الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ، ويستشرف حقيقة الحق من غنايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلة الكفر ودجاجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره ؛

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين . والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدائمة والمخازى الفاضحة والذرائع الواضحة والحجائب المبعدة عن جوار رب العالمين ، المتخرطة بصاحبها في سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التى تطلع على الأمته ، كما أن الأخلاق الجلية هي الأبواب المغشقة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وابن منه المرض الذى لا يفوت لإحياء الجسد ؛ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الثانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكم وترادفت العلل وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأنيق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشخيص في علاجها وإصلاحها ، فعلاجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قد أفلق من زكاهما ﴾ وإصلاحها هو المراد بقوله ﴿ وقد غاب من دسائمه ﴾ ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لمعالج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الريع وغرضنا الآن النظر السلكي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها . ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قول الأخلاق للتغير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان صيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لأغبر ، ثم بيان علامات حسن الخلق ، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثقبا عليه ومظهرا نعمته لديه ﴿ وإنك لعل خلق عظيم ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن ^(١) - وأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم : هو أن تصل من قطعك وتعلم من حرمك وتغفر ظلمك ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنما يثبت لأتكم مكارم الأخلاق ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق ^(٤) ، وجاء رجل إلى رسول الله

كتاب رياضة النفس

- (١) حديث عائشة : كان خلقه القرآن هدم وهو عند مسلم (٢) حديث « تأول قوله تعالى ﴿ خذ العفو ﴾ الآية هو أن تصل من قطعك . . الحديث » أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عباد وأنس بأسانيد حسنة (٣) حديث « مثب لأتكم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصلحة (٤) حديث « أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي هريرة .
(٥) - (٧) لمحيى علوم الدين - (٣)

صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » فأثام من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » ثم أثام من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أثام من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال « أما تفقه ؟ هو أن لا تنضب »^(١) « وقيل يا رسول الله ما الشؤم ؟ قال « سوء الخلق »^(٢) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أوصني فقال « اتق الله حيثما كنت » قال زدني قال « أتبع السيئة الحسنة تمحها » قال زدني قال « عاتق الناس بخلق حسن »^(٣) « وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال « خلق حسن » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ما حسن الله خلق عبد وخلقته فيقطع له النار »^(٤) وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن فلاة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال « لاخير فيها هى من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسجاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قوئى فقواء بحسن الخلق والسجاء »^(٥) ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوئى فقواء بالبخل وسوء الخلق »^(٦) وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السجاء وحسن الخلق إلا فرينوا دينكم بهما »^(٧) وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم »^(٨) « وقيل : يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً »^(٩) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوا ببسط الوجه وحسن الخلق »^(١٠) وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلق العمل »^(١١) وعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك »^(١٢) وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً »^(١٣) وعن أبي مسعود البدرى قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى »^(١٤) وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللهم إني أسألك

(١) حديث : جاء رجل لى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : ما الدين ؟ قال « حسن الخلق .. الحديث » أخرجه محمد بن نصر المروزي فى كتاب تعليم لغير الصلاة من رواية أبي العلاء بن الصغير مسنداً (٧) حديث : ما للشؤم ؟ قال « سوء الخلق » أخرجه أحمد من حديث عائشة « للشؤم سوء الخلق » ولأبي داود من حديث رافع بن مكث « سوء الخلق شؤم » وكلاهما لا يصح (٣) حديث : قال رجل أوصنى قال « اتق الله حيثما كنت .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح (٤) حديث « ما حسن الله خلقى امرئ وخلقته فقطع له النار » تقدم فى آداب الصلوة .

(٥) حديث أبي الدرداء « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق .. الحديث » لم ألق له على أصل هكذا ولأبي داود والترمذى من حديث أبي الدرداء « ما من شيء من الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال غريب وقال فى بعض طرقه حسن صحيح (٦) حديث « ولما خلق الله استخلص هذا الدين لنفسه .. الحديث » أخرجه الهارثى فى كتاب المستجاد ، والحرثى فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٧) حديث « حسن الخلق خلق الله الأعظم » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث همار ابن ياسر بسند ضعيف (٨) حديث : قيل لى رسول الله أى المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم فى التسكاح بإلفظ « أكمل المؤمنين » والطبرانى من حديث أبي أمامة « أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً » (٩) حديث « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوا ببسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه الزائر وأبو بلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبش طرق التبرارجات تمام (١٠) حديث « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلق العمل » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضمفها ابن جرير (١١) حديث « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك » أخرجه الحرثى فى مكارم الأخلاق وأبو الباس البغوى فى كتاب الآداب وفيه ضعف (١٢) حديث البراء : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً أخرجه الحرثى فى مكارم الأخلاق بسند حسن (١٣) حديث أبي مسعود البدرى « اللهم كما حسنت خلقى حسن خلقى » أخرجه الحرثى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي المغليل عن أبي مسعود البدرى ولما هو ابن مسعود أى عبد الله ، هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة .

الصحة والعافية وحسن الخلق^(١) » وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه ، وحسنه حسن خلقه ، ومروءته عقله^(٢) » وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعرابي يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ماخير ما أعطى البعد ؟ قال « خلق حسن^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبك إلى وأنت ربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا^(٤) » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تمتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حل يكف به السفه أو خلق يعيش به بين الناس^(٥) » وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم في افتتاح الصلاة « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يبدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت^(٦) » وقال أنس : بينا نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسن الخلق ليذهب الخطيئة كما يذهب الشمس الجليد^(٧) » وقال عليه السلام « من سعادة المرء حسن الخلق^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « الذين حسن الخلق^(٩) » وقال عليه السلام لآي ذر « يا أبا ذر لا تغفل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق^(١٠) » وعن أنس قال : قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت للمرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة أليهما هي تكون ؟ قال « لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا ، يأمن حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة^(١١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن للسلم للسديد لدرجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته^(١٢) » وفي رواية « درجة الطمأن في المواجه » وقال عبد الرحمن بن سمرة : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمي جالسا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى^(١٣) » وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن البعد يبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة^(١٤) » وروى : أن عمر رضى الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده

(١) حديث عبد الله بن عمرو « اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق » أخرجه المصنف في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين (٢) حديث أبي هريرة « كرم المرء دينه ومروءة عقله وحسن خلقه » أخرجه ابن حبان والحاكم وصحبه على شرط مسلم والبيهقي . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه . قال البيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موطئا على عمر وقال إسناده صحيح (٣) حديث أسامة بن شريك : شهدت الأعرابي يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى البعد ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه وهدم في آداب الصبية .

(٤) حديث « إن أحبك إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا » أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة « إن أحبك إلى الله أحسنكم أخلاقا » والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر « إن أقربكم منى مجلسا أحسنكم أخلاقا » وقد هدم الحديثان في آداب الصبية (٥) حديث ابن عباس « ثلاث من لم يكن فيها واحدة منهن فلا يتد بهي من عمل ... الحديث » أخرجه المصنف في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٦) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي (٧) حديث أنس : إن حسن الخلق ليذهب الخطيئة كما يذهب الشمس الجليد » أخرجه المصنف في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ووضفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة ووضفه أيضا (A) حديث « من سعادة المرء حسن الخلق » أخرجه المصنف في مكارم الأخلاق بإسناد صحيح (٩) حديث « الذين حسن الخلق » أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر (١٠) حديث « يا أبا ذر لا تغفل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق » أخرجه ابن ماجه والبخاري في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بإسناد ضعيف (١١) حديث أنس : قالت أم حبيبة يسألون الله أرأيت للمرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبير والمصنف في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (١٢) حديث « إن السلم للسديد لدرجة الصائم القائم بحسن خلقه » أخرجه أحمد من حديث عباد بن عمرو والرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيها ابن أبيه (١٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لنى رأيت البارحة عجبا ... الحديث » أخرجه المصنف في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (١٤) حديث « إن البعد يبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة... الحديث » أخرجه الطبراني والمصنف في مكارم الأخلاق وأبو الفتح في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الفتح في كتاب طبقات الأئمة الذين من حديث أنس بإسناد جيد ،

لنساء من نساء قريش يكنهن ويستكثره عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضطك فقال عمر رضى الله عنه : مم تضطك يا بنت وأبى يا رسول الله؟ فقال : « هجت هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب » فقال عمر : أنت كنت أحق أن يهتك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا عدوات أنفسهن أتبهن ولا تبهن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن : نعم أنت أغظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : إياها يا ابن الخطاب والذي نفسى بيده ما عليك الشيطان قط سالكا لجا إلا سلك لجا غير لك^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تمحوق^(٢) » وقال عليه السلام : « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم^(٣) ».

الآثار : قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أى الخصال من الإنسان خير؟ قال : الدين ، قال : فإذا كانت الفتنين؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلثا؟ قال : الدين والمال والحياة ، قال : فإذا كانت أربعا؟ قال : الدين والمال والحياة وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت ستا؟ قال : يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقى وقه ولى ومن الشيطان برى ، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد . ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد . وقال يحيى بن معاذ : في سمة الأخلاق كوز الأرزاق . وقال وهب ابن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترفع ولا تماد طينا . وقال الفضيل : لأن يصحبنى فأجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال : بكيته رحمة له ، فارقته وخلقه معه لم يفارقه ، وقال الجنيدي : أربع رفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعمله ، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كالإيمان . وقال الكشائي التصوف خلق فن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف . وقال عمر رضى الله عنه : خالطوا الناس بالأخلاق وزابلوهم بالأعمال . وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سببة لا تنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا تنفع معها كثرة السيئات . ومثل ابن عباس : ما الكرم؟ فقال : هو ما يبناه في كتابه العزيز ﴿ إنا أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قيل فما الحسب؟ قال : أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا . وقال : لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

أعلم أن الناس قد تسلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو ، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا في ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول الحسن : حسن الخلق بسط الوجه

(١) حديث : إن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكنهن ويستكثره . الحديث . متفق عليه . (٢) حديث : سوء الخلق ذنب لا يغفر . الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير من حديث عائشة : ما من شيء إلا لا توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا ما في ذمته . وإسناده ضعيف . (٣) حديث : أن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم . أخرجه الطبراني والحايمي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصحابين من حديث أنس بإسناد جيد وهو من الحديث الذي قبله بمحدثين .

وبذل البدى وكف الأذى . وقال الراسطى : هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقال شاه الكرمانى : هو كف الأذى واحتمال اللؤن . وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريباً . وقال الراسطى مرة : هو إرضاء الخلق في المراء والعراء . وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى . ومثل سهل التستري عن حسن الخلق فقال : أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة : أن لا يهتم الحق في الرزق ويثق به ويسكن الى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال على رضى الله عنه . حسن الخلق في ثلاث خصال احتساب الحرام وطلب الحلال والتوسعة على العيال . وقال الحسين بن منصور : هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز : هو أن لا يكون لك م غير الله تعالى . فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لأنفسه ، ثم ليس هو عيطا بجميع الثمرات أيضاً . وكف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة .

فقول : الخلق والخلق عبارتان مستعملتان مما ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق - أى حسن الباطن والظاهر - فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما نبيضة وإما جملة . فالفنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى ﴿ إلى خالق بشر من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ فيه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راضية ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجلية المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال النقيصة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً شئياً . وإنما قلنا إنها هيئة راضية ، لأن من يصدر منه بذل المال على التدور لحاجة عاجزة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بمجهود وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم .

فهنا أربعة أمور ؛ أحدها : فعل الجليل والتبجح . والثاني : القدرة عليهما . والثالث : للفرقة بهما . والرابع : هيئة النفس بما تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين ؛ إما الحسن وإما التبجح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إلا لفقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرباء وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجمل والتبجح جميعاً على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل . فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العيين دون القلب والقيم والحد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتساوت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة النضب وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم لحسنها وصلاحتها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجبل والتبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة - وهي التي قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ .

وأما قوة الغضب : لحسنها في أن يصير اقتضاها وانسياطها على حد ما تقتضيه الحكمة ؛ وكذلك الشهوة حسناتها وصلاحتها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هي القدرة ، ومثاله مثال المنفذ المعضى لإشارة العقل . والغضب هو الذي تمتد فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا يحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثاله مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروعاً وتارة ودياً ويكون جوحاً . فن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك للمعنى خاصة كالذي يحسن بعض أحواله وجهه دون بعض . وحسن القوة التضيئية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تموراً ، وإن مالت إلى الضعف والتقصان تسمى جبناً وغوراً . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى التقصان تسمى جوداً .

والحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، والطرقات رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفاً زيادة وتقصان بل له حدٌ واحد ومقابل وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجبرية ، ويسمى تفریطها بلها ، والوسط هو الذي يختص بأسم الحكمة .

فإن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية . ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتعملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والاعتدال على حسب مقتضاها . ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها . ونعني بالعفة تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها .

إذ من اعتدال قوة العقل : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثبات الرأي وإصابة النظر والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدر الجبرية والمكر والخداع والدعاه . ومن تفریطها : يصدر البله والغارة والحق والجنون - وأعني بالغارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فعد يكون الإنسان غريراً في شيء دون شيء . والفرق بين الحق والجنون : أن الأخير مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض ، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإشارته فاسداً .

وأما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والتجدة والشهامة وكسر النفس والاحتفال والحلم والثبات وكظم الشيط والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق حمودة . وأما إفراطها وهو التهور : فيصدر منه الصلف والذبح

والاستشاطاة والتكبر والصجب . وأما تفريطها : فيصدر منه للهانة والذلة والجور والحساسة وصغر النفس والابتياض من تناول الحق الواجب .

وأما خلق الغفة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمساعة والقناعة والورع والطاقة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره والرافقة والحيث والتبذير والتقتير والرياء والهمسكة والمجانة والعبث واللقق والحسد والشبهة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات علسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهى الحكمة ، والشجاعة ، والمعة ، والعدل . والباقي فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأربع إلا رسول صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه . فكل من قرب منه فى هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويتقنون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذا الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والبياد فإنه قد قرب من الشيطان العين المبيد ، فينبغى أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغى أن يقتدى به ويتقرب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ييمت إلا ليتم مكارم الأخلاق كما قال (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق فى أوصاف المؤمنين فقال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل . ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال (أشداء على الكفار رحماء بينهم) إشارة إلى أن الشدة موضعا والرحمة موضعا ، فليس السكون فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقيمه وبيان أركانه وثمراته وفروعه .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتركبة النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبط دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير .

واستدل فيه بأمرين ؛ أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلق الظاهر لا يقدر على تغييرها فالقصور لا يقدر أن يحمل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يحمل نفسه قصيرا . ولا التبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك التبغ الباطن يجرى هذا المجرى . والثانى : أنهم قالوا حسن الخلق يقع الشهوة والغضب . وقد جزئنا ذلك بطول المجاهدة وعرضا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الأدنى فأشغاله به تضيق زمان بنير فائدة . فإن المطلوب هو قطع التغات القلب إلى الحفظ الماجلة وذلك محال وجوده . فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الرسايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله

(١) حديث « بنت لاعم مكارم الأخلاق » ندم فى آداب الصبغة .

صلى الله عليه وسلم : « حسنوا أخلاقكم »^(١) ، وكيف ينكر هذا في حق الآدى وتغيير خلق الهميمة يمكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأناى ، والسكب من شره الأكل إلى التأديب والإسماك والتخلية ، والفرس منها الجاح إلى السلاسة والاعتياى وكل ذلك تغيير للأخلاق .

والقول الكاشف لفظاً عن ذلك أن قول : الموجودات منقسمة إلى مالا مدخل للآدى واختياره في أصله وتفصيله ، كالماء والكواكب ، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً ، وسائر أجزا الحيوانات . وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكأله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول السكال بعد أن وجد شرطه . وشرطه قد يرتبط باختيار المبدف أن التواء ليست بنفاح ولا نغل إلا أنها خفت خلقة يمكن أن تصير غلة إذا انضاف التربة إليها ، ولا تصير نفاحاً أصلاً ولا بالتربة ، فإذا صارت التواء متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لآرنا قهما وقهرهما بالسكية حتى لا يبق لهما أثر لم تقدر عليه أصلاً ، ولو آرنا سلاهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاةنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة بعضاً سريمة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان .

أحدهما : قوة الغريزة في أصل الجلبة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان ، ولكن أصعبها أمراً وأصعبها على التغيير قوة الشهوة ، فإنها أقدم وجوداً ، إذ الصبى في مبدل المطرة تخلق له الشهوة ، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب ، وبعد ذلك يخلق له قوة التغيير .

والسبب الثانى : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه حل أربع مراتب (الأولى) وهو الإنسان الغفل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقيبح بل يبق كالفطر عليه عالياً عن جميع الاعتقادات ولم تسقم شهوته أيضاً باتباع الذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان (والثانية) أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهوته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول ، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتياى للفساد ، والآخر أن يفرس في نفسه صفة الاعتياى للصالح ولكنه بالجلمة محل قابل للرياضة إن انتهض لها مجد وتضمير وحزم . (والثالثة) أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجبل وترى عليها ، فهذا يكاد تمتع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا لعل التدور ، وذلك لتضائف أسباب الضلال . (والرابعة) أن يكون مع نشته على الرأى الفاسد وتزيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره ، وهذا هو أصعب المراتب . وفي مثله قيل : ومن العناء رياضة ظلمهم ، ومن التثذيب تهذيب الذئب . والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثانى : جاهل وضال . والثالث : جاهل وضال وفاسق . والرابع : جاهل وضال وفاسق وشريد .

وأما الخيال الآخر الذى استدلوا به : وهو قولهم إن الآدى مادام حياً فلا تقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق ، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالسكية ومحوها وهيئات فإن الشهوة خلقت لغائدة وهى ضرورية في الجلبة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت

(١) حديث « حسنوا أخلاقكم » أخرجه أبو بكر ابن لاله في تكلمم الأخلاق من حديث ماذ « ياماذ حسن خلقك للناس » منقطع ورجاه نبات .

شهوة الواقع لا تقطع النسل ، ولوا ندم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهذا . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إفساك المال . وليس المطلوب إبطاء ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفریط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً . وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوته متقاداً للعقل . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أشداه على الكفار رحام بينهم ﴾ وصفهم بالشدّة وإلما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام ينفكوا عن ذلك ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ﴾^(١) . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تجمع وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرج غضبه عن الحق^(٢) وقال تعالى ﴿ والكاشطين انقيط والماعين عن الناس ﴾ ولم يقل والماعدين انقيط فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يظهر واحد منهما العقل ولا يفعله ، بل يكون العقل هو الضابط لها والغالب عليهما ممكن ، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تتولى الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانسياط إلى الفواحش . وبالراحة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والملاحظة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها . والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير . وقد أتى الله تعالى عليه فقال ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجود قال الله تعالى ﴿ وكوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وقال فى الغضب ﴿ أشداه على الكفار رحام بينهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوسطها »^(٣) وهذا له سر وتحقيق وهو أن السادة متوسطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى ﴿ إلامن أتى الله بقلب سليم ﴾ والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضا من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لا يكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إفساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كأ أن الحريص على الإفساك مصروف القلب إلى الإفساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكانه خال عن الوصفين . فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن التهور . والسفة بين الشره والجود . وكذلك سائر الأخلاق فكل طرفى الأمور ذميم ؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يوضح عنده الغضب رأسا ، ويذم إفساك المال رأسا ، ولا يخصص له فى شيء منه لأنه لو رخص له فى أدنى شيء أخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المخصص فيه . فإذا قصد الأصل وبالق فيه ولم يتيسر له إلا كسر

(١) حديث « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر » أخرجه مسلم من حديث أنس ومن حديث أبى هريرة « إنما أنا بشر يغضب كما يغضب البشر » (٢) حديث : « أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان الغضب لا يخرج من الحلق » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير قصة شراج الحرة فقال : « لأن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولها من حديث أبى سعيد الخدرى : « وكان إذا كره شيئا عرفناه فى وجهه . ولها من حديث طايفة : « وما اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله وسلم : ما يال من شيء قط فينتقم من صاحبه ... الحديث .

(٣) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان من رواية طرف بن عبد الله مفعلا .

سورة بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له التضرر المقصود . فلا يكشف هذا السر للرید فإنه موضع غرور الحق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إساءة بحق .

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجلالة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكال الحكمة . وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكوينا العقل مطبوعة وللشرع أيضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : يعود إلى وكال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق . قد كنى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقنا معتدلين متقادين للعقل والشرع فيصير طالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولا يبعد أن يكون في الطبع والنفرة ما قد ينال بالاكْتساب فرب صبي خلق صادق للهجة سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاكتساب وعاطلة المتخلفين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم .

والوجه الثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه وبوظف عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواطىء على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيقاً فالسخي هو الذي يستدل بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذي يستدل بالتواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ، ما لم تعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة ، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجيلة ويقتسم بها ، ويكره الأفعال السيئة ويتألم بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وجعلت قرعة عيني في الصلاة ^(١) ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستقلال فهو نقصان ولا ينال كال السعادة به . نعم المواظبة عليها بالمجاهدة غير ولكن بالإضافة إلى تركها بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال صلى الله عليه وسلم ، عبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ^(٢) ، ثم لا يمكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر . كلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما صل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال ، طول العمر في طاعة الله تعالى ^(٣) ، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا منزعرة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ ، وإنما مقصود العبادات تأخيرها في القلب ، وإنما يتأكد تأخيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن يقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون

(١) حديث « وجعلت قرعة عيني في الصلاة » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقد هدم (٢) حديث « عاهدت في الرضا لأن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الطبراني (٣) حديث : سئل عن السعادة فقال « طول العمر في عيادة الله » رواه الترمذي في مسند المعاصي وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف والترمذي من حديث أبي بكر ومعه « أي الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » .

شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشيئته من المستخرات له فلا يستعملها على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزوناً بينان الشرع والمقل ، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرعة العين . ومصير العبادات لذينة فإن العادة تقتضي في النفس عجاباً أغرب من ذلك ؛ فإذا قد رزى الملوك والمعين في أحوال دائمة ، ونرى المتأسر قد يظلم عليه من الفرح واللذة بقاره وما هو فيه ما يستقل معه فرح الناس بغير قار ، مع أن القهار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحب ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالخم قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيراتها وتحليقها في جو السماء ، بل يرى الفاجر البيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته في الصبر على ذلك ، حتى يرى ذلك نفراً لنفسه ، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تلعاطه أو تلعاطه غيره فيصير على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يمتدده كالأوجعة ورجولية ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من التكال قرعة عينه وسبب اقتضاره ، بل لإحالة أخس وأقبح من حال الخنثى في تشبهه بالإناث في تنف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى الخنثى في فرح بجاله وافتخار بكاله في تحتته يتباهى به مع الخنثين ، حتى يجرى بين الحمايين والكاسين التفاضر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء . فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المتاعج فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الضئيلة عارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل العين فقد يظلم على بعض الناس ذلك بالعادة ؛ فأما ميله إلى الحكمة وحسب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر راني ، وميله إلى مقتنيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحسب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل بالمرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سيان لحياتها ، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه مبنياً له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فمعد ذلك لا يدل ذلك على المرض

فإذا قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياسة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعني النفس والبدن - فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة ، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحق في الكتابة له صفة نفسية - حتى يصير كاتباً بالطبع - فلا طريق له إلا أن يتعاطى بمجاعة البدن ما يتعاطاه الكاتب الخاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن ، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة واضحة في نفسه ، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً ، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ، ولكن الأول يتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجوارح فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه حتى تمتلئ منه على قلبه صفه الفقه فيصير فقيه النفس . وكذلك من أراد أن يصير سخيًا غيف النفس حليها متواصمًا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبيعاً له ، فلا علاج له إلا ذلك . وكان طالب فقه النفس لا يأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليله ولا ينالها بتكرار ليله ، وكذلك طالب تزكية النفس وتكليفها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بمعيان يوم . وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطة في يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تدعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صنائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة . وكان تكرار ليله لا يحس تأخيرها في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدرج . مثل نمو البدن وارتفاع القامة . فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأخيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ، ولكن لا ينبغي أن يستأنس بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الأحاد ، فلكل واحد منها تأثير ، فاما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي ، فله ثواب لا محالة . فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك للمصيبة . وكمن من فقيه يستين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذا من يستين صنائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يحتفظه الموت بنتنة أو تنراكم ظلمة القنوب على قلبه وتعمد عليه التوبة ، إذ التليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من غاليلها . وهو المعنى بالنسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ﴾ الآية ولذلك قال رضى الله تعالى عنه : إن الإيمان ليبدو في القلب ككتة بيضاء ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله . وإن النفاق ليبدو في القلب ككتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق أسود القلب كله .

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والقطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفضائل الجميلة ومصاحبهم وهم قرناء الخير ولأخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً . فننظارت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة ، ومن كان ردلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبين من اختلاف فيه من هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلتتخذ البدن مثالا . فنقول :

مثال النفس وعلاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكان أن القالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تسمى للمعدة المضرة بمواضع الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد ممتدلاً صحيح القطرة .

وإنما أبراهم ودانته أو بصراة أو بحسنة - أي بالاعتقاد والتعليم تكسب الرذائل - وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما بكل ويقوى بالنشوء والتربية بالنزاهة ؛ فكذلك النفس تنطق ناقصة قابلة للكمال ؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق وتهذيبه بالملم . وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تهديد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها ، وإن كانت عديعة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها . وكما أن الملة المخيرة لاعتدال البدن الموجهة للعرض لاتعالم إلا بضدها فإن كانت من حرارة فيالبرودة ، وإن كانت من برودة فيالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتبه تكلفا . وكما أنه لابد من الاحتياط لمراة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتياط مراة المجاهدة والصبر للدواة مرض القلب بل أولى . فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أيد الأباد . وكما أن كل مبرد لا يصلح لملء سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشددة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد - فكذلك التقلص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار الملة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن الملة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجاتها أم ضميعة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسننه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

فكذلك الشيخ المتبوع الذي يعطي نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمرأهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بليته من الرياضة ويبقى على ذلك رياسته . فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بمحدود الشرع فيملأه أولاً بالطهارة والصلاة وظواهر العبادات ، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية فيأمره أولاً بتركها ، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمرأض قلبه ؛ فإن رأى ماله ما فاضلا عن قدر ضرورته أخذته منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه ، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبية عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق الكدية والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسة لا تتسكّر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وحر نفسه ، فإن الكبر من الأمراض الملوكية وكذلك الرعونة ، وإن رأى التغالب عليه النظافة في البدن والتياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحبه ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكس المساضع القنطرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتدشوش عليه رعونته في النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم ويرتوئونها ويطلبون المرقعات التنظيفة والسجادات الملوثة لافرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما فهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهرراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المرء لا يستوي يترك الرعدة رأساً أو يترك صفة أخرى ولم يسمح بصددها دفعة ؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ، كالذي يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم . كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة ، فكذاك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فليقل إلى جاه أخف منه ، وكذاك سائر الصفات . وكذاك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يجيئ الأطلعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيعود الصبر وينكسر شرهه . وكذاك إذا رأى شاباً متشوقاً إلى التكاثر وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم ، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء . ويمنعه اللحم والادم رأساً حتى تذلل نفسه وتنكسر شهوته ... فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه من فيه سوء خلق ، ويلومه خدمة من ساء خلقه حتى يبرن نفسه على الاحتال معه .

كما حكي عن بعضهم أنه كان يعقود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يتأجر من يشتبه على ملا من الناس ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نسيئة واحدة . وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر ؛ إذ خاف من تفرقه على الناس رعدة الجود والرياء بالبدل .

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض - فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب - وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضاد لكل مათواء النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابة المزير في كلمة واحدة فقال تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقدت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً . فينبغي أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق من تقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه - كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة - وإذا لم يتخفف النفس بقوة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة تفتسد بها الرياضة بالكلية .

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به ، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب . فرض اليد أن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذاك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله ؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة . وجب الله تعالى لعباده والتلذذ بذكره وإشارته ذلك على كل شهوة سواء والاستماتة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ففي كل عضو قائدة وناظرة القلب الحكمة والمعرفة . وعاصية

النفس التي للآدمي ، ما يميز بها عن البهائم ، فإنه لم يميز عنها بالقوة على الأكل والوقوع والإبصار أو غيرها ؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه . وأصل الأشياء وموجدوها ومخترعها مراقبة عروج الذي جعلها أشياء . فلو عرف كل شيء ، ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً . وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى ﴿ قل إن كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأنزواجكم ﴾ إلى قوله ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمريصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ فمن صدقه شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة . فهذه علامات المرض وهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها ، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يتفكر عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة درأه فإن دوامه مخالفة الشهوات وهو نزوع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيياً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فاطلبوا للمريض قلباً يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مرماً واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومرامات . فهذه علامات أصول الأمراض .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في الملة التي يعالجها ، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك للمبدع عن الله عز وجل وإنما علاجه يذل المال وإنفاقه ، ولكنه قد يذل المال إلى حد يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء ، فكان كن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين ، إن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجب الخلق الخنود ، فإن كان أسهل عليك وأذن من الذي يضاده فالتألب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه الذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن التألب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق الذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتفسير الأفعال وتسميها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه حاجة محتاج أو بذله حاجة محتاج ، ولا يترجم عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سلباً عن هذا المقام خاصة . ويجب أن يكون سلباً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا متقطعة العلاقات منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فعند ذلك ترجع إليها وجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلية في زمرة عباد الله المقربين من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة . وقلنا ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم - أعني الوسط - حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقاً بالجانب الذي مال إليه .

ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم تجي الذين اتقوا ﴾ أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة .

فقد روى أنّ بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : قد قلت يا رسول الله شيئين هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا من الأخلاق الحسنة فليستفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعتدّها وليستغلّ بملاج واحد فيها على الترتيب . ففسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أنّ الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم التقى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكى في نفسه ويأبج إشارته في مجاهدته . وهذا شأن الريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز في الزمان وجوده .

الثاني : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصب رقبيا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلقه وأفعاله وعبوه الباطنة والظاهرة ينبه عليه . فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي . وكان يسأل سلمان عن صيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذي يهلك عنى مما تكرهه ؟ فاستمع فأخ عليه فقال : بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال : وهل يهلك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال : أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار الاتفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمة لنفسه رضي الله عنه !

فكل من كان أوفر قتلا وأعلى منصبا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه ، إلا أن هذا أيضا قد عز فقل في الاعداء من يترك للمدانة فيجبر باليبس ، أو يترك الحسد فلا يريد على قدر الواجب . فلا تخلف في أصدقاؤك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بميب عيبا ، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك .

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له : لم لا تتخالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يظفون عنى عيوي ؟ فكانت شهوة ذوى الدين أن يتلهوا لميوزهم بتقيه غيرهم ، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من يصحنا ويمزنا عيوبنا . ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضحك الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لاذعة ، فلو نهنا منه على أن تحت ثوبنا عقرىا لنقلدنا منه منه وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العيوب وإبعادها وقتلها ، وإنما نكابتها على البدن ويدوم ألها يوما فادونه ، ونكابة الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخفى أن تدوم

بعد الموت أبداً وآلافاً من السنين . ثم إننا لا نفرح بمن ينهنا عليها ولا نفتعل بلزاتها بل نفتعل بمقابلة الناصح بمن يقاتله فنقول له : وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتفتلنا المداوة معه عن الانتفاع بنفسه ، وبفسه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسال الله عز وجل أن يهللنا ورشدنا ويصيرنا بعبودتنا ويشتغلنا بمداواتها ويرفقا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدد مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لابد وأن تنتشر على السليم .

الطريق الرابع : أن يخالف الناس فكل ما رآه مذموماً فيها بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى . فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أمثله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتعقد نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره وانهيك بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المذوب .

قيل لميسر عليه السلام : من أدلك ؟ قال ما أدبني أحد ، رأيت جهل الجاهل شيئا فاجتنبته . وهذا كله حيل من فقد شيئا عارفا ذكيا بصيرا يعبوس النفس مشفقاً ناصحا في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباده تعالى ناصحا لهم ، فن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجي من الهلاك الذي هو يصدده .

بيان شواهد النقل من أبواب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب

ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تاملته بعينا اعتبارا انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد ، فإن الإيمان درجة كما أن العلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى ﴿ رَفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلْوَأَ أَلَمْ دَرَجَاتٍ ﴾ فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين آمنوا ألوأ أَلَمْ وكلا وعد الله الحسنى .

والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقوال العلماء أكثر من أن يحصر . قال الله تعالى : ﴿ وَنَبِيَّ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقال تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلَتَوَقَّى ﴾ قيل نزع منها حبة الشهوات . وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن بين خمس شهادات : مؤمن بحسبه ومناقض يرضه وكافر يقاومه وشيطان يضلّه ونفس تنازعه »^(١) ، فبين أن النفس صدق تنازع يجب عليه مجاهدتها .

ويروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يادادو حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب

(١) حديث « المؤمن بين خمس عدائته : مؤمن بحسبه ومناقض يرضه ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي إسحق صنف .

المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها حتى محجوبة . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تقوم قدموا من الجهاد ، مرجحاً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الجهاد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله تعالى إذن تخافه يوم القيامة فيلعب بعضك بعضاً إلا أن يغفر الله تعالى ويستتر ^(٣) ، وقال سفيان الثوري : ما عالجته شيئاً أشد على من نفسي مرة لى ومرة على وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه : يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تقيمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تهتدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبين يا نفس ألا تستحين ! وقال الحسن : ما العادة الجورح بأجرح إلى اللجام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : جاهد نفسك بأساليب الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والقمض من المنام ، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأثام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتيال الأذى ، البلوغ إلى الثبات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والأثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأبدي الخمول وقلة الكلام حتى تقطع عن الظلم والانتقام ، فتأمن من يوراتها من بين سائر الأثام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتستريح من غوائل آفاتهما ؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية وروحانية فتجول في ميدان الحسنيات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفار في الميدان وكذلك المنزهة في البستان . وقال أيضاً : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات .

قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها ؛ عصموا في يمن هواها ، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدما تهمره حيث شاءت فتنتع قلبه من الفوائد . وقال جعفر بن حيد : أجمت العلماء والحكماء على أن النعم لا يدرك إلا بترك النعم . وقال أبو يحيى الرواق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد : ما زاد على الحب فهو شهوة . وقال أيضاً : من أحب شهوات الدنيا فليتها للذل .

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام - بعد أن ملك خزائن الأرض وقدمت له على رايه الطريق في يوم موكله وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظام ملكته - سبحانه من جعل الملوك عبيداً بالمعصية وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صبرا للملوك عبيداً وذلك جزاء للفسدين ، وإن الصبر والتقوى صبرا للعبيد ملوكاً . فقال يوسف - كما أخبر الله تعالى عنه ﴿لأنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

وقال الجنيد : أرقت ليلة فقتت إلى وردى فلم أجد الخلاوة التي كنت أجدتها وأردت أن أنام فلم أقدر ، فجلست فلم أطق الجلوس ، فخرجت فإذا رجل ملتحق في عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بي قال : يا أبا القاسم إلى الساعة ؟ فقلت : ياسيدي من غير موعد ؟ قال : بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك ، فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ قال : فني يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها ؛ فأقبل على نفسه فقال : اسمي فقد

(١) حديث « مرجحاً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح معاني القلوب حديث « الجاهل من جاهد نفسه » أخرجه الترمذي في أثناء حديثه وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد (٢) حديث « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله .. الحديث » لم أجده هنا السابق .

أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد بما قد سمعته ، ثم انصرف وما عرفته وقال يريد الرقائق :
إليك عن لثام البارد في الدنيا لعل لأحرره في الآخرة . وقال رجل لمصر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : متى أنكم ؟
قال : إذا اشتبهت الصمت ، قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتبهت الكلام . وقال علي رضي الله عنه : من اشتاق إلى
الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشبهه قال لنفسه : أصبري
فوالله ما أمنته إلا من كرامتك على .

فلذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إل سعادة الآخرة إلا بنبه النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات
فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الراحة
وسرها أن لا تمتنع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة ، فيكون مقتصرأ من الأكل والشكاح
واللباس والسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة ، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه ، فإذا
مات تبنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتبنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له في الآخرة مجال ، ولا خلاص منه
إلا بأن يكون القلب مشغولاً بجمعة رقة وحب والتفكير فيه والانتفاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله ، وبقتصر
من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والتفكير فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة :

رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المييشة فهو من الصديقين . ولا ينهى إلى
هذه الرتبة إلا بالراحة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة .

الثاني : رجل استغرق قلبه الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره
باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين .

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه
ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه .

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة
لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمسكه من صميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من
خزيك فإنه أنت المعاذ .

وربما يقول القائل إن التتمع بالمباح مباح فكيف يكون التتمع سبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضئيف
بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إغباط كل حسنة . والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو
سبب البعد - وسيأتى ذلك في كتاب ذم الدنيا - وقد قال إبراهيم الخواص كت مرة في جبل السلام فرأيت رمانا
فاشتميته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فضيقت وتركتها ، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه
الزناير فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، قلت : كيف عرفتي ؟ فقال : من عرف الله عز
وجل لم يخف عليه شيء ، قلت : أرى لك حالاً مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزناير ؟ فقال :
وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يمد الإنسان إليه في الآخرة
ولدغ الزناير يمد إليه في الدنيا ، فكرهه ومضيت . وقال السري : أنا منذ أربعين سنة نطالني نفسي أن أغس خبذة
في ديس فما أظلمتها .

فلذن لا يمكن إصلاح القلب لسلك طريق الآخرة مالم يمنع نفسه عن التتمع بالمباح ، فإن النفس إذا لم تمتنع

بعض المباحات طمعت في المحظورات فن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول لحقه أن يلزمه السكوت ؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحسب فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة . ومهما اعتادت العين رمى البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى مالا يجل ، وكذلك سائر الشهوات ، لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام ، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منها من الحرام فإن لم يعزدها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصبح مثله السكران الذي لا يفيق من سكره . وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب . قال الله تعالى ﴿ وروضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ينسكن ﴾ ومتكاثر في الأموال والأولاد ﴿ الآية وكل ذلك ذم لها ففسأل الله السلامة

فأول الحرم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاناة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثير عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر . فعدوا أن التجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففعلوها عن ملاذمها وعزودوها الصبر عن شهواتها - حلالها وحرامها - وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب ، فن توش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب . فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلص من أسر الشهوات ورغها والأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته . وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من الثوب والاستباحث إلى الانتقاد والتأديب ؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتغطاه حبيته حتى يحصل به الطعام عن الطيران في جزء الهواء ، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ، ثم يرفق . باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه لئلا إذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه . فكذلك النفس لا تألف ربه ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والعزلة أولاً ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عودت النساء والذكر والجماع ثانياً في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل عوضاً عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يغفل على المرید في البداية ثم يتم به في النهاية ، كالصبي يقطع عن الثدي وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاءه وجرحه عند القطاع ، ويشتهد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلا عن اللبن ، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوماً فيوماً وعظم تمبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكسفاً ، ثم يصبر له طبعاً . فلورد بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه ، فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام . وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج والجماع والركوب فتعمل على ذلك قهراً ، وتمنع عن السرج الذي ألفت به السلاسل والقيود أولاً ، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد . فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب ، وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزيها بالموت ، إذ قيل له أحب ما أحببت فإنك مفارقة . فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لاحالة لفراقه شغل قلبه بحب مالا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً قلائل فإن العسر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتفال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيره ما شهره أليتهم به سنة أو دهرأ . وكل

العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة . فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عماية الكرى كما قاله على رضي الله عنه .

وطريق المجاهدة والريضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا . فإذنى يفرح بالمال أو بالجاء أو بالقبول أو الوعد أو بالمر في القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع في التدريس والإفادة فينبغى أن يترك أولاً ما به فرحه ، فإنه إن منع عن شيء من ذلك . وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمتع فكره ذلك وتأم به فهو بمن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها ، وذلك مهلك في حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه . وليتحدث لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقطع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة . وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهد آخر إلا بالموت .

بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعبود نفسه ، فإذا جهاد نفسه أذن مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إصباح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو الفسق . وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمؤمنات في كتابه وهي بجملة ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فتلوه جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن الفتن معرضون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ إلى آخر السورة . من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقد وحفظ ما وجد . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى عاشر الأخلاق فقال ﴿ المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ^(١) ﴾ وقال عليه السلام ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ^(٢) ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ^(٣) ﴾ وقال ﴿ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ^(٤) ﴾ وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً ^(٥) ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا رأيتم المؤمن سموتاً وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة ^(٦) ﴾ وقال ﴿ من سرته حسنته

- (١) حديث « المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أخرجه الشيخان من حديث أنس « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه » يجب لنفسه «
(٢) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة
(٣) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قبله
(٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الذى قبله
(٥) حديث « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » تقدم غير مرة (٦) حديث « إذا رأيتم المؤمن سموتاً وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلد بلطف « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة مطلق

وسامته سيئته فهو مؤمن ^(١) » وقال « لا يحمل المؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة توديعة ^(٢) » وقال عليه السلام « لا يحمل المسلم أن يروع مسلماً ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحمل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه ^(٤) » .

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثيراً الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شقيقا ، لائما ولا سبابا ولا نماما ولا مقتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا ، بشاشا يجب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويبغض في الله فهذا هو حسن الخلق .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همه في الصلاة والصيام والمداواة ، والمنافق همه في الطعام والشراب كالجمجمة ^(٥) » وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والمعب ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راجع لكل أحد إلا الله ، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله ، والمنافق غائب من كل أحد إلا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكي ، والمنافق يسيء ويضحك ، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملا ، والمؤمن يروع وينفي الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد .

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتال الجفاء ، ومن شك من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد فخراني غليظ الحاشية ، قال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه ^(٦) ولما أكرت قریش إبنائه وضربه قال ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ^(٧) » قيل إن هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى ﴿ وإنك لعل خلق عظيم ﴾ ويحكى أن إبراهيم بن آدم خرج يوما إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندى فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى القفرة ، فقال الجندى : إنما أردت العمران ؟ فقال : هو المقبرة ، فناظره ذلك فضرب رأسه بالسوط فسحقه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندى ما قال له فقالوا ، هذا إبراهيم بن آدم ! فنزل الجندى عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يمتدح إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألني : عبد من أنت بل قال : أنت عبد ؟ فقلت : نعم ، لأن عبدا لله ، فلما ضرب رأسي سألت

(١) حديث « من سرتة حسنته وسامته سيئته فهو مؤمن » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة (٢) حديثه لا يحمل المسلم أن يفشي على أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق وفي البر والصلة - مرسل وقد فهم (٣) حديث « لا يحمل المسلم أن يروع مسلماً » أخرجه الطبراني والطائسي من حديث الثمان بن بغير والزيار من حديث عمر وإسناده ضعيف .

(٤) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله » . الحديث « فهم في آداب الصعبة » .

(٥) حديث : سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همه في الصلاة والصيام ... الحديث » لم أجد له أصلا (٦) حديث : كان يسمى فأدركه أعرابي فذبه جذبا شديداً وكان عليه برد فخراني غليظ الحاشية ... الحديث . متفق عليه من

حديث أنس (٧) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل الآخرة من حديث سهل ابن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبي من الأنبياء ضربه نومه .

الله له الجنة قيل كيف وقد ظلك؟ فقال: علمت أني أوجر على ما نالني منه فلم أرد يكون نصيبه من الخير ونصيبه من الشر. ودعى أبو عثمان الحميري إلى دعوة - وكان الداعي قد أراد تجربته - فلما بلغ منزل قال له: ليس لي وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فردّه حتى طأله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتخير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فأحسن خلقتك! فقال: إنّ الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا جر أنزح. وروى عنه أيضاً أنه اجتاز يوماً في سكة فطرح عليه إصباحاً فترامد فزلزل دابته فمسجد بحمده الشكر ثم جعل يفيض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً فقبل ألا يزهرتم فقال إن من استحق النار فصول على الرماد لم يحمر له أن يتخضب وروى أن علي بن موسى الرضا رحمه الله عليه كان لو نه يميل إلى السواد - إذ كانت أم سوداء - وكان ينشيطه حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومعنى في بعض حوائجه، فتقدم رجل رستاق إلى باب الحمام ففتح ودخل فزح ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إلى الماء فقام علي بن موسى وامتل جميع ما كان بأمره به، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاق وسع كلامه مع علي بن موسى الرضا لخاف وهرب وغلغلاه، فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب قال: لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماله عند أمة سوداء. وروى أن أبا عبد الله الحياطة كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوس يستعمله في الحياطة فكان إذا غاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يصفيه بذلك ولا يردّها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوس فلم يجده فدفع إلى تلبيذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زافاً، فلما نظر إليه التليذ عرف أنه زائف فردّه عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت هذا المجوس يعاملني هذه العمالة منذ سنة وأنا أصير عليه وأخذ الدراهم منه وأتقيا في البئر ثلاثاً يفر بها مسلماً. وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب الثمرات، وتحسين ما يبذل من السيئات، والتفاس المنعرة، واحتمال الأذى، والرجوع باللامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، ومطابقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولين فوقه. وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتيال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأخفش بن قيس عن ثعلب الحلما فقال: من قيس بن عاصم، قيل ما وبلغ من حله؟ قال: يبيتنا هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فقطع من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فذهبت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وقيل إن أويسا القرنى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تسمعوا ساق فتتمنوني عن الصلاة. وشم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يحميه وكان يقبه فلما قرب من الحى وقف وقال: إن كان قد بقى في نفسك شيء فقله كي لا يسمك بعض سفهاء الحى فيؤذوك وروى أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه قرأه مضطجماً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال، بلى، قال: فاحلك على ترك إجابتي فقال: أبيت عتوتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى. وقالت امرأة لملكك بن دينار رحمه الله:

بإسرائي ، فقال : يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة . وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له : لم تمسكه ؟ فقال : لآتملم الحلم عليه .

فهذه نفوس قد ذلكت بالرياضة فأعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الفس والغلل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو متبني حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهو لامة ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يفتخر بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا يتأهلها إلا القويون والصديقون .

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشووم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أم الأمور وأوكدها والصبيان أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعمله نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ؛ وإن عود الشر وأهل لإهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة التسليم عليه والوالى له . وقد قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ؛ وصيائته بأن يؤدبه ويهذب ويعلمه بحسن الأخلاق ويحفظه من التفرأ السوء ولا يعودوه التثتم ، ولا يجيب إليه الزينة والرفاقية فيضيق عمره في طلبها إذا كبر فهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حصانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا يبركه فيه ، فإذا وقع عليه نشو العسي انجسحت طيبته من الخيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخباثت . ومهما رأى فيه غيائل القيين فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفاً لبعض فصار يستحي من شيء دون شيء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكل العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يحمل بل يستعان على تأديبه بحبائه أو تمييزه ، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدبه فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا يمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل بما يليه وأن لا يلبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظار إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لا يوايل بين القمم ؛ ولا يبلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعوذ الحين الغفاري في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً ، ويضع عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويحسد عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يجيب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقتاعة بالطعام الحسن أى طعام كان ، وأن يجيب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبرسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمختنين وأن الرجال يستنكفون منه ويكثر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستكره ويذمه ، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين يعودوا التثتم والرفاقية ولبس الثياب الفاخرة ، ورض غائلة كل من يسمه ما يرضيه فيه فإن الصبي مهما أمله في ابتداء نشووه خرج في الأغلب ردىء الأخلاق كذا با حوداً سروراً تماماً لحوا ذا فصول وخلطه وكباد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ،

ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم ليتفرد في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأسماء التي فيها ذكر المشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأديب الذين يزعمون أن ذلك من الطرفة ورقة الطبع ، فإن ذلك يفسد في قلوب الصبيان بذل الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فيلبنى أن تكرم عليه ويحازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فيلبنى أن يتغافل عنه ولا يهتمك ستره ولا يكشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسروا أحد على مثله ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد حسارة حتى لا يبالي بالماكشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانيا فيلبنى أن يعاتب سرا ويحطم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القباح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظا هنية الكلام معه فلا يوجه إلا أحيانا ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القباح ، ويلبى أن يمنع عن التوم نهارا فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرس الوطنية حتى تصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التمسك بل يمتد الحشونة في الفرس والملبس والطعم ، ويلبى أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك تعود فعل التيسير ، ويعود في بعض النهار المشي والحركة والريضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره ، ويمنع من أن يقتصر على أقرانه بشيء مما يملكه ولداه أو بشيء من مطامحه وملابسه أو لوحه ودوائه ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بنا له حشمة إن كان من أولاد المحشمين ، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة ؛ وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يصيب في انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة فيحب إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضا ، ويلبى أن يعود أن لا يصدق في مجلسه ولا يمتحن ولا يتعاطى بمحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع التيمين رأسا - صدافا كان أو كاذبا - حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويمنع أن يبتدىء بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره عن هو أكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ويسوع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وخشخشة ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القراء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قراء السوء . ويلبى إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستمتع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب الباليك والدسون . ويلبى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يشعب في اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائميته قلبه ويطل ذكاه وينقص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في التخلص منه رأسا . ويلبى أن يعلم طاعة والده ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز ، فيلبنى

أن لا يساع في ترك الشهادة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويحجب ليس الدياج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع .

ويحترق من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، وكل ما يظلب على الصبيان ، فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الاطعمة أوعية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إلا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وأما دار عز لا دار مقر ، وأن الآخرة دار مقر لا دار عز ، وأن الموت منتظر في كل ساعة ، وأن الكيس المائل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان ، فإذا كان النشوة صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجما ثبت في قلبه كما ثبت النقش في الحجر . وإن وقع النشوة بخلاف ذلك حتى ألق الصبي اللب والفحش والرفقة وشبه الطعام واللباس والتزين والتفاخر بنا قبله عن قبول الحق نبوة الحافظ عن التراب اليابس . فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فإن الصبي مجروره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ^(١) ، قال سهل بن عبد الله التستري : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأظن إلى صلاة خال محمد بن سوار فقال لي يوما : ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك عند قلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك ، الله معي الله ناظر إلى الله شاهدي ، فقلت ذلك ليالي ثم أعلته فقال : قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع في قلبي حلوه ، فلما كان بعد سنة قال لي خالي : افظع ما علبتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فانه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلوة في سرى ، ثم قال لي خالي يوما : يا سهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهداً بأعبائه ؟ ياك والمصيبة ، فكنت أخلو بنفسى فينبوا في إلى المكتسب فقلت : (في لاخشي أن يتفرق على همى ولكن شاربوا العلم أن أذهب إليه ساعة فأتملم ثم أرجع ، فضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خير الشعير اثنتي عشرة سنة ، ف وقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يمشوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأثمت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألت عنها فأجابني ، فأثمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأثادب بأدابه ، ثم رجعت إلى تستر فجعلت فوق اقتصادا على أن يشتري لي بدوهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بخنا من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفيني ذلك البدوهم سنة . ثم حزمتم على أن أطوي ثلاث ليال ثم أظفر ليلة . ثم خمسا ، ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، ثم خرجت أسبح في الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشا الله تعالى قال أحمد : فأوأته أكل للملح حتى لقي الله تعالى :

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدرج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقاءه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حارث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبلها مستهتبا بنعيم الدنيا ولذاتها ، فإن من كانت عنده حمزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الحرزة وقويت إرادته

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

في يمينها بالجوهرة ، ومن ليس مريدا حرت الآخرة ولا طالبا لقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر . ولست أعنى بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمات الشهادتين من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك ينشأ من قول من صدق بأن الجوهرة خير من الحرزة إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا . ومثل هذا المصدق إذا ألف الحرزة قد لا يتذكرها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة ، فإذا كان لا يدرك من الوصول عدم السلوك والممانع من السلوك عدم الإرادة والممانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداية والمذكّرين والهداة بالله تعالى الهادين إلى طريقه والذين على حقارة الدنيا واقترانها وعظم أمر الآخرة ودوامها . فالحق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدهم وليس في علماء الدين من يفهمهم ، فإن قلبه منهم متنبه بجزء عن سلوك الطريق لجهله ، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق ، فصار ضعف الإرادة والجليل بالطريق وتلق العلماء بالهوى سببا لخلق طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتمطلت الطرق لاعتادة ، فإن قلبه متنبه من نفسه أو من تلقه غيره وانتهى له إرادة في حرت الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شروطا لابد من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصم لابد من اتسكه به ، وله حصن لابد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لابد من ملازمها في وقت سلوك الطريق .

أما الشروط التي لابد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدا فاغشى عنهم أبصارهم) .

والسد بين المرید وبين الحق أربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية . وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ، فإما ما يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل . وإنما يرفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإثارة الخزل والحرب من أسباب الذكر وتماطل أعمال تنفر قلوب الخلق عنه . وإنما يرفع حجاب التقليد بأن يترك التمسك بالذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ، تصديق إيمان وبحر من تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى . وأعظم معبود له الهوى . حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لامن المجادلة ، فإن غلب عليه التمسك لمعتدة ويق لم في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيده لا حجابا إذ ليس من شرط المرید الالتفات إلى مذهب معين أصلا . وأما المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق التوب على ماضى ورد المظالم وإرضاء المحضوم ، فإن من لم يصحح التوبة ولم يجر المصالح الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب ، فإن ترجمة عريضة القرآن لابد من تقديمها أولا ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابد من تصحيح الشريعة أولا وآخرها ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها .

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتمجّدت عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به ، فكذلك المرید يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لأعانة ليهدي إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبيل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لأعانة ، فمن

سلك سبل البرادى المهلكة بنير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثر . فتمتص المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به متمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يقوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعتها شيئاً ولا يثر ، وليلم أن نفعه فى خطأ شيخه لأخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا الملتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحسن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر . وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليناهد به ربه ويصلح لقربه .

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفى رياضته نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رفته ، وورقة مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ضاقت مسلك المدق فإن مجاريه العروق المتأثرة بالشهوات . وقال عيسى عليه السلام : يامشر الخواريين جوعاً بطونكم لعل قلوبكم ترى ركنكم ! وقال سهل بن عبد الله التستري : ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال ، يا خصام البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس . ففائدة الجوع فى توير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة . وسأنى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين وأما السهر فإنه يجلو القلب ويصميه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرأة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحقارة الدنيا وأفاتها ، فتنبذ بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة . والسهر أيضاً نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن ، والثوم يقضى القلب ويمتد إلى إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل فى صفة الأبدال : إن أكلمهم فافهم غلبة وكلامهم ضرورة . وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : أجمع رأى سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وأما الصمت فإنه تسهل العزلة ، ولكن للمعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدير أمره ، فينبغى أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشرة القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ويستقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه . فالصمت يلقح العقل ويحلب الورع ويعلم والتقوى .

وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دليلان القلب . والقلب فى حكم حوض نصب إليه مياه كريمة كدرة قدرة من أنهار الخواص ، ومقصود الرياضة تفرغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء التنظيف الطاهر ، وكيف يصح له أن ينزع الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص ؟ فلا بد من ضبط الخواص إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة فى بيت مظلم ، وإن لم يكن له مكان مظلم فليقل رأيه فى جيبه أو يتستر بكساء أو إزار ، وفى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغته وهو على مثل هذه الصفة قليل له ؟ يا أيها الزمّل - يا أيها المدر (١) .

(١) حديث : « بئس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر قليله (يا أيها الزمّل - يا أيها المدر) متفق عليه من حديث جابر » جاورت بجرا فلما قضيت جوارى مبيت فتوديت فتفارت عن يميني ... الحديث » وفيه « فأبليت خديجة فقلت : دثروني وصبروا على الماء بارداً فدثروني وصبروا على ماء بارداً » قال فزلت (يا أيها المدر) وفى رواية فقلت « زملوني زملوني » ولها من حديث عائشة فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الورع .

فهذه الأريية جنة وحسن بها تدفع عنه التواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق . فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلك الطريق . وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عتبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الانسلاخ إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض . والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأهل فالأهل . وهي تلك الصفات ؛ أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة ، وآثارها ؛ أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشؤف إلى الماصي ، فلا بد أن يحل الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة ، وفيه تطول المجاهدة ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ؛ فرب شخص قد كفي أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة ، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبية على نفس المرء . كاسبق ذكره . فإذا كفي ذلك أو ضغف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة ؛ شغله بذلك بذكر يلزم قلبه على الله . أم ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة ؛ بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً . وهو لباب الأوراد ومفتاحها ؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلق من ذكر غيره ، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علاقته . قال السبيل للحصري : إن كان يحضر قلبك من الجملة التي تأتيني فيها إلى الجملة الأخرى شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني . وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يصحكون في صورة الماشق المستتر الذي ليس له إلا هم واحد . فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال ، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال ، وعند ذلك يلقته ذكر من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً : الله . أو : سبحان الله سبحان الله . أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يجمي عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة . غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه ، لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره — أي شيء كان .. فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود دخلاً لا عملاً عن غيره ، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وسوس القلب والخواطر التي تهلق بالدنيا وما يتدكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره ، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً نقصاناً ، فيلجئ في دفع ذلك . ومهما دفع الوسوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءت الوسوس من هذه الكلمة ، وأنها : ما هي ؟ وما معنى قولنا : الله ؟ ولا معنى كان لها وكان معبوداً ؟ ويعتبر به : عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وسوس الشيطان ما هو كفر وبدعة . ومهما كان كارهاً لذلك ومتشكراً لإماتته عن القلب لم يضره ذلك . وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزّه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويحصره على خاطره ، فطره أن يبال به ويفزح إلى ذكر الله تعالى ويبتذل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى ﴿ وإما يفرغك من الشيطان نزع فاستمذ بالله إلهه سميع عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يمرض ذلك على شيخه ، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فقرة أو نشاط أو التفات إلى علة أو صدق في لإرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً ، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكليسته ، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تلبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من التورم ما يكشف له حقيقة ، وإن علم

أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، ويعينى أن يتأقن الشيخ وتبلغ به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها ، فكمن من مرید اشتغل بالرياسة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؛ وذلك هو الهلاك العظيم . ومن تجرد للذكر ودفع الملائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الآفة . كإفائه قدرك سفيهاً لخطر ، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من المالكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بدین المجائر »^(١) وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير ، فإن الخطر في المدول عن ذلك كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المرید فإن لم يكن ذكياً فنعنا متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر ، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجربين للفكر للشغله بركتهم فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال يئس أن يسقى القوم ويشهد دواهم ليحشر يوم القيامة في زميرتهم وتممه بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم ، ثم المرید المتجرد للذكر والفكر قد يقطع قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقفاً ، بل يئس أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيض عليه ويدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلق .

قال بعض السابحين : قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون في الدنيا كأنك طائر طريق . وقال مرة : قلت له دلتى على عمل أجدر قلبى فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لى : لا تنتظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بدنى من ذلك ، قال : فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لى من ذلك ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لا بد لى من معاملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهمهلكة ، قلت : هذا لعله ، قال : يا هذا أنتظر إلى العافلين وتسمع كلام المجاهلين وتعامل البطالين وترى أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا ما لا يكون أبداً .

فإذا انتهى الراحنة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره فلا يطلو المجاهدة ، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلي له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يحجز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً ، وإذا انكشف للمرید شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصيحاً ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراها لذة ، فتدعو تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المغانق وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وترتيبها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتقبل إليه القلوب والاسماع ، فربما ينجبل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك قلوب الموقن العافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام ، فإنه يتحرك في باطنه عقيب الحسد للاحالة إن كان حركة كيد القبول وإن

(١) حديث « عليكم بدین المجائر » قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سنية حتى رأيت حديثاً لحديث بن عبد الرحمن بن السلفي عن ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا كان في أكثر الزمان واختلف الأهواء فليكن بدین أمل البادية » والنسائي وابن السلفي عن ابن عمر نسخة كان يقيم موضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن جبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلفي والله أعلم .

كان محرّكاً هو الحق حرصاً على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول : الحمد لله الذي عضدني وأبدى بين وأزرنى على إصلاح عباده . كالأى وجب عليه مثلاً أن يحمل ميتاً ليدهته إذ وجده ضالماً وتبين عليه ذلك شرماً فجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه ، والغافلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنبّهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصرفين أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزيز على الوجود جداً فينبغي أن يكون المرید على حذر منه فإنه أعظم حائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أرائل الطريق فإن إثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ثم بين أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك المذكور في الكتب السالفة فقال (إن هذا لي الصفح الأول صفح إبراهيم وموسى) فهذا منهاج رياضة المرید وتربيته في التدرج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتى فإن أغلب الصفات على الإنسان بطلته وفرجه ولسانه - أعنى به الشهوات المتعلقة بها - ثم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاء وإذا طلب المال والجاء حدث فيه الكبر والمجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسمع نفسه بترك الدنيا رأساً وتمسكه من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتبتين أن نستكمل ربيع المهلكات بثانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب في كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب في آفات اللسان ، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب في ذم الكبر والسجب ، وكتاب في مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربيع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والنتيجات ، وما ذكرناه في الكتاب الثانى هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب . أما تفصيلها فإنه يأتى في هذه الكتب إن شاء الله تعالى . ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال وكبريائه وتعالیه ، المستحق للتعظيم والتقدیس والتسبیح والتزیه ، القائم بالعدل فيما يرمه ويقضيه ، المتفوّل بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارد ومجاريه ، النعم عليه بما يزيد على مهابت مقاصده بل بما ينفع بأمانه ، فهو الذى يرشده ويهديه ، وهو الذى يمتيه ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذى يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحييه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلك ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناوئه ، ويكسر به شهوة النفس التى تماديه ، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه ، هذا

بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهي ، ويكثر عليه ما يبيع بوائعه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يتحنه به ويتبلى ، فينظر كيف يؤثره على ما هو أود ويتحنه ، وكيف يحفظ أوامرهم وينتهي عن نواهيهم ، ويرواظ على طاعته وينجز عن معاصيهم . والصلاة على محمد عبده النبي ، ورسوله الوجيه ، صلاة ترفقه وتحطيه ، وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من صفته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتأييده .

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الدل والافتقار ؛ إذ نبها عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلتا منها فبدت لهما سوءاتهما . والبطن على التحقيق يتفوق الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يقبها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ؛ ثم تتبع شهوة الطعام والشكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطلوبات ؛ ثم يتبع استكثار المال وإلجاء أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ؛ ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغفلة التناخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى وانكسر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطين ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإثارة المعالجة على المعنى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوامضها وآفاتنا تحذيراً منها ، ويجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبية على فضلها ترغيباً فيها ، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها . ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم قوائمه ، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضائله باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة ، ثم القول في شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله ؛ ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش »^(١) ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه »^(٢) ، وقيل يا رسول الله أي الناس أفضل ؟ قال « من قل مطعمه وضعك ورضي بما يستعونه » يأتي الكلام عونه^(٣) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف »^(٤) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البسوا وكفوا واشربوا في أنصاف البطون فإنه جزء من التوبة »^(٥) ، وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة »^(٦) ، وقال الحسن أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكيراً في الله سبحانه ، وأبغضكم

كتاب كسر الشهوتين

(١) حديث « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش » لم أجده أصلاً (٢) حديث ابن عباس « لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه » لم أجده أيضاً (٣) حديث : أي الناس أفضل ؟ قال « من قل مطعمه وضعك ورضي بما يستعونه » يأتي الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث (٤) حديث « سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف » (٥) حديث أبي سعيد الخدري « البسوا وكفوا واشربوا في أنصاف البطون » (٦) حديث « الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة »

عند الله عز وجل يوم القيامة كل ثوم أكل شراب^(١) ، وفي الخبر : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجوع من غير عوز^(٢) ، أي مختاراً لذلك وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يباهي الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا بأمانتي ما من أكلة يذهبها إلا أبدلتها بها درجات في الجنة^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يمتيتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزورع يموت إذا كثرت عليه الماء^(٤) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لابعد فأعلا فثلك لطعامه وثلك لشراه وثلك لنفسه^(٥) ، وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه : إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا ، الأخفيا الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا ، تعرفهم بقاع الأرض وتعف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل ، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباب والركب ، ضيع الناس فعل التبيين وأخلاقهم وحفظوا هم ، تبكى الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكلموا على الدنيا تكلم الكلاب على الجيف أكلوا الملق ولبسوا الخرق شعثاً غبراً يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء ، ويقال قد دخلوا فذهب عقولهم وما ذهب عقولهم ولكن نظر القوم بقاوبهم إلى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا ، فهم عندئذ الدنيا يمضون بلا عقول عقلوا حين ذهب عقول الناس ، لهم الشرف في الآخرة ، يا أسامة إذا رأيتم في بلدة فاعلم أنهم أمان لآمل تلك البلدة ولا يذهب الله قوماً هم فيهم ، الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض . اتخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجو بهم . وإن استطعت إن يأتيك الموت ويطنك جائع وكيدك ظمآن فافعل . فإنه تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين ، وتفرح بقدمهم روحك الملائكة ويصل عليك الجبار^(٦) .

روى الحسن عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وآله تعالى عليه وآله وسلم قال : البسوا الصوف وشربوا وكفوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء^(٧) ، وقال عيسى عليه السلام : يا مشركي الجوارين أجمعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل^(٨) . وروى ذلك أيضاً عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس . وقيل مكتوب في التوراة : إن الله يفيض الحب السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك يبيع خصوصاً بالحبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعالى يفيض القسارى السمين وفي خبر مرسل : إن

(١) حديث الحسن : أفنك عند الله الملوكة جوعاً ولا كراً ... الحديث : لم أجعله إلا حديثاً متقدماً أملاً (٢) حديث كان يجوع من غير عوز ... أي مختاراً لذلك — أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث مالك : قالت لوشنا أن لبيع لقينا واسكن بمدا صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه . ولأنه مفضل (٣) حديث : إن الله تعالى يباهي الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا ... أخرجه ابن دى في السكامل وقد تقدم في السيام (٤) حديث : لا يمتيتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب الحديث : لم أتف له على أصل (٥) حديث : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ... الحديث : أخرجه الترمذي من حديث الألبان وقد تقدم .

(٦) حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة : أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه .. الحديث : بولاه أخرجه الخطيب في الوعد من حديث سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقدمه وبأخيه . ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات وفيه حجاب بن عبد الله بن جبة أحد السكاذين وفيه من لا يعرف وهو متعلم أيضاً ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه (٧) حديث الحسن من أبي هريرة : البسوا الصوف وشربوا وكفوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف . (٨) حديث طاوس مرسل : أجمعوا أكبادكم ... الحديث : لم أجده أيضاً .

الشیطان لیجرى من ابن آدم بحرى الدم فضيقوا مجاریه بالجوع والعطش^(١) ، وفى الخبر ، إن الأكل على الشبع یورث البرص^(٢) ، وقال صلى الله تعالى علیه وسلم « المؤمن يأكل فی معی واحد والمنافق يأكل فی سبعة أمعاء^(٣) » ، أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوره سبعة أضعاف شهره . وذكر المعنى كناية عن الشهوة لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعنى . وليس المعنى زیادة عدد معی المنافق على معی المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم یقول « أدبوا قرع باب الجنة یفتح لکم ، فقل : کیف ندیم قرع باب الجنة ؟ قال « بالجوع والظلم^(٤) » ، وروى « أن أبا جحيفة تمشأ فی مجلس رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم فقال له « أقصر من جشائك فلن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكرم شیعاً فی الدنيا^(٥) » وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول : إن رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم لم یتمل قط شیئاً وربما بكيت رحمة بما أرى به من الجوع فأمسح بطنه یدى وأقول : نفسى لك الغذاء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما بقولك وتملكك من الجوع ؟ فيقول « يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا مضوا على حالهم ففسدوا على ربهم فأكرم ما بهم وأجزل ثوابهم فأجندى استمعى إن ترفعت فی معیشتى أن یقصر فی غذائهم فاعصبر أیاماً یسيرة أحب إلى من أن یقتصر حظى غدا فی الآخرة وما من شیء أحب إلى من اللعوق بأصحابی وإخوانى » قالت عائشة : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إلیه^(٦) ، وعن أنس قال : جاءت فاطمة رضوان الله علیها بکسرة خبز إلى رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم فقال « ما هذه الکسرة » قالت : قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتینک منه بهذه الکسرة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى علیه وآله وسلم « أما إنه أول طعام دخل فم أیکم منذ ثلاثة أيام^(٧) » وقال أبو هريرة : ما أشبع النبی صلى الله تعالى علیه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الخطة حتى فارق الدنيا^(٨) ، وقال صلى الله تعالى علیه وآله وسلم « إن أهل الجوع فی الدنيا هم أهل الشبع فی الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون للملأى وما ترك عبد أكلة یشتیها إلا كانت له درجة فی الجنة^(٩) » .

وأما الآثار : فقد قال عمر رضى الله عنه : إياکم والبطنه فلأنها تمقل فی الحياة تنن فی المات . وقال شقیق البلخی البسادة حرفة حانوتها الخالة وآلتها النجاعة . وقال لقمان لابنه : یا بنی إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحکمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وكان الفضیل بن عیاض یقول لنفسه : أى شیء تخافین ؟ أتخافین أن تجوعه ؟ لا تخافن ذلك ؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما یجوع محمد صلى الله تعالى علیه وسلم وأصحابه . وكان کهمس یقول لملی

(١) حدث « إن الشیطان لیجرى من ابن آدم بحرى الدم ... الحديث » تقدم فی الصیام دون الزیادة التى فی آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبی الدنيا فی مکاید الشیطان من حدیث علی بن الحسین دون الزیادة أيضاً .

(٢) حدث « لن الأکل على الشبع یورث البرص » لم أجده أصلاً (٣) حدیث المؤمن يأكل فی معی واحد والکافر يأكل فی سبعة أمعاء » تنقل علیه من حدیث عمر وحدث أبی هريرة . (٤) حدیث الحسن عن عائشة « أدبوا قرع باب الجنة ... الحديث » لم أجده أيضاً (٥) حدث : أن أبا جحيفة تمشأ فی مجلس رسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم فقال « أقصر من جشائك فلن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكرم شیعاً فی الدنيا » أخرجه البیهقی فی الذهب من حدیث أبی جحيفة وأصله عند الترمذی وحسنه وابن ماجه من حدیث ابن عمر : همذان رجل . الحديث . لم يذكر أبا جحيفة .

(٦) حدیث عائشة : أنه صلى الله تعالى علیه وسلم لم یتمل شیئاً قط وربما بكيت رحمة لما أرى به من الجوع الحديث . أخرجه أبو موسى المدینی مطولاً فی کتاب استئصال الموت وأورد منه عیاض فی الشفاء (٧) حدیث أنس : جاءت فاطمة بکسرة خبز لرسول الله صلى الله تعالى علیه وسلم ... الحديث أخرجه المارث بن أبی أسامة فی مسنده بسند ضعیف (٨) حدیث أبی هريرة : ما شبع النبی صلى الله تعالى علیه وسلم ثلاثاً أيام تباعاً من خبز الخطة حتى فارق الدنيا . أخرجه مسلم وقد تقدم (٩) حدیث « لن أهل الجوع فی الدنيا هم أهل الشبع فی الآخرة » أخرجه الطبرانی وأبو یوسف فی الحلیة من حدیث ابن عباس بأسناد ضعیف .

اجتمعتي وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلسنني فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني؟ وكان فتح الموصلي إذا اشتد مرضه وجوعه يقول : إلهي ابتليتنى بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أزدى شكر ما ألتمت به علي ؟ وقال مالك بن دينار : قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غلبة قوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض . وكان الفضيل بن عياض يقول : إلهي أجمعتني وأجمعت عيالي وتركنتني في ظلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك ؟ وقال يحيى بن معاذ : جوع الراغبين منبهة وجوع الثابتين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة . وفي التوراة اتق الله وإذا شعبت فأذكر الجوع : وقال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشاى أحب الي من قيام ليلة إلى الصبح ، وقال أيضا : الجوع عند الله في خزانته لا يعطيه إلا من أحبه . وكان سهل بن عبد الله التستري يطوى نيفا وعشرين يوماً لا يأكل ، وكان يكفيه طعامه في السنة درهم ، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافي القيامة عمل ير أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله . وقال : لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا . وقال : لأعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال : وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت للمصيبة والجهل في الشبع . وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال . وقد جاء في الحديث : نلت الطعام فن زاد عليه فأفما يأكل من حسنته ^(١) . وسئل عن الزيادة فقال : لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين ، فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال صار الأبدال أبدالاً إلا بإخاض البطون والسهر والصمت والخلوة . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ، ورأس كل جور بينهما الشبع . وقال : من جوع نفسه انقطعت عنه الراساس . وقال : إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والمجد . وقال : مامر على وجه الأرض أحد شرب من هذا المادحى روى فلم من المصيبة - وإن شكر الله تعالى - فكيف الشبع من الطعام ؟ وسئل حكيم بأى قيد أفيد نفسى ؟ قال : قيدها بالجوع والمطش ، وذلكها بإحمال الذكرو ترك السر ، وصفرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، وأكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتنا بدوام سوء الظن بها ، واصحبها بخلاف هواها . وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ماضى أحدا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع ، وقال أبو طالب المكي : مثل البطن مثل المهر وهو العود المجوف ذو الأوتار - إنما حسن صوته لحفته ورقته لأنه أجوف غير متين ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للنائم . وقال أبو بكر بن عبادة المزني : ثلاثة يجهلهم الله تعالى : رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة . وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الحنجر فاقطع عن المناجاة فلذا رغيه موضوع بين يديه ، فجلس يبكي على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى : بارك الله فيك يا أولي الله ادع الله تعالى فإني كنت في حالة خطر يبال الحنجر فاقطعت عني ، فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الحنجر خطر يبال منذ عرفتك فلا تنفعل ، بل كان

إذا حضر لشيء أكلته من غير فكر وخطر . وروى أن موسى عليه السلام لما قرّبه الله عز وجل نجياً كان قد ترك الأكل أربعين يوماً - ثلاثين ثم عسرا - على ما ورد به القرآن ؛ لأنه أمسك بغير تبييت يوماً فزيد عشرة لأجل ذلك .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك ، ولعلك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو ؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المدة ومقاساة الأذى ؛ فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه لحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى به جراحه ؟ فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به ووطن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط ، بل نفسه في خاصية في الدواء وليس لكونه مرا ، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا بممارسة العلماء ومن جوع نفسه مصداقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أنّ من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً .

ولكننا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فنقول : في الجوع عشر فوائد .

القائدة الأولى : صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يتعمى على معادن الفكر فيقتل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك ، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطلاً الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني : عليك بالجوع فإنه مذهب للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السابى . وقال صلى الله عليه وسلم «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترقى»^(١) ، ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القنطرة مثل السحاب ، والحكمة كالملطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أجاج بطنه عظمت فكرته وطفن قلبه »^(٢) وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من شبع ونام قسا قلبه ، ثم قال « لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع »^(٣) ، وقال الشبل : ما جمعت لله يوماً إلا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصول إلى المعرفة والاستيعاب بمقتضى الحق ، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة فيالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخسرت الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامي : الجوع صحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والندى منهم . لا تشبعوا

(١) حديث « أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترقى » لم أجده إلا في (٢) حديث « من أجاج بطنه عظمت فكرته وطفن قلبه » كذلك لم أجده إلا في (٣) حديث « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « إن لكل شيء زكاة ولأن زكاة الجوع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم » وإسناده ضعيف

فتطفتوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام بات الحور حوله .^(١) .

القائدة الثانية : رقة القلب وصفاته التي به يتبها لإدراك لذة المثابة والتأثر بالذكر ، فكمن ذكر مجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قوة القلب ، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخلق المعدة هو السبب الأظهر فيه ، وقال أبو سليمان الداراني : أحلى ما تكون إلى العبادة إذا التصق ظهري بطني . وقال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين صدره بخلة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وحطش صبا ورق ، وإذا شبع عوى وغلط ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة .^(٢) .

القائدة الثالثة : الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشرف الذي هو . بدأ الطغيان والتفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع فتدرك تسكين لربها وتخضع له وتعقب كل عجزها وذلك إذا ضعفت منها وضافت حيلتها بلقيسة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاة ولا فقهره ، وإنما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا لنفسه بين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والفقهر ، فليكن دائما جامعا مضطرا إلى مولاة مشاهدا للامطرار بالذوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايل أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت »^(٣) ، أو كما قال . فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع . ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالشرق والغرب ، فالتقرب من أحدهما يبعد من الآخر .

القائدة الرابعة : أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ؛ ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبان ينسى الجامع وينسى الجوع ، والعبد يفعل لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه طش الحلق في عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى إنهم ليحورون فيقطعون الضريع والزقوم ويسقون النساق واللعل ، فلا ينبغي أن ينسب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذي يبيع الخوف ، فلم يكن في ذلة ولا علة ولا فلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم ينقلب على قلبه ، فينبغي أن يكون البعد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمعة سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى استنصاح البلاء بالأنبياء والأولياء والأئمة فالأئمة . ولذلك قيل ليرسف عليه السلام : لم تجوع وفي يدك خزان الأرض ؟ فقال : أعاف أن أشبع فأنسى الجامع . فذكر الجامعين والمحتارين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل . والشبان في غفلة عن ألم الجامع .

القائدة الخامسة : وهي من أكبر الفوائد . كسر شهوات المعاصي كالباطل والاستيلاء على النفس الأماراة بالسوء ، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لأحالة الأنظمة ، فتفعلها بضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة في أن تملكه نفسه ، وكما أنك لا تملك الدابة الجروح لا يضعف الجوع فإذا شبعت قويته وشردت وجمحت ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم : ما بالك مع كبرك لا تتمتع بذلك

(١) حديث « نور المسكة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ... الحديث » ذكره أبو منصور الهذلي في مسند القردوس من حديث أبي هريرة وكتب عليه أنه مسند وهو علامة ما رواه بإسناده (٢) حديث « أجوع يوما وأشبع يوما ... الحديث » بلدم وهو عند الترمذى .

وقد أنهت؟ فقال: لأنه سريع المرح فأحس الأثر فأعاف أن يجمع في فيورطنى، فلأن أحله على الشدائد أحب إلى من أن يجملى على الفواحش. وقال ذو النون: ما شيعت قط إلا عصيت أو همت بمصية: وقالت عائشة رضى الله عنها: أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشبع.

إن القوم لما شيعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست قاعدة واحدة بل هي خزان الفوائد. ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزان الله تعالى وأقل ما يدفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجماع لا يتحرك عليه شهوة فضول السلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والغيبة وغيرها، فيمنعهم الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكك لأحالة بأعراض الناس، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

وأما شهوة الفرج: فلا تحفى فائلتها، والجوع يكتئب شرها. وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منتهه التقوى فلا يملك عينه، فالعين ترى كما أن الفرج يرى، فإن ملك عينه بنض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا، وإلا لجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع. قال حكيم: كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الحزن البحت سنة لا يخلط به شيئا من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء.

القاعدة السادسة: دفع التوم ودوام السور، فإن من شبع شرب كثيرا، ومن كثر شربه كثر نومه ولاجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاش المريدين لأنما كالأكل كثيرا فقتربوا كثيرا فافتقدوا كثيرا فقتضروا كثيرا. وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة التوم من كثرة الشرب. وفي كثرة التوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلاذة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والتوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تحفى وفي التوم فوائدها. ومهما غلب التوم فإن تهجد لم يجد حلالة العبادة، ثم المتعرب إذا نام على الشبع احتلم ويمنه ذلك أيضا من التهجد، ويحوجه إلى الفسل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على حورة في دخول الحمام، فإن فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع. وقد قال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر النسل في كل حال. فالنوم منبع الآفات، والشبع مجلبة له؛ والجوع مقطعة له.

القاعدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والحلال، ثم يكثرت ردة إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والنجاة وسائر العبادات لكثرت ربحه. قال السرى رأيت مع على الجرجاني سويقا يستف منه قنك: ما حلك على هذا؟ قال: (إن حبيت ما بين المضغ إلى الاستغاف سبعين تسبيحة فما مضفت الحيز منذ أربعين سنة. فأنظر كيف أشفق على وقته ولم بضيعه في المضغ. وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبى أن يستوفى متخايرة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الحروج لكثرة شرب الماء

ورأفته . ومن جلته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة وتعدر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الاغلاط في المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ويوشق القلب وينزع من الذكر والفكر وينقص العيش ويجورج إلى الفسد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يتخلو الإنسان منها بعد التمتع عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات ، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندي ، ورومي ، وعراقي ، وسوادي . وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لاداء فيه . فقال الهندي : الدواء الذي لاداء فيه عندى هو الإهليلج الأسود . وقال العراقي : هو حب الرشاد الأبيض . وقال الرومي : هو عندى الماء الحار . وقال السوادي : وكان أصلهم — الإهليلج يصفص المعدة وهذا داء ، وحب الرشاد يزيل المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء . فقالوا : فما عندك ؟ فقال الدواء الذي لاداء معه عندى أن لا تأكل الطعام حتى تشتهي ؛ وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهي . فقالوا : صدقت وذكر بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « تلك للطعام وتلك للشراب وتلك للنفس »^(١) فتعجب منه وقال ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لسكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم : « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء »^(٢) واعتاد^(٣) . وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذلك ، وقال ابن سالم : من أكل خبز الخنطة يحتاج بأدب لم يمتلئ إلا لعلة الموت . قيل : وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار : « إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ؛ ولأن يقلل من المسالك خير له من أن يستكثر من الرمان . وفي الحديث صوموا تصحوا »^(٤) وفي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما .

الفائدة التاسعة : خفة المؤونة فإن من تعود قلة الأكل كفاء من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع صار بطنه غريباً ملازماً له أخذاً بمنهته في كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يبتدأ عين الطمع إلى الناس وهو غايلاً للذل والقناعة والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء : « إن لا تضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح قلبي . وقال آخر : إذا أردت أن أستقر من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي قتركت الشهوة فهي خير غريم لي . وكان إبراهيم ابن آدم رحمه الله يسأل أصحابه عن سر لما كولات فيقول إنها غالية فيقول : أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله : « الأكل مذموم في ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل ، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات »

(١) حديث « تلك الطعام » تلمذ أيضاً (٢) حديث « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء » وهذا كل بدن بما اعتاده لم أجده أصلاً .
(٣) حديث « صوموا تصحوا » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو يعقوب في الطب النبوي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

وبالجمل سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا ، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج ، وسبب شهوة الفرج ، شهوة البطن . وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « أدبوا قربع باب الجنة بالجوع ، فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً وصار حراً واستغنى عن الناس واستراح من التعب ، وتغلب لمباداة الله عز وجل وتجارة الآخرة ، فيكون من الذين لا تلهمهم تجارة ولا يسع عن ذكر الله وإنما لا تلهمهم لاستغنائهم عنها بالقناعة ، وأما المحتاج قتلها لاحتالة .

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على البتاي والمساكين ، فيكون يوم القيامة في ظل صدقة^(١) كما ورد به الخبر : فما يأكله كان خزائنه الكثيف وما يتصدق به كان خزائنه فضل الله تعالى ، فليس العبد من ماله إلا ما تصدق فأبى أو أكل فأبى أو لبس فأبى ، فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التثمة والشبع . وكان الحسن رحمه الله عليه إذا تلا قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ قال عرضها على السموات السبع والطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحلة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فقالت : لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبى ، ثم عرضها على الجبال الشواخ الصلاب الصماب فقال لها : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ فذكر الجواز والمقربة فقالت : لا ، ثم عرضها على الإنسان لعلها إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأسر به . فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافاً فافذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم ، وأسعوا برأذنيهم وأمرلوا دينهم ، وأنعموا أنفسهم بالفنود والرواح إلى باب السلطان يتشرون البلاد وهم من الله في حافية ، يقول أحدهم تباعني أرض كذا وكذا وأزديك كذا وكذا ، يتكلم على شمله ويأكل من غير ماله ، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكلفة وزلت به البطنة قال : يا غلام أنتي بشيء أعرض به طمأى ، يالكع أطعامك تهضم ؟ إنما تهضم دينك ، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم ؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاغف الوزر عليه . ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك^(٢) » أى لو قدمته لأخوتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لآكله فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بضعة لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تنفد فوائدها ، فالجوع خزنة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغية . بل ذلك صريح في الإخبار التي رويها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان

(١) حديث « كل امرئ في ظل صدقة » أخرجه الحاكم من حديث عتبة بن حامر وقد فهم .

(٢) حديث : نظر إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك » أخرجه

أحمد والحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب من حديث جعدة الجشمي ولما ساهه جيد .

واقه أعلم بالصواب .

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد في بطنه وما كوله أربع وظائف : الأول أن لا يأكل إلا حلالاً فإن العباداة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام ، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتبهات وتركها .

أما الوظيفة الأولى : في تقليل الطعام ، فسيول الرياضة فيه التدرج ، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته ، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً ، أو جزءاً من ثلاثين جزءاً ، فيرجع إلى رغيف في شهر ، ولا يستعسر به ولا يظهر أثره ، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالشاهدة ، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقص مما أكله بالأمس . ثم هذا فيه أربع درجات .

أقسامها : أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين . وهو اختيار سهل التسرى رحمة الله عليه إذ قال : إن الله استبد الحائق بثلاث ، بالحياة ، والعقل ، والقوة . فإن غاب العبد عن اثنين منها وهى الحياة والعقل ، أكل وأضرل إن كان سائماً . وتكلف الطلب إن كان فقيراً . وإن لم ينف عليماء بل على القوة قال ، فينبغي أن لا يلايل . ولو ضعف حتى صلى قاعدا وأرى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يقاتل به فقال . كان فوق في كل سنة ثلاثة دراهم ، كنت أخذ بدمهم دبساً ، وبدمهم دقيق الأرز ، وبدمهم سناً ، وأخلط الجميع وأسوى منه ثلثهما وستين أكرة ، أخذت في كل ليلة أكرة أفطر عليها ، ففيل له : فالساعة كيف تأكل ؟ قال : بغير حد ولا توقيت : ويحك عن الرهايين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام :

الدرجة الثانية : أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم واليلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين - كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم - وهو فوق اللقيات لأن هذه الصيغة في الجمع لقلة فهو لما دون العشرة ، وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه إذ كان يأكل سبع قم أو تسع قم .

الدرجة الثالثة : أن يرد ما إلى مقدار اللد ، وهو رغيفان ونصف ، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين ، ويكاد يبتلى إلى ثلثي البطن ، ويبقى ثلث الشراب ولا يبقى شيء . والذكر . في بعض الالتقاط . فذلك الذكر . بدل قوله في النفس ، الدرجة الرابعة : أن يزيد على اللد إلى المن ، ويشبه أن يكون ما وراء المن سراً عاتفاً لقوله تعالى (ولا تسرفوا) أعني في حق الأكثرين ، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالنس ، والشخص ، والعمل الذي يشتغل به . وهنا طريق عامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط ، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يقين له حد الجوع الصادق ، ويشبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة .

وقد ذكر الجورج الصادق علامات ؛ إحداهما : أن لا تطلب لنفسك الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة - أي خبز كان - فها طلبت نفسه خبزاً بعينه أو طلبت أدماً فليس ذلك بالجورج الصادق . وقد قيل : من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه ؛ أي لم يبق فيه دغينة ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ، ومعرفة ذلك غامض . فالصواب للريد أن يقدر مع نفسه القدر الذي لا يصفه عن العبادة التي هو يصدها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته . وعلى الجملة : فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من خنطة في كل جمعة ، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً ، وصاع الخنطة أربعة أمداد ، فيكون كل يوم قريباً من نصف مد - وهو ما ذكرناه أنه قدر تلك البطن - واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبوذر رضي الله عنه يقول : طمأني في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئاً حتى أتاه فاني سمعته يقول : « أفرىكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم »^(١) ، وكان يقول - في إنكاره على بعض الصحابة : قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، وخبرتم للرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم^(٢) وللرد طرولك ويسقط منه الترى . وكان الحسن رحة الله عليه يقول للمؤمن مثل المنيرة يكفيه الكف من الحشف والتبضع من السوق والجربة من الماء ، والمتماق مثل السبع الضاري . بلما يلما وسرطاً سرطاً لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أعماه بفضله ، وجوها هذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر التوام فقط .

الوظيفة الثانية : في وقت الأكل ومقدار تأخيرها وفيه أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فافوقها ، وفي المريد من رد الرياضة إلى العلى لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً ، وانتهى إليه جماعة من العلماء بكثير قدمهم منهم : محمد بن عمرو القرني ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، ورجيم ، وإبراهيم التيمي ، وحجاج بن عرافقة ، وحفص العابد المصيصي ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبد الله التستري ، وإبراهيم بن أحمد الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن الثوري وإبراهيم بن آدم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً ، كل ذلك كانوا يستمتعون بالجورج على طريق الآخرة . قال بعض العلماء من طوى الله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة من رهاب فذا كره بحاله وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من التور ، فكله في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الزاهد : إن المسيح كان يطوى أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لشيء أو صديق ، فقال له الصوفي : فإن طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنت على باطل ؟ قال : نعم ، فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً ، ثم قال : وأزيدك أيضاً فطوى إلى تمام الستين ، فتمتع الزاهد منه وقال : ما كنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح ؛ فكان ذلك سبب إسلامه .

(١) حديث أبي زر « أفرىكم مني مجلساً يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ما هو عليه اليوم » أخرجه أحمد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو إسحق في الحلية دون قوله « وأحبكم إلى » وهو منقطع (٢) حديث : كان قوت أهل الصفة مداً من تمر بين اثنين في كل يوم » أخرجه الحاكم وصححه استناداً من حديث طلحة البصري .

وهذه درجة عظيمة قل من يبلنها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ماظمه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه في لذته وأنساء جوعته وحاجته .

الدرجة الثانية : أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة .

الدرجة الثالثة : وهي أدناها أن يقتصر في اليوم واليلية على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع ، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة ، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتمش وإذا تمشى لم يتغد (١) وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما نشأ « إياك والسرف ، فإن أكلتين في يوم من السرف ، وأكلة واحدة في كل يومين إقتار ، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك » (٢) وهو المأمود في كتاب الله عز وجل .

ومن افنصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجّد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار الصيام وجوع الليل للقيام ، ويخلو القلب لفرغ المعدة ورقة الفكر ، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازع قبل وقته . وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قياماً قط ، وإن كان يقوم حتى تورم قدماء ، وما واصل وصالحاً قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر (٣) وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر (٤) فإن كان يشتت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشتله عن حضور القلب في التهجّد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين ، فإن كان رغبين مثلاً أكل رغبياً عند الفطر ورغبياً عند السحر ، لتسكن نفسه ويثقف بدنه عند التهجّد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجّد وبالثاني على الصوم . ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الفطر ، ويوم صومه وقت السحر . فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه .

الوظيفة الثالثة : في نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام غي البر فإن نخل فهو غاية الترفه ، وأوسطه شعير منخول ، رادناه شعير لم ينخل . وأعلى الأدم اللحم والحلاوة ، وأدناه الملح والخل ، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم . وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الإدام بل الدوام بل الامتناع عن الشهوات ، فلن كل لذبة يشتيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه وأنساء بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى ، وتصير الدنيا جنة في حقه ويكون الموت سبباً له . وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سبباً عليه ومضيئاً له فاشتقت نفسه الإنفلات منها ، فيكون الموت إطلاقاً . وإليه الإشارة بقول يحيى ابن ماذ حيث قال : معاشر الصديقين جوعوا أنفسهم لولية الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس . فكل ماذ كرهناه من آفات الشبع فإنه يجرى في كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول بإعادته ، فذلك يعظم الثواب

(١) حديث أبي سعيد الخدري : كان إذا تغدى لم يتمش وإذا تمشى لم يتغد « لم أجده له أصلاً (٣) حديث : قال لعائشة « إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السرف » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال في إسناده ضعف (٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة : ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قياماً قط هذا فتوأن كان يقوم حتى ترلع قدماء . رواه النسائي مختصراً : كان يصل حتى ترلع قدماء . وإسناده جيد . (٤) حديث : كان يواصل إلى السحر . لم أجده . وفيه وأما هو من قوله « فأياكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » رواه البخاري من حديث أبي سعيد : وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه .

في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة »^(١) ، وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يبعس ، ومن دام عليه أيضاً فلا يبعس ببقائه ، ولكن تربي نفسه بالتعمق فتأسف بالذات وتأسف للذات وتسمى في طلبها فيجرها ذلك إلى للمعاصي فهم شرار الأمة ، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاص . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتي الذين غنوا بالتعمق ونبتت عليه أجسامهم »^(٢) ، وإنما همتهم أوزان الطعام وأنواع اللباس ويتشددون في الكلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات . وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيق الأطلعة وتجرب النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روى أن وهب بن منبه قال : التقي ملائكة في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لفته الله ، وقال الآخر : أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شربة ماء بارد بمسمل وقال : اعزلوا عني حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات . كما أوردناه في كتاب رياضة النفس . وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتفى سمكة طرية فاقسمت له بالمدينة فلم توجد ، ثم وجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت له بدرهم ونصف فوسيت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام : لنها برغيفها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتيتها منذ كذا وكذا فلم نجدتها فلما وجدتني اشتريتها بدرهم ونصف ، فتحن نعليه منها ، فقال : لنها وادفعها إليه ، ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهماً وتركها ؟ قال : نعم فأعطاه درهماً وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال : قد أهبطت درهماً وأخذتها منه ، فقال : لنها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فأتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيا امرئ اشتهى شهوة فرة شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعل الدنيا وأهلها الدمار »^(٤) ، أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والمطش ودفع ضررها دون التمتع بلذات الدنيا ، وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمول له : إذا علت أنه قد حضر عشاءه فأعطني ، فأعطيه فدخل عليه فقرب عشاءه فأتوه بمرسلهم فأكل معه عمر ، ثم قرب الشواء وبسط يزيد وكف عمر يده وقال : الله يا يزيد بن أبي سفيان أطعمنا بعد طعام ؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتكم عن سلتهم ليلخالفنكم عن طريقتهم . وعن يسار بن عمير قال : ما خلعت لعمر دقيقاً قط إلا وإناله حاص . وروى أن حبة الغلام كان يسبح دقيقه ويحرقه في الشمس ، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهبأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من جب كان في الشمس تناره

(١) حديث « شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة » لم أجده أصلاً (٢) حديث « شرار أمتي الذين غنوا بالتعمق . الحديث » أخرجه ابن عدي في السكامل ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان من حديث طائفة بفتح رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث طائفة بنت الحسين مرسلًا ، قال الدارقطني في الملل : أنه أشبه بالصواب ، ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث طائفة بإسناد لا بأس به . (٣) حديث نافع : أن ابن عمر كان مريضاً فاشتفى سمكة ... الحديث . وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيا امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب التوابيع بإسناد ضعيف جداً ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

(٤) حديث « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعل الدنيا وأهلها الدمار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

فقتول مولاته له : يا عبته لو أعطيتني دقيقك لغيره لك وبردت لك النساء ؟ فيقول لها : يأم فلان قد شردت عنى كلب الجوع .

قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم بن آدم بمكة في سوق الليل - عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم - يكنى وهو جالس بناحية من الطريق فمدت لي يده وقلت : إيش هذا البكاء بأبأ يا صبي ؟ فقال : خير ، فعاودته مرة واثنين وثلاثاً ، فقال : يا شقيق استر على فقلت يا أخي قل ما شئت ، فقال لي : اشتبت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجاً فنفعتها جهدي ، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبني التماس إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يملؤ منه بخار ورائحة سكباج ، قال : فاجتمعت بهنقى عنه فقزبه وقال : يا إبراهيم كل ، فقلت : ما أكل قد تركته لله عز وجل ، فقال لي : قد أطعمك الله كل ، فما كان لي جواب إلا أنا بكيت ، فقال لي : كل رحلك الله ، فقلت : قد أمرنا أن لا نلطح في وعاءنا إلا من حيث نعلم ، فقال : كل عاكك الله فإنما أعطيتني ، فقبل لي يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن آدم فقد رحما الله من طول صبره على ما يصعبها من منعه . اعلم يا إبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون : من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يسط ، فقلت : إن كان كذلك فما أنا بدينك لأجل القدح مع الله تعالى ، ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال : يا خضر لقمه أنت ، فلم يزل يلتقني حتى نلست فأنتهت وحلاته في فنى ، قال شقيق : فقلت أرني كذلك ، فأخذت بكفه فقبلتها وقلت : يا من يعلم الجيعاء السموات إذا صححو اللحم ، يا من يتدح في الضمير اليقين ، يا من يشقى قلوبهم من عبته ، أنرى لشقيق عندك حالاً ؟ ثم رفعت يدي إبراهيم إلى السماء وقلت : بقدر هذا الكلف عندك وبقدر صاحبه بالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك ، قال : فقام إبراهيم ومضى حتى أدركنا البيت .

وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشقى لبنا فلم يأكله . وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه : كلوا فما ذقت منذ أربعين سنة ، وقال أحمد بن أبي الخوارى . اشتبى أبو سليمان الداراني رغيفاً حاراً بملح بلحيت به إليه ففصص منه عضة ثم طرسه وأقبل يكنى وقال : عجلت إلى شهورى بعد إطالة جهدى واشفقى قد عرمت على التوبة فأفانى ! قال أحمد . فما رأيته أكل للحم حتى لقي الله تعالى . وقال مالك بن ضيف مررت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسى : لو أطعمتني الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها لإياه أربعين ليلة . ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بصرة قط وقال . يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بصرة فما زاد فيكم ما نقص منى ولا نقص منى أزيد فيكم . وقال . طلقت الدنيا ، منذ خمسين سنة ، اشتبت نفسي لبنا منذ أربعين سنة فوافقه لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى . وقال حماد بن أبي خنيفة . أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعت يقول . نفسى اشتبت جزراً فأطعمتك جزراً ، ثم اشتبت تمرأ فآليت أن لا تأكله أبداً ، فسلبت ودخلت فإذا هو وحده . ومز أبو حازم يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتباها ، فقال لابنه . اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة المنوعة لملئنا نذهب إلى الفاكهة التى لا مقطوعة ولا منوعة ، فلما اشتراها رأى بها إليه قال لنفسه : قد خدعتننى حتى نظرت واشتبت وغلبتني حتى اشتريت والله لا ذقتيه فبعت بها إلى يتامى من الفقراء وعن موسى الأشجع أنه قال . نفسى تشقى ملحا جريشا منذ عشرين سنة . وعن أحمد بن خليفة قال : نفسى تشقى منذ عشرين سنة ما طبلت منى إلا الماء حتى تروى فأرويتها . وروى أى عتبة الغلام اشتبى لحماً سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال : استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين - سنة بعد سنة - فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها

وتركتها على رغيف فلقيت صبيًا فقلت ، ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك ؟ قال . بلى ، فناولته إياها قالوا . وأقبل يبكي ويقرأ (ويعطمون الطعام على حبه مسكينا ويتيها وأسيرا) ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهي ثمرا ستين ، فلما كان ذات يوم اشتري ثمرا بجيراط ورفعوه إلى الليل ليفطر عليه قال . فهبث ورج شديد حتى أغلقت الدنيا ففزع الناس ، فأقبل عتبة على نفسه يقول : هذا لجرائم عليك وشرائئ القرب بالقيراط ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ؟ على أن لا تذوقيه . واشتري داود الطائي بنصف فلس بقل وبفلس خلا ، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه . وبلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ، ثم لم يأكل بعده إلا فقارا ، وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد . إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال : لأنك تأكل مع خبزك تمر وهو لا يريد على الخبز شيئا قال : فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال . نعم ؛ وغيرها فأخذ يبكي فقال له بعض أصحابه لا بأك الله عينك أهل التمر تبكي ؟ فقال عبد الواحد دعه ؛ فإن نفسه قد عرفت صدق هرمة في التمر ، وهو إذا ترك شيئا لم يمارده . وقال جعفر بن نصر . أمرني الجنيد أن أشتري له الثين الوزيري ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعتها في فمه ثم ألقاها وجعل يبكي ، ثم قال . احمله فقلت له في ذلك فقال . هتب في هاتف أما تستحي ؟ تركته من أجل ثم تعود إليه ؟ وقال صالح المري . قلت لعطاء السلي إلى متكلف لك شيئا فلا ترد على كرامتي ؟ فقال . أفضل ما ترد ، قال . فبشت إليه مع ابني شربة من سوق قد لته سمن وعسل ، فقلت : لا يبرح حتى يشربها ، فلما كان من الند جعلت له سمحوا فردها ولم يشربها ، فماتت به ولته على ذلك وقلت . سبحان الله رددت على كرامتي ! فلما رأى وجدى لذلك قال . لا يسوءك هذا ، إنى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) الآية قال صالح . فيبكت وقلت في نفسى . أنا في واد وأنت في واد آخر . وقال السري السقطي . نفسى منذ ثلاثين سنة قطابني أن أغرس ججرة في دبس فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء . أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبرك على طى عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتيتها ، فيقول لها : لا أريد أن تقوى عشرة أيام ولكن أترك هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرفة لينتار أجودها فقال له العابد . مه أى شيء نضع ! أما علمت أن في الرغبة الذي رغبته عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا أصنافا ، حتى استندار من السحاب الذى يحمل المأم والماء الذى يسقى الأرض والرياح والأرض والبهائم وبنى آدم حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقبله ولا ترضى به .

وفي الخبر . لا يستدير الرغبة ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثة وستون صائغا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى ترجى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الحياض (وإن تمدوا نعمة الله لا تحصوها) ^(١) ، وقال بعضهم : أتيت قاسما الجرعى فسأته عن الزهد أى شيء هو ؟ فقال : أى شيء سمعت فيه ؟ فمددت أظفالا فسكت فقلت : رأى شيء يقول أنت ؟ فقال : أعلم أن البطن دنيا البد يفتقر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ، وبقدر ما يملك بطنه يملك الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطيب يسأله عن شيء يوافقه من المأكولات ، فقال : لسألتني فإذا وصفت لك لم تقبل منى ، قال : صف لى حتى أسمع ، قال : تشرب سكتنجيتنا وتمص سفرجلا وتأكل

(١) حديث « لا يستدير الرغبة ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثة وستون صائغا أولهم ميكائيل .. الحديث » لم أجده أصلا

بعد ذلك اسفيد باجا ، فقال له بشر : هل تعلم شيئا أقل من السكجيين يقوم مقامه ، قال : لا ، قال : أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الهندبا بالحل ، ثم قال : أعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الخرنوب الشامى ، قال : فمعرفة شيئا أقل من الاسفيدباج يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف : ماء الحصى بسمن البقر في معناه ، فقال له عبد الرحمن : أنت أعلم منى بالبطلب ؟ فلم تسألنى ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء اهتموا من الشهوات ومن الشيع من الأقوات ، وكان امتناعهم للقوائد التي ذكرناها ، وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان : الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة . وهذا هو النهاية . فن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا ينفل عن نفسه ولا ينمك في الشهوات ، فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهي ، ويفعل كل ما يهواه فينبغي أن لا يرباط على أكل اللحم . وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن دأوم عليه أربعين يوما فسا قلبه . وقيل إن للداومة على اللحم ضراره كضراره الخمر . ومهما كان جائعا وتأقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجماع ، فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع . ويستحب أن لا ينام على الشيع فيجمع بين غفلتين فيعاد الفتور ويقس قلبه لذلك ، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر . وفي الحديث : أذنبوا طعامة بالذكر والصلاة ولا تاملوا عليه فتقسو قلوبكم ^(١) ، وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن عقيب أكله . فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليل أحياما ، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر ، وكان يقول : أشبع الزمجي وكده ومرة يقول : أشبع الحمار وكده . ومهما اشتبى شيئا من الطعام وطيبات الفراء فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتنا ، ولا تكون تفكها لتلاجمع النفس بين عادة شهوة . فظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له : ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك . ومهما وجد طعاما لطيفا وغلظا فليقدم اللطيف فإنه لا يشبى الغليظ بعده ، ولو قدم الغليظ لآكل اللطيف أيضا الطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه : لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحرمها ، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبد الله ابن عمر رحمة الله عليهما : ما أتينا من العراق فأكفه أحب إلينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فأكفه .

وعلى الجملة لاسبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فيقدر ما يستوفى العبد من شهوته يحسب أن يقال له يوم القيامة (أذهبت طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) ويقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الممار الآخر بشهواته . قال بعض أهل البصرة : نازعتني نفس خبز أرز وسحما فتمتتها ، فقومت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة ، فلما مات قال بعضهم : رأيته في المنام فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال : لا أحسن أن أصف ما تلقاني به في من التعم والكرامات ، وكان أول شيء استعطين به خبز أرز وسحما . وقال : كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب . وقد قال تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان : ترك شهوة من الشهوات أنعم للقلب من صيام سنة وقيامه . وقتنا الله لها يرضيه .

(١) حديث « أذنبوا طعامة بالصلاة والذكر ولا تاملوا عليه فتقسو قلوبكم » أخرجه الطبراني وابن السكيت في اليوم واليلة من حديث عائشة بنت ضيف .

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيله واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أنَّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق : الوسط ، إذ خير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم . وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومي " إلى أنَّ الإفراط فيه مطلوب ومهبات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أنَّ كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه ، على وجه يومي " عند الجاهل إلى أنَّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بنهاية الإمكان . والعالم يدرك أنَّ المقصود الوسط ، لأنَّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع يبنئ أن يمدح غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقوامان ويحصل الاعتدال ، فإنَّ من يقدر على قمع الطبع بالكيفية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية ؛ فإنه إن أسرف - مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إفساده ، كما أنَّ الشرع بالغ في التناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نبى عنه ^(١) فإذا عرفت هذا فاعلم أنَّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بنقل المعدة ولا يحس بالم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، ونقل المعدة يمنع من العبادة والم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها . فالمقصود أن يأكل أكلاً لا يبقى للمأ كول فيه أثر ليكون مقشها بالملاكمة فإنهم مقدسون عن نقل الطعام ولم الجوع ، وغاية الإنسان الاعتدال بهم . وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال

ومثال طلب الأدنى البعد عن هذه الأطراف للتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نعمة أقيمت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض ، فإنَّ النخلة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط ، فلو كانت مائت على الوسط لأنَّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة ؛ فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنخلة ، والملاكمة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يذهب بالملاكمة في الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط ، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم " خير الأمور أوسطها ^(٢) " ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوى على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع .

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جوعاً مقشوة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع ، كما يبالغ في إيلام العذبة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مرينه بما لا يتماطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ، ويمنه الفواكه والشهوات ، وقد لا يمتنع هو منها ، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماع والامتاع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع الذي يحس باله في أكثر الأحوال لتتسكر نفسه . والمقصود أن تتسكر حتى

(١) حديث : النبي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله . هدم (٢) حديث " خير الأمور أوسطها " أخرجه البيهقي في الصعيح مسنداً وقد هدم .

تستدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضا إلى الاعتدال . وإنما يتسع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة : إما صديق وإما مغرور أحق .

أما الصديق المستقيم : فلا سقاية نفسه على الصراط المستقيم واستثنائه عن أن يساق بسياس الجوع إلى الحق . وأما المغرور : فلفظه نفسه أنه الصديق المستثنى عن تأديب نفسه الفطن بها خيرا . وهذا غرور عظيم وهو الألب . فإن النفس قلما تتأدب تأديبا كاملا ، وكثيرا ما تنظر فتتظفر إلى الصديق ومساحته نفسه في ذلك فيساق نفسه ، كالمرضى ينظر إلى من قد صح من مرضه فيقال ما يتأوله ويظن بنفسه الصحة فهلك . والذي يدل على أن تنسب الطعام بمقدار يسير - في وقت مخصوص ونوع مخصوص - ليس مقصودا في نفسه - وإنما هو مجاهدة نفس متناهية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقول لا يفطر ويفطر حتى يقول لا يصوم ^(١) وكان يدخل على أهله فيقول : هل عندكم من شيء . فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال : إني إذن صائم ^(٢) . وكان يقدم إليه الشيء فيقول : أما إني قد أردت الصوم . ثم يأكل ^(٣) . وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال : إني صائم . فقالت له عائشة رضي الله عنها : قد أهدى إلينا حين فقال : كنت أردت الصوم ولكن قريبه ^(٤) .

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له : كيف كنت في بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات ، منها : أنه كان يقاتل ورق التيق مدة . ومنها : أنه أكل دقائق التين مدة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه أقات ثلاثه دراهم في ثلاث سنين فقبل له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ فقال : أكل بلا حد ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت : أني أكل كثيرا ، بل أني لا أقدر بمقدار واحد ما أكله . وقد كان معروف الكرخي يهدي إليه طيبات الطعام فيأكل كل ، فقبل له : إن أحاك بشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتني المرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي فلذا أطعمني أكلت وإذا جوعني صبرت ، مالي والاعتراض والتقيز ؟ ودفع إبراهيم بن آدم إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذ لنا بهذه الدرام زيدا وعسلا وخيرا حواريا فقبل : يا أبا إسحق بهذا كله ؟ قال ويحك إذا وجدنا أكل الرجال وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه نفرا يسيرا فهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف إنما الإسراف في اللباس والأثاث .

فأخذ العلم من السباع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن آدم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة . وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يفسخ جزرة في دبس لافضل . فإياه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما خطي . والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى

(١) حديث عائشة : كان يصوم حتى يقول لا يفطر ويفطر حتى يقول لا يصوم . متفق عليه . (٢) حديث : كان يدخل على أهله فيقول : هل عندكم من شيء . فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال : إني صائم . أخرجه أبو حنيفة والترمذي وحسنه والنسائي من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتي . (٣) حديث : كان يقدم إليه الشيء فيقول : أما إني قد أردت الصوم . أخرجه البيهقي من حديث عائشة بلفظ : وإن كنت قد فرغت الصوم . وقال إسناده صحيح وعند مسلم : قد كنت أصبحت صائما . (٤) حديث : خرج وقال : إني صائم . فكانت عائشة يارسول الله قد أهدى إلينا حين فقال : كنت أردت الصوم ولكن قريبه . أخرجه مسلم بلفظ : قد كنت أصبحت صائما . وفي روايه له : أدنيه فقد أصبحت صائما . فأكل ولم يلفظ البيهقي : إني كنت أريد الصوم ولكن قريبه .

اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعا فطن محتاط أو غبي مغرور . فيقول المحتاط : ما أنا من جملة المافرين حتى أساع نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سرى السقطى ومالك بن دينار ، وهؤلاء من المستعين عن الشهوات فيقتدى بهم . والمغرور يقول : ما نفسي بأعصى على من نفس معروف الكرخي وإبراهيم بن آدم فافتدى بهم وأرفع التقدير في ما كوتلى ، فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فالى وللاعتراض ؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض ، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحق ، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والثبوت ، فيكون بينه وبين آفة علامة في استرساله واقتباضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة الكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا في أكله وإفطاره ، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضى الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب غسل وبأكله ^(١) ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لما عرضت عليه شربة باردة بمروجة بسمل جعل يدير الإناء في يده ويقول : أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى بيمتها . اعزلوا عني حسابها ، وتركها .

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ إن يكشف بها مریده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعو إلى الاعتدال فإنه بقصر لا يحصل عما يدعو إليه . فينبغي أن يدعو إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال . ولا يدكره أن العارف الكامل يستغنى عن الرياضة ، فإن الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيبقى إليه كل ساعة : إنك عارف كامل ، وما الذى فاتك من المعرفة والسكال . بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريدين كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا ينظر بيا له أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياسته . والقوى إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه التزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتلطفاً في سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان الاعتدال خفياً في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغى أن لا يترك في كل حال . ولذلك أدب عمر رضى الله عنه ولده عبدالله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحماً مادوماً بسمن ، فعلاه بالدرة وقال : لأأم لك كل يوماً خبزاً ولحماً ، ويوماً خبزاً ولبناً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وزيتاً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً قفاراً . وهذا هو الاعتدال ، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف ، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم .

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

أعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات : إحداهما : أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فقتلتها ، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفى الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفى ، مثل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له : هل تعلم به بأساً ؟ قال يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة ، بل حتى العبد إذا ابتلى بالشهوات وحسب أن يظهرها فإن هذا صدق الحال ، وهو يدل عن قوأت المجاهدات بالأعمال ، فإن إخفاء النفس وإظهار ضده من السكال هو نقصان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً للمتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين .

(١) حديث : كان يحب غسل وبأكله . متفق عليه من حديث عائشة : كان يحب الملوأه والسمل ... الحديث . وفيه قصة فربه السمل عند بئى الساء .

ولذلك شد أمر المتأففين فقال تعالى ﴿ إن المتأففين في البرك الأسفل من النار ﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وسر ، فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فيها الكفر من ظاهره . والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والنش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمزله من قلب الخلق . وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تليس حاله ليصرف عن نفسه قلوب التأففين حتى لا يشوشون عليه حاله .

فنهاية الزهد : الزهد في إظهار حنّده وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذابين . وهذا قد حل على النفس قتلين وجزعها كأس الصبر مرتين مرة بشر به مرة برمي . فلاجرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . وهذا يضاهي طريق من يعطى جهراً فيأخذ ويرد سراً ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سراً . فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته وتقصانه والصدق فيه . ولا ينبغي أن يفتره قول الشيطان : إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك ، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره ، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره ، فذلك قتل عليه ظهور ذلك منه واعلم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به في الفعل أو لا ينجس باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن يتدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات ، فقد خالف شهوة خفية وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه ، وتلك هي الشهوة الخفية فهما أحسن بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة أكد من كسر شهوة الطعام فليأكل كل فهو أولى له . قال أبو سليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصّب منها شيئاً يسيراً ولا تخط نفسك منها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نصبت عليها إذ لم تعطها شهوتها . وقال محمد بن جعفر الصادق : إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منها ، وإن أخفت شهوتها وأظهرت المزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً ، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالنسبة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب ووقع إلى حية ؛ لأن شهوة الرياء أضرب كثيراً من شهوة الطعام والله ولي التوفيق .

القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لغايتين ؛ إحداهما : أن يدرك لذته فيفيس به لذات الآخرة . فإن لذّة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد . والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى مسعاداتهم وليس ذلك إلا بالم محسوس ولذّة محسوسة مدركة ، فإن مالا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق .

الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل في تأويل قوله تعالى ﴿ ربنا ولا تجعلنا مالا طاعة لنا به ﴾ معناه شدة النبلّة ، وعن ابن عباس : في قوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال في تفسيره : الذكر إذا دخل . وقد قيل : إذا

قال ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله ^(١) . وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمى وبصرى وقلي وهني ومنى ^(٢) » وقال عليه السلام « النساء حبايل الشيطان ولولا هذه الشهوة لمساكن للنساء سلطنة على الرجال ^(٣) » .

وروي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً ؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه فقال : السلام عليك يا موسى ، فقال له موسى من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، فقال : لا حياك الله ما جاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمزكك من الله ومكاتبك منه ، قال : فما الذي رأيته عليك ؟ قال : برنس أختطف به قلوب بني آدم قال : فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أعجبت نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، وأحدرك ثلاثاً : لا تحفل بأمرأة لا تحفل لك فإنه ما خلا رجل بأمرأة لا تحفل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أنتهت بها وأقتبها به ، ولا تماهد الله عهداً إلا وفيت به ، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يعضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولي وهو يقول : علم موسى ما يجدر به بنى آدم . وعن سعيد بن السيب قال : ما بهت الله نبياً فيما خلا إلا لم يأس إبليس أن يهلكه النساء ولا شيء أخوف عندي منهن ، وما بالمدينة بيت أدخله إلا يتي ويبت أبقى أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح . وقال بعضهم : إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرى به فلا أخطئ ، وأنت موضع مرى وأنت رسول في حاجتي . فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب .

وأعظم الشهوات شهوة النساء . وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفریط واعتدال ، فالإفراط : ما يقهر العقل حتى يصرف همه الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجواري ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجرى اقحام الفواحش . وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين :

أحدهما : أن يتناولوا ما يؤتى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع - كما قد يتناول بعض الناس أودية تقوى الملعدة لتعظم شهوة الطعام - وما مثالك إلا كن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهيجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها ، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص .

• فإن قلت . فقد روي في غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الحريسة ^(٤) » ؟ فأعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتناع ، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن ، فكان طلبه القوة لهذا لا للتنع .

والأمر الثاني . أنه قد تنهت هذه الشهوة ببعض الضلال إلى المشق وهو غاية الجهل بما وضع لها الوقاع ، وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم لأن المتشقق ليس يتقنع بإراقة شهوة الوقاع وهي أفحش الشهوات وأجدرها أن يستحي منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تمنع إلا من عمل واحد ، والبهيمة تمنع الشهوة أين انفق فتكتفي به ؟ وهذا لا يمكن

(١) حديث ابن عباس موقوفاً مستنداً في قوله تعالى (ومن شر غاسق إذا وقب) قال هو قيام الفكر وقال القتيبي أسنده : الفجر لذا دخل . هذا حديث لأصله (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمى وبصرى وقلي وهني ومنى » تقدم في المصوات (٣) حديث « النساء حبايل الشيطان » أخرجه الأصفهاني في الترفيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهمي بإسناد فيه جهالة . (٤) حديث « شكوت إلى جبريل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الحريسة » أخرجه الشافعي في المغنا ، والطبراني في الأوسط من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

إلا بشخص واحد معين حتى يرداد به ذلاً إلى ذل وعبودية إلى عبودية ، وحتى يستخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون عادماً للشهوة ومحتالاً لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لاهله . وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر ، وإلا فإذا استحك عصر دفعه . فكذلك عشق المال والجاه والمغار والأولاد حتى حب القلب بالطيور والورد والشرطج ، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنقص عليهم الدين والدنيا ولا يصيرون عنها ألبنة .

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبجائه مثال من يصرف ضان الغاية عند توجهها إلى باب لتدخله ، وما أهورن منها بصرف غناها . ومثال من يمالجها بعد استحكامها مثال من يترك البداية حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنها ويجرها إلى ورائها . وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر ، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بمجهود جهيد يكاد يؤدي إلى نزاع الروح .

فإن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جداً . وتفريطها : بالنعى أو بالضعف عن إمتناع المنكحة ، وهو أيضاً مذموم . وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومعتدلة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والتكساح قال صلى الله عليه وسلم : « معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء »^(١) .

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفصله

اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجيره إلى الآنس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يفترقه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى^(٢) فلا تناس الملائكة بالمخادبين . ولذلك قال أبو سليمان النازاني : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ؟ وقال : ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأول : وقيل له مرة : ما أحولك إلى امرأة تأنس بها ؟ فقال : لا أنسى الله بها ، أي أن الآنس بها يمنع الآنس بالله تعالى ، وقال أيضاً : كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم . فكيف يناس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به ؟ وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يحد أحترقه فيه إلى حد كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قلبه فيهدمه . فذلك كان يضرب يده على خذ عائشة أحياناً ويقول : « كلبتي يا عائشة » لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لتصور طاعة قلبه عنه^(٣) فقد كان طبعه الآنس بالله عز وجل ، وكان أنه بالخلق عارضا وفقاً بيته ، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال : « أرخصاً بها يا بلال »^(٤) ، حتى يعود إلى ما هو قرة عينه^(٥) فالضيق إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأهتمام تنصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم . فشرط المريد العزلة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة ، هذا إذا لم تقبله الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فإن لم تنفع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً وإن قدر على حفظ الفرج فالتكساح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلا فهما لم يحفظا عنه لم يحفظ عليه فكره

(١) حديث « معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ... الحديث » تقدم في النكاح (٢) حديث : كان لا يشغل قلبه عن الله تعالى جميع ما في الدنيا . تقدم (٣) حديث : كان يضرب يده على خذ عائشة أحياناً ويقول « كلبتي يا عائشة » لم أجده أصلاً (٤) حديث « أرخصاً بها يا بلال » تقدم في الصلاة (٥) حديث : إن الصلاة كانت قرّة عينه . تقدم أيضاً

ويتفرق عليه مه ، وربما وقع في بلية لا يطيقها . وزنا العين من كبار الصنائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج . ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه . قال عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فلها بزوع في القلب شوبة وكفى بها فتنة . وقال - سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة . ولذلك قال لابنه عليه السلام : يا بني امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام : ما به الزنا ؟ قال : أنظر والتمني . وقال الفضيل : يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لا أخطئ به يبنى النظر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً ينجى حلالته في قلبه ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : ما تركت بدى فتنة أضر على الرجال من النساء ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء ^(٣) . وقال تعالى ﴿ قل للذين آمنوا ينفصوا من أبصارهم ﴾ الآية وقال عليه السلام : لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعيناان تزيان وزناهما النظر ، واليدان تزيان وزناهما البطش ، والرجلان تزيان وزناهما المشي ، والتميز من زناه القبلة ، والقلب يهيم أو يتنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ^(٤) . وقالت أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام : احتجبا ، فقلنا : أوليس بأعمى لا يبصر ؟ فقال : وأنتما لا تبصرانه ؟ ^(٥) . وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العباين كما جرت به العادة في المآثم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لنظر حاجة ، وإلّا يجوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالتسكح أول به ، فإن الشر في الصبيان أكثر ، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالتسكح . والنظر إلى وجه العبي بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بهمال صورة الأمد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر إليه .

فإن قلت : كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لإعالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة ؟ فأقول : لست أحنى تفرقة العين فقط ، بل ينبغي أن يكون إدراك التفرقة كإدراك التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة ، وبين ماء صاف وماء كدر ، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها ، فإنه يميل إلى إحداها بعينه وطبعه ولكن ميلا غاليا عن الشهوة ، ولأجل ذلك لا يشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتجميلها ، ولا تقبل الماء الصافى ، وكذلك الشهية الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها . ويعرف ذلك يميل النفس إلى القرب والملازمة . فهما وجد ذلك الليل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين الثبات الحسن والألوان اللقمة والسقوف المذهبة فنظرة نظر شهوة فهو حرام ، وهذا مما يتأبون به الناس ويجرم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون .

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب التاسك من غلام أمد يمسك إليه . وقال

(١) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس . الحديث » تقدم أيضاً (٢) حديث « ما تركت بدى فتنة أضر على الرجال من النساء » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدرى (٤) حديث « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعيناان تزيان... الحديث » أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أنس بن مريم وإثلق عليه الثبائن من حديث ابن عباس نحوه (٥) حديث أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال « احتجبا » الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذى وقال حسن صحيح .

سفیان : لو أنّ رجلا عبت بغلام بين أصميين من أصابع وجهه يريد الشهوة لكان لواطاً . وعن بعض السلف قال : سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف ينظرون ، وصنف يصالحون ، وصنف يعملون .

فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة . فهما عجز للمريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح : فرب نفس لا يمكن توفاتها بالجوع .

وقال بعضهم : غلبت على شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثر الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصا في المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدم إلى ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها في فؤادى وجميع جسدى ، فأصبحت وقد زال ما بين فقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك فأكثر الاستغاثة فأطاعني شخص في المنام فقال لي : أجب أن يذهب ما يجده وأضرب عنقه ؟ قلت : نعم ، فقال : مذكرت بك ، فحدثها بجزء سيفاً من نور فضرب به عنق فأصبحت وقد زال ما بين فقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصا فيا بين جنبي وصدرى يخاطبني ويقول : ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يجب رفعه ؟ قال : فتزوجت فانتقع ذلك عني وولدي .

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه ، أما في ابتدائه فبالنية الحسنة ، وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة - كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول بإيجاده - وعلامة صدق إرادته أن يشكح فقيرة متدبنة ولا يطلب النية . قال بعضهم : من تزوج غنية كان له منها خمس خصال ، مغالة الصداق ، وتسويق الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة . وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها . والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم : ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقته : بالنس ، والطول ، والمال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع : بالجمال ، والادب ، والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخلق .

تزوج بعض المريدن بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استجيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ما ذهب إلى الخلاه قط إلا وحل المساء قبل إليه ؟ وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقيحها ، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك ، فقيل له في ذلك فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا ، فقيل له : قد سبقت لإخوانك بهذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيأتى بها ، فإن تزوج للمريد فهكذا ينبغي أن يكون ، وإن قدر على الترك فهو أدنى له ، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله ، كما روى أن محمد بن سليمان الهامشي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلماؤها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابطة المدوية رحمة الله تعالى فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم ، وليس تبقي الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني . فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابي هذا فهي زادك وقدم لمادك وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصيائك فيقتسموا

ترائك ؛ نعم الدهر وليكن فطرك الموت . وأما أنا فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خولك وأضعافه ما سرتني أن أشتغل عن الله طرفة عين .

وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان ، فلينظر المرء إلى حاله وقلبه فإن وجدته في العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز عن ذلك فالتكاح أولى به . ودواء هذه الالة ثلاثة أمور : الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بشغل يستولى على القلب . فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالتكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى التكاح وإلى تزويج البنات ، قال سعيد بن المسيب ما أيسر لإليس من أحد إلا وأناه من زبل النساء ، وقال سعيد أيضا - وهو ابن أربع وعشرين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعيش بالآخرى - ما شيء أعرف عندي من النساء ، وعن عبد الله بن أبي وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفتقدني أياما فلما أتيت قال أين كنت ؟ قلت : توفيت أمي فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فتشبهناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟ قلت : نعم ، فحكى الله تعالى ومن يزوجني وما أمك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، فحشد الله تعالى وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين - أو قال ثلاثة - قال : فمقت وما أدري ما أصنع من الفرج ؟ فصررت إلى منزلي وجعلت أفكر من أخذ ومن أستدين فمضيت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت ، وكنت صائما فقدمت عشائي لأفطر - وكان خبزا وزيتا - وإذا بابي يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال : فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب - وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد - قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بنا له ، فقلت : يا أبا محمد لو أرسلك إلى لايتلك ؟ فقال : لا ، أنت أحق أن توتى ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا حرياً فتزوجت فمكرت أن أبيتك اليلة وحده ، وهذه امرأتك ، وإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ يدها فدفنها في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران لجاموني وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحك زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها اليلة على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجك ؟ قلت : نعم ؛ قالوا وهي في النار ؟ قلت : نعم ، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمي لجامت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقت ثلاثة ثم دخلت بها ؛ فإذا هي من أجل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ؟ قال : فكنت شهرا لا يأتيني سعيد ولا أتيه ؛ فلما كان بعد الشهر أتيت وهو في حلقتي فسلت عليه فرد على السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما حال ذلك الإنسان ؟ قلت : بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن ربك منه أمر فدونهك والمصا فانصرفت إلى منزلي فرجته إلى بعشرين ألف درهم . قال عبد الله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنته الوليد حين ولده المهد فأتى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحث على سعيد حتى خربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف . فاستعجال سعيد في الزفاف تلك اليلة يمر فك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى تحلفته نأرها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح

يستحي منه ويخشى من اقتحامه ، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه ، وليس في شيء من ذلك ثواب فإنه إثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصمة أن لا يقدّر في هذه العواطف فائدة وهى دفع الإثم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمها بسبب كان تركه ؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل من تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عشق فف ففكم فأت فهو شهيد ^(١) » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .. وعدّ منهم : رجل دعت امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إلى أخاف الله رب العالمين ^(٢) » وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة ، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة .

وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسألت نفسه فامتنع عليها وخرج هارباً من منزله وتركها فيه . قال سليمان : فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكان يقول له أنت يوسف ؟ قال : نعم أنا يوسف الذى هممت وأنت سليمان الذى لمهمهم أشار إلى قوله تعالى (ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا . وذلك أنه خرج من المدينة حاجاً ومعه رفيق له حتى زلّ بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرى وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً ، وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجل الناس وجهاً وأورعهم ، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه . وعليها البرقع والقفازان . فأسفرت عن وجه لها كأنه فلق قر وقالت أهنتى ؟ فظن أنها تريد طعاماً فقام إلى فضلة السفرى ليعطيها فقال : لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله ؟ فقال : جهرك إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في التحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلّت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فراه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال : خير ذكرت صديق . قال : لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصديقك منذ ثلاث أو نحوها ، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية ، فوضع رفيقه السفرى وجعل يبكي بكاء شديداً فقال سليمان : وأنت ما يبكيك ؟ قال : أنا أحق بالبكاء منك لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسمى وطاف ثم أتى الحجر ، فاحتجى بوبه فأخذته عينه فقام وإذا رجل وسيم طوال له شحارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان : رحلك الله من أنت ؟ قال له : أنا يوسف ، قال : يوسف الصديق ؟ قال : نعم ، قال : إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ! فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب .

وروى عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى آروهم للبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسد عليهم النار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغقب قبلهما أهلاً ولا مالاً » فأتى في طلب الشجر يوماً فلم أرجع عليهما حتى نأما لحلبت لهما غبوقهما

(١) حديث « من عشق فف ففكم فأت فهو شهيد » أخرجه المالك في التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد ، ثم قال : يقال إن يمي لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لي فرس ورجل غزوت سوها ورواه الجرائد من غير طريق سويد يستدل فيه نظر (٢) حديث « سبعة يظلهم الله في ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (١٤ — لحياء علوم الدين — ٢)

فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغيب قبلهما أملا ومالا ، فلبثت والقدس في يدى أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتعاضدان حول قدى فاستيقظا فشربا غبروقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفجرت شيئا لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان ل ابنه عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى أملت بها سنة من السنين ، لجأتني فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخل بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تنقض الحاتم إلا بمحضه ، فتخرجت من القوقع عليها فانصرفت عنها وهى من أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجرا وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذى له وذهب فتميت له أجره حتى كثرت منه الأموال ، لجأتني بعد حين فقال : يا عبد الله أعطني أجرى ، فقلت كل ما ترى من أجرى من الإبل والبرق والتمم والريق ؛ فقال يا عبد الله أتترأى ؟ فقلت : لا أستهزئ بك غفده ، فاستاقه وأخذته كله ولم يترك منه شيئا ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة فخرجوا يمضون ^(١) ،

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة ففد وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين ، فإن العين مبدأ الزنا لحفظها مهم ، وهو عصر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذ لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم « لك الأولى وعليك الثانية » ^(٢) ، أى النظرة . وقال الملا بن زباد : لاتبع بصرك وداء المرأة فإن النظر يزرع في القلب شهوة ، وقلبا يظلم الإنسان في ترده عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فهما تعاقبان إلیه الحسن تخاضى الطبع للمعاودة وعنده يغبى أن يقرر في نفسه أن هذه للمعاودة عين الجهل ، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التصر ، وإن استعجب لم يلتزم وآلم لآبه قصد الالتزام فقد فعل ما آله ، فلا يخلو في كلتا حالتیه عن معصية وعن تألم وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق . فقد روى عن أبي بكر بن عبد الله المزني : أن قصابا أولع بجمارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتمتبعها وراودها عن نفسها فقالت له : لا نفعل لانا أشد حبا لك منك ول ولكن أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ! فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، قال : تعال حتى ندعو الله بأن تظلتنا بحبابة حتى ندخل القرية ، قال : مالى من عمل صالح فأدعوا ، فادع أنت ، قال : أنا أدعو وأمن أنت على دعايى فدعا الرسول وأمن هو فأظلمت بحبابة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فالت السحابة معه فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلمت بحبابة ثم تبعته ، لخبيرى بأمرى ، فأخبره فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى يمكن ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عندما بالكوفة شاب متعبد لازم للمسجد الجامع لا يكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمى ، فغظرت لآله امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يا فتى اسمع منى كلماتك بها ثم اعلم ما شئت ،

(١) حديث ابن عمر « اطلق ثلاثة نفر من كان فيك حتى آواهم البيت الى غار ... فذكر الحديث بطوله ورواه البخارى

(٢) حديث « الأول وليس لك الثانية » أى النظر فأخرجه أبو داود والترمذى حديث بريدة قاله لى قال الترمذى حديث غريب

فرضي ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يا بني اسمع مني كلمات أكلبك بها ، فأطرق مليا وقال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً ، فقالت له : والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوق العباد إلى مثل هذا مني ، والذي حثني على أن لقبيلتك في مثل هذا الأمر بنفسى لم أرفق أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها ، وجملة ما أقول لك إن جوارحي كلها مشغولة بك فإني أرى في أمري وأمرك ، قال : فضي الشاب إلى منزله وأراد أن يصل فلم يعقل كيف يصل ! فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذاً بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه : بسم الله الرحمن الرحيم اعلمى أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم فلما عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملبسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تغرق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه ، فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السما فيه كالمهل وتصير الجبال كالمنى وتجتروا الأمم لصولة الجبار العظيم ، ولإني والله قد ضعف عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري ؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هدى يداوى الكلوم الممرضة والأوجاع المرهضة ذلك الله رب العالمين فاقصده يصدق المسألة فإني مشغول ضلقت بقره تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كالمظلم من اللطافين من حيم ولا شمع يطاع . يعلم غائمة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ فإين المهرب من هذه الآية ؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلاً يراها فقالت : يا بني لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى ، ثم بكى بكاء شديداً وقالت : أسأل لك الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمري ، ثم إنها تبعته وقالت : امنن علي بموعظة أحلها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ قال : فأطرق وبكى بكاء شديداً أشد من بكائها الأول ، ثم إنها آفقت وولمت بيتها وأخذت في العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كذا ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكي ، فيقال له : مم بكائك وأنت قد أياست من نفسك ؟ فيقول : إني قد أصبحت طعمها في أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى فإني أستهني منه أن أستر ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

ثم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليماً كثيراً .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربيع الملهكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعبد له ، وألهمه نور الإيمان فزيته به وجهه ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على قلبه خزان العلوم فأكله ، ثم أرسل عليه سقراً من رحمته وأسبله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذي أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأنصح بالشكر عما أولاه وخوله ،

من علم حمله ونطق سبّه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه وجعله ، ونبه الذي أرسله بكتاب أنزه ، وأسمى فضله وبين سبّه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وعمله.

أما بعد : فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الثرية ، فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ، إذا لا يستيقن الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه مامن موجود وممدوم عالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مذكور أو موهوم إلا واللسان يتناولُه ويتعرض له بإثبات أو نفي ، فإن كل ما يتناولُه العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم يتناول له . وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والأذان لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان وحده ليس له مرد ولا لجملة متبني وحة ، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل محب ، فمن أطلق عذبة اللسان وأمله مرعى التنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البرار ، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يغشى فاكلته في عاجله وأجله وعلم ما يحسد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه فقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا يمتنع في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغواثه والحذر من مصائبه وحباله ، وإنه أعظم آفة الشيطان في استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل بجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغواثها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار في ذمها . فذكر أولاً فضل الصمت وزدده بذكر آفة الكلام فيما لا يني ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض في الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ؛ ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التفرق في الكلام بالتشديق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاهمين المذيعين للخطابة ، ثم آفة الفصاح والسبب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، ثم آفة الفناء بالشعر . وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الفناء وما يجلب فلا نعيده . ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخريه والاستهزاء ، ثم آفة إفساد السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب في القول واليمين ، ثم بيان التماريض في الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة الثنية ، ثم آفة ذى اللسانين الذي يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في لغوى الكلام لأسبابها فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام من صفات الله عز وجل وعن الحروف أي قدومه أو محدثه ؟ وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بتهنئته وكرمه .

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجأ »^(١) ، وقال عليه السلام « الصمت حكم وقليل فاعله »^(٢) ، أي حكمة وحزم . وروى

كتاب آفات اللسان

(١) حديث « من صمت نجأ » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال فريب وهو عند الطبراني بسند جيد . (٢) حديث « الصمت حكم وقليل فاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس يلفظ « حكم » بدل « حكمة » وقال غلط في شأن ابن سعد والصحيح رواية ثابت قال

عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يارسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لأسال عنه أحدًا بعدك قال « قل آمنت بالله ثم استقم » قال : قلت فأنتي ؟ فأومأ بيده إلى لسانه ^(١) وقال عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أمسك عليك لسانك وليسمك بيتك وابك على خطيئتك » ^(٢) وقال سهل بن سعد الساعدي . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يتكلم لي بما بين لحيه ورجليه أتكفل له بالجنة » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من وقى شر قبحه وذنبه ولفظه فقد وقى الشر كله » ^(٤) ، القبح : هو البطن والذنب والفرج ، واللفظ : اللسان . فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال « الأجوفان : القم والفرج » ^(٥) ، فيحتل أن يكون المراد بالقم آفات اللسان لأنه علمه ، ويحتل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ؛ فقد قال معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أتأخذ بما تقول ؟ قال « لكذلك أملك يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ » ^(٦) ، وقال عبد الله التقي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعظم به فقال « قل رب الله ثم استقم » قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ بلسانه وقال « هذا » ^(٧) ، وروى أن معاذًا قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه ^(٨) وقال أنس بن مالك : قال صلى الله عليه وسلم « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بواقته » ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسلم فليزلم الصمت » ^(١٠) ، وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان أى تقول اتق الله فينا فإنه إن استقمتم استقمنا وإن أعرجت أعرجنا » ^(١١) ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يعد لسانه بيده فقال له : ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردني للوارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته » ^(١٢) ، وعن ابن مسعود

= والصحيح من أسنى أن إيمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة القلاء بسند صحيح إلى أنس (١) حديث سفيان التقي : أخبرني عن الإسلام بأمر لأسال عنه أحدًا بعدك ... الحديث « أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث اتفق فيه ذكر اللسان (٢) حديث عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أمسك عليك لسانك ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن (٣) حديث سهل بن سعد « من يتكلم بما بين لحيه ورجليه أوكل له بالجنة » ورواه البخارى (٤) حديث « من وقى شر قبحه وذنبه ولفظه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث أنس بسند صحيح بلفظ « قد وجبت له الجنة » (٥) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة ... الحديث : أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس بن مالك « من سره أن يسلم فليزلم الصمت » (٦) حديث : قلت يارسول الله أتأخذ بما تقول ؟ قال « لكذلك أملك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث عبد الله التقي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعظم به ... الحديث . رواه النسائى قال ابن حساك وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله التقي كما رواه الترمذى وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا بخسة أحاديث . (٨) حديث : إن معاذًا قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع به عليه . أخرجه البخارى وابن أبى الدنيا في الصمت قال « أصبعه » مكان « يده » (٩) حديث أنس « لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا في الصمت والخراطى في مكالم الأتقي بسند صحيح (١٠) حديث « من سره أن يسلم فليزلم الصمت » أخرجه ابن أبى الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقى في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف (١١) حديث « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه ووقع في الإحياء من سيد بن جبير مرفوعا وأما هو عن سعيد بن جبير من أبي سعيد رضى الله عنه ورواه الترمذى مرفوعا على عمار بن زيد وقال هذا أصح (١٢) حديث : إن من أطاع على أبى بكر وهو يعد لسانه فقال : ما تصنع يا خليفة رسول الله =

أنه كان على الصفا يلي ويقول : يا لسان قل خيرا فقم واسكت عن شر تسل من قبل أن تدم ، فقبل له يا أبا عبد الرحمن أمدا شيء فتقره أو شيء سمعت ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »^(١) ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره »^(٢) ، وروى أن معاذ بن جبل قال . يا رسول الله أوصني قال « أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموت وإن شئت أنبأتك بما هو أهلك لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه »^(٣) وعن صفوان بن سليم قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق »^(٤) .

وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليكتم »^(٥) ، وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تسكلم فتم أوسكت فسلم »^(٦) ، وقبل يعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تطعوا أبدا ، قالوا : لا نستطيع ذلك ، فقال : فلا تطعوا إلا بغير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال « أطعم الجائع واسق العطشان وأمر بالمعروف ونه عن المنكر فإن لم تطع فكف لسانك إلا من خير »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليكن الله امرؤ علم ما يقول ، وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن صريحا وقورا قادنوا منه فإنه يلقن الحكمة »^(٩) ، وقال ابن مسعود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب . فالغنام الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذي يتفوض في الباطل »^(١٠) ، وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم تدبره بقلبه »^(١١) ، وقال عيسى عليه السلام : العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت

== قال : إن هذا أوردني الموارد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد إلا يتكلم إلى الله عز وجل اللسان على حده » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو بلى في مسنده والدارقطني في الطل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمره وقال الدارقطني أن الرقوع وهم على الدراوردي قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له .

(١) حديث ابن مسعود : أنه كان على الصفا يلي ويقول : يا لسان قل خيرا فتم . وفيه مرفوعا « إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه » أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن . (٢) حديث ابن عمر « من كف لسانه ستر الله عورته » الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن . (٣) حديث : أن معاذ قال أوصني قال « أعبد الله كأنك تراه » .. الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني ورجاله ثقات وفيه اتصال . (٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعا « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسل ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحققين من حديث أبي ذر وأبي المرداء أيضا مرفوعا .

(٥) حديث أبي هريرة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليكتم » متفق عليه . (٦) حديث الحسن : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تسكلم فتم أوسكت فسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بن حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن هياش من المجازين . (٧) حديث البراء : جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال « أطعم الجائع .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد . (٨) حديث « اخزن لسانك إلا من خير .. الحديث » أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولا بن جابر في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر . (٩) حديث « إذا رأيتم المؤمن صريحا وقورا قادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد فقط . وإذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا ونطق فاقتر بواسته فإنه يلقن الحكمة » وقد تقدم . (١٠) حديث ابن مسعود « الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب .. الحديث » أخرجه الطبراني وأبو بلى من حديث أبي سعيد المدري فقط « المجاس » ووضعه ابن عسّى والمجاهد « ثلاثة » من حديث ابن مسعود . (١١) حديث « أن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم ==

وجزء في الفراغ من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : من كثر كلامه كثرت سقطه ، ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أول به (١) .

الآثار : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو مائى ، أوحى إلى طول صمتي من لسان . وقال طاوس : لسانى سبع إن أرسلته أكلنى . وقال وهب بن منبه : في حكمة آل داود ؛ حق على الماقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانته مقبلاً على شأنه . وقال الحسن : ما عطل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أما بعد : فلن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وقال بعضهم : الصمت يجمع للرجل فضيلتين ؛ السلامة في دينه والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد : ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله . وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأخف بن قيس ساكت فقال له : مالك يا أبا بكر لا تتكلم ؟ فقال له : أخشى الله أن كنزيت وأخشيak أن صدقت . وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك ؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر ، فقال أحدهم : أنا أنعم على ما فات ولا أنعم على ما لم آت ، وقال الآخر : إني إذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى ، وقال الثالث : عجبت للتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنعمه . وقال الرابع : أنا على رد ما لم آت أقصر من على رد ما فات . وقيل : أقام المنصور بن المنذر لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل : ماتكم الريح بن غيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً فكل ما تكلم به كتب ثم يحاسب نفسه عند المساء .

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسبه ؟ فأعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والنهية والنية والرياء والثفاق والفضح والمراء وتزكية النفس والحوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإذاء الخلق ومهلك العورات . فهذه آفات كثيرة وهي سبابة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلالة في القلب وعليها بواصت من الطبع ومن الشيطان ، والخاص فيهما قلما يقدر أن يسلك اللسان فيطلقه بما يجب ويكفه عما لا يجب فإن ذلك من غوامض العلم - كما سيأتى تفصيله - ففي الحوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته ، هنا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الزوال والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة . فقد قال الله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . وبذلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تنفع بالضرر

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضيق زمان وهو عين الخسران ، فلا يبق إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتضع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً بمعنى دركه فيكون الإنسان به غاطراً . ومن عرف دقائق

= بعضه تدبره قلبه ... الحديث « لم أجده مرفوعاً وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال « كانوا يقولون » (١) حديث « من كثر كلامه كثرت سقطه . . الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بن عبد شريف وقد رواه أبو حاتم بن حبان في روضة القلاء وبيهقي في الشعب مرفوعاً على عمر بن الخطاب .

آفات اللسان - على ما سذكره - علم قطعاً أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال « من صمت نجا »^(١)، فقد أوتي واقع الحكم قطعاً وجوامع الكلم^(٢) ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء وفيما سذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفه حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نذكر آفات اللسان ونبتدئ بأغورها وننتقل إلى الأغلط قليلاً ، وتوخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعل ذلك ترشد بمون الله تعالى .

الآفة الأولى . الكلام فيما لا يعينك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها ، وتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان يفتح لك من نفعات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هلك الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فك من كلمة يبني بها قصراً في الجنة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا يفتنح بها كان خاسراً خسرانا مبنياً . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأت به فقد خسر حيث فاته الرجع العظيم بذكر الله تعالى ، فإن المؤمن لا يكون صوته إلا فكرياً ونظرياً إلا عبرة ولنطقه إلا ذكر^(٣) هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم . بل رأس مال العبد أوقاته ومهاصرها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(٤) ، بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس : استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع فسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئاً لك الجنة يا بني ، فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمتنع ما لا يعنره »^(٥) ، وفي حديث آخر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كذباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كذب » فقالت أمه هنيئاً لك الجنة يا كذب فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه للتأني على الله » قال : هي أي يارسل الله قال « وما يدريك يا أم كذب لعل كذباً قال ما لا يعنيه أو تمتع ما لا يعنيه »^(٦) ، وممنه أنه إنما تهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه غير مباح فلا تهيأ الجنة مع « مناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب .

(١) حديث « من صمت نجا » تقدم (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلام أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الآفة الأولى الكلام فيما لا يعينك

(٣) حديث « المؤمن لا يكون صوته إلا فكرياً ونظرياً ولا عبرة ولنطقه إلا ذكر » لم أجده أصلاً وروى محمد بن زكريا العلاني أحد الشافعية عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله أمرني أن يكون لسانى ذكرى وصوتى فكرياً ولنظري عبرة » (٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » أخرجه الترمذي وقال قريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٥) حديث : استشهدنا غلام يوم أحد فوجد على بطنه سفرة مربوطة من الجوع . الحديث وفيه « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمتنع ما لا يعنره » أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصراً وقال قريب ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٦) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كذباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كذب » الحديث وفيه « لعل كذباً قال ما لا يعنيه أو تمتع ما لا يعنيه » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد إلا أن الطائفة من الرواة بين المصنفين وبين الرواة منه .

وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ** ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوئق عمل في نفسك ترجوه فقال : **إِنِّي لَضَعِيفٌ وَإِنْ أَوْتِقُ مَا أَرْجُو بِهِ اللَّهُ سَلَامَةَ الصَّدْرِ وَتَرَكُ مَا لَا يَنْبَغِي^(١)** ، وقال أبو ذر : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أَلَا أَعْلَمُكَ بِعَمَلٍ خَفِيفٍ عَلَى الْبَدَنِ ثَقِيلٍ فِي الْمِيزَانِ** ، قلت : بلى يا رسول الله قال : **هُوَ الصَّمْتُ وَحَسَنُ الْخَلْقِ وَتَرَكُ مَا لَا يَنْبَغِي^(٢)** ، وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول خمس لمن أحب إلى من الدم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا ينيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما ينيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه ففتت ، ولا تمار حلياً ولا سفهاً فإن الحليم يهلك والسفيه يؤذي ، واذكر أحاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكر بك به ، وأعفه بما تحب أن ينيك منه ، وعامل أحاك بما تحب أن يعامل بك به ، وعامل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام . وقيل للقمان الحكيم : ما حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيته ولا أتكلف ما لا ينييني . وقال مروق العجل : أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا : وما هو ؟ قال : السكوت عما لا ينييني . وقال عمر رضي الله عنه لا تعرض لسا لا ينيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتسلم من لجوره ولا تطلعه على شرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وحذ الكلام فيما لا ينيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر . وإذا بالفتى في الجهاد حتى لم يمتزج بمكائلك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلفه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك — وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها — ومن جعلها أن تسأل غيرك عما لا ينيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضيق ، هذا إذا كان الشيء مما يتعلق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهر آعبادته فيدخل عليه الرياء وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستهتراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستخار أو للتعجب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما ينيغي ويستحي منه . وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه . . وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم يسمع نفسه بأن يقول لا أخرى ، فيجيب عن غير بصيرة .

(١) حديث محمد بن كعب : **« إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ »** فدخل عبد الله بن سلام الحديث . وفيه : **« لَنْ أَوْتِقُ مَا أَرْجُوهُ سَلَامَةَ الصَّدْرِ وَتَرَكُ مَا لَا يَنْبَغِي »** أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا وفيه أبو نجيع اخلف فيه .

(٢) حديث أبي ذر : **« أَلَا أَعْلَمُكَ بِعَمَلٍ خَفِيفٍ عَلَى الْبَدَنِ ثَقِيلٍ فِي الْمِيزَانِ ... »** الحديث . وفيه : **« هُوَ الصَّمْتُ وَحَسَنُ الْخَلْقِ وَتَرَكُ مَا لَا يَنْبَغِي »** أخرجه ابن أبي الدنيا بسند متطوع .

ولست أحنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الاجتناس ، فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال ما لا يعنى ما روى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم ، فجعل يتعجب عما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فتمتته حكيمته فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال : نعم المدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقيل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . وقيل لأنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال . فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وترويط في رياء وكذب هو مما لا يعنى وتركه من حسن الإسلام فهذا حذره .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباشطة بالكلام على سبيل التودد أو ترجية الأوقات بمكائات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله . وأن لسانه شجرة يقدر أن يقتصر بها الخور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتول شديد جدا .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأذى مقصوده بكلمة واحدة فذكره كثنين فالثانية فضول . أى فضل عن الحاجة - وهو أيضا مذموم - لما سبق - وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح : إن من كان قلبكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق بم حاجتك في ميثقتك التي لا بد لك منها ، أتمكروا أن عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال : إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمان فآثره جواب خيفة أن يكون فضولاً . وقال مطرف : ليحظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والجار : اللهم اخذه وما أشبه ذلك

وأعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عز وجل ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أسكك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله »^(١) ، فافطر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر

الآفة الثالثة فضول الكلام

(١) حديث « طوبى لمن أسكك الفضل من لسانه وأهق الفضل من ماله » أخرجه البزوي وابن قانع في « معجمي الصحابة واليهيقي من حديث ركب المصري وقال ابن عبد البر أنه حديث حسن وقال البزوي : لا أدري سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لا يعرف له حجة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

فقالوا : أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أنفسنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجنة التواء وأنت وأنت فقال : قولوا قولكم ولا يستهويكم الشيطان ^(١) ، إشارة إلى أن الإنسان إذا أطب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أندركم فضول كلامكم ؛ حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليسكب حتى إن الرجل ليسكب ابنه فيقول ، أتباع لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذبا . وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكّل بها ملسكان كريمين يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل . وروى أنّ سليمان عليه السلام يمت بعض غفاريه وبعث نفرأ ينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رهوس الناس ما أسرع ما يكتبون ! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون ! وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم فليقل فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والفاير إنما لسانه رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ، وقال عمر بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شغتي وأسنتي ، قال : أفأكان لك ما يرد كلامك ؟ ^(٢) ، وفي رواية : أنه قال ذلك في رجل أتته عليه فاستمر في الكلام ثم قال : ما أوقى رجل شرا من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : إنه ينبغي من كثير من الكلام خوف الباطة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجب الحديث فليسكت وإن كان ساكنا فأعجب السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من فتنه السلام أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يتكلمه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزيادة وقصصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما ظهر الرجل لسانه . وروى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه غرساء كان خيرا لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول اللسان وفضول الكلام . فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباطع عليه . وعلاجه ماسبق في الكلام فيما لا يعني .

الآفة الثالثة : الحوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال الفناء ومجالس الخمر ومقامات القساق وتتمم الأغنياء وتجبر اللزك ومراسيم الذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يصلح الحوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأول ولا تحريم فيه . نعم من يكثّر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الحوض في الباطل . وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يمدو كلامهم التنفك بأعراض الناس أو الحوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتمتتها فلذلك لا غطص منها إلا بالاختصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا . وفي هذا المجلس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب

(١) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رطط من عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ... الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليالي بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .

(٢) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال : كم دون لسانك من حجاب .. الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا وسلا ورجله هتات .

الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها خطه إلى يوم القيامة ^(١) ، وكان عقلمة يقول : كم من كلام متغيبه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ^(٢) » وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصاً في الباطل ^(٣) » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكنا نخوض مع الخافضين ﴾ وبقره تعالى ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ وقال سليمان : أكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله . وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يترجم بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحديث . فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ماسياً من الغيبة والفتنة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر لتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوم الطعن في بعضهم . وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بطلعه وكرمه .

الآفة الرابعة . المراء والجدال

وذلك منى عنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تمار أحاك ولا تمازحه ولا تعدمه موعداً فتختلفه ^(١) » وقال عليه السلام « ذروا المراء فإنه لا ينفعهم حكته ولا تؤمن فتنته ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بى له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بى له بيت في رضى الجنة ^(٣) » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ^(٤) » وقال أيضاً : ما حل قوم بمد أن هدام الله تعالى إلا أوتوا الجدل ^(٥) » وقال أيضاً « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محققاً ^(٦) » ، وقال أيضاً « ست من كن فيه بلغ حقيقة

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

(١) حديث بلال بن الحارث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وفيه يبين والترمذى « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار » لفظ الترمذى « وقال حسن غريب (٣) حديث « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوصاً في الباطل » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورواه أبو الطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .

الآفة الرابعة : المراء والمجادلة

(٤) حديث « لا تمار أحاك ولا تمازحه ولا تعدمه موعداً فتختلفه » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد هدم . (٥) حديث « ذروا المراء فإنه لا ينفعهم حكته ولا تؤمن فتنته » أخرجه الطبراني من حديث أبي الفراء . وأبى أمانة وأبى بن مالك ورواه ن الأسمع مسنداً ضيف دون قوله « لا ينفعهم حكته » ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوفاً على ابن مسعود . (٦) حديث « من ترك المراء وهو محق بى له بيت في أعلى الجنة ... الحديث » هدم في العلم (٧) حديث أم سلمة « إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصلت والطبراني والبيهقي بسند ضيف وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن روم (٨) حديث « ما حل قوم إلا أوتوا الجدل » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمانة وصحبه وزاد « بعد مدى كانوا عليه » وهدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف (٩) حديث « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وإن كان محققاً » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضيف وهو عند أحد بسند « لا يؤمن البدي حتى يترك السكذب في المزاولة والمراء وإن كان صادقاً » .

الإيمان : الصيام في الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتسهيل الصلاة في اليوم الدجن ، والصبر على المصيبات ، وإسباغ الوضوء على المسكاره ، وترك المراء وهو صادق ^(١) ، وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فإنه لا تستطيعهم ولكن عليك بالنسبة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التقتل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندما يبتنى الشيطان زلته . وقيل : ماضل قوم بعد إذ هدام الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضاً : المراء يبقى القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يائى لا تجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً ممججاً برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسمي بي إلى السلطان . وقال أيضاً : صافى من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرميك بداهية تمنلك العيش . وقال ابن أبي ليلى : لا أمارى صاحبي فلما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء : كفى بك إنما أن لا تزال ماري . وقال صلى الله عليه وسلم : تكفى كل لحاء ركعتان ^(٢) ، وقال عمر رضى الله عنه : لا تتمم العلم ثلاث ولا تترك ثلاث . لا تتمله لتأري به ، ولا لتباهى به ، ولا لتراقى به . ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاسى الرجال سقطت مروته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه صذب نفسه . وقيل لميمون بن مهران : مالك لا تترك أحاك عن قيل ؟ قال : لا في لأغاريه ولا أماريه . وماورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى .

وحدة المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمر الدين فاسكت عنه .

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بغير بيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله .

وأما في المعنى : فبأن يقول ليس كما تقول ؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا .

وأما في قصده فثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ، وما يجرى مجراه ، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه الناد والتكارة ، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن .

وأما المجادلة فمباراة عن قصد لإخام الغير وتمجيذه وتقصيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيه الحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل ، يجب أن يكون هو المظهر له خطايلين بفضل نفسه وتقصص صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأم به لو سكت عنه .

وأما الباطل على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار قصصه . وهما شهورتان باطنتان

(١) حديث « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان ... الحديث » وفيه « وترك المراء وهو صادق » أخرجه أبو منصور الدبلي من حديث أبي مالك الأشعري بسند ضعيف يلفظ « خصال من الخير ... الحديث »
(٢) حديث « تكفى كل لحاء ركعتان » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

لنفس قويتان لما . أما لإظهار الفضل ؛ فهو من قبل تركية النفس وهي من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى الملو والكبرياء وهي من صفات الربوبية . وأما تقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعة فإنه يقتضى أن يترك غيره ويقصمه ويصده ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما للمراء والجدال . فالمرء يظلم على المرء والجدال مقل لهذه الصفات المهلكة ، وهذا يجاوز حد الكراهة بل هو مصيبة مهما حصل فيه إيذاء الغير . ولا تنفك للمارة عن الإيذاء وتيسير الغضب وحل المتعرض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدم في قائله بكل ما يتصور له ؛ فيثور الشجار بين المتأربين كما يثور المرائش بين السكبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إلحاحه وإلجائه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعث له على تقيص غيره . كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب . فإن علاج كل علة بإمطاع سببها . وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويمسر الصبر عنه .

روى أن أبا حنيفة رحمه الله عليه قال لداود الطائي : لم آثرت إلا زواة ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تسكلم ، قال : ففعلت ذلك فما رأيته مجاهدة أشد على منها . وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يمسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة ، لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلّب ذلك في المذاهب والمعتقد . فإن المراء طبع ؛ فإذا ظن أن له عليه نواباً اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تطفف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال . فإن الجدال يضل إليه أنها حيلة منه في التليس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها وأرادوا ، فقتلهم البدعة في قلبه بالجدل وتؤكد فإذا عرف أن الصبح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه »^(١) ، وقال هشام بن عروة : كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات : وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثني الناس عليه ووجد نفسه بسببه عزوا قبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتمزز بالفضل . وأحاديث هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف يجمعونها ؟

الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؛ فالمرء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير . وإظهار مزينة الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لاجل في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبغض

(١) حديث « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ورواه أبو منصور البجلي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ « رحم الله امرأ أكف لسانه عن أمر أهل المسلمين » وهو منقطع وضعيف جداً .

الرجال إلى الله الآله الخصم^(١) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في صفح الله حتى ينزع^(٢) » ، وقال بعضهم : إياك والخصومة فلنأتحق الدين . وقال : ما عاصم ورع قط في الدين . وقال ابن قتبية : مرني بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال : ما يجلسك هنا ؟ قلت : خصومة بني وبين ابن عم لي ، فقال : إن لأبيك عندي يدا وإن أريد أن أجزيكها ، وإن واقفما رأيت شيئا أذهب للدين ولأناقص للبروة ولا أصنع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة ؟ قال : فقلت لأنصرف فقال لي خصمي : مالك ؟ قلت : لأعاصمك ، قال : إنك عرفت أن الحق لي ، قلت : لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال : فإني لا أطلب منك شيئا هو لك .

فإن قلت . فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظله ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تزم خصومته ؟ فأعلم أن هذا الدم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ؛ مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان ؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلب أو على قصد الإيذاء ويتناول الذي يخرج بالخصومة كليات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرته والحجة وإظهار الحق ، ويتناول الذي يحمله على الخصومة بحض العناد لتهرب الخصم وكسره مع أنه قد يستحق ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدى عناده وكسره عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما ربيت به في بئر ولا أبالي ، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا . فأما المظلوم الذي ينصر حجة بطريق الشرع من غير لبد وإسراف وزيادة لجلاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بجرم ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حدا اعتمادا معتدرا ، والخصومة توغر الصدر وتبجح الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمسامة صاحبه ويحزن بسره ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المخذورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاحه يشغل بحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حدا الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغي أن لا يشتت باه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تيمات الخصومة وذلك معتدرا جدا ، فن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تزم خصومته ، إلا أنه إن كان متنفيا عن الخصومة فخاصم فيه لأن عنده ما يكتفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وماورد فيه من الثواب ؛ إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار المرافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب ، فلن من جادل غيره أو ماره أو عاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام^(٣) » .

الآفة الخامسة الخصومة

(١) حديث عائشة « أن أنس الرجل لل الله الآله الخصم » أخرجه البخاري و قد هدم . (٢) حديث أبي هريرة « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في صفح الله حتى ينزع » أخرجه ابن أبي الدنيا والأسفهاني في الترغيب والترهيب وفيه وجه أبو يحيى صفحه الجمهور .

(٣) حديث « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعره وفيه من حديث هاني « أي شرع بإستاد جيد » يوجب الجنة لطعام الطعام وحسن الكلام .

وقد قال الله تعالى (وقولوا للناس حسناً) وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجرباً إن الله تعالى يقول (وإذا حيتم بفتح غير أباحسن منها أو ردوها) وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام ^(١) ، وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال : مر بسلام ، فقيل : ياروح الله اتقوا هذا الخنزير ؟ فقال : أكره أن أعود لساني الشر . وقال نينا عليه السلام : الكلمة الطيبة صدقة ^(٢) ، وقال : اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوها فبكلمة طيبة ^(٣) ، وقال عمر رضى الله عنه البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يفصل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليستك فلا تكن به عليه بخيلاً ، فإنه إله يعوضك منه ثواب المحسنين . وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخسومة والراء والجدال والواجاب ، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنفض للعيش المهيج للغضب الموفر للصدر . نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه

الآفة السادسة

التعمر في الكلام بالتشدد وتكلف السجع والقصاحة والتصنع فيه بالتشبيات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاهمين المذعنين للخطابة . وكل ذلك من التصنع للذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا وأقبياء أمتي يرءاه من التكلف ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا الزنارون المتفهمون للتشددون في الكلام ^(١) ، وقالت فاطمة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شرار أمتي الذين غدوا بالتميم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشددون في الكلام ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ألا هلك المتطمون - ثلاث مرات - ^(٣) ، والتطع هو التممق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : شفاش الكلام من شفاش الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ! إلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي على الناس زمان يتغللون الكلام بالسنتهم كما تتغل البقرة الكلا بلسانها ^(٤) ، وكأه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة . وهذا أيضاً من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل جمع متكلف ، وكذلك التفاهص الخارج عن حد المادة ، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزلة في الجنين فقال بعض قوم الجاني : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل

(١) حديث أنس : إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها ... الحديث : أخرجه الترمذي وقد تهمم (٢) حديث : الكلمة الطيبة صدقة : أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث : متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

الآفة السادسة : التعمر في الكلام والتشدد

(٤) حديث : إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الزنارون المتفهمون المتشددون : أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسن بلفظ : إن أبغضكم إلى (٥) حديث فاطمة : شرار أمتي الذين غدوا بالتميم . الحديث وفيه : ويفقدون : أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب (٦) حديث : ألا هلك المتطمون : من حديث ابن سمعود (٧) حديث سعد : يأتي على الناس زمان يتغللون الكلام بالسنتهم كما تتغل البقرة الكلا بلسانها : رواه أحمد .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال : « أجمعاً كسجع الأعراب »^(١) ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده : ومقصود الكلام التفهم الغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم . ولا يدخل في هذه تحسين الفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تجريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلا شاقة اللفظ تأمير فيه فهو لا تائق به . فاما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتندق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتبذير بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرمه الشرع ويذمحه

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومعنى عنه ومصدره الخبث والظلم قال صلى الله عليه وسلم : « لما تكلم بالفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش »^(٢) ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن نسب قتل يدر من المشركين فقال : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء إلا إن البذاء لوم »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن باللعان ولا الفحاش ولا البذي^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الآذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الآذى ؟ فيقول إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قدعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يا عائشة : لو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوء^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « البذاء والبيان شعبتان من شعب التفاح »^(٨) ، فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح حتى يقضى إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى ، فإن إلقاء ذلك بمجمل إلى أسماع الأوامر أولى من المبالغة في بيانه ؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك وسواوس فإذا أجملت بادر القلوب إلى القبول ولم تضطرب ، ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الإنسان من بيانه ، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحب الفاحش الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحب الفاحش

(١) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل .. الحديث « أخرجه مسلم من حديث المنيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضا .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

(٢) حديث « لما تكلم والفحش ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة (٣) حديث : « التبي من سب قتل يدر من المشركين الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلًا ورواه همام والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح : « لمن رجلا وقع في أب لباس كان في المجاملة فلفه .. الحديث » وفيه « لا تسبوا أمواتهم فؤادوا أحياءنا » (٤) حديث « ليس المؤمن باللعان ولا الفحاش ولا البذي » أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى مؤلفنا قال المارغطاني في الملب والموفوف أسع (٥) حديث « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الآذى .. الحديث » وفيه « أن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن مانع واشتغل في صحبته فذكره أبو نعيم في الصعابة وذكره البخاري وابن حبان في التبيين (٧) حديث « يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوء » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية ابن هبة عن أبي الفضل عن أبي سلفة عنها . (٨) حديث « البذاء والبيان شعبتان من التفاح » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة وقد تقدم .

المتفحش الصباح في الأسواق^(١) ، وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي فقال صلى الله عليه وسلم : إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً^(٢) ، وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش للمتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب . وقال الأحف بن قيس : ألا أخبركم بأدول الماء : اللسان البذي والخلق البذي ،

فهذه مذمة الفحش فأما حذو وحقيقتة فهو التعبير عن الأمور المستقبجة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الواقع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكونون صفاً . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله يحب كريم يعفو ويكنو ، كنى باللسان عن الجماع فالسب واللعن والدخول والصحة كتابات عن الواقع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستحب ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أشد من بعض . وربما اختلف ذلك بمادة البلاد وأوائها مكرهه وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالواقع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراة وغيرهما ، فإن هذا أيضاً مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش ، وكذلك يستحسن في السادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجته كذا بل يقال قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد . « تلطف في هذه الألفاظ بمحود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير . بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالنصريح بذلك داخل في الفحش . وجميع ذلك من آفات اللسان .

قال الملا بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقتة : فخرج تحت إبطه خراج فأنتبه نأله لئلا يقول : فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد . والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاحتياط الحاصل من مخافة الفساق وأهل الحبث والؤم ومن عاداتهم السب . وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال : عليك بتقوى الله وإن امرؤ عريك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه يمكن وباله عليه وأجره لك ولا تسب شيئا ، قال : فما سببت شيئا بعده^(٣) . وقال عياض بن حمار : قلت يارسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال : « المسببان شيطانان يتماويان ويتهاجران »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « سباب المؤمن فسوق وقاتله كفر »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « وفي رواية : من أكبر الكبائر أن يسب الرجل الظلوم »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ملعون من سب والديه »^(٧) . وفي رواية : من أكبر الكبائر أن يسب الرجل

(١) حديث « إن الله لا يحب الفاحش ولا التفحش الصباح في الأسواق » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله والطبراني من حديث أسامة بن زيد « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش » وإسناده جيد . (٢) حديث جابر بن سمرة « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء ... الحديث » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابي أوصني فقال : عليك بتقوى الله وإن امرؤ عريك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء يعلمه فيه . الحديث . أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قبل اسمه جابر بن سلم وقيل سلم بن جابر . (٤) حديث عياض ابن حمار : قلت يارسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أتصر منه ؟ فقال : « المسببان شيطانان يتماويان ويتهاجران » أخرجه أبو داود والطبراني وأحمد عند أحمد . (٥) حديث « سباب المؤمن فسوق وقاتله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٦) حديث « المسببان مالا نل البادي حتى يمتد الظلوم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال : « مالم يمتد » . (٧) حديث « ملعون من سب والديه » وفي رواية : « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الفيضان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو

والديه ، قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه . .

الآفة الثامنة : العن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « المؤمن ليس بلعان »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تلعنوا بعنة الله ولا بغضه ولا بجهنم »^(٢) ، وقال حذيفة : ما تلعن قوم قط إلا حق عليهم القول . وقال عمران بن حصين : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلمتها فقال صلى الله عليه وسلم « خذوا ماعليها وأعروها فإنها ملعونة »^(٣) ، قال : فكأنني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : ما لئن أحد الأرض إلا قالت : لئن الله أعسانا له : وقالت عائشة رضي الله عنها : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلن بعض رقيقه قالت له وقال : يا أبا بكر أصدقين ولما بين كلا وبك الكعبة - مرتين أو ثلاثا -^(٤) ، فاعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : لا أعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن اللعانين لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة^(٥) ، وقال أنس : كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلمن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون »^(٦) ، وقال ذلك إنكارا عليه . والعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعد من الله عز وجل وهو الكفر والظلم ، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن ينبغى فيه لفظ الشرع فلن في اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد اللعانون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أظلمه الله عليه .

والصفات المقتضية للعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفسق . والعن في كل واحدة ثلاث مراتب : الأولى : العن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والمفسدة .

الثانية : العن بأوصاف أضيق منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخواارج والروافض ، أو على الزناة والظلة وأكل الربا ، وكل ذلك جائز . ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا .

الثالثة : العن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنة الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع ، والتفصيل

الآفة الثامنة : العن

(١) حديث « المؤمن ليس بلعان » تقدم حديث ابن مسعود « ليس المؤمن بإطمان ولا لعان ... الحديث » قبل هذا بأحد عشر حديثا والترمذي وحده من حديث ابن عمر « لا يكون المؤمن لعانا » (٢) حديث « لا تلعنوا بعنة الله .. الحديث » أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي : حسن صحيح (٣) حديث عمران بن حصين : بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلمتها ... الحديث « رواه مسلم . (٤) حديث عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلن رقيقه قالت له فقال « يا أبا بكر لعانين ومصدقين ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن وشيخه بشر بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحد حمن الراى فيه . (٥) حديث « إن اللعانين لا يكونون شفعا ولا شهداء يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء (٦) حديث أنس : كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلمن بعيره فقال يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون « أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد

فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك . فرعون لعنة الله ، وأبو جهل لعنة الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . وأما شخص بينته في زماننا كقولك زيد لعنة الله ، وهو يهودي مثلافنا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ .

فإن قلت : يلزم لكونه كافرا في الحال كما يقال للسلم : رحمه الله ، لكونه مسلما في الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد ؟ فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله : أي ثبتته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائر أن يقال : لعنة الله إن مات على الكفر ، ولأن الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة ^(١) ، وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روى : أنه كان يلعن الذي قتلوا أصحاب بئر معونة في قوته شهرا فنزل قوله تعالى : ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ^(٢) ، يعني أنهم ربما يسلمون فن أن تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنته وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، فإن كان لم يجوز كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مره وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عائيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فنضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يارسول الله هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب الهام من أبي قحافة فقال أبو بكر : يكلمني هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أخف عن أبي بكر ، فأنصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال : يا أبا بكر إذا ذكرت الكفار فمهموا فإنكم إذا خصمتم غضب الأبناء للآباء ، فكف الناس عن ذلك ^(٣) وشرب نيمان الحنجر لخم مرة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنة الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم : لا تكن عونا للشيطان على أخيك ^(٤) وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يجب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن

(١) حديث : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة . وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قوته شهرا فنزل قوله تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) أخرجه الشيخان من حديث أنس : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ... الحديث . وفي رواية لها : قنت شهرا يدعو على رجل ودكران . . الحديث . ولها من حديث أبي هريرة : وكان يقول حين يخرج من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ... الحديث « اللهم الن ليان ورعلا ... الحديث » وفيه « ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء » لفظ مسلم .

(٣) حديث : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مره وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عائيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فنضب ابنه . . الحديث ، أخرجه أبو داود في الراسيل من رواية علي بن ربيعة قال : أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من قوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنه سعيد بن العاص فقال أبو بكر : لن هذا القبر ؟ قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر : لمن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله ... الحديث . وفيه « فإذا سبتم المعركين تسبونهم جميعا » (٤) حديث : شرب نيمان الحنجر لخم مرة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنة الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكن عونا للشيطان على أخيك . وفي رواية : لا تقل هذا فإنه يجب الله ورسوله . أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلًا ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك والبخاري من حديث عمر : أن رجلا قال عهد =

لمن فاسق بعينه غير جائز . وعلى الجله في لمن الأشخاص خطر فليجتنب ولاخطرفي السكوت عن لمن لإبليس مثلا فضلا عن غيره .

فإن قيل : هل يجوز لمن يريد لانه قاتل الحسين أو أمر به ؟ قلنا : هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال إن قتله أو أمر به مالم يثبت ، فضلا عن العنة ، لانه لايجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرى مسلم يفسق أو كفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم : « لا يرى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » (١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باه به أحدهما ، إن كان كافرا فهو كما قال ، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » (٢) . وهذا منه أنه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر يعدة أو غيرهما كان عتقا لا كافرا . وقال معاذ : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهلك أن تشتم مسلما أو تعمى إماما عادلا ، والتعرض للأموات أشد » (٣) . قال مسروق دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي قالت : رحمه الله ، قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » (٤) . وقال عليه السلام « ولا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » (٥) . وقال عليه السلام « أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصحابي ولا تسبوا ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » (٦) .

فإن قيل : فهل يجوز أن يقال : قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الأمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا : الصواب أن يقال : قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله ، لانه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حرة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر واقتل جميعا ولايجوز أن يلمن ، واقتل كبيرة ولاينتهي إلى ربة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى .

وإنما أوردنا هذا تنهاون الناس بالعنة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلمان فلا ينبغي أن يطلق اللسان بالعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم ذنر الأشخاص الميعين . فلاشتمال

= رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حارثا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جله في العراب ، فأتى به يوما فأمر به لجه فقال رجل من القوم : اللهم الله ما أكثر ما يؤذي به ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنفوه نواصه ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم فيه « لا تنفوه عليه الفيطان » وفي رواية : « لا تكونوا هون الفيطان على أخيك » (١) . حديث : « لا يرى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » متفق عليه والسياق البخاري من حديث أبي ذر عن تقديم ذكر القس (٢) . حديث : « ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أن أحدهما أن كان كافرا فهو كما قال ، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » أخرجه أبو منصور الدلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بنه ضعيف .

(٣) حديث صاذ : « أنك تشتم مسلما أو تعمى إماما عادلا » أخرجه أبو نعيم الحلي في إناه . حديث له طويل (٤) . حديث عائشة : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » أخرجه البخاري وذكر المصنف في أوقة قصة عائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرفق مع القصة (٥) . حديث : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » أخرجه الترمذي من حديث المنيرة بن شعبة ورجله تات لا أن بعضهم أدخل بين المنيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم (٦) . حديث : « أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصحابي ولا تسبوا ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » أخرجه أبو منصور الدلمي في مسند الفردوس من حديث عائش الأسدي : « احفظوني في أصحابي وأصحابي » ولستأده ضعيف ولقبيخ من حديث أبي سعيد وأبي هريرة « لا تسبوا أممائي » ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر « اذكروا عاتن موثاكم وكنوا عن مساوهم » وللشائي من حديث عائشة : « لا تذكروا موثاكم إلا بخير » ولستأده جيد .

بذكر الله أولي فإن لم يكن ففي السكوت سلامة .

قال مكي بن إبراهيم . كما عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة ليجلوا ليعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا . بالبن عون إنما ذكره لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان يخرجان من صحيفتي يوم القيامة : لا إله إلا الله ولن الله فلانا ، فلان يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله ، أحب إلى من أن يخرج منها لن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصني فقال : أوصيك أن لا تكون لعانا ^(١) ، وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طمان لعان . وقال بعضهم لمن المؤمن بعد قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لوقلت إنه مرفوع لم أبال ؟ وعن أبي قتادة قال : كان يقال « من لمن مؤمنا فهو مثل أن يقتله ^(٢) » ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من العلم النفاذ على الإنسان بالشعر حتى النفاذ على الظالم كقول الإنسان مثلاً : لا تصحح الله جسمه ولا سله الله وما يجري مجراه ، فإن ذلك مذموم . وفي الخبر « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئهم بقيت للظالم عنده فضلة يوم القيامة ^(٣) » .

الآفة التاسعة : الفناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السباع ما يحرم من الفناء وما يميل فلا نعيده ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا ^(٤) » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرمه فقيل له في ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : أجعل مكان هذا ذكرا فإن ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فإفساد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة ^(٥) » نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب ، وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح ^(٦) فإنه وإن كان كذبا فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه شحيا كان كاذبا ، وإن كان شحيا فالعالم من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يمتدح صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تلبست لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخفف ليله وكنت جالسة

(١) حديث قال رجل : أوصني قال : أوصيك أن لا تكون لعانا « أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرير المجهول وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم (٢) حديث « لمن المؤمن كفتله » متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاک (٣) حديث « لن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئهم بقيت للظالم عنده فضلة يوم القيامة » لم أفت له على أصل والترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف « من دعا على من ظلمه فقد انصر » .

الآفة التاسعة : الفناء والشعر

(٤) حديث « لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص ووافق عليه الفيضان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لن من الشعر لحكمة » تقدم في الفن وفي آداب السباع (٦) حديث أمره حسان أن يهجو المشركين . متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجم وجرير منك » .

أغزل ، فنظرت إليه فجعل جبينه يمرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت : فبغت فظنرت إلى فقال : مالك هت ؟ ، قلت : يا رسول الله فظنرت إليك فجعل جبينك يمرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رأك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره قال : وما يقول يا عاتقة أبو كبير الهذلي ، قلت : يقول هذين البيتين :

وميراً من كل غير حيلة وفساد مرضعة وداء مفيل
وإذا فظنرت إلى أسرة وجهه رقت كبرق العارض للتلل

قال فرضع صلى الله عليه وسلم ما كان يده وقام إلى وقبل مابين عيني وقال : جزاك الله خيراً يا عاتقة ما سررت مني كسرورى منك ^(١) ، ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعره وفي آخره :

وما كان بدو ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منها ومن قطع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اضطموا على لسانه ، فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضي الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أقول في الشعر ؟ ، فجعل ينتدب إليه ويقول : بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر ديبياً على لسان كديب الفحل ثم يقرضني كما يقرض النمل فلا أجد بداً من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال : لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين ^(٢) .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم : لا تمارأناك ولا تمارحه ^(٣) ، فإن قلت : الماراة فيها إهداء لأن فيها تكذيباً للآخ والصديق أو تجهيلاً له وأما المزاح فطائفة وفيه انبساط وطيب

(١) حديث عاتقة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفف ناله وكنت أغزل قالت : فظنرت إليه فجعل جبينه يمرق وجعل عرقه يتولد نورا .. الحديث . وفيه إهداء عاتقة لشعر أبي كبير الهذلي :

وميراً من كل غير حيلة وفساد مرضعة وداء مفيل
وإذا فظنرت إلى أسرة وجهه رقت كبرق العارض للتلل

إلى آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة .

(٢) حديث : لما قسم الغنائم أمر العباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره :

وما كان بدو ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منها ومن قطع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : اضطموا على لسانه الحديث . أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أصطلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً سفيان بن حرب وسفيان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأفرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأصطلى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أتمسك بنهي ونهي السيد بين عيشة والأفزع
وما كان بدو ولا حابس يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منها ومن قطع اليوم لا يرفع

قال فأنم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد في رواية أصطلى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة « اضطموا على لسانه » فليست في شيء من الكتب المصنوعة .

الآفة العاشرة : المزاح

(٣) حديث : لا تمارأناك ولا تمارحه . أخرجه الترمذي وقد تقدم

قلب فلم ينه عنه ؟ فاعلم أن للنبي عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه . أما المداومة فلا تنه اشتغال بالعب والمزول فيه والعب مباح ولكن المداومة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحكة تميم القلب وتورث الضئيلة في بعض الأحوال ، وتسقط الهبة والوقار . فما يجوز من هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنى لأمرح ولا أقول إلا حقا ^(١) » ، إلا أن مثله يقدر على أن يبرح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى في النار أبعد من الربا ^(٢) » ، وقال عمر رضي الله عنه : من كثر ضحكك قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثرت سقطته ، ومن كثرت سقطته قل حيائه ، ومن قل حيائه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه . ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لبكيتكم كثيرا ولضحكتكم قليلا ^(٣) » وقال رجل لأخيه : يا أخي هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : مهل أنك أنك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : فقيم الضحكة قيل فاروى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف بن أسباط : أقيم الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقيم عطاء السلي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فماذا غفر للساكرين ؟ وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ؟ وكان صيد الله بن أبي يعلى يقول : اضحكك ولعل أكفناك قد خرجت من عند القصار ؟ وقال ابن عباس : من أذهب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يركي . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يركي ألسنتك تعجب من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فأنى يضحك في الدنيا ولا يدرى إلى ماذا يصير هو أعجب منه ؟ فهذه آفة الضحك وللذموم منه أن يستغرق ضحكا ، والمحمود منه التبس الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) ، قال أنس مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قفوس له صعب فلم يجعل كلنا دنانم النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يتر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ، فقبل ذلك مرارا ثم وقصه فقلته فقيل : يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قفوصه وقد هلك ، فقال : نعم ، وأفواكم ملأى من دمه ^(٥) ، وأما أماء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد بن المنكدر : قالت لى أى يابى لا تمازح الصبيان فتون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه : يابى لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الذنى فيجترى عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اتقوا الله وإياكم وللمزاح فإنه يورث الضئيلة ويجوز إلى القبيح ، تمذتوا بالقرآن ويحاسبوا به فإن قل عليكم لحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضي الله عنه : أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال : لأنه أزاح صاحبه عن الحق . وقيل : لئلا شيء يذود وبذور العداوة المزاح . ويقال : المزاح مسلية للنبي مقطعة للأمداء .

• فإن قلت : قد تقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول : إن قدرت

(١) حديث « إنى لأمرح ولا أقول إلا حقا » تقدم (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها في النار أبعد من الربا » تقدم (٣) حديث « لو تعلمون ما أعلم لبكيتكم كثيرا ولضحكتكم قليلا » متفق عليه من حديث أنس وعائفة (٤) حديث : كان ضحك التبس . تقدم (٥) حديث أنس مولى معاوية : أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قفوس صعب لم يجعل كلنا دنانم النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يتر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه فقبل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقلته ، فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قفوصه فقلته قال : نعم وأفواكم ملأى من دمه ، أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق وهو مرسل .

على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبابه وهو أن يمزج ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذى قلباً ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على التدور فلا خرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاج حرفة ويطلب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور به مع الزوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لماثمة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد ، وهو خطأ إذ من الصغار ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا ^(١) نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا فقال : إني وإن دأبتكم لأقول لإحساناً ^(٢) ، وقال عطاء : إن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزج ؟ فقال : نعم ، قال : فما كان مزاجه ؟ قال : كان مزاجه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها : البسيه واحدى وجزى منه ذيلاً كذيل العروس ^(٣) ، وقال أنس : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفسكه الناس مع نسائه ^(٤) وروى أنه كان كثير التيميم ^(٥) وعن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة عجوز ، فبككت فقال : إنك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى ﴿إنا أنشأناهم إنشأً لمجلتاهن أبكاراً﴾ ^(٦) ، وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجي يدعوك ، قال : «ومن هو أهو الذي بعينه يياض ؟ » قالت : والله ما بعينه يياض ! فقال : «يلى إن بعينه يياضنا ، فقالت : لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد إلا وبعينه يياض ، ولأراد به البياض المحيط بالحدة ^(٧) وجاءت امرأة أخرى فقالت : يا رسول الله احملني على بعير فقال : «بل نحملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به إنه لا يحملني فقال صلى الله عليه وسلم : ما من بعير إلا وهو ابن بعير ^(٨) ، فكان يمزج به وقال أنس : كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول «يا أبا عمير ما فعل التتير ^(٩) ، فتعير كان يلعب به وهو فرخ العصفور ، وقالت عائشة رضى الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال : تعالى حتى أسأليك ، فشددت دوعي على بطني ثم خططنا خطاً فقمنا عليه واستبقينا فسبقني وقال : هذه مكان ذى الحجاز ^(١٠) ، وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذى الحجاز وأنا جارية قد بعثت أبي بشيء فقال : أعطيتني ، فأبيت وسميت وسمى في أرى فلم يدركني وقالت أيضاً : سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حلت اللحم سألني فسبقني ، وقال : هذه بتلك ^(١١) ، وقالت أيضاً رضى الله عنها : كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمة فصنعت حريرة وجشت به فقلت لسودة : كلى ، فقالت لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلن أو لأطبخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذاتكته ، فأخذت

- (١) حديث : إذنه عائشة في النظر إلى رقص الزوج في يوم عيد هدم . (٢) حديث أبي هريرة : قالوا إنك تداعبنا قال : إني وإن دأبتكم فلا أقول إلا حقاً ، أخرجه الترمذى وحسنه . (٣) حديث عطاء : لن رجلاً سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزج ؟ فقال ابن عباس : نعم ... الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه «البسيه واحدى وجزى منه ذيلاً كذيل العروس ، لم أفسكه عليه ^(٤) ، حديث أنس : كان من أفسكه الناس . هدم (٥) حديث : أنه كان كثير التيميم (٦) حديث الحسن : لا يدخل الجنة عجوز ، أخرجه الترمذى في المعالي مكملاً مرسل وأسنده ابن الجزرى في الزوائد حديث أنس بسند ضيف . (٧) حديث زيد بن أسلم : قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت زوجي يدعوك ، أموالى بعينه يياض ... الحديث ، أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الشكافة والمزاج ورواه ابن أبي الدنيا من حديث هبة بن ميم القهرى مع اختلاف (٨) حديث : قوله لامرأة استعجلته «نحملك على ابن البعير ... الحديث ، أخرجه أبو داود الترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ «أنا حملك على ولد الناقة» (٩) حديث أنس «أبا عمير ما فعل التتير ؟ » متفق عليه وهدم في أخلاق النبوة (١٠) حديث عائشة : في سألته صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فنبهها وقال : هذه مكان ذى الحجاز ، لم أجده أملاً ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر (١١) حديث عائشة : سأبني فسبقته . أخرجه النسائى وابن ماجه وقد هدم في الشكاف (١٧) — لمحياء علوم الدين — (٣)

يئس من الصفة شيئاً منه فطلعت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها، تخفض لرسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصفة شيئاً فسكت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك^(١) فرأى أن الضحك ابن سفيان الكلابي كان رجلاً دميماً قبيحاً، فلما بابيه التي صلى الله عليه وسلم قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الخيرات - وذلك قبل أن تقول آية الحجاب - أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعاشمة جالسة تسمع، فقالت: أي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواها إزاء لأنه كان دميماً^(٢). وروى علفمة عن أبي سلفة أنه كان صلى الله عليه وسلم يذلع لسانه للحسن ابن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيش له فقال له عيئة بن بدر الفزاري: والله ليكرن لي الإبن قد تزوج وبقل وجهه وما قبله قط! فقال صلى الله عليه وسلم: إن من لا يرحم لا يرحم^(٣) فأكرهه المطايبات متولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرأ: أأأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما أأكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم^(٤)، قال بعض الرواة حتى نظرت لى نواجه. وروى أن خوات ابن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة؟ فقال يتنن ضفيرا لجل لى شرود، قال: فغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته ثم عاد فقال: يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجل الشراد بعد؟ قال: فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أنفوز من كلما رأيت حياه منه، حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال: فرأى في المسجد يوما أصلى لجلس إلى فطولة فقال: لا تطولوا عني أنتظرك، فلما سلبت قال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجل الشراد بعد؟ قال: فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أنفوز منه حتى لحقني يوما وهو على حمار وقد جعل رجلي في شق واحد، فقال: يا أبا عبد الله أما ترك ذلك اجل الشراد بعد؟ فقلت والذي يثلك بالحق ماشرذ منذ أسلبت فقال: الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله، قال: حسن إسلامه وهده^(٥) وكان نعمان الأنصاري رجلاً مزاحافاً فكأن يشرب الخمر في المدينة فيؤذي به إلى التي صلى الله عليه وسلم فيضربه بعله ويأسر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه

(١) حديث عائشة : في تلخ وجه سودة بحمرة وأطاح سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يشمك . أخرجه الزبير بن بكار في كتاب السمكة وأبو ليلى بإسناد جيد . (٢) حديث : عن الصحاك بن سفيان الكلبي قال حدثني أبي أن أبا حمزة سمعته يقول : أكلوا من اللحم فخرجوه ووافقه جالسه - قيل أليس يضرب الجانيه - فقالت أمي الحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا الحسن بن بكر ثم فصحت التي علي الله عليه وسلم أكل منها - كان دعيا - أخرجه الجانيه بن بكار في السقاكة من روايعه القدر حسن مرسل أو مسلا وللدرنقل هوخذ النص من عبيد بن حسن الثوري مدني نزول الجانيه بن حديث أبي حمزة .

(٣) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة : أنه صلى الله عليه وسلم قال بلغ لسانه الحسن بن علي فيرى الصبي فقبض إليه ، فقال : يا بني ، من بحر الترابي : والله ! ليكون لي الابن ربلا قد خرج وجهه وما قبلته قط ! فقال : « لن من لا يرسم لأرسم » أخرجه أبو علي من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده . وبكى الحطيف في البهائم قولين قائل ذلك أحدهما : أنه عيينة بن حصن ، والثاني : أنه الأقرع بن حابس . وعند مسلم من رواية الزمري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس رضي الله عنه صلى الله عليه وسلم يقول الحسن فقال إن في عترة من الولد ما ملئت وأحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يرسم لأرسم . (٤) حديث : قال الصبي ومعه « أم كلثوم بنت ربيعة » فقال : أمما ! آكل على الشئ الآخر ، تخسم التي صلى الله عليه وسلم . أخرجه ابن سريج والحاكم من حديث مسلم ورجلا ثلث

(٥) حديث : أن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليهن النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة ؟ » فقال يتنن صبراً لجألى شروء ... الحديث ، أخرجه الطبراني في الكبير من رواية يزيد بن أسلم عن خوات بن جبير عن اختلاف زوجها ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ، وروى بن عمرو

قال له رجل من الصحابة : لعنك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله ، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : يا رسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أعطه ثمن متاعه ، فيقول له صلى الله عليه وسلم : « أولم تهده لنا ، فيقول : يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه ، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأمر لصاحبه بثمنه ^(١) فهذه مطالبات يباح مثلها على التدور لا على الدوام والمواظبة عليها هول مذموم وسبب للضحك للميت للقلب .

الألف الحادية عشر : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾ ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتثييز على الميوب والتفائس على وجه يضحك منه : وقد يكون ذلك بالحكاية في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيحاء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « والله ما أحب أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا ^(٢) » وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يخادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ إن الصغيرة التيسيم بالاستهزاء بال مؤمن ، والكبيرة التهمته بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمرة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطف فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال : « علام يضحك أحدكم بما يفعل ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم لهم فيجىء بكبره وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم لهم فيجىء بكبره وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فإذا زال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له لهم فلا يأتيه ^(٤) » وقال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله ^(٥) » وكل هذا يرجع إلى استحقاق الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له . وعليه نبه قوله تعالى ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ أي لا تستحقوا استصغارا فلعله خير منك .

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح . وقد سبق ما يفيده وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما

(١) حديث : كان لحيان رجلا مزاحا وكان يعزبه الخمر فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ... الحديث . وفيه : أنه كان يفتري الغيبة ويهديه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه .. الحديث . أخرجه الزبير بن بكار في الاسكاهة ومن طريقه ابن عبد البر ومن رواية محمد بن حزم مسنلا وقد تقدم أوله .

الألف الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

(٢) حديث عائشة : حاكيت إنسانا فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يسنن أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه (٣) حديث عبد الله بن زمرة : وعظهم في الضحك من الضرطة وقال : « علام يضحك أحدكم بما يفعل » متفق . (٤) حديث : « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم فيجىء بكبره وغمه فإذا جاء أغلق دونه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن من حديث الحسن مرسلا ورواه في « تأييدات التبيين » من رواية أبي هريرة أحد المالكين عن أنس (٥) حديث معاذ بن جبل : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » أخرجه الترمذي دون قوله « قد تاب منه » وقال حسن غريب وليس استاده يتصل قال أحد بن منيع قالوا : « من ذنب قد تاب منه » .

فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تحبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشرقة بالضحك على خطئه وعلى صنعه ، أو على صورته وخطئته إذا كان قصيرا أو ناقصا لئيب من السيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرفة التي نهى عنها

الآفة الثانية عشر : إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة ^(١) ، وقال مطلقا : الحديث بينكم أمانة ^(٢) ، وقال الحسن : إن من الخيانة أن يتحدث بسر أخيك . ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لآبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثي وما أراه يطوى عنك ما يسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاء كان الخيار عليه قال : فقلت يا أبت وإن هذا يدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأبيت معاوية فأخبرته فقال : يا وليد اعتقك أبوك من رقي الخطأ إفشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار . ولزم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة .

الآفة الثالثة عشر : الوجد الكذاب

فإن اللسان سباق إلى الوجد ، ثم النفس ربما لاتسمح بالوقام فيصير الوجد خلقا وذلك من أمارات التفاني قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أدفروا بالعقود) وقال صلى الله عليه وسلم المدة عطية ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم الراى مثل الدين أو أفضل ^(٤) ، والراى : الوجد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال (إنه كان صادق الوجد) قبل إته وعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي ، فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره . ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابني رجل من قريش وقد كان إليه من شبه الوجد ، فوفاه لا أنفي الله تلك التفاني أشهدكم أني قد زوجته ابنتي . وعن عبد الله بن أبي الحنفية قال : بايتم النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبيت وبيت له بقية فوادة أن آتية بها في مكانه ذلك ففسد يوسى والفد فأتيت اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال « يا بني لقد شقت على أنا مهنا منذ ثلاث أنتظرك » ^(٥) ، وقيل

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

(١) حديث « إذا حدث الرجل يحدث ثم التفت فهي أمانة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر .

(٢) حديث « الحديث بينكم أمانة » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

الآفة الثالثة عشرة : الوجد الكاذب

(٣) حديث « المدة عطية » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قات بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في السمات والجران على في مكالم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا (٤) حديث « الراى مثل الدين أو أفضل » أخرجه ابن أبي الدنيا في السمات من رواية ابن أبي ليحة مرسلا وقال الراى بيني والوجد ، ورواه أبو منصور البجلي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبي الحنفية : « بايتم النبي صلى الله عليه وسلم فوادة أن آتية بها في مكانه ذلك ففسد يوسى والفد فأتيت اليوم الثالث وهو في مكانه فقال « يا بني لقد شقت على أنا مهنا منذ ثلاث أنتظرك » رواه أبو داود واختلف في استاده وقال ابن مهدي ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه .

لإبراهيم: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يهمل، قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة في هجره. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدا قال: «عسى»^(١) وكان ابن مسعود لا يعدو على الإقرار إلا بشأه وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجرم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتمذر، فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي بهذا هو التناق. وقال أبو هريرة: قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان^(٢)، وقال عبادة بن صرور رضي الله عنهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من التناق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر^(٣)، وهذا يزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فمن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة التناق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة التناق أيضا كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يعمل نفسه مذبذبا من غير ضرورة حاضرة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن الأتيان عامدا: فأني بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحدا، فأنت فاطمة رضي الله عنها تطلب منه عامدا وتقول: ألا ترى أثر الرحي بيدي؟ فذكر موعده لأبي الهيثم فجعل يقول: كيف بعد رحي لأبي الهيثم؟^(٤)، فأثره به على فاطمة - لما كان قد سبق من موعده له - مع أنها كانت تدبر الرحي بيدها للضعيفة. ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بمحنت فوقك عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعدا يارسول الله قال: وصدقت، فاتحكت ماشئت، فقال: أحكمت ثمانين خاتمة وراعيها، قال: «هي لك»، وقال: استحكت يسيرا^(٥) ولصاحبة موسى عليه السلام أتت دلتة على عظام يوسف كانت أحرم منك وأجول حكا منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكى أن تردني شابة وأدخل مملكة أجنبية، قيل فكان الناس يضعفون ما احتك به حتى جعلوا مثلا فقيل: أشع من صاحب الثمانين والراعي. وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي^(٦)، وفي لفظ آخر: إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يعد، فلازم عليه.

الآلة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. قال اسمعيل بن واسط: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يطلب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتي هذا عام أول - ثم بكى -

(١) حديث: كان إذا وعد وعدا قال: «عسى» لم أجده أصلا (٢) حديث أبي هريرة: ثلاث من كن فيه فهو منافق... الخلف وفيه: إذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم.

(٣) حديث عبد الله بن عمرو: أربع من كن فيه كان منافقا... الحديث متفق عليه (٤) حديث: كان وعد أبا الهيثم بن الأتيان عامدا: فأني بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحدا، فجاءت فاطمة تطلب منه.. الحديث وفيه لجعل يقول: كيف بعد رحي لأبي الهيثم؟ فأثره جعل فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر فاطمة (٥) حديث: أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بمحنت فوقك عليه رجل قال: إن لي عندك موعدا، قال: صدقت فاتحكت ماشئت... الحديث وفيه: لصاحبة موسى التي دلتة على عظام يوسف كانت أحرم منك... الحديث أخرجه ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر. (٦) حديث: ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي، وفي لفظ آخر: إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يعد فلازم عليه، أخرجه أبو داود والترمذي وشيخه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنها «لا» في قوله.

وقال « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار »^(١) وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق »^(٢) وقال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل . وللدخول والخروج ، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب »^(٣) وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^(٤) . وروى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وسلم رجلين يتبايعان شاة ويتماثلان ، يقول أحدهما : والله لا أفصلك من كذا وكذا ، ويقول الآخر : والله لأزنيك على كذا وكذا ، بالثاة وقد اشتراها أحدهما فقال « أرجب أحدهما بالإثم والكفارة »^(٥) . وقال عليه السلام « الكذب ينقص الرزق »^(٦) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن التجار هم الفجار » فقليل يارسل الله ليس قد أحل البيع ؟ قال « نعم ولكنهم يخلفون فيأثمون ويعدون فيكذبون »^(٧) . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بغيته والمنفق سلمته بالخلف الفاجر والمسبل إزاره »^(٨) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما خلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة »^(٩) . وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يحرم الله : رجل كان في قبة فصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصب على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يسوا الأرض فزلوا . فتسعى يصل حتى يوقط أصحابه الرحيل . وثلاثة يشتمهم الله : التاجر أو البياع الخلف ، والفقر المختال والبخل المان »^(١٠) . وقال صلى الله عليه وسلم « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له »^(١١)

الآلة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

(١) حديث أبي بكر الصديق : قام ليلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامى هذا طم أول - ثم بكى - وقال « إياكم والكذب الحديث » أخرجه ابن ماجه والسنائي في اليوم والليالي وجهه المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وأما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإساده حسن (٢) حديث أبي أمامة « إن الكذب باب من أبواب النفاق » أخرجه ابن مدي والكمال بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجهي ضعيف جدا وبني عنه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أرجب من كذب كاذباً منافقاً » قال في كل منهما « وإذا حدث كذب » وما في الصحيحين وقد تقدم في الآلة التي قبلها . (٣) حديث « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سليمان بن أسد . وضعف ابن عدى ورواه أحمد والطبراني من حديث الترمذي بن سمعان بإسناد جيد . (٤) حديث ابن مسعود « لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » متفق عليه (٥) حديث . من رجلين يتبايعان شاة ويتماثلان ... الحديث ، وفيه فقال « أرجب أحدهما بالإثم والكفارة » أخرجه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضري وهكذا ورواه في أمالي ابن سمعون وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عند الله كذا في ناسخ (٦) حديث « الكذب ينقص الرزق » أخرجه أبو الشيخ في طبقات الأصفيين من حديث أبي هريرة ورواه كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر وإسناده ضعيف (٧) حديث « إن التجار هم الفجار ... الحديث » وفيه « ويعدون فيكذبون » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل (٨) حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بغيته والمنفق سلمته بالخلف الكذاب والمسبل إزاره » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر (٩) حديث « ما خلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذي والحاكم وصححه وإسناده من حديث عبد الله بن أنس (١٠) حديث أبي ذر « ثلاثة يحرم الله ... الحديث » وفيه « وثلاثة يشتمهم الله التاجر أو البياع الخلف أو من حلف بالله فأدخلك فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة » الحديث ، وإسناده جيد (١١) حديث « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » أخرجه أبو داود والترمذي وسته والسنائي في الكبير من رواية جابر بن حكيم عن أبيه عن جده .

وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقمعت معه ، فلذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كآوب من حديد يلقفه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فلذا مده رجوع الآخر كما كان ، فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة ^(١) » وعن عبد الله بن جراد قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل يرضى المؤمن ؟ قال « قد يكون ذلك » قال : يابني الله هل يكذب المؤمن ؟ قال « لا » ثم أتبعها صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعو فيقول في دعائه « اللهم طهر قلبي من التفلق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب ^(٣) » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك كذاب ، وعامل مستكر ^(٤) » وقال عبد الله بن عمار : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أُمي : يا عبدة تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وما أردت أن تعطيه » قالت تمراً ، فقال « أما إنك لو لم تفعل لي كسبت عليك كذبة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لوفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لنفسها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم وكان مستكراً « ألا أتيتكم بأكبر الكبار إلا إني أترك بالله وعقوب الوائدين » ثم قعد وقال « لا أقول الزور ^(٧) » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به ^(٨) » وقال أنس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « قبلوا إلى بسن أتقبل لكم بالجنة » فقالوا وما من ؟ قال « إذا حدث أحدكم فلا يكذب ولذا وعد فلا يخلف ولذا أتمن فلا يخون وضوا أبصاركم وحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم ^(٩) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الشيطان كلا ولعونا ونفوساً : أما لعونا فالكذب ، وأما نفوسه فالتنصب . وأما كله فالتنوم ^(١٠) » وخطب عمر رضي الله عنه يوماً فقال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقاي هذا فيكم فقال « احسنوا إلى أصحابي

(١) حديث « رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقمعت معه فلذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كآوب من حديد يلقفه في شدة الجالس ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل (٢) حديث عبد الله بن جراد : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل يرضى المؤمن ؟ قال « قد يكون مدحك » قال : هل يكذب ؟ قال « لا » ... الحديث أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضيف ورواه ابن أبي الدنيا في المصنف مقتصر على الكذب وجعل السائل أبا الفرداء .

(٣) حديث أبي سعيد « اللهم طهر قلبي من التفلق وفرجني من الزنا ولساني من الكذب » هكذا وقع في نسخ الإحياء من أبي سعيد وأما هو من أم محمد وكذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله « وفرجني من الزنا » وزاد « وحمل من الرياء ومبني من الحياء ولسانه صيف ^(٤) » حديث « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ... الحديث » وفيه « والإمام الكذاب » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث عبد الله بن عمار : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أُمي : يا عبدة تعال أعطيك فقال « وما أردت أن تعطيه » قالت تمراً فقال « إن لم تفعل لكسبت عليك كذبة » رواه أبو داود وفيه من لم يدم وقال المالك لأن عبد الله بن عمار ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسع منه . قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وأن مسود ورجلها تحت ألا أن الزهري لم يسع من أبي هريرة (٦) حديث « لوفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لنفسها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً » رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة (٧) حديث « ألا أتيتكم بأكبر الكبار ... الحديث » وفيه ألا « وقول الزور » عتق عليه من حديث أبي بكر (٨) حديث ابن عمر « إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نين ما جاء به » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

(٩) حديث أنس « قبلوا إلى بسن أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ... الحديث » أخرجه المالك في الممشرك والمخالف في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضمه أحد والثالثي ووثقه ابن معين ورواه المالك نحوه من حديث عبادة بن الصامت وظل يصحح الإسناد .

(١٠) حديث « إن الشيطان كلا ولعونا ... الحديث » أخرجه الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضيف وقد تقدم

ثم الذين يلوهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد ^(١) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عني يحدث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين لا يثم يقطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان ^(٣) » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الحيانة والكذب ^(٥) » وقالت عائشة رضی الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فيأبشج من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها ^(٦) . وقال موسى عليه السلام : بآرب أى عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فإنه شئ كحم العصفور عما قيل بقلاده صاحبه . وقال عليه السلام في مدح الصدق « أربع إذا كن فليك لا يعزرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة ^(٧) » وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول ثم بكي . وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة ^(٨) » وقال غفاد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو صدك بتقوى الله وصدق الحديث وإداء الأمانة والوفاء بالعهود وبذل السلام وخضض الجناس ^(٩) » .

وأما الآثار : فقد قال علي رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشتر الندامة ندامة يوم القيامة
 فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت علي لإزاري . وقال عمر رضي الله عنه : أجكم
 إلينا ما لم ترك أحسنكم إسما فلذا وأيناكم فطبعكم إلينا أحسنكم خلقا فلذا اختبرناكم فأجكم إلينا أصدقكم حديثا وأعظمكم
 أمانة . وعن ميمون بن أبي شبيب قال جلست أكتب كتابا فأتيته على حرف إن أنا كتبت زيفت الكتاب وكنت
 قد كذبت فمرمت علي تركه فهديت من جانب البيت (ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا
 وفي الآخرة) وقال الشعبي : ما أدري أيما أبرد غور في النار الكذاب أو البعيل ؟ وقال ابن السكك : ما أراي
 أوجر علي ترك الكذب لأن إيماء أدهه أفنه . وقيل الخالد بن صبيح : أيسر الرجل كاذبا يكذب واحدة ؟ قال : نعم
 وقال مالك بن دينار : فرأت في بعض الكتب ما من خطيب إلا وترس خطبته على عمله فإن كان صادقا صدق وإن

(١) حديث : خُلف عمر بالجالية ... الحديث . وفيه « ثم يقول الكذّاب » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٢) حديث « من حدث بحدِيث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٣) حديث « من خلق لي بين يأمي ولقطعت بهالام امرئ مسل ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي مسعود (٤) حديث : أن رد شهادة رجل في كذبه كذاها . أخرجه أبي إني الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة حرسلنا وموسى روى عنه ثمة متكبير له أحد بن خنزل (٥) حديث « كل كلمة يطع أو يطرد عليا المؤمن إلا الحياة والكذب » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدي في مقدمه الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضاً وأبو أمامة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في السمت من حديث سعد بن هريمو وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قال الأثرعالي في الملل (حديث : ما كان من خلق الله شيء أهد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب وقد كان يطلع على الرجل من أصحابه في الكذب حتى ينطلي من صدره ثم يملأ أي كذا حدث قل أنها توبة . أخرجه أحمد من حديث عائدة ورجاله ثقات لا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره ودواه أبو الفينخ في اللغات فقال ابن أبي مليكة ولم تفك وهو صحيح (٧) حديث « أدع لذنابك نيك فلا يضرك فافانك من الدنيا : صدق الحديث ... الحديث » أخرجه الحاكم والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه أبي شيبة (٨) حديث أبي بكر « عليكم العسف فانه مع البروما في الجنة » أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة وقد تقدم بيضة في أول هذا النوع (٩) حديث ساءد « أوصيك بتقوى الله وسعدك الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وقد تقدم

كان كاذباً فرضت شفتاه بقاريض من نار كما فرضنا نبتاً . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له : كذبت ، فقال عمر : والله ما كذبت منذ عدت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان مارخص فيه من الكذب

أعلم أن الكذب ليس حراماً لئنه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يستغنى الخبير الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب يحصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً .

قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، رأيته لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليه فقال : رأيته فلاناً ؟ ما كنت تأثلاً ؟ أنت تقول : لم أراه ؟ وما تصدق به . وهذا الكذب واجب .

فقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اشتق من ظلم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استألف قلب الجني عليه إلا بالكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداهى إلى ما يستقبحه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا للضرورة .

والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخس في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يصدت أسرته والمرأة تحدث زوجها ^(١) . وقالت أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نهي خيراً ^(٢) ، وقالت أسماء بنت زيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا لرجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما ^(٣) ، وروى عن أبي كامل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فليقت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعتك يحسن عليك التنازع ؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلما ، ثم قلت : أهلسكت نفسي وأصلحت بين هذين ! فأعبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا كامل أصلح بين الناس ^(٤) ، أي ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أ كذب على أمي ؟ قال : لا خير في الكذب ، قال : أعدهما وأقول لها ، قال : لا جناح عليك ^(٥) ،

(١) حديث أم كلثوم : ما سمعت يرخس في شيء من الكذب إلا في ثلاث . أخرجه مسلم وقد تقدم . (٢) حديث أم كلثوم أيضاً : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ... الحديث . حقق عليه وقد تقدم ، والذي قبله عند مسلم يعني هذا . (٣) حديث أسماء بنت زيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا لرجل كذب بين رجلين يصلح بينهما . أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه . (٤) حديث أبي كامل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام ... الحديث . وفيه « يا أبا كامل أصلح بين الناس » رواه الطبراني ولم يصح . (٥) حديث عطاء بن يسار : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أ كذب على أمي ؟ قال : لا خير في الكذب . قال : أعدهما وأقول لها ، قال : لا جناح عليك . أخرجه ابن عبد البر في التمهيد من رواية سفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسل وهو في الموطأ عن سفوان بن سليم مثلاً من غير ذكر عطاء بن يسار .

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلى وكان في خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أجدوة يكرهها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أشدك بالله من تبغضين ؟ قالت : لا تشدني ، قال : فإني أشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال : إنكم لتحدثون إلى أظلم النساء وأظلمهن فأسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجلست هي وعنتها فقال : أنت التي تحدثين لزوجة أنك تبغضينه ؟ فقالت : إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتزوجت أن أكذب ، أفأكذب بأمر المؤمنين ؟ قال : نعم فأكذب فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحبته بذلك ، فإن أقل البيوت الذي يبني على الحب ولكن الناس يتشاورون بالإسلام والأصحاب .

وعن الثوراس بن سيمان الكلبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما لي أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم لاجعالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين خصماء فيصلح بينهما ، أو يتحدث امرأته رضيا^(١) » وقال ثوبان الكذبي كله إثم إلا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا . وقال علي رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلان آخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالجرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبا فله أن ينكر ذلك ، فيقول : ما زلت وما سرقت . وقال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليست بستر الله^(٢) » ، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فلعل رجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا .

وأما عرض غيره : فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين العورات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييبا لقلبيها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحق فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويرزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقبل الأمران بحيث يتردد فيها ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غرض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يجتاز الإنسان من الكذب ما أمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بمرض غيره فلا يجوز المساعدة لحق الضرر والإضرار به ؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحفظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه والأمور ليس فواتها

(١) حديث الثوراس بن سيمان « ما لي أراكم تهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب مكتوب ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ « تبايوس » إلى قوله « في النار » دون ما يده فراه الطبراني وفيها شهرين حوشب . (٢) حديث « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليست بستر الله » الحاكم من حديث عمر بلفظ « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فلم يبق منها فليست بستر الله » واستأنده حسن .

محدورا ، حتى إن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفضر به وتكذب لأجل مراعاة الضرات ، وذلك حرام . ولة أئمة سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لي ضرة وإنى أتكثر من زوجي بما لم يسل أنصارها بذلك فهل على شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : التشيع بما لم يعط كلايس ثوبى زور ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من تعلم بما لا يعلم أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلايس ثوبى زور يوم القيامة ^(٢) ، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذى لا يثبت له إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدري ، وهذا حرم ؛ وما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتوب إلا وعد أو عيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا . نعم روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطلب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيض بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له خطئه و غرضه الذى هو مستغن عنه وإنما يتعمل ظاهرا بالإصلاح فهكذا يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أم في الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفله دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانوه أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي ، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض . إذ قال صلى الله عليه وسلم : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ^(٣) ، وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ الصدق مندوحة عن الكذب ففيها ورد من الآيات والأخبار كفاية من غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فرفعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقام عذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدي فتح باب إلى أمور تنقش الشريعة فلا يقام خير هذا شره أصلي . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاموها شيء . نسأل الله العفو عما وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه : أما في المعاريض ما يمكن الرجل عن الكذب ؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأ فتمل بمرض وقال : مارفت جني مفاقرت الأمير لا مارفتني الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل منك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء . فيكون قوله « ما » حرف نفى عند المستمع ، وعنده الإيهام . وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتى به السمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاهما بشيء . فقال : كان عندى ضاغط ، قالت : كشت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضى الله عنه . فبعث عمر

(١) حديث أسماء : قالت امرأة : إن لي ضرة وإنى أتكثر من زوجي بما لم يسل . الحديث . متفق عليه وفى أسماء بنت أبي بكر الصديقية (٢) حديث « من تعلم بما لا يعلم وقال لي وليس له وأعطيت ولم يعط كلايس ثوبى زور يوم القيامة » لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من طرق وقد تقدم في العلم .

مهلك ضاغطا ؟ وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر ، فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال : بئس مهلك ضاغطا ؟ قال : لم أجد ما أعترف به لإيها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا فقال : أرضها به - ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيقاً وأراد به الله تعالى - وكان النخعي لا يقول لابنته : أشتري لك سكرًا بل يقول : أرأيت لو أشتريت لك سكرًا ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يصكره أن يخرج إليه وهو في النار قال للجارية : قولي له أطلبه في المسجد ولا تقول له ليس هنا كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب في المنزل هو يكرهه خط دائرة وقال للجارية : ضعي الأصبع فيها وقولي ليس هنا . وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال : دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز راحة الله عليه فخرجت وعلى ثوب ، فجعل الناس يقولون هذا كساك أمير المؤمنين ؟ فكتكت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا ، فقال لي أبي يابن اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفارقة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه .

نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة حمور »^(١) وقوله للأخرى « الذي في عين زوجك يابض » وللأخرى « نملكك حل ولد البير » وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضير إذ قال له إنه نيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق بتقريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك ، فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لإطابتها فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن يقتض ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه حتى يجتنب الكذب في مزاحه »^(٢) وأما قوله عليه السلام « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من النريا »^(٣) أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طليتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا لمرة واحدة كان كاذبا ، وإن كان طلبه مرات لا يمتد ثلثها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لحظر الكذب . ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول : لا أشتهي ؛ وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد : قالت أسماء بنت عيسى ، كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى نسوة قالت : فو الله ما وجدنا عنده قرى إلا قد سامن لين ، فشرب ثم ناوله عائشة ، قالت : فاستحييت الجارية فقلت : لا ترقى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال « ناولي صواحبيك » فقلن : لا نشتهي ، فقال « لا تجتمعن جورا وكذبا » قالت : فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء نشتيه لا أشتهي أبعد ذلك كذبا ؟ قال

(١) حديث « لا يدخل الجنة حمور » وحديث « في عين زوجك يابض » وحديث « نملكك حل ولد البير » هدمت الثلاثة في الآفة الطائفة . (٢) حديث « لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الأنصاري وقال فيه نظر واثنين من حديث أسد « لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وفادار هبط في المؤلفات والمختلف من حديث أبي هريرة « لا يؤمن عبد الإيمان كما حتى يترك الكذب في مزاحه » قال أحمد بن حنبل منكر . (٣) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من النريا » هدم في الآفة الثالثة .

« إن الكذب ليكتب كذبا ، حتى تكتب الكذبة كذبية »^(١) ، وقد كان أهل الورع يحذرون عن التساع بمثل هذا الكذب .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص عارج عليه ، فيقال له : لو مسحت عينك ؟ فيقول : وأين قول الطيب : لا تحس عينك فأقول : لا أفضل ؟ فلهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه أنسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي قال : جاءت أخت الربيع بن خثيم حائدة لابن له فأنكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يابني ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعته ؟ قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت ، يا ابن أخى فصدقت ؟ ومن العادة أن يقول : يعلم الله ، فيأ لا يعلم . قال عيسى عليه السلام : إن من عظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم ، لما لا يعلم . وربما يكذب في حكاية المنام ، والإيم فيه عظيم إذ قال عليه السلام : إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل^(٢) ، وقال عليه السلام : من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بمأقذ بينهما أبدا^(٣) .

الآفة الخامسة عشرة : النبية

والنظر فيها طويل فلنذكر أولا مذمة النبية وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى (ولا يتب بعضكم بعضا أبغ أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) وقال عليه السلام ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه^(١) ، والنبية تقاول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو هريرة : قال عليه السلام « لا تخاسدوا ولا تباغضوا ولا تحاضروا ولا تتباذروا ولا يتب بعضكم بعضا وكفروا عباد الله إخوانا »^(٢) ، وعن جابر وأبي سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لماكم والنبية فإن النبية أشد من الزنا ، فإن الرجل يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب النبية لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه »^(٣) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة سرى بي على أقوام يمشون وجوههم بأظفارهم فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يتباين الناس ويقعون في أعراضهم »^(٤) ، وقال سليم بن جابر : أثبت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت عني خيرا أنتفع به ، فقال لا تحقرن

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت حمص : كنت صاحبة خالعة ثلثي مياثها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث وفيه « قال لا تحمن جوما وكذا » أخرجه ابن أبي الدنيا في المصنف والبخاري في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب ، فإن أسماء بنت حمص كانت لذي ذاك بالحقيقة ، لكن في طبقات الأصحابين لأبي الفتح من رواية حماد بن أبي رباح عن أسماء بنت حمص : زفنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه . الحديث . فإذا كانت خالعة فمن تزوجها بعد خير فلا مانع من ذلك (٢) حديث « أن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه في المنام ما لم يريا أو يقول على ما لم أقل » أخرجه البخاري من حديث واثقه بن الأعمش وله من حديث ابن عمر « من أقرى القرى أن يرى عينيه ما لم تريا » (٣) حديث « من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين » أخرجه البخاري من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة : النبية

(٤) حديث « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) « لا تخاسدوا ولا يباغضوا ولا يتباذروا ولا يتب بعضكم بعضا وكفروا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا يتب بعضكم بعضا » وقد تقدم في آداب الصحبة (٦) حديث جابر وأبي سعيد « لماكم والنبية فإن النبية أشد من الزنا ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في المصنف وابن حبان في الضعفاء وابن ماجة في الضعيف . (٧) حديث أنس « مررت ليلة سرى بي على قوم يمشون وجوههم بأظفارهم ... الحديث » أخرجه أبو داود مستنفا ومروضا والمستدرج أصح .

من المعروف شيئا ولو أن نصب من دلوك في إناة المستقي ، وأن تلقى أخاك ببشر حسن وإن أدبر فلا تغتابه^(١) . وقال البراء : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواق في بيوتهم فقال « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته^(٢) » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام : من مات تابيا من النبية فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار . وقال أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال « لا يفطرون أحد حتى آذن له » فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يحس فيقول : يا رسول الله ظلمت صائما فأذن لي لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يا رسول الله فنانان من أهلك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فاذن لهما أن يفطرا ! فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فقال « وإنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس ؟ اذهب فرما إن كانتا صائمتين أن تستقيتا » فرجع إليهما فأخبرهما فاستقامتا ، فقاءت كل واحدة منهما علة من دم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « والذي نفسي بيده لو بيئت في بطونهما لا كلتكما النار^(٣) » وفي رواية : أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم « اترونيهما » فجاءتا فادعيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدر فقال لاحداهما « قبي » فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدرح ، وقال للأخرى « قبي » فقاءت كذلك ، فقال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجلبتا تأكلان لحوم الناس^(٤) . وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأدنى الربا عرض المسلم^(٥) » وقال جابر كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأقن على قبرين يهذب صاحباهما فقال « إنهما يهذبان وما يهذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يفتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله » فدعا بجريدة ورطبة أو جريدتين فكسرها ثم أمر بكل كسرة ففرست على قبر وقال « أما إنه سيؤن من طباهما ما كانتا رطبتين - أو ما لم ييبسا -^(٦) » . ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً في الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقصص كما يقصص السكب ، فتر صلى الله عليه وسلم وهما معه بمجيفة فقال « انهما منها » فقالا : يا رسول الله تنش

(١) حديث سلم بن جابر : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علي خيما ينضى الله به . . . الحديث . أخرجه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في السنن ولفظه « ولا يقل فيه أحد » وإنما أدبر فلا تغتابه » وفي إسناده ضعف (٢) حديث البراء « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تتابعوا المسلمين . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم فقال « لا يفطرون أحد حتى آذن له فقام الناس . . . الحديث » في ذكر المراءين الثنتين اغتابتا في صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علة من دم » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن وان صدوق في التفسير من رواية يزيد الرضائي عنه ويزيد ضعيف (٤) حديث المراءين المذكورين وقال فيه « لمن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . . . الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المتهمة (٥) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه . . . الحديث . وفيه « وأرى الربا عرض الرجل المسلم » أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف (٦) حديث جابر : كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأقن على قبرين يهذب صاحباهما فقال « أما لهما ليهذبان وما يهذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يفتاب الناس . . . الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن وأبو العباس الغزالي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه الحمية بدل النبية . والطائفي في « وأما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » ولأحد الطهري أن حديث أن بكرة نحوه بإسناد جيد .

حيدة ؟ فقال : ما أصبنا من أخيك أن نن من عند^(١) فكان الصحابة رضى الله عنهم يتلافون بالبشر ولا يفتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون حلاله عادة المذاقين . وقال أبو هريرة : من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحم في الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله فينضج ويكحل^(٢) وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدین عند باب من أبواب المسجد فرهما رجل كان غيبا فترك ذلك . فقالا : لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلنا فصليا مع الناس . فحلك في أن تسهرما ما قالنا فأبنا عطاء فسلأه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال في ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ الهمزة : الطعان في الناس ، والبرزة : الذي يأكل لحوم الناس . وقال قيادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة ألاف ثلاثة : ثلث من الغيبة ، وثلث من النية ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للنية أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكل في الجسد . وقال بعضهم : أدر كنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فادكر عيوبك . وقال أبو هريرة يصير أحدكم القذى في عين أخيه ولا يصير الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول : ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تغيب الناس بيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك الغيب فتنصلحه من ، فإذا دلت ذلك كان شعلك في حاسة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الخواويرون بحيفة كلب فقال الخواويرون : ما أنتن ربح هذا الكلب ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه رضى الله عنهما رجلا يقتاب آخر فقال له : إياك والنية فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لاطعته .

بيان معنى الغيبة وحدودها

أهل أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسيه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودايته .

أما البدن : فكذلك العيش والحول والقرع والنصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب : فبأن تقول أبوه بطل أو هندی أو طاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال ، أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق : فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مراد شديد الغضب حبال عاجز ضعيف القلب متبور وما يجرى مجراه . وأما في أماله المتعلقة بالدين : فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو غاش أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من التنجاسات أو ليس بارأ بوالديه أو لا يضيح الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صومعه عن الرفث والنية والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله للتعليق بالدنيا : فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس ، أو لا يرى لأحد

(١) حديث : قوله للرجل الذى قال لصاحبه نى حق المرجوم هذا أقص كما يفس الكلب فرجفة فقال له اتها منها... الحديث . أخرجه أبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد . (٢) حديث أبي هريرة : من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحم في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ... الحديث . أخرجه ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوف عليه عند ابن مسعود رواه بالذمة .

على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام كثير الاكل تنوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فيسكتوك لأنه واسع السكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة في الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز ، بدليل ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال « هي في النار »^(١) ، وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فاحيرها إذن »^(٢) ، فهذا قاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه لإجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكره فهو مغتاب لأنه داخل فيها ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه ، بدليل ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « ذكرك أخاك بما يكرهه » قيل : أرايت إن كان في أخي ما أقوله ؟ قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »^(٣) ، وقال معاذ بن جبل ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما أعجزه ! فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبم أخاك » قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه ، قال « إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه »^(٤) ، وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبنيها »^(٥) ، وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما يملكه وذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذاك الرجل الأسود ، ثم قال استغفر الله إنى أرايت قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم التيمي فوضع يده على عينه ولم يقل إلا حرام . وقالت عائشة لا يتباين أحدكم أحداً فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه لطيفة الذيل فقال لي « الفظي الفظي » فلفظت مضطحة لحم^(٦) .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعرife بما يكرهه ، فالتعريض به كالنصرح والفعال فيه كالقول ، والإشارة والإيماء والتميز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال « هي في النار » أخرجه ابن حبان والماكر وصححه من حديث أبي هريرة (٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال « فاحيرها إذن » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي مهرازي ورواه في أمالي ابن خمين مكذا (٣) حديث « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « ذكرك أخاك بما يكره ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٤) حديث ماذ : ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ... الحديث . أخرجه الطبراني بسند ضعيف (٥) حديث عائشة : أنها ذكرت امرأة فقالت لها قصيرة فقال « اغتبنيها » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف من حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصحيح لأن أبي الدنيا والمصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن سبيب (٦) حديث عائشة : قلت لامرأة ولئن هذه لطيفة الذيل هالسي الله عليه وسلم « الفظي » فلفظت مضطحة من لحم . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي استناده امرأة لأخرفها .

السلام ، اغتبتها ^(١) ، ومن ذلك المحاكاة بمشي متوارجا أو كما بمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصور والتفهم . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكته امرأته قال : ما يسرقني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا ^(٢) . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصا معنا وتبين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقرن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره - كما سيأتي بيانه - وأما قوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا ؛ لأن المخذور تفهمه دون ما به التفهم فاما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئا قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ^(٣) ، فكان لا يمين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة .

وأخبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرآئين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظفروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بمجهلهم أنهم جمعا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من فلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان : ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وأبتل بما يبتلى به كلنا وهو فلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في خين ذلك ويعدس نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون مقننا ومزائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو مجهل يظن أنه من الصالحين المتفهمين من الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادات من غير علم فاته يتفهمهم ويحبط بمكايده علمهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتقبه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ما أحجب هذا ! حتى يصغى إليه ويعلم ما يقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خيئه ، وهو ممن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا ، وكذلك يقول : ساء ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لاختفاء في خلوة عقيب صلاته ، ولو كان يفتن به للاعتم أيضا لإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده ، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لثقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهرُوا .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ابزيد نشاط المختاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ما علمت أنه كذلك ! ما عرفتني إلى الآن إلا بالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلاءه ، فإن كل ذلك تصديق للمختاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك

(١) حديث عائشة : دخلت علينا امرأة غاومت يدي أي قسيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قد اغتبتها » أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن خازم عنها وحسان وثقه ابن حبان ويقيمهما (٢) حديث « ما يسرقني حاكيت » أخرجه ابن أبي الدنيا وكذا « تهم في الآفة الحادية عشرة » (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله « وكان لا يمين » ورواه رجال الصحيح .

المتأهب . قال صلى الله عليه وسلم « المستمع أحد المتأهبين ^(١) » وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانا لشوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلاه به الحنن فقال صلى الله عليه وسلم « قد اتدبنا ! » فقالا : مانله ؟ قال « بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما ^(٢) » ، فانظر كيف جمعهما وكان القاتل أحدهما والآخر مستمعا . وقال الرجلين الذين قال أحدهما : أقصص الرجل كما يقصص الكلب ، انهما من هذه الجيفة ^(٣) . وجمع بينهما فالستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو قبله إن خاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشتة لذلك قبله فذلك نفاق ، ولا يخرج من الإثم مالم يكرهه قبله ، ولا يكتفى في ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أو يشير بمجاذبه وجيته ، فإن ذلك استحقار للذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذهب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رموس الخلائق ^(٤) . وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه بالغييب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ^(٥) » ، وقال أيضا « من ذب عن عرض أخيه بالغييب كان حقا على الله أن يعثقه من النار ^(٦) » وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصلوة وحقوق المسلمين فلا نقول بإعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البراءة على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا : ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية : فالأول أن يثنى النفيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا حاج غضبه يشتكى بذكر مساوية فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يتتبع ثقتي النفيظ عند الغضب فيحقق الغضب في الباطن فيصير حقدًا ثابتًا فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثاني : موافقة الأقران وبجالة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفككون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استكفوه ونفروا عنه فيساعدوه ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه بجاملة في الصلوة ، وقد يغضب رفقاءه فيحتاج إلى أن يغضب لنفسهم إظهارا للسامحة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر الميوب والمساوى .

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيفسده ويظول لسأته عليه أو يقيح حاله عند عظم ، أو يشهد عليه بشهادة

(١) حديث « المستمع أحد المتأهبين » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر : نهر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي وعن الاستماع إلى النبي . وهو ضعيف (٢) بيت : أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لشوم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قد اتدبنا ؟ » فقالا : مانله ؟ فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبيكما « أخرجه أبو اللباس المغمول في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلا نحوه (٣) حديث « انهما من هذه الميتة » قال الرجلين الذين قال أحدهما : أقصص كما يقصص الكلب . تقدم قبل هذا بابي عشر حديثا (٤) حديث « من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رموس الخلائق » أخرجه الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (٥) حديث أبي الدرداء « من رد عن عرض أخيه بالغييب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ « رد الله عن وجهه البار يوم القيامة » وقرواية له « كان له حجابا من النار » وكلاهما ضعيف (٦) حديث « من ذب عن عرض أخيه بالغييب كان حقا على الله أن يعثقه من النار » أخرجه والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

فيأدره قبل أن يقبح هو ساه ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأثول ويستشهد ويقول : ما من عاقل الكذب ، فلأن أخبركم بكذا وكذا من أحواله فسكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يترأ منه فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل لمهد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه وكيكه وكلامه ضعيف : وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويربهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيفتدح فيه لذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثق الناس عليه ويحورونه ويكرهونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والتأثر عليه لأنه يقتل عليه أن يسمع كلام الناس وثامم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعي جنابة من المتغضب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق للموافق .

السابع : اللب والهلزل والمطايبة وترجية الوقت بالضمحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحكك الناس على سبيل المحاكاة ومشوؤه التكبر والمجب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجرى في الحضور ويجرى أحياناً في النية ومشوؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغصنها وأدعها ، لأنها شروط خبايا الشيطان في معرض الخفيات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تنبذ من الدين دأعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ! فإنه قد يكون صادقاً ويكون تعجب من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسبل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به مقتاباً وآثماً من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ؟ .

الثاني : الوجة وهو أن يفتن بسبب ما يتلى به فيقول : مسكين فلان قد غنى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام بظاهره التم عن الخذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه وروحته خيراً ، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاعتماد يمكن دون ذكر اسمه فيهبج الشيطان على ذكر اسمه ليبتل به ثواب اغتمامه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قاره إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستتره ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة بما يفتن دركها على العلماء فضلاً عن العوام ، فإنهم يظنون أن التعجب والوجه والغضب إذا كان لله تعالى . كان عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في النية حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره . وروى عن عامر بن وائلة : أن رجلاً من علي قوم في حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس : ليس ما قلت والله لنبتئنه ، ثم قالوا : يا فلان لرجل منهم - قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأثنى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعو له ، فضاء وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : لم يتخذه ؟ فقال : أنا جاره وأنا به خاير ، والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأى آخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأى قط أضطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر ، قال : فأسأله يارسول الله هل رأى ناقص منها أو ما كست فيها طالبها الذى يسأله ؟ فسأله فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قد قم فعله خير منك^(١) .

بيان العلاج الذى يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنخلص عن سببها . وعلاج كلف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل :

أما على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسطح الله تعالى بنبيته بهذه الأخبار التى وريتها وأن يعلم أنها محبة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من حرمه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك معرض لعنت الله عز وجل ومشيء عنده بكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة بمن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد الخاصة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم : ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد^(٢) ، وروى أن رجلا قال للحسن بن بلقي أنك تفتاننى ، فقال : ما بلغ من قدرك عندى أنى أحكمك في حسناتى . فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم : طوى لمن شغله عيبه عن صيوب الناس^(٣) ، ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل يفتنى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالندم له ذم للعائق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل للحكيم : يا فتىح الوجه ، قال : ما كان خلقى وجهى إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوئى نفسه بأعظم العيوب ، فإن طلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه يرى من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بنبيته كآله بنبيه غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يفتاب فيفتنى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه . فهذه معالجات جملة.

(١) حديث طاهر بن وثاعة : أن رجلا من أهل قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ... الحديث بطوله . وفيه ظاه : ثم فعله خير منك . أخرجه أحمد بإسناد صحيح .
(٢) حديث : ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد . لم أجده له أصلا . (٣) حديث : طوى لمن شغله عيبه عن صيوب الناس . أخرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك صحيح .

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على التنية فإن علاج الملة يقطع سببها وقد قدمنا الأسباب .

أما الغضب فيعالجه بما سيأتى في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إني إذا غضيت غضى عليه فلعن الله تعالى بعض غضبه على سبب التنية إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بجره وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن لجهم باباً لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله تعالى ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يعضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء ^(٣) » وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أحملك فيمن أحمق .

وأما المواقفة فإن تعلم أن الله تعالى يضرب عليك إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن تفر عيرك وتحترق مولاك فتترك رضاك لرضا من إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر الم غضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضاً على وفقالك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأهلئ الذنوب وهى التنية .

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الحياة حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لقت الخالق أشد من التعرض لقت المخلوقين وأنت بالنية متعرض لسخط الله بقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك فى الدنيا بالتروم وتهلك فى الآخرة وتغسر حسناك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى فقد وتنتظر دفع ذم الخلق لنية وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبل مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تمتدز بالاعتقاد بمن لا يجوز الاعتقاد به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقضى به كما من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك . فغيا ذكرته فيية وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المصيتين على جهلك وعبائك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تزدى نفسها من قلة الجبل فهى أيضاً تزدى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالمذر وصرخت بالمذر وقالت : العز أكليس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أقبل ، لكنك تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تسجب ولا تضحك من نفسك .

وأما فصدك بالمباهة وتركية النفس بزيادة الفضل بأن تتدح فى غيرك فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلث الناس فتكون قد بعث ماعد الخالق بقينا بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يشنون عنك من الله شيئاً .

وأما التنية لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد ، لما قمت بذلك حتى أضغت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا فى الدنيا فصرت أيضاً خاسرا فى الآخرة

(١) حديث « لى لجهم باباً لا يدخله الا من شق غيظه بمعصية الله » أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عسلى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » أخرجه أبو منصور الهلبلى فى منند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف وروياه فى الأربعين البدائية حسانى (٣) حديث « من كظم غيظاً وهو قادر على أن يقنعه ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ساذ بن أسى .

لتجمع بين التكاليف ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناك . فإذا أنت صديقك وعدوك نفسك إذا لاقته غيبته ونصرك ، وتنفعه إذا تمقل إليه حسناك أو تمقل إليك سيئانه ولا تفعلك وقد جمعت إلى حيث الحمد جهل الحماة . وربما يكون حسدك وقد حلك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أوداه نشر فضيله طويت أمانع لسان حسود

وأما الاستهزاء بقصودك منه إخراج غيرك عند الناس بإخراجه نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والذين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت في حسرتك وجنائتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخراج صاحبك ! ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تفضلك منك ، فأنت محترق به عند نفر قليل وعرض نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملا من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك لإيلس فأحذرك ، وإستطالك بما ينقل من حسناك إليه ما هو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما ، وتقابل أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ جبت أجره ونقصت من حسناك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يرجد الغيبة ، وإنما الشيطان حجب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير مدحضا لماقت الله عز وجل الغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت ؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أودبياه وأنت مع ذلك لأتأمن عقوبة الدنيا ! وهو أن يتك الله سترك كما تهتك بالتعجب ستر أخيك . فإذا نزل علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تتحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تتحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الحواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ، ولكن المني عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ . وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوما إلا إذا انكشف لك ببيان لا يغفل التأويل ، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فأثما الشيطان بقلبه إليك ، فيدعي أن تكذب به فإنه أفسق الفاسق ، وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ببلغ فتيقنوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم غيلة تدل على فساد واحتمل خلافة لم يجر أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خيره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به ، حتى إن من استسك فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تهمض باختر وبجها وماشربها ، أو حل عليه قهرا ، فكل ذلك لا محالة دلالة عمنلة فلا يجوز تصديقها بالقلب

وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء »^(١) ، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيئة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مآربه منه يشتمل الخير والشر .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فتقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستكفله ويفتر عن مراعاته وتفقدته وإكرامه والاعتظام بسببه ؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فخرجه من سوء الظن أن لا يحققه^(٢) ، أي لا يحققه في نفسه بعد ولا قبل لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب : فتبنيه إلى التفرقة والكراهة . وأما في الجوارح : فبالعمل بموجبه . والشيطان قد يقرر على القلب بأذى غيلة مسامة الناس ، ويلقي إليه أن هدامن فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر نور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغيرور الشيطان وظلته .

وأما إذا أخبرك به عدل قال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا ، لأنك لو كذبتك لكتبت جانبا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد سوى الآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وعاسدة وتعت فتتطرق التهمة بسببه ؟ فقد رد الشرع شهادة الأب الدليل لولد التهمة ورد شهادة المدعى^(٣) فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان خلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك : المذكور حاله كان عدى في ستر الله تعالى ، وكان أمره محجوبا عنى وقد بقي كما كان لم يكشف لى شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا عاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادات التعرض للناس وذكر مساوئهم ، فهذا قد يظن أنه عدل وليس يعدل ، فإن الممتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عاداته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتقاد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكثرثوا بقاويل أضرار الخلق .

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يفيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الخطاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فأنصحه في السر ولا تخدعك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور بأطلاعه على قصته لينظر إليك بين التعظيم وتظر إليه بين الاستحقار وترفع عليه ، وأبدا الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما يحزن على نفسك إذا دخل عيلا نقصان في دينك ؛ وينبغي أن يكون تركك لذلك من غير نصيحة أحب إليك من تركك بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر التلميم بمصيته وأجر الإعانة له على دينه .

(١) حديث : « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضيف ولأن ماجه نحوه من حديث ابن عمر . (٢) حديث : « ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج » أخرجه الطبراني من حديث جارية بن النيران بسند ضيف (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد الدليل وشهادة المدعى أخرجه الترمذي من حديث طايفة وضيف « لا يجوز شهادة خائن ولا غائبة ولا مجاود حنا ولا ذى غير لأخيه » وفيه « ولا ظنين ولا ولا امرأة » ولأن داود وابن ماجه بإسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رد شهادة الخائن والمخائنة وذى النسر على أخيه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يتقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منبى عنه ، قال الله تعالى (ولا تجسسوا) فالغيبة وسوء الظن والتجسس منبى عنه في آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الإطلاع ومثلك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه . وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن للمرخص في ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهي ستة أمور :

الأول : التظلم فإن من ذكر قاضياً بالظلم والحيانة وأخذ الرشوة كان مستتاباً حاصياً إن لم يكن مظلوماً ، أما المظلم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسب إلى الظلم إذا لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم « إن لصاحب الحق مقالا ^(١) » ، وقال عليه السلام « مظل الغنى ظلم ^(٢) » ، وقال عليه السلام « لى الواجد يحمل غيوبته وعرضه ^(٣) » .

الثاني : الاستئانة على تغيير المنكر ورد الماعصى إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عبان وقيل على طلحة - رضى الله عنه فلم عليه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الحمر بالشام كتب إليه (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) الآية فتاب ، ولم ير ذكر عمر عن إبلاغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فيمنعه نصحه ما لا ينفعه نصحه غيره ، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما .

الثالث : الاستفتاء كما يقول الفتى ؛ ظلمت أبى أو زوجتى أو أخى فكيف حلربى في الخلاص ؟ والاسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أما آخذ من غير عليه فقال « خذى ما بكيفك وولدهك بالمعروف ^(٤) » فذكرت الشح والظلم لما ولولدها ولم يجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والعسق لا غيره ، وذلك موضع الضرر إذا قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشتري مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقه أو بالفسق أو ببسب آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن سكوتك ضرر المشتري وفى ذلك ترك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مغلطا ، وكذلك المستشار في التزوج وإبداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد التحصير للمستشير لا على قصد

(١) حديث « لصاحب الحق مقال » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « مظل الغنى ظلم » متفق عليه من حديثه

(٣) حديث « لى الواجد يحمل غيوبته » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الصريد بإسناد صحيح

(٤) حديث : « لن متدا فالت أن أبا سفيان رجل شحيح . متفق عليه من حديث عائشة .

الوقية : فلأن علم أنه يترك الزواج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا يزوج إلا بالتصریح بعينه فله أن يصرح به ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترعون عن ذكر الفاجر احتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحدوه الناس »^(١) ، وكانوا يقولون ثلاثة لأغية لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علم بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجدته معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق كالخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان من يتظاهر به بحيث لا يستكف . من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتى جلاب الحياء عن وجهه فلاغية له »^(٢) ، وقال عمر رضي الله عنه . ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذا المستتر لابد من مراعاة حرمة . وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاسق للمعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن : لاغية لهم ؛ صاحب الهوى والفاسق للمعلن بفسقه والإمام الجائر فهو لاغية الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت ضده الحجاج فقال : إن الله حكيم عدل ، ينتقم للحجاج عن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظله ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة النية

اعلم أن الواجب على المنتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المنتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغي أن يستحله وهو حين متأسف نادماً على فعله ؟ إذ المرائي قد يستحل لظهور من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً ، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن . يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدلل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كفارة من اغتبت أن تستغفر له^(٣) ، وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك : أن تئى عليه وتدفعه له بغير . وسئل عطاء بن أريويع عن التوبة من النية قال : أن تمشى إلى صاحبك فتقول له ؛ كذبت فيما قلت وظلمت وأساءت فإن شئت أخذت بحضك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح ؛ وقول القائل : العرض لأعرض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت للمطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كانت لأخيه عذبة مظلة في عرض أومال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار

(١) حديث « أترعون عن ذكر الفاجر احتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحدوه الناس » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله « حتى يعرفه الناس » ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في السنن . (٢) حديث « من أتى جلاب الحياء فلاغية له » أخرجه ابن عدى وأبو الفيج في كتب نواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد فهم . (٣) حديث « كفارة من اغتبت أن تستغفر له » أخرجه ابن أبي الدنيا في السنن والمحرث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف

ولادهم ، إنما يؤخذ من حسنة ، فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات صاحبه فزبدت على سيئاته ^(١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخري إنها طويلة الذيل : قد اغتبتها فاستحلبا . فلئن لابد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا فيفني أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا ، لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبلغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه ، فإن لم يطيب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة النية في القيامة .

وكان بعض السلف لا يحل . قال سعيد بن المسيب . لأحلل من ظفني . وقال ابن سيرين : إني لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم النية عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدا .

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم يفني أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن ؟ فنقول : المراد به المغفر عن الخطيئة لا أن يتقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل النية فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره النية .

فإن قلت : فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أيسر أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني قد تصدقت بمرضى على الناس ^(٢) » ، فكيف تصدق بالمرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحديث عليه ؟ فنقول : منناه إني لأطلب مظلة في القيامة منه ولا أعاصمه ، وإلا فلا تصير النية حلالا به ولا تسقط المظلة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد ، وله الزم على الوفاء بأن لا يخاف ، فإن رجع وعاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك . بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد النكاح ، ومظلة الأخيرة مثل مظلة الدنيا ، وعلى الجملة فالمغفر أفضل .

قال الحسن إذا جثت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا المغفور عن الناس في الدنيا . وقد قال الله تعالى « خذ المغفور وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل ما هذا المغفور ؟ ، فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تغفر عن ظلمك وتصل من ظلمك وتمنع من حرمك ^(٣) . وروى عن الحسن أن رجلا قال له : إن فلانا قد اغتابك فبعت إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغت أنك أهديت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فأعذرتني فإني لأقدر أن أكافئك على التمام .

الآفة السادسة عشرة : النعمة

قال الله تعالى « هماز مشاء بنميم » ثم قال « عتل بعد ذلك زنيم » قال عبادة بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذي لا يكم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يكم الحديث ومعنى بالنعمة ذل على أنه ولد زنا استباح طامن قوله عز وجل « عتل بعد ذلك زنيم » والزنيم هو الهوى وقال تعالى « ويل لكل همزة لمرة » قيل الهمزة : التمام ،

(١) حديث « من كانت له عند أخيه مظلة من عرض أوله مال فيقتطعه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة
(٢) حديث « أيسر أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بمرضى على الناس » أخرجه الزهري وابن السني في اليوم واليلة والعتيل في الضمضاء من حديث أنس بن مالك ضعيف وذكره ابن عبيد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة قلت وأما هو وجل ممن كان قبلنا كما عند الزهري والعتيل .
(٣) حديث . نزول « خذ المغفور » الآية فقال يا جبريل « ما هذا » فقال إن الله يأمرك أن تغفر عن ظلمك وتصل من ظلمك وتمنع من حرمك : تنعم في راحة النفس .

وقال تعالى ﴿ حالة الخطب ﴾ قيل إنها كانت نامة حالة الحديث وقال تعالى ﴿ غلغلتاها فلم يقنينا ههنا من الله شيئا ﴾ قيل كانت امرأة لوط تغيب بالضيقان وامرأة نوح تغيب أنه يجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام »^(١) وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أحبك إلى الله أحسنكم أخلاقا المولوثون أكنافا الذين يأفلون ويؤفلون ، وإن أبيضكم إلى الله للهادون بالنية ، المفرقون بين الإخوان ، للمتمسكون بالبراء الممترات »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراركم ، قالوا : بلى ، قال : للهادون بالنية المفسدون بين الأحبة الباغون البراء الميب »^(٣) وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشتبه بها يغير حتى شانه الله بها في النار يوم القيامة »^(٤) ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها يرى ليشتبه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار »^(٥) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بتهاذه ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار »^(٦) ويقال : إن تلك عذاب القبر من النعمة . وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس ، لا يسكنك ممدن من غير ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوت ولا شرطي ولا تحت ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به »^(٧) ، وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فاستسقوا فأوحى الله تعالى إليه : إني لأستعيب لك ولن مملك وفيكم نمام قد أصر على النعمة . فقال موسى : يارب من هو ؟ دلى عليه حتى أخرجه من بيتنا . قال : ياموسى أنها كم عن النعمة وأكون نماما ، فتأبوا جميعا فسقوا . ويقال اتبع رجل حكما سبعة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إني جئت لك لئلا آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أسفل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقى منه ؟ وعن النار وما أحرز منها ؟ وعن الزهر وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن القيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرء أثقل من السموات ، وألحق أوسع من الأرض ، والقلب القاطع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرز من النار ، والحاجة

الآفة السادسة عشرة : النعمة

- (١) حديث « لا يدخل الجنة نمام » وفي حديث آخر « قتات » متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة « وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا المولوثون أكنافا » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في دآب الصفة (٣) حديث « ألا أخبركم بشراركم » قالوا : بلى ، قال : « الهادون بالنية ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر « من أشاع على مسلم كلمة ليشتبه بها يغير حتى شانه الله بها في النار يوم القيامة » أخرجه ابن أبي الدنيا في السمات والطبراني في معارج الأخلاق وفي مبداهة بن مسعود فإن يكن القنداح فهو متروك الحديث (٥) حديث أبي الدرداء « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها يرى ليشتبه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيه بها يوم القيامة في النار ... » أخرجه ابن أبي الدنيا موقفا على أبي الدرداء . ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم (٦) حديث أبي هريرة « من شهد على مسلم بتهاذه ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا في الاسناد . (٧) حديث ابن عمر « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي قالت : سعد من دخلني قال الجبار : وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية » فذكر منها « ولا قتات » وهو النمام ، لم أجده مكدا بتمامه ولأحد « لا يدخل الجنة عاق لوالده ولا ديوت » ولقناني من حديث مبداهة بن عمرو « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا ممدن من غير » ولقناني من حديث حذيفة « لا يدخل الجنة قتات » ولها من حديث جبير بن مطعم « لا يدخل الجنة قاطع » وذكر صاحب الترمذ من حديث ابن عباس « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمي ترني قترت . فقالت : طوبى لمن دخلني ورضي عنه لي ، فقال الله من وجل : لا يسكنك تحت ولا نعمة »

إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمير ، وقلب الكافر أقصى من الحجر ، والتمام إذا بان أمره أذل من البقيم .

بيان حد النيمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النيمة إنما يطلق في الأكثر على من يتم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النيمة مختصة به . بل حدتها كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المقول عنه أو المقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المقول عنه أو لم يكن . بل حقيقة النيمة إفشاء السر وهتك السر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فيلبي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة سلم أو دفع لمصلحة ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نيمة وإفشاء للسر ، فإن كان ما يتم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين النيمة والنيمة . فالباعث على النيمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالمحدث والحوض في الفضول والباطل .

وكل من حلت إليه النيمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا أو فعل في حاك كذا أو هريدر في إفساد أمرك أو في عمالة عدوك أو تضييع حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور ، الأول : أن لا يصدق له لأن التمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة) الثاني : أن ينه عن ذلك ويضج له ويحبس عليه فعلمه قال الله تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) الثالث : أن يفضحه في الله تعالى فإنه يفض عن الله تعالى ويجب بغض من يفضحه الله تعالى . الرابع : أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) الخامس : أن لا يملك ما حاك لك على التمسس والبحث لتحقيق ، اتباعاً لقول الله تعالى (ولا تجسسوا) السادس : أن لا ترضى لنفسك مائيت التمام عنه ولا تحكي نيمته فتقول فلان قد حاك لي كذا وكذا ، فتكون به تماماً ومغتتاباً وقد تكون قد أثبت ما عنه نيمته . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر : إن شئت فظنرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وإن شئت فعفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لأعود إليه أبداً . وذكر أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم : قد أبطلت في الزيارة وأثبتت بثلاث جنائيات ، بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبي الفارغ ، واتهمت نفسك الآمنة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالساً وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغني أنك وقعت في وقت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا وقعت ؟ فقال سليمان : إن الذي أخبرني صادق ، فقال له الزهري : لا يكون التمام صادقاً ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال للرجل : اذهب بسلام .

وقال الحسن بن تم إليه ثم عليك . وهذا إشارة إلى أن التمام ينبغي أن يفض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته . وكيف لا يفض وهو لا ينفك عن المكذب والخبثاء والتفرد والحيانة والقتل والحسد والتناق والإفساد بين الناس والخديعة وهو من يسمون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ؟ وقال تعالى (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويسبون في الأرض بغير الحق) والتمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم : إن من شرار الناس

من اتقاء الناس لشرة^(١) ، وانقسام منهم . وقال : لا يدخل الجنة قاطع ، قيل وما القاطع ؟ قال : قاطع بين الناس^(٢) ، وهو الخيام وقيل قاطع الرحم .

وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه بـرجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فلن كنت صادقا مبتكرا وإن كنت كاذبا فابتكنا وإن شئت أن نقبلك أفنالك ، فقال : أقلني يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن من أوصافه ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد . وقال رجل لمعاذ الله ابن عامر - وكان أميرا - بليني أن فلانا أعلم الأمير أبي ذكرته بسوء ، قال : قد كان ذلك ، قال : فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك ؟ قال : ما أحب أن أشتت نفسي بلساني وحسبي أني لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال .

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما نلتكم قوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الوير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والتبول إجازة وليس من دل على شيء فأخبر به كن قبله وأجازه ، فاتفقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان لثيا في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة . والسعاية هي النيمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبها سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم : الساعي بالناس إلى الناس أخير رشدة^(٣) ، يعني ليس بركه حلال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال : إني مملكك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرمته فإن وراءه ما تحب إن قبلته ، فقال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه قد اكتشف لك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورواحك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما تمتلك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استخفك الله إياه فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا وفي الأمانة تضييما والأعراض قطعاً وانتهاكا ، أعلى قريهم البغي والنيمة ، وأجل رسالهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجمروا وليسوا المسئولين عما أجمرت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فلن أعظم الناس غتبا من باع آخرته بدنيا غيره . وسعى رجل بزيادة النجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما الواقعة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما أتممتك عاليا نلتك وإما قلت قولا بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحياطة والإثم

وقال رجل لعمر بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكرك في قصصه بشر ، فقال له عمرو : يا هذا ما رعت حق مجالسة الرجل حيث قلت إلينا حديثه ، ولا أذيت حتى حين أعلمتني عن أخى ما أكره ولكن أصله أن الموت بعنا والقبر بعنا والقيام بعنا وإله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين . ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة به فيها على ما يلزم يجعله على أخذه لكفرته ، فوقع على ظهرها : السعاية قيصة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها جرى النصح غسراتك فيها أفضل من الريح ، ومعاذ الله أن قبل مهتوكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيتك لغالبناك بما يقتضيه فعلك في مثلك ، فتوق يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالنيب ، لبيت رحمه الله ، والبيتم جبره الله ، والمال ثمرة الله ، والساعي لثمرة الله . وقال لقمان لابنه : يا بني أوصيك بخلاف إن تمسكت بهن لم تزل

(١) حديث « لن من شر الناس من اتقاء الناس لشره » متفق عليه من حديث طائفة نحوه . (٢) حديث « لا يدخل الجنة قاطع » متفق عليه من حديث جابر بن مطعم . (٣) حديث « الساعي بالناس إلى الناس لير رشدة » أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى « من سعى بالناس فهو لغير رشدة » أو فيه نهي . منها وقال : لا أسأيد هذا أسئلتها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية ، قال والمحدث لأصله وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بسلفه « لا يسعى على الناس إلا ولا يرى ولا من فيه عرق منه » وزاد في سهل ورجل بلاه بن أبي بردة : أبا الوليد القرشي .

سيدا أبسط خلقك للقریب والبعد ، وأمسك جهلك عن الكرم والقيم ، واحفظ إخوانك وصل أئامك وأمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقهم وفارقوك لم تبعهم ولم يعييبوك . وقال بعضهم : النجاسة بنية على الكذب والحسد والتفاني وهي أثنى الدل . وقال بعضهم : لو صح ما نقله الخاتم إليك لكان هو المجرى بالشتم عليك ، وللنقل منه أول بملك لأنه لم يقابلك بشتمك .

وعلى الجملة فشر الخاتم عظيم ينبغي أن يتوق . قال حماد بن سلمة : باع رجل عبدا وقال للشترى : ما فيه عيب إلا النجاسة ، قال : رضيت ، فاشتراه ، فكش الغلام أياما ثم قال لروجة مولاه : إن سيدي لا يملك وهو يريد إن يتسرى عليك ، فخذى المومى واحلقى من شعر قصاه عند نومه شعرات حتى أصهره عليها فيجلك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خيلا وتريد أن تقتلك ، فتتوهم لها حتى تعرف ذلك ، فتتوهم لها لجأت المرأة للموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها . فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القيتلين . ففسأل الله حسن التوفيق .

الآلة السابعة عشرة

كلام ذي اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويسلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين التفاني . قال حماد بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »^(١) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجحدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بمحدثهم هؤلاء بمحدث^(٢) » وفى لفظ آخر « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة : لا ينبغي لى الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه يشفتين مختلفتين يلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « أبنض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابين والمستكبرون والذين يكفرون بالبضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاغوا إذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا أراها^(٣) » وقال ابن مسعود : لا يكون أحدكم إمعة : قالوا : وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ربح . وانفقوا على أن ملاقاته الاثنين بوجهين ففانق ، وللفانق علامات كثيرة وهذه من جعلها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم ، فقال : نشدك الله أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ولا تؤمن منها أحدا بعدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعادين ولكن صدقة ضمنية لا تفتنى إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصدقة لاقتضت ماداة الأعداء - كما ذكرنا فى كتاب آداب الصبغة والأخوة - نعم لو نقل

الآلة السابعة عشرة . كلام ذي اللسانين

(١) حديث حماد بن ياسر « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن . (٢) حديث أبى هريرة « يجحدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين... الحديث » منقول عليه بلفظ « تعبد من شر الناس » لفظ البخارى وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف . (٣) حديث « أبنض خليفة الله إلى الله يوم القيامة الكذابين والمستكبرون والذين يكفرون بالبضاء لإخوانهم فى صدورهم » فإذا لقوم تملقوا لهم ... الحديث » لم ألقه فعلى أصل

كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من الخيثة ، إذ يصير ناما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام ، وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أتى على واحد منهما في معادته . وكذلك إذا أتى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت أو يثنى على الحق من المتعادين . ويثنى عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه .

قيل لابن عمر رضي الله عنهما : إنا ندخل على أمراءنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال : كنا نعد هذا اتفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وهذا اتفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن التناء عليه ، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو اتفاق ، لأنه الذي أخرج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنيا عن الدخول لوقع بالتليل وترك المسال والجاه فدخل للضرورة والجاه والغنى وأثنى فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه يثبتان الاتفاق في القلب كما يثبت الماء البقل » ^(٢) . لأنه يروج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلى به للضرورة وخاف إن لم يثن فهو مدحور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكسر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلتمهم وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فيفس رجل المشيرة هو » ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم أنت له القول ، فقال « يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره » ^(٣) . ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكسر والتبسم : فأما التناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا للضرورة أو لإكراه يباح الكذب بمثله - كما ذكرناه في آفة الكذب - بل لا يجوز التناء . ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة : للدح

وهو منبى عنه في بعض المواضع . أما الذم فهو التنية والوقية وقد ذكرنا حكمها . والدح بدخله ست آفات : أربع في المدح ، واثنان في المدح
فأما المدح ، فالأولى : أنه قد يفرط فيثني به إلى الكذب . قال خالد بن معدان : من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رموس الأشهاد بعنه الله يوم القيامة يتشر بلسانه .
والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر الحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا بل يحس ما يقوله فيصير به مرأيا منافقا .

الثالثة : أنه قد يقول مالا يتحققه ولا يحيل له إلى الإطلاح عليه ، وروى أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفزع » ثم قال « إن كان أحدكم لا بد مادحا

(١) حديث . قيل لابن عمر لما ندخل على أمراءنا . فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال : كنا نعد ذلك اتفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الطبراني من طريق (٢) حديث « حب الجاه والمال يثبتان الاتفاق في القلب كما يثبت الماء البقل » أخرجه أبو منصور الدبلي في مسند القردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف لا أنه قال « حب التناء » وقال « القلب » مكان « البقل » . (٣) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فيفس رجل المشيرة ... الحديث » وفيه « إن شر الناس الذي يكرم اتقاء لغيره » متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها .

أخاه فاقبل أحسب فلانا ولا أذكرى على الله أحدا حسيه الله إن كان يرى أنه كذلك ^(١) ، وهذه الآية تنطبق على المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وغير وما يجري مجراه ، فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقتة . ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فلان ذلك خفي فلا ينبغي أن يجرم القول فيه إلا بعد خبرة بباطنه . سمع عمر رضي الله عنه رجلا يقضي على رجل فقال : أسأفت معه ؟ قال : لا ، قال : أسأفطته في المأبهة والمعاملة ؟ قال : لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينضب إذا مدح الفاسق ^(٢) ، وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أوصفه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يلم ليتم ولا يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره من وجهين : أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وبها هما مهلكان . قال الحسن رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه البرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ريبة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالبرة فقال : مالي والله بأمر المؤمنين ؟ قال : مالي والله أسمعها ؟ قال : سمعتها ، قال : خشيت أن يخالف قلبك منها شيء . فأجبت أن أعطاني منك .

الثاني : هو أنه إذا أتى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ومن أعجب نفسه قل تشمره وإنما يشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام وطلعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفزع . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على خلقه موسى وميما ^(٣) ، وقال أيضا لمن مدح رجلا : عقرت الرجل عقرك الله ^(٤) ، وقال مطرف : ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا ما صارت لي نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراه له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما أما مذكروه زياد فذلك قلب السوء ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم : لو مضى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثني عليه في وجهه ^(٥) ، وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو الدبح . وذلك لأن المذبح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذئب ؛ لذلك شبه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق الممدوح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه . ولذلك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجع ^(٦) ، وقال في عمر : لو لم أبيت لبشت

الآلة الثامنة عشرة : المدح

(١) حديث : لمن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ويحك طلعت عنق صاحبك » متفق عليه من حديث أبي بكره نحوه وهو في الصمت لأن أبي الدنيا يلفظ المصنف (٢) حديث : « إن الله ينضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الضم من حديث أسد وفيه أبو خلف خادم أسد ضعيف ، ورواه أبو هاشم الموصلي وابن عسلى بلفظ : « إذا مدح الفاسق غضب الرب وامتد الرش » قال الذهبي في الميزان : منكسر ، وقد هدم في آداب الكسب . (٣) حديث : « إذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمرت على خلقه موسى وميما » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرياض عن رواية يحيى بن جابر مرسل (٤) حديث : « عقرت الرجل عقرك الله » قال لمن مدح رجلا ، لم أجده له أصلا (٥) حديث : « لو مضى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثني عليه في وجهه » لم أجده أيضا (٦) حديث : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجع » هدم في الضم .

يا عمر^(١) ، وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة . وكذا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا غر^(٢) ، أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن لقبول عدل الملك قبولاً عظيماً إنما يفتر به بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه . ويتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم : وجبت^(٣) ، لما أثنوا على بعض الموق . وقال مجاهد : إن لئى آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أعاده المسلم بخير قالت الملائكة : ولك بمنه ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة : يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة التهور ، ولا ينبو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال ، فبه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسرارها وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم : أخوا التراب فى وجوه المادحين^(٤) ، وقال سفيان بن عيينة : لا يعثر المدح من عرف نفسه . وأتى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفون وأنت تعرفني . وقال آخر لما أتى عليه : اللهم إن عبدك هذا تقرب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقتك . وقال على رضى الله عنه لما أتى عليه : اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تواخذي بما يقولون واجعلني خيرا مما يظنون . وأتى رجل على عمر رضى الله عنه فقال : أتهلكنى وتهلك نفسك ؟ وأتى رجل على على كرم الله وجهه ووجهه ووجهه . وكان قد بلغه أنه يقع فيه — فقال : أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك .

الآفة التاسعة عشر

النفلة عن دقائق الخطأ فى غوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن يقل ماشاء الله ثم شئت^(٥) ، وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت ، فقال

(١) حديث « لولم أبت لبثت يا عمر » أخرجه أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو منكر الحروف من حديث عتبة بن ماسر « لو كان يمدى نبي لسكان عمر بن الخطاب » ورواه الترمذى وحسنه .

(٢) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا غر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والهاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عاصدة بن الصامت « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا غر » . وسلم من حديث أبى هريرة « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٣) حديث « وجبت » قاله لما أثنوا على بعض الموق متفق عليه من حديث أبى .

(٤) حديث « أخوا فى وجوه المادحين التراب » أخرجه سلم من حديث اللخاد .

(٥) حديث حذيفة « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ... الحديث » أخرجه أبو داود والبيهقى فى الكبرى بسند صحيح .

صلى الله عليه وسلم « أجعلتني لله عبداً بل ما شاء الله وحده »^(١) . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من يطلع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال : قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى^(٢) ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجميع . وكان إبراهيم بكراً أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . وأن يقول : لولا الله ثم فلان ؟ ولا يقول : لولا الله وفلان ؟ وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يصكون بعد الورد . وكانوا يستجيرون من النار ويتمنّون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلني ممن تصفيه شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة : إن الله يفتي المؤمنين عن شفاعته محمد وتكون شفاعته للذين من المسلمين . وقال إبراهيم : إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير ! قيل له يوم القيامة ، حاراً رأيته خلقته خنزيراً رأيته خلقته ؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن أحدم للشرك حتى يشرك بكليه ، فيقول : لولاه لسرقنا ألبية . وقال عمر رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »^(٣) ، قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها : وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسوا العنب كراماً إنما الكرم الرجل المسلم »^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقول أحدكم عبدي ولا أمي كلكم عبداً لله وكل نساءكم إماء الله وليقل غلامي وجاريي فتاى وفتاى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربى وليقل سبدي وسبدي فسلككم صيد الله والرب الله سبحانه وتعالى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدك فقد أعظم ربك »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كالألوان وإن كان كاذبا فنك يرجع إلى الإسلام سالماً »^(٦) ، فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره .

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم ، من صحت نجا^(٧) ، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعايب وهي على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل ، وإن نطق وتكلم خاطئ بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غرر وورع حافظ ومراقبة لازمة ، ويقل من الكلام فمساء يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا يشك عن الخطر ، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنى فكمن ممن سكت فسلم فالسلامة لإحدى التينيتين .

آلة العثرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب . والعالمى يفرح بالخرص في العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كافر وهو

(١) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى صلى الله عليه وسلم فسأله في بعض الأمور فقال : ما شاء الله وشئت فقال : أجعلتني لله عبداً بل ما شاء الله وحده . أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه . (٢) حديث : خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطلع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم (٣) حديث عمر : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . متفق عليه . (٤) حديث « لا تسوا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٥) حديث « لا تقولوا للفاسق سيدنا .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث بريدة بن عبد الله . (٦) حديث « من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كالألوان .. الحديث » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح . (٧) حديث « من صحت نجا » أخرجه الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان .

لا يدري . وكل كبيرة يرتكبها العاصي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته . وإن أشأتان العوام الاشتغال بالمبادات والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالمبادات سوء أدب منهم يستحقون به العقاب من الله عز وجل ويتمضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عاصي . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ^(١) ، وقال أنس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سلوني لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله من أبي ؟ فقال « أبوك حذافة » فقام إليه شابان أخوان فقالا : يا رسول الله من أبونا ؟ فقال : أبوكما الذي تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يا رسول الله أنى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لا بل فى النار » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : وضينا بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبينا ، فقال « اجلس يا عمر رحلك الله إنك ما علمت لموفق ^(٢) » .

وفى الحديث : نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القليل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال ^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم « يشك الناس بفسادهم بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فى خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا (قل هو الله أحد الله الصمد) حتى تختصموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ^(٤) » .

وقال جابر : ما زلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال ^(٥) . وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال (فإن أبيتى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) فلما سأل من السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال (لا توادخنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) فلم يصبر حتى سأل ثلاثا قال (هذا فراق بينى وبينك) وفارقه .

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن ، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها ، وضعيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة . فكذلك تقطيع العاصي حدود القرآن واشتغاله بمروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم .

الآفة المشرونة : سؤال العوام عن صفات الله تعالى

(١) حديث « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
(٢) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال « سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ... الحديث » متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله بن حذافة وفول عمر . وإسلم من حديث أبي موسى : قدم آخر فقال من أنى ؟ فقال أبوك سالم مولى حذيفة . (٣) حديث : الذين عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال : تنفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة .

(٤) حديث « يشك الناس بفسادهم بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فى خلق الله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
(٥) حديث جابر : ما زلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال . رواه الزبير بإسناد جيد .

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يتكلم على عفو ورحمة إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم النيط فيما يغضبون ، ثم خففهم بالمكاره والذات وأمل لهم لينظركيف يعملون ، وامتنح بهم جهنم ليصل صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يبقى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذروهم أن يأخذهم بقية وهم لا يشعرون فقال ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ والصلاة والسلام على عبد رسوله الذي يسير تحت لوائه التائبون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرعيين ، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويمحطى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسلياً كثيراً .

أما بعد فإن الغضب شمة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وإنها المستكة في طي الفؤاد . استكانت الجبر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر التار من الحديد ، وقد انكشف للتأطير بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استغزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستمرار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتاج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك ، وفسد من فسد ، ومفوضهما مضغة إذا صلت صلت معها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن المطلب ، فأأججه إلى معرفة معاطيه ومساويه ! ليحذر ذلك ويتقيه ، ويمحطه عن القلب إن كان وبنيته ، ويمالجه إن رسخ في قلبه ويدأويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة لا تسكفيه ، عالم يعرف الطريق الذي به يرفع الشر ويقصيه .

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب ، وبصمهما بيان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ؟ ثم بيان الأسباب الملهجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد ميجاته ، ثم بيان فضيلة كظم النيط ، ثم بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة الغفر والرفق ، ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقة أسبابه ومعالجته وغاية الراجب في إزالته ، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأشمال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكدته وقلته في غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذي به يشفى مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبإياه التوفيق .

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحية حية الجاهلية فأنزله الله سيكته على رسوله وعلى

المؤمنين ﴿ الآية . ذم الكفار بما تظاهروا به من الحية الصاحرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقل ، قال . « لا تغضب » ، ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب »^(١) ، وقال ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لي قولاً وأقله لعل أعتقه ، فقال « لا تغضب » فأعادت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى « لا تغضب »^(٢) ، وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا يتقذى من غضب الله ؟ قال « لا تغضب »^(٣) ، وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم « ماتعدون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذي لاتصرعه الرجال ، قال « ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٥) ، وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله عورته »^(٦) ، وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى ﴿ وسيداً وحسوراً ﴾ قال : السيد الذي لا يفتله الغضب . وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله دأني على عمل يدخلني الجنة ، قال « لا تغضب »^(٧) ، وقال يحيى لميسر عليهما السلام : لا تغضب ، قال : لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر ، قال : لا تقن مالا ، قال : هذا عسى . وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما غضب أحد إلا أشتى على جهنم »^(٩) ، وقال له رجل : أي شيء أشد على قال « غضب الله » ، قال : فأي يمدني عن غضب الله ؟ قال « لا تغضب »^(١٠) .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثمة فتقع في النار . وعن ذى القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال : علني علما أزداد به إيماناً وقيتاً ، قال : لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكتة بالثؤدة ، وإرباك والعجلة فإنه إذا عجلت . أخطأت حظك ، وكن سهلاً لنا للقرير والجيد ولا تكن جباراً عنيداً . وعن وهب بن منبه : أن راحياً كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضلّه فلم يستطع ، فجاءه حتى ناداه فقال له : افتح ، فلم يجبه فقال : افتح فإني إن ذهبت دمعت ، فلم يلتفت إليه فقال لني أنا المسيح ، قال الزاهد : وإن كنت المسيح فما صنعت بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم تقبله منك ؟ فقال : إني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ؟ لجئتك لتسألني

كتاب الغضب والحقد والحسد

- (١) حديث أبي هريرة : أن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقل قال « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال « لا تغضب » رواه البخاري
- (٢) حديث ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولاً وأقل... الحديث . أخرج نحوه أبو بصل بإسناد حسن
- (٣) حديث عبد الله بن عمرو : سألت رجلاً رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » أخرجه الطبراني في معارج الأئالي وإن عبد البر في التهذيب بإسناد حسن ، وهو عند أحمد : وأن عبد الله بن عمرو هو السائل .
- (٤) حديث ابن مسعود « ماتعدون الصرعة ... الحديث » رواه مسلم
- (٥) حديث أبي هريرة « ليس الشديد بالصرعة ... الحديث » متفق عليه
- (٦) حديث ابن عمر « من كف غضبه ستر الله عورته » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الفتوى ودم الغضب وفي الصحة ، ويهزم في آفات اللسان
- (٧) حديث أبي الدرداء : دلي على عمل يدخلني الجنة ؟ قال « لا تغضب » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن
- (٨) حديث « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف
- (٩) حديث « ما غضب أحد إلا أشتى على جهنم » أخرجه البزار وابن عدى من حديث ابن عباس « اتار باب لا يدخله إلا من شئ غيظه بمصيبة الله » وإسناده ضعيف ويهزم في آفات اللسان
- (١٠) حديث : قال رجل أي شيء أشد على ؟ قال « غضب الله » قال : فأي يمدني من غضب الله ؟ قال « لا تغضب » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالقطر الأخير منه وقد قدم فيه بست أحاديث .

عما شئت فأخبرك ، فقال : ما أريد أن أسألك عن شيء ، قال : فولى مدبرا ، فقال الراهب : ألا تسمع ، قال : بلى ، قال : أخبرني أي أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم ؟ فقال : الحقة إن الرجل إذا كان حديدا قلبناه كما يقبل الصبيان الكرة . وقال خيشمة : الشيطان يقول كيف يفتني ابن آدم وإذا رضى جثت حتى أكون في قلبه ؟ وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه ؟ وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار : رأس الحق الحقة وقائمه الغضب ، ومن رضى بالجهل استغنى عن العلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكرت عن جواب الأحق جوابه . وقال مجاهد : قال إبليس ما أعجزني بنو آدم فلن يسجروني في ثلاث : إذا سكر أحدكم أخذنا بخرامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، ونجسه بما في يديه ونمّيه بما لا يقدر عليه . وقيل للحكيم . ما أملك فلانا لنفسه ؟ قال : إذا لا تذله الشهوة ولا يصصره الهوى ولا يغلبه الغضب . وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاحتذار . وقيل : اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر المسل . وقال عبادة بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طعمه وما عليك بجملة إذا لم يفتض ، وما عليك بأمانته إذا لم يطعم ؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لا تنأق عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحسبه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقيه على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا . وقال علي بن زيد : أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز اتقوا فأتقوا عمر زمانا طويلا ثم قال : أردت أن يستغفرني الشيطان بزم السلطان فأنا لك اليوم ما تناله متى غدا ؟ وقال بعضهم لابنه : يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحى في التناير المسجورة ، فأقل الناس غضبا أعقلهم ، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للأخرة كان حلا وعلما ، فقد قيل : الغضب عدو العقل والغضب غرل العقل . وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال في خطبته : أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب . وقال بعضهم : من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وإيمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق وإعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة وإحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ولا يجمع به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضح به طئه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا ييذر ولا يسرف ولا يقتر ، يفر إذا ظلم ويغفر عن الجاهل . نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء . وقيل لمعبدة بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة . فقال أترك الغضب . وقال نبي من الأنبياء لمن نبهه : من يتكفل لى أن لا يغضب فيكون معى في درجتي ويكون بمدى خليفتي ؟ فقال شاب من القوم : أنا ، ثم أعاد عليه فقال الشاب : أنا أوفى به ، فلما مات كان في منزله بمدى وهو ذو الكفل ، سمي به لأنه تكفل بالغضب ووفى به . وقال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان ؛ الغضب ، والشهوة ، والحرق ، والطمع .

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان ممرضا للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه وأسباب عارضة عنه ؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه .

أما السبب الداخلي : فهو أنه ركب من الحرارة والرطوبة ، وجمل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاءها بخارا يتصاعد منها ، فلم يل يصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في

الحیوان شهوة تبعه على تناول الغذاء ؛ كما لوكل به في جبرما انكسر وسدما اتمل ليكون ذلك حافظا له . من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان : فكالسيف والسمان وسائر المهلكات التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحية تنور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، خلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الإنسان وجعلها بطيئة . فلها صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتملت نار الغضب وثارت ثوراناً ينزل به دم القلب وينشر في العروق ويرتفع إلى أعاني البدن ، كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفاتها تحكي لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينسب الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه . وكان معه يأمن من الانتقام تولد منه اقتباس الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حاراً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين اقتباس وانسباط فيحمر ويصفر ويضطرب .

وبالجلة فتوة الغضب عليها القلب ومعناها غليان دم القلب يطلب الانتقام وإنما توجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع اللوذيات قبل وقوعها وإلى التشنى والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وثروتها وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به . ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفریط والإفراط والاعتدال .

أما التفریط : فيفقد هذه القوة أضعفها وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه إنه لاهية له . ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار . فن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو نافع جداً ، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدّة والحمية فقال ﴿ أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال لئنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ الآية وإنما التلطفة والشدّة من آثار قوة الحمية وهو الغضب .

وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبق البرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار ^(١) كما قال صلى الله عليه وسلم . وإنما برودة المزاج تطفئ وتكسر سوره . وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يتألف قوماً يتجشون بتشنى الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أنا الذي لأصبر على المكر والحال ولا أحتمل من أحد أسراً ومعناه لا تغل في ولا حلم . ثم يذكره في معرض الفخر بمجمله . فن سمع رسوخ في نفسه حسن الغضب وحسب التشبّه بالقرم فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرابها أحت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا واطم لم يسمع بل زاده ذلك غضباً ، وإذا استغناء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطق " نور العقل وينمي في الحال بدخان الغضب ، فإن مدد الفكر الدماغ ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر ، وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بينته ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كهف اضطربت فيه نار . فأسود جوه وحى مستقره وأمتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانجى أولئك أنواره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لأن داخله ولا من خارج ، بل ينفى

(١) حديث « الغضب من النار » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « الغضب حرة في قلب ابن آدم » وأبو داود من حديث علي السدي « لد الغضب من العيطان ولن الشيطان خلق من النار »

أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق : فكذلك يعمل الغضب بالقاب والداغ . وربما تقوى نار الغضب فتقوى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتهدأ أعاليه على أسفله ، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة المسكة الجامعة لأجزائه ، فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة الفلسفية في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا ؛ إذ في السفينة من يحتمل لتسكينها وتديريها وينظرها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأحمه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشفاد وتحمص الإحداق وتقلب المناخر وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسنن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقتها ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ففسد الثمرة بالثمرة فهذا أثره في الجسد :

وأما أثره في اللسان فإفلاحة بالثمن والقحش من الكلام الذي يستحي منه ذوالعقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تحط النظام واضطراب القفط .

أما أثره على الأعضاء فالضرب والهجم والتزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه الم غضوب عليه أوقاته بسبب وعجز عن التثني رجع الغضب على صاحبه فزق ثوب نفسه ويطعم نفسه ، وقد يضرب يده على الأرض ويمدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريما لا يطق المدو والنبوض بسبب شدة الغضب ويعتبره مثل الفضية ، وربما يضرب الجرادات والحجوانات فيضرب القصبة مثلا على الأرض وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها . ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم الهيمة والمجادات ويخطأها ويقول : إلى متى منك هذا ياكيت وكيت ؟ كأنه يخطأ عاقلا ، حتى ربما فرسته ذابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك .

وأما أثره في القلب مع الم غضوب عليه فالخقد والحسد وإضمار السوء والشهادة بالسماوات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك السر والاستهزاء وغير ذلك من التباغ ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة بما يؤلف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتيال الدل من الأخشاء وصغر النفس والقنواء وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم النيرة على الحرام وهو خنوة قال صلى الله عليه وسلم « إن سمدا لنيور وأنا أغير من سمع وإن الله أغير مني ^(١) » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تساع الناس بذلك لإختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت العيانة في نساها . ومن ضعف الغضب الحور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم ، خير أمتي أحداؤها ^(٢) ، يعني في الدين وقال تعالى ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الحسية . ففقد الغضب مذموم ، وإنما الحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث يجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه

(١) حدث « أن سمدا لنيور ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المنهة بنحوه وهمد في التلخيص . (٢) حديث « خير أمتي أحداؤها » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بن زيد وزاد « الذين إذا غضبوا رجسوا »

وسلم حيث قال « خير الأمور أوساؤها »^(١)، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الثيرة وخصه النفس في احتمال الذل والضيغ في غير محله فينبغي أن يبالغ نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جزء إلى التهور واقتحام القواش فينبغي أن يبالغ نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ﴿ ولئن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتى بالشركه ؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض . فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأله الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة : أم لا ؟

أعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور نحو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه توجه وإياه تقصد ، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج . وهذا رأى من يظن أن الخلق كالحلق وكلهما لا يقبل التغيير ، وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه ما ذكره وهو أنه ما بين الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من النبط والغضب ، وما دام يرافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يرافقه ويكره ما يخالفه ، والغضب يقيم ذلك فإنه مهما أخذته محبوه غضب لأعلاءه ، وإذا قصد بمكروه غضب لأعلاءه

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأول : ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب ، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه أو أريق ماؤه الذي لمعطشه ، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها .

القسم الثاني : ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق كالجاء والمال الكثير والنفك والدواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة عبيرين في أنفسهم فيسكنزان ، ويغضب على من يبرقها وإن كان مستغنياً عنهما في القوت ، فهذا الجنس عما يتصور أن يفك الإنسان عن أصل النبط عليه ، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب ، إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يجب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكره غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاء والصيت والتصدر في المجالس والمباهاة في العلم ، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المجالس ، ومن لا يجب ذلك فلا يبالي ولو جلس في صف الثعال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه المعاديات الردية هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكامله فأكثرت غضبه ، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أسوأ رتبة وأقص ، لأن الحاجة صفة نقص فهما أكثر كثر النقص ، والجمال أبداً جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهراته ، وهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب النعم والحزن ، حتى يفتى بعض الجهال بالمعاديات الردية ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له : إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير ، وما يجري مجراه من الرذائل ، فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري لأن حبه ليس بضروري .

(١) حديث « خير الأمور أوساؤها » أخرجه البيهقي في الشعب مسنداً وقد تقدم .

أو لعنته أو حتربه فأجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقرية تقريه بها إليك يوم القيامة^(١) » وقال عبادته بن عمرو بن العاص : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال « أكتب فوالذي بعثي بالحق نبيا ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه^(٢) فلم يقل إلى لا أغضب ، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق ، أي لأعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضي الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مالك ؟ جارك شيطانك » فقالت : وما لك شيطان ؟ قال « بل ولكني دعوت الله فأعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بالخير^(٣) » ولم يقل : لا شيطان لي ، وأراد شيطان الغضب لكن قال : لا يعملني على الشر . وقال علي رضي الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للنيا إذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له^(٤) فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله فهو الثفات إلى الوساطة على الجلة ، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانتفاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيها هو ضروري إذا كان القلب مشغولا بضروري أم منه ، فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغرق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه .

وهذا كما أن سلدان لما شتم قال : إن خفت موازيتي فأنا شر مما تقول وإن قتل موازيتي لم يضرك ما تقول . فقد كان ممة مصروفا إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : يا هذا قد سمع كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قتلتها لم يضرك ما تقول ، وإن لم أقتلها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبابكر رضي الله عنه فقال : ما ستر الله عنك أكثر ، فكأنه كان مشغولا بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتق الله حق تقائه ويعرفه حق معرفته ، فلم يغضب نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين التقصان ، وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لما لك بن دينار : يا مرائي ، فقال : ما عرفني غيرك ! فكأنه كان مشغولا بأن يتق عن نفسه آفتا الزيادة ، ومنكرا على نفسه ما يليق الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال : إن كنت صادقا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك .

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم ، فإذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب ؛ فإذا يتصور فقد النفيظ إما باشتغال القلب بهم ، أو بنبلة فطر التوحيد ، أو بسبب ثالث : وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يتنازع فيعطى شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب هو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها . كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا . ومن أخرج حب الزايات عن القلب فخلص من أكثر

(١) حديث « اللهم أنا بمر أغضب كما يغضب البهر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « أغضب كما يغضب البهر » وقال « جفته » بدل « خرجه » وفي رواية « اللهم أنا عبد بمر يغضب كما يغضب البهر » وأصله « ملق عليه » وقدمه وسلم من حديث أنس « أنا ما بمر أرمي كما يرمي البهر وأغضب كما يغضب البهر » ولأبي بطل من حديث أبي سعيد أو حريته (٢) حديث عباد الله بن عمرو : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا ؟ قال « أكتب فوالذي بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . أخرجه أبو داود بنحوه (٣) حديث : غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مالك جارك شيطانك ؟ ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث علي : كان لا يغضب لله الدنيا ... الحديث أخرجه الترمذي في المعائل وقد فهم .

أسباب الغضب ، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه . نسال الله حسن التوفيق بلغفه وكرمہ إله على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

بيان الاسباب المهيبة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسب مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لميضى عليهما السلام : أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله ، قال فما يقرب من غضب الله ، قال أن تغضب ، قال : فما يبدى الغضب وما يزيته ؟ قال يحيى : الكبر والفخر والتمزز والحية .

والأسباب المهيبة للغضب هى : الزهو والمحب والمزاح والمزل والمزهو والتميز والمهارة والمناذرة والقدر وشدة الحرص على فضول المال والجاء ، وهى بأجمعها أخلاق رديئة ، مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلا بد من إزالة هذه الاسباب بأضدادها .

فينبغى أن تبتعد الزهو بالتواضع . وتجتنب المحب بمعرفتك بنفسك . كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والمحب . وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الانساب أب واحد ؛ وإنما اختلفوا فى الفضل أشتاتاً فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والمحب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها ، فإذا لم تخل منها فلا فضل لك على غيرك ، فلم تفخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة ؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما المزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والمعلوم الدينية التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما المزهو بالكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التميز فالخبر عن القول بالتيقن وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزاياء العيش فتزال بالتقاعه بقدر الضرورة طلباً لعم الاستغناء وترفعاً عن دل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصمة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لتزغ النفس عنها وتفر عن قبضها ، ثم المراقبة على مباشرة أخطاها مديدة حتى تصير العادة مألوقة هينة على النفس ، فإذا انجحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواهب على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة ، وتلقيبه بالانقلاب المنحودة غباوة وجهل حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر فى مرض المدح بالشجاعة ، والنفس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهب الغضب إلى انقلاب بسبه ، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب وتقصان عقل وهو لضعف النفس وتقصانها ، وأية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل التيسية أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا قاتته القطة ، ولجعله إذا قاتته الحية ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (١) ، بل ينبغي أن يبالغ هذا الجاهل بأن يتل عليه

(١) حديث « ليس الشديد بالصرعة » تقدم فيه .

حكايات أهل الحلم والعمو وما استحسن منهم من كظم النفيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأكرد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقل لهم ولا فضل فيهم .

بيان علاج الغضب بمد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يبيع ، فإذا جرى سبب هيجه فمنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمسجون العلم والعمل .
أما العلم فهو ستة أمور ؛ الأول : أن يتفكر في الأخبار التي سنورها في فضل كظم النفيظ والعمو والحلم والاحتلال فيرغب في ثوابه ، فتشبعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التثني والانتقام وينطق عنه غيظه ، قال مالك بن أوس ابن الحذافان : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين (خذ العمو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل) فكان عمر يقول (خذ العمو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل) فكان يتأمل في الآية وكان وقفاً عند كتاب الله مهما تلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وعلى الرجل . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى (والكاظمين النفيظ) فقال لعلامة خل عنه .

الثاني : أن يخبر نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو أعضيت غضبي عليه لم آمن أن يعنى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العمو . فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة : يا ابن آدم أذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أعضيتك فيمن أعنى . ويبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفاً إلى حاجة فأبسط عليه فلما جاء قال « لولا القصاص لأوجعتك »^(١) ، أي القصاص من القيامة . وقيل ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : أرحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه طاعة العداوة والانتقام وتشمير العدو لمقابله والسمي في هدم أغراضه والشجاعة بمصاحبه وهو لا يخجل من المصائب فيخوف نفسه بمواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه الماجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوق عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يمينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضار والسبع المأدى ، ومشابهة الحلم المأدى للتارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخبر نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يقبض بالعلماء والأنبياء في طأتهم لتقبل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعو إلى الانتقام ويمنه من كظم النفيظ ، ولا بد وأن يكون السبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يعمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والهانة وتصغير حقيراً في أعين الناس ! فيقول لنفسه : ما أجيبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خوى يوم القيامة والانتصاع إذا أخذ هذا يدك وانتقم

(١) حديث « لولا القصاص لأوجعتك » أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بنت أبي سفيان .

ملكه ؟ وتحذرون من أن تصفري في عين الناس ولا تحذرين من أن تصفري عند الله واللائكة والبهائم ؟ فهما كلهم الغيظ فينبغي أن يكظمه الله ، وذلك يعظمه عند الله ، فإله للناس ؟ وذلك من ظله يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن ، ألا يجب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة : ليقيم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه من تمجيده من جريان الشيء على وفق مراد الله لأعلى وفق مراده ، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه .

وأما العمل فإن يقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ ^(١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأنها وقال « يا عيش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ^(٢) » فيستحب أن يقول ذلك ، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً واضجع إن كنت جالساً واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك ، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الغضب جرة تودق في القلب ^(٣) . ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحرمة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم ، فإن لم يزل ذلك فليتنحى بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء : فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتنحى بالماء فإنما الغضب من النار ^(٤) » وفي رواية : إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتنحى . وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإذا غضبت فاسكت ^(٥) . وقال أبو هريرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطلع فيذهب غضبه ^(٦) وقال أبو سعيد الخدري : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا إن الغضب جرة في قلب ابن آدم ^(٧) ألا ترون إلى حرمة عينيه وانتفاخ أوداجه فن وجد من ذلك شيئاً فليصلي خدّه بالأرض . وكان هذا إشارة إلى السجود وتمكين أمر الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستكبر به النفس الدال وتزایل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب .

وروي أن عمر غضب يوماً فحما بما فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب . وقال عروة

- (١) حديث : الأمر بالعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ . متفق عليه من حديث سليمان بن مردد قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يتبان أحدهما آخر وجهه وانتفتحت أوداجه . . الحديث . وفيه « لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد » قلنا له : لن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تودق بالله من الشيطان الرجيم ... الحديث »
- (٢) حديث : كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنها وقال « يا عيش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي ... الحديث » أخرجه ابن السني في اليوم والجمعة من حديثها وتقدم في الأذكار والعبادات (٣) حديث : إن الغضب جرة تودق في القلب ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله « تودق » وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب .
- (٤) حديث « إذا غضب أحدكم فليتنحى بالماء البارد ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عطية السدوسي دون قوله « بالماء البارد » وهو يفتقر الرواية الثانية التي ذكرها المصنف وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس : إذا غضبت فاسكت . أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ لهما والبيهقي في شعب الإيمان وفيه ليس بن أبي سلم (٦) حديث أبي هريرة : كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطلع فيذهب غضبه . أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم لأحد باستناد جيد أنباء . حديث به وكان أبو ذر غاصاً غرس ثم اضطلع قليل له : لم تجلس ثم اضطجع ؟ فقال : لن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » والمرفوع عند أبي داود وفيه عنده اضطجاع سقط منه أبو الأسود (٧) حديث أبي سعيد « ألا إن الغضب جرة في قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن .

ابن محمد : لما استعملت على ابن قال لي أبي : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالفهما . وروى أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحراء - في خصومة بينهما - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر بلنتي أنك اليوم عيرت أهلك بأمة ، فقال : نعم ، فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسقه الرجل فلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل ، ثم قال ، إذا غضبت فإن كنت قائما فاقعد وإن كنت قاعدا فانكس ، وإن كنت متكئا فاضطجع ^(١) ، وقال المتعمر بن سليمان : كان رجل من كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا غضبت فأعطني هذه ، وقال الثاني : إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه ، وقال الثالث : إذا ذهب غضبي فأعطني هذه ، فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست إليه إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا ، فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : أرحم من في الأرض يرحلك من في السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله فإنه لا يلهم إلا ذلك . أي لا تضل الحدود . وغضب المهدي على رجل فقال شبيب : لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال : خلوا سييله .

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى (والكاظمين الغيظ) وذكر ذلك في معرض المدح . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كك غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خون لسانه ستر الله صورته ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلكم من عفا عند القدرة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاء ملاً قلبه يوم القيامة رضا ، وفي رواية : ملا الله قلبه أمنا وإيمانا ^(٤) ، وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى ^(٥) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم : إن لجهنم بابا

(١) حديث أبي ذر : أنه قال لرجل : يا ابن الحراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه قال : يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ... الحديث : وفيه قال : إذا غضبت إلى آخره . أخرجه ابن أبي الدنيا في المفردات الغضب بإسناد صحيح وروى الصحيحين من حديثه قال : كان بيني وبين رجل من أنوفى كلام وكانت أمه أعجبة فغيرته بأمة فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جامعية ، ولأحد أمه صلى الله عليه وسلم قال : انظر فإنك لست بخير من أحر ولا أسود إلا أن تفضله بتوى ، ورجاله عات .

فضيلة كظم الغيظ

(٢) حديث : من كك غضبه كف الله عنه عذابه ... الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أبي إسحاق ضعيف ولأن أبي الدنيا من حديث ابن عمر « من ملك غضبه وقاه الله عذابه ... الحديث » وقد تقدم في آيات السابق (٣) حديث : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلكم من عفا عند القدرة . أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث علي بن سعيد والبيهقي في الشعب باللفظ الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسل بإسناد جيد ، ولا يزال الطبراني في معارج الأخلاق واللفظ له من حديث : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب ، وفيه عمران القطن يختلف فيه . (٤) حديث : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لأمضاء ملاً قلبه يوم القيامة رضا ، وفي رواية : أمنا وإيمانا . أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكن بن أبي سراج متكلم فيه ابن حبان وأبو حنيفة بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه ، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يمس (٥) حديث ابن عمر : ما جرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله . أخرجه ابن ماجه .

لا يدخله إلا من شق غيظه بمعصية الله تعالى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملا الله قلبه إيماناً ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفضه دماء الله على رءوس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء ^(٣) ،

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسأة ولا تشف غيظك بغضبيتك واعرف قدرك تفعلك معيشتك . وقال ايوب : حلم ساعة يدفع شراً كثيراً . واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فنذا كروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجورح . وقال رجل لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تطلى الجول ، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه ، فقال له رجل . يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنهما كانت ناراً فأطفئت . وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاء في الباطل وإذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجهه رجل إلى سلمان فقال : يا عبد الله أوصني ، قال : لا تغضب ، قال لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان فضيلة الحلم

اعلم أنا الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحمل أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من حاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ؛ ولكن إذا تود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ، وإن حاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلاده وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداء التحمل وكظم الغيظ تكلفاً . قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعمله ومن يتوق الشر يره » ^(١) ، وأشار بهذا إلى أن اكتساب العلم طريقته التحمل أولاً وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقته التعلم . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تعلمون ولن تعلمون منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيقلب جهلكم حلمكم » ^(٢) ، وأشار بهذا إلى أن التكبر والتعير هو الذى يهيج الغضب ويمنع من العلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم اغنى بالعلم وزينى بالعلم وأكرمنى بالقوى وعلمنى بالمعافاة ^(٣) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ابتغوا

(١) حديث ابن عباس « إن لجهنم باباً لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملاه الله قلبه إيماناً » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتعلق من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم وقد تقدم (٣) حديث « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفضه دماء الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » تقدم في آفات اللسان .

فضيلة الحلم

(٤) حديث « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ... الحديث » أخرجه الطبراني والدارقطني في المال من حديث أبي الفراء بسند ضيف (٥) حديث أبي هريرة « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في زيادة الصلوات بسند ضيف (٦) حديث : كان من دعائه « اللهم اغنى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالقوى وعلمنى بالمعافاة » لم أجده إلا أسلاً

الرقة عند الله . قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : فصل من قطعك وتغطي من حرملك وتحمل عن جهل عليك ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم ، خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتستر ^(٢) ، وقال على كرم الله وجهه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الرجل المسلم ليدرك بالعلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارا عتيذا ولا يملك إلا أهل بيته ^(٣) ، وقال أبو هريرة : إن رجلا قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلمهم ويقطعون وأحسن إليهم ويسئون إلي ويجهلون علي وأحلم منهم ، قال : إن كان كما تقول فأنكأ تسفهم المال ولا يزال ملكه من الله يظهر مادمت على ذلك ^(٤) ، المال : يعني به الرمل . وقال رجل من المسلمين : اللهم ليس عندي صدقة اتصدق بها فأيا رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن قد غفرت له ^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم : أيسر أحدكم أن يكون كأي ضخم ؟ قالوا : وما أبو ضخم ؟ قال : رجل عن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم إنني تصدقت اليوم بمرضى على من ظنني ^(٦) .

وقيل في قوله تعالى (ربانين) أى علماء علماء . وعن الحسن في قوله تعالى (وإذا غاظهم الجاهلون قالوا سلاما) قال علماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبي رباح (يمشون على الأرض هونا) أى علماء . وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل (وكهلا) قاله : الكهل منتهى الحلم . وقال بجاد (وإذا مروا بالقوم مروا كراما) أى إذا أودوا صفحوا .

وروى أن ابن مسعود مر بلفو مريضاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً ^(٧) ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى (وإذا مروا بالقوم مروا كراما) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم لا يدركي ولا أدرك زمان لا يقيمون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحلم ، قلوبهم كلوب الصمم وألسنتهم ألسنة العرب ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليلتين منكم ذوا الأحلام والنهى ثم الذين يولتهم ثم الذين يولتهم ، ولا تحتلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وميشتات الأسواق ^(٩) ، وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج فأنابح وأحلتهم ثم قلها وطرحه عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله

- (١) حديث « اجتنوا الرقة عند الله » قالوا : وما هي ؟ قال : فصل من قطعك وتغطي من حرملك وتحمل عن جهل عليك وقد تقدم
(٢) حديث « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتستر » أخرجه أبو بكر بن أبي حاتم في الثاني والآحاد والترمذي المحكم في نوادر الأصول من رواية يليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده ، ولترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب « أربع » فأعطى « الحلم والحجامة » وزاد « الشكاح » (٣) حديث على بن الرجل المسلم ليدرك بالعلم درجة الصائم القائم ... الحديث « أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضيف (٤) حديث أبي هريرة : أن رجلا قال يا رسول الله إن لي قرابة أصلمهم ويقطعون وأحسن إليهم ويسئون إلي ويجهلون علي وأحلم منهم ... الحديث . رواه مسلم (٥) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة اتصدق بها فأيا رجل أصاب من عرضي شيئا فهو صدقة فو عليه ... الحديث . أخرجه أبو نعيم الصمعي والبيهقي في الشعب من رواية عبد الحميد بن أبي عيسى بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين ، زاف البيهقي عن علي بن زيد وعليه هو انتهى قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه رواه ابن عينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة : أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أنه أيا ضخم قلت وليس بأبي ضخم إنما هو علي بن زيد وأبو ضخم ليس له سمية وإنما هو مقدم (٦) حديث « أيسر أحدكم أن يكون كأي ضخم ... الحديث » تقدم في آفات اللسان (٧) حديث أن ابن مسعود مر بلفو مريضاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً . أخرجه ابن المبارك في البر والصلوة (٨) حديث « اللهم لا يدركي ولا أدرك زمان لا يقيمون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحلم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضيف (٩) حديث « ليلتين منكم ذوا الأحلام والنهى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله « ولا تحتلفوا فتختلف قلوبكم » فهو عند أبي داود والترمذي وحسنه وهو عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود .

صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : إن فيك يا أشجع خلقين يحبهما الله ورسوله . قال : ما هما بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال « الحلم والأناة » فقال : خلتان تخلفتهما أو خلتان جبلت عليهما ؟ فقال « بل خلتان جبلك الله عليهما » فقال : الحمد لله الذي جعلني على خلقين يحبهما الله ورسوله ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب الخليم الحلي الذي المتخفف أبا العيال التقي ويغض الفاحش البذي السائل الملقف النبي ^(٢) ، وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشئ من عمله : تقوى يحجزه عن معاصي الله عز وجل . وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به في الناس ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فتقولون لهم إننا راكم سراعا إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل ، فيقولون لهم ما كان فضلكم ؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسئ إلينا عفونا وإذا جهل علينا حملنا . فيقال لهم ادخلوا الجنة فتم أجور العاملين ^(٤) » .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والحلم . وقال علي رضي الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولده ، ولكن الخير أن يكثر عليك عويفكم حلك ، وأن لا يباهي الناس بعبادته ، وإذا أحسنت حدثت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزيروا بالوقار والحلم . وقال أكرم بن صيني : دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء : أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فأصبحوا شوكا لا ورق فيه ، إن عرفتهم فقدوا وكون تركهم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : ترضهم عن عرشك ليوم فترك . وقال علي رضي الله عنه : إن أول ما عوض الخليم من حله أن الناس كلهم أعوانه على الجامل . وقال معاوية رحمه الله تعالى : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يئلب حله جهله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم ، وقال معاوية لعمر بن الأئتم : أي الرجال أجمع ؟ قال : من ردد جهله بحله . قال : أي الرجال أصح ؟ قال : من بذل ذنبه لصالح دينه . وقال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ إلى قوله ﴿ عظيم ﴾ هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذبا لغفر الله لك وإن كنت صادقا فغفر الله لي . وقال بعضهم : شتمت فلانا من أهل البصرة حلم على فاستعبدني بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس : يم سدت قومك يا عرابة ؟ قال : يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم . فمن فعل فعل فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال : يا عكرمة هل للرجل حاجة فقصها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحي . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال : ليس تقبل شهادتك . وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سب رجل فرى إليه بغيضة كانت عليه وأمره بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل عما يبعد من أهل العز وجل وحمله على التدم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم واشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير وقال رجل لجمهر بن محمد

(١) حديث « يا أشجع إن فيك خلقين يحبهما الله : الحلم والأناة ... الحديث » متفق عليه (٢) حديث : إن الله يحب الخليم المتخفف ... الحديث « أخرجه الطبراني في حديث سعد « إن الله يحب البذل التقي الذي الحلي (٣) حديث ابن عباس « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تمتدوا بشئ من عمله » أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم في آداب الصلوة (٤) حديث « إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس ... الحديث » وفيه « إذا جهل علينا حملنا » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقي في إسناده ضعف .

إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وإلى أريد أن أتركه فأخشي أن يقال لي : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الدليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد : كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأحنف بن قيس : لست بعليم ولكنني أتعلم . وقال وهب بن منبه : من يرحم يرحم ومن يصمت يسل ، ومن يجهل ينجب ، ومن يعجل يخطئ ، ومن يحرص على الشر لا يسل ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يصم ، ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتر ، ومن يأمن مكر الله يخذل ، ومن يستعين بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار : بلغني أنك ذكرتني بسوء ، قال ، أنت إذن أكرم على من نفسي إذ إذا فعلت ذلك أهديت لك حسنا . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء : والله لا سبيلك سبأ يدخل مملكتي فترك ، فقال : مملك يدخل لامي . وروى المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام يقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقبل له : إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا ؟ فقال : كل يفتق بما عنده . وقال لقمان : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكميم - وكانت سيئة الخلق - فرفضت المائدة وأقبلت على شتم الحكميم ، فخرج الصديق متغضبا فتمه الحكميم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك فطعم فسططت دجاجة على المائدة فأفسدت ماعلي فلم يغضب أحد منا ؟ قال : نعم ، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة ؛ فصرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال : صدق الحكميم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال : أفته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب . وقال عمود الوراق :

سالم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشرؤف ومثل مقاوم
فأما الذي فوق فأعرف قدره وأبعب فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنعت عن إجابته عرضي وإن لام لأثم
وأما الذي مثل فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتسفي به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابله بمثله ، فلا يجوز مقابلة النية بالنية ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي . وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد للشرع به وقد فصلناه في الفقه . وأما السب فلا يقال بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيده بهما » (١) . وقال « المستبان ما قاله فهو على الباطن مالم يتعد الظلوم » وقال « المستبان شيطانان يتهازنان » (٢) . وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : إنك كنت ساكتا لما شتمني فلما تكلمت قتت قال : « لأن الملك كان يجب عليك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان » (٣) . وقال قوم : يجوز للمقابلة بما لا كذب فيه ، وإنما هي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيده بهما » أخرجه أحمد من حديث جابر بن سلم . وقد تقدم (٢) حديث المستبان شيطانان يتهازنان « تقدم (٣) حديث : شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم . الحديث . أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متعديا وموسلا قال البخاري المرسل أصح .

عن مقابلة التعبير بثله نهي تنزيهه ، والأفضل تركه ولكنه لا يصح به . والذي يرخص فيه أن تقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بني فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بني هذيل ؟ وقال ابن مسعود : وهسل أنت إلا من بني أمية ؟ ومثل قوله : يا أحمق ، قال مطرف : كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض . وقال ابن عمر في حديث طويل : حتى ترى الناس كلهم حتى في ذات الله تعالى (١) وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل : فقد آذاه بما ليس بكذب . وكذلك قوله ياسي الخلق ، يا صفيق الوجه يا غليظ الإعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لو كان فيك حياة لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، وأخوأك الله وانتقم منك .

فأما النية والغية والكذب وسب والذين غرام بالاتفاق ، لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالدًا عند سعد ، فقال سعد : مه إن مايتنا لم يبلغ ديننا . يعني أن يأثم بعضنا في بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنفس إلى الزنا والفحش والسب : ما روت عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت : يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة ، والتي صلى الله عليه وسلم تأم ، فقال : يا بنية أتخمين ما أحب ؟ قالت : نعم ، قال : فأجي هذه ، فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ما أغنيك عنا شيئاً : فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت : وهي التي كانت تسامعن في الحب لجاءت فقالت : بنت أبي بكر وبنت أبي بكر ، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فأذن لي ، فسببتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلا إنها ابنة أبي بكر (٢) ، يعني أنك لا تضاميني في الكلام قط وقولها : سببتها ، ليس المراد به القمض بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : المستبان ما قالوا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم (٣) ، فأثبت للظلم انتصار إلى أن يعتدى . فهذا التقدير هو الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الإيذاء جزم على إيذائه السابق . ولا تبعد الرخصة في هذا التقدير ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يمدد سرياً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام . والناس في الغضب أربعة : فبعضهم كالخلفاء سريع الوقود سريع الخلود ، وبعضهم كالنفسا بطلى الوقود بطلى الخلود وبعضهم بطلى الوقود سريع الخلود وهو الأحكام بثلثة إلى فتور الحية والغنية ، وبعضهم سريع الوقود بطلى الخلود وهذا هو شرهم . وفي الخبر : المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذا بتلك (٤) ، وقال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . وقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فبهم بطلى الغضب سريع النية ، ومنهم سريع الغضب سريع النية : قلنا ذلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطلى النية ، ألا وإن خيرهم البلى الغضب السريع النية وشرهم السريع الغضب البلى النية (٥) ، ولما كان الغضب يبيع ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب

(١) حديث ابن عمر في حديث طويل « حتى ترى الناس كأنهم حتى في ذات الله مزبول » تقدم في العلم (٢) حديث عائشة أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت : يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألك العدل في ابنة أبي قحافة . . الحديث . رواه مسلم (٣) حديث « المستبان ما قالوا فعلى البادئ ... الحديث » رواه مسلم وقد هدم (٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى » هدم (٥) حديث أبي سعيد الخدري « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات ... الحديث » هدم

أحدا في حال غضبه ، لأنه ربما يمدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متقيظا عليه فيكون متشغيا لغيره وربما يحا نفسه من الانبساط ، فيكون صاحبه يحفظ نفسه ، فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره تعالى لنفسه . ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعرره فشمته السكران فرجع عمر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين لا تشترك تركته ؟ قال : لأنه أغضبني ولو عزوته لكان ذلك لغضبي لنفسي ، ولم أحب أن أضرب مسلما حية لنفسي . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه : لو لا أنك أغضبتني لما قبلك .

القول في معنى الحقد وتأثيره وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لم يظلمه لمجر عن التقى في الحال وجعل إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استقصاءه والبغضة له والتفاد عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : المؤمن ليس بمحقد (١) ، والحقد ثمرة الغضب .

والحقد يثمر ثمانية أمور (الأول) الحسد : وهو أن يملك الحقد على أن تمنى زوال التهمة عنه فتتم بهمة إن أصابها وتسرب بصية إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين . وسأيت ذمه إن شاء الله تعالى . (الثاني) أن يزيد على إضرار الحسد في الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء . (الثالث) أن تجهده وانتصاره وتقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصناراً له . (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يجل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . (السادس) أن تحاكيه استهزاء به ومحرية منه . (السابع) إيقاظه بالضرب وما يؤلم يده . (الثامن) أن تمنه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحترق من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تنصى الله به ، ولكن تستكف في الباطن ولا تنهي قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من الباشاة والرفق والمناية والتسامح بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على التمسك له ، أو بترك البذاءة والتناء عليه أو التحريض على بزه ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ويعول بيلك وبين فضل عظيم وثواب جليل وإن كان لا يمرضك لعقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينطق على مسطح - وكان قريبه - لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله تعالى (ولا تأتوا أولي الفضل منكم) إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك وعاد إلى الإفكافي عليه (٣) .

والأولى أن يبق على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة النفس وإزعاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المؤمنين . فلم يحقد هؤلاء أحوال عند التوبة (أحدها) أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل . (الثاني) أن يحسن إليه بالمعروف والصلة وذلك هو الفضل . (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني هو اختيار الصديقين ، والأول هو متتهى درجات الصالحين . ولذا ذكر الآن فضيلة العفو والإحسان .

فضيلة العفو

(١) حديث : المؤمن ليس بمحقد ، وهم في العلم (٢) حديث : لما حلف أبو بكر أن لا ينطق على مسطح نزل قوله تعالى (ولا تأتوا أولي الفضل منكم) الآية معني عليه من حديث عائشة .

فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حفا فيقطعه ويرى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ؛
 فذلك أفرده . قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وقال الله تعالى ﴿ وأن تغفوا ﴾
 أقرب للتقوى ﴿ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلالاً لحلفت عليهن :
 ما تنقص مال من صدقة فتصدقوا ، ولا غنا رجل عن مظلة يبتغي بها وجهه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ،
 ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد
 إلا رفعة فتواضعوا برفعتكم الله ، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فأعفوا بمرمكم الله ، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة
 فتصدقوا برحمتكم الله ^(٢) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلة
 ظلها قط ما لم يبتلكه من محارم الله ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشد من ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا
 اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ^(٣) ، وقال عتبة : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت يده
 أو بدري فأخذ يدي فقال « يا عتبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتمضى من
 سركم وتغفو عن ظلمك ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أفر عليك ؟
 قال الذى إذا قدر ضا ^(٥) » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعر الناس قال الذى يغفو إذا قدر فأعفوا بمرمكم الله
 وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له
 بظلمته ، فقال له صلى الله عليه وسلم « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة ^(٦) » فأبى أن يأخذ ما حين سمع الحديث : وقالت
 عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعت أخا لخلق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثا أصوات : يا معشر الموحدين إن
 الله قد عفا عنكم ظليفي بعضكم عن بعض ^(٧) » وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت
 وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بمضادى الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ فقالوا : نقول أخو ابن عم حليم رحيم
 - قالوا ذلك ثلاثا - قال صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال يوسف لا أثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
 الراحمين »

- (١) حديث « ثلاث والذى نفسى بيده أن كنت حلالاً لحلفت عليهن : ما تنقص صدقة من مال ... الحديث » أخرجه الترمذى من
 حديث أبي كعبه الأعمري وسلم وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا
 برفعتكم الله » أخرجه الأصفهاني فى الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمى فى مسند القدروس من حديث أنس بن مالك
 (٣) حديث عائشة : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلة ظلها قط ... الحديث » أخرجه الترمذى فى
 المبال وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عتبة بن عامر : يا عتبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة
 تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبراني فى معارج الأئمة والبيهقى فى المحرمات فى مكارم الأخلاق من حديث
 (٥) حديث : قال موسى يارب أى عبادك أفر عليك ؟ قال الذى إذا قدر غنا : أخرجه الحراطل فى مكارم الأخلاق من حديث
 أبي هريرة وفيه ابن أبي الدنيا (٦) حديث « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة » وفى أوله فتروا ما بين أبى الدنيا فى كتاب العفو من
 رواية أبى صالح الحنفى مرسل (٧) حديث أنس : إذا بعت أخا لخلق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة
 أصوات : يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم ظليفي بعضكم عن بعض : أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ فى كتاب
 البصرة والتذكرة بلفظ « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة : يا أمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لى ظلمكم فقد وميته
 لكم وبغيت الثيبات فتواجوها وادخلوا الجنة برحمتي » وإسناده ضعيف ورواه الطبراني فى الأوسط بلفظ « نادى مناد يا أهل الجح
 تمنازكو المظالم ينسكم وتوابكم علي » وفيه من حديث أم مازن ، ينادى مناد : يا أهل التوحيد ليلى بعضكم عن بعض وصل الثواب »

الراحمين) (١) ، قال نجر جوا كأنما نفرأوا من القبور فدخلوا في الإسلام . وعن سبيل بن عمرو قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والثاس حوله فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون ؟ قال : قلت يا رسول الله تقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم كريم . وقد قدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف (لا تهريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) (٢) ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل ومن ذا الذى له على الله أجر ؟ قال : العاقلون عن الناس ، فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب (٣) ، وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بمجد إلا أقامه الله عفو عمن سبقه ثم قرأ (وليعفووا ليفصحوا) الآية (٤) ، وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من المحور العين حيث شاء : من أدى ديننا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة (قل هو الله أحد) عشر مرات وصفا عن قائده ، قال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله قال : أو إحداهن (٥) .

الآثار : قال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم : إذا أراد الله أن يتخف عبدا قبض له من ظلمه . ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ليجعل يشكو إليه رجلا ظلمه يقع فيه فقال له عمر : لئنك إن تلني الله ومظلتك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتمصتها . وقال يزيد بن ميسرة : إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك واجبا عليك وإن شئت أخرتكم إلى يوم القيامة فيسبكم عفى . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظلمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعاك عليه إلا أن يتدارك بعمل وقن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال : بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شيء فليقيم فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى الثمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيماً فعفا عنه والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعفا به وقال :

تعفو الملوك عن العظمى من الذنوب بفضلها

ولقد تصاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها

إلا يعرف حلها ويضاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر ، قال : فكنت عنده إذا أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر ، فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدلك حديثاً سمعته

(١) حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بضاد الباب فقال « ما تقولون ... الحديث » روى ابن الجوزي في الرقاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف (٢) حديث سبيل بن عمرو : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحو : لم أجده (٣) حديث أنس : « إذا وقف العباد نادى مناد ليقيم من أجره على الله فليدخل الجنة » قيل من ذا الذى أجره على الله ؟ قال : « العاقلون عن الناس ... الحديث » أخرجه الطبراني في معارج الأخلاق وفيه التفضل بن مسعود ولا يطاع على حديثه (٤) حديث ابن مسعود : لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بمجد إلا أقامه الله عفو عمن سبقه ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصلوة (٥) حديث جابر : ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط في الغطاء بسند ضعيف .

من الحسن ؟ قال : وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعون النداء وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادى من له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا ، فقال : والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه ، فقال : خيلينا عنه . وقال معاوية : عليكم بالحم والاحتياط حتى تتمكنكم الفرصة ، فإذا أمكنتمكم فليحكم بالصفح والإفصال . وروى أن رابعاً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب : أرايت ذا القرنين أكان نبياً ؟ فقال : لا ، ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لند . وقال بعضهم : ليس الحليم من ظلم لحلم . حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا . وقال زياد : القنطرة تذهب الحفيظة بيني والحد والغضب وأتى هشام برجل يلته عنه أسراً فلما أقیم بين يديه جعل يتكلم بحسنة فقال له هشام : وتتكلم أيضا ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أضجادل الله تعالى ولا تتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام : بلى وبحسبك تكلم . وروى أن سارقاً دخل خيأ عمار بن ياسر يصيفن فقيل له اقطعه فإنه من أعدائنا ، فقال بلل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً فأتبعه ثم طلب الدرهم وكانت في عمامته فوجدتها قد حلت فقال لقد جلست وإنها لمى ، فجلعوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها اللهم افعل به كذا ، فقال عبد الله : اللهم إن كان حله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حله جرامة على الذنب فأجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل : ما رأيت أزهده من رجل من أهل خراسان جلس إلى في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنائير كانت معه فجعل يبكي فقلت أعل الدنائير تبكي ؟ فقال : لا ، ولكن مثلتي وإياه بين يدي الله عز وجل فأشرف عفى على إدساخ حسنة فبكأى رحمة له ؟ وقال مالك بن دينار : أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير . وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فاكنا مع الحسن إلا بمنزلة الفرائخ ، فذكر الحسن قصه يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من يمههم إياه وطرحهم له في الجب فقال : باهوا أعوام وأحزنوا أباهم ، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ثم قال : أيها الأمير ماذا صنع الله به ؟ أذله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض ، فإذا صنع حين أكل له أسره وجمع له أهله ؟ (قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) يمرض الحكم بالمعروف من أصحابه . قال الحكم فأنأ أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا موتى هذا لو أريتكم محنته . وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله المعفو عن بعض إخوانه : فلان هارب من زلته إلى عفوك لأئذ منك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما إلا ازداد المعفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجله من حبيبه . ماترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك من الغفر فأعط الله ما يحب من الغفر فغفرا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فألقته منه فأخذ أعا له فقال له . إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقه ، فقال . أرايت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين تحلى سبيل ؟ قال نعم قال فأنأ أتيت بكتاب من المزيار الحكم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا ﴿ أم لم ينأ بما في صف موسى وإبراهيم الذى وفى أن لا تور وزارة وزر أخرى ﴾ فقال زياد خلوا سبيله ، هذا رجل قد لفت حسنة ، وقيل مكتوب في الإنجيل . من استغفر لمن ظله فقد هزم الشيطان .

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ويمتاده العنف والحدة . والعنف نتيجة التعصب والفظافة . والرفق واللين نتيجة حسن

الحلق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاؤه بحبته يدهش عن التفكير وينتفع من الثبوت فالرق في الأمور ثمة لا يشعرا إلا حسن الحلق ، ولا يحسن الحلق إلا ببطئ قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرق وبالنسبة فيه فقال : يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرق ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يعطى على الرق ما لا يعطى على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرق وما من أهل بيت يحرمون الرق إلا حرموا محبة الله تعالى ^(٣) » وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله رقيق يحب الرق ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ارفقي فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دهم على باب الرق ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم : « من يحرم الرق يحرم الخير كله ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما وال ولي فرقة ولا درقة الله تعالى به يوم القيامة ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل حين لين سهل قريب ^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الرق بين والخرق شؤم ^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « التأتى من الله والمعجلة من الشيطان ^(١٠) » ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يا رسول الله : « إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فأخصني منك بخير فقال : « الحمد لله ، مرتين أو ثلاثا ثم أقبل عليه فقال : « هل أنت مستوص ، مرتين أو ثلاثا قال نعم . قال : « إن أردت أمرات تدبر فاقبته فإن كان رشداً فأعنه وإن كان سوى ذلك فأنته ^(١١) » وعن عائشة رضى الله عنها : « أنها كانت تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة عليك بالرق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه ^(١٢) » ،

الأنار . بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه

فضيلة الرق

(١) حديث « يا عائشة إنه من أعطى حظه من الرق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ... الحديث » رواه أحمد والبيهقي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضمه في التماس من عائشة . وفي الصحيحين من حديثها « يا عائشة إن الله يحب الرق في الأمور كلها » (٢) حديث « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرق » أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقي في الضعفاء بسند ضيف من حديث عائشة (٣) حديث « إن الله يعطى على الرق ما لا يعطى على الخرق ... الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضيف (٤) حديث « إن الله رقيق يحب الرق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٥) حديث « يا عائشة ارفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دهم على باب الرق » أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبي داود « يا عائشة ارفقي » (٦) حديث « من يحرم الرق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله « كله » لهن عند أبي داود (٧) حديث « أيما وال ولي فلان ورق رق الله به يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي حديث فيه « ومن ولي من أمر أمي شيئا فرفق بهم فاروق به » (٨) حديث « تدرون هل من تحرم النار على كل حين لين سهل قريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وتقدم في آداب الصحة (٩) حديث « الرق بين والخرق شؤم » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الضعيف من حديث عائشة ولأحمد ضيف (١٠) حديث « التأتى من الله والمعجلة من الشيطان » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ « الأناة من الله » وقد تقدم (١١) حديث : « أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ... الحديث » وفيه « فإذا أردت أمرا تدبر فاقبته فإن كان رشداً فأعنه . » الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق من حديث أبي جعفر المسمى عبد الله بن سدر المصافي ضيف جدا ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأصمري عن أبيه ص جملة « لذا سمعت بأمر عائشة تدبر فاقبته » ولستاده ضيف .

(١٢) حديث عائشة « عليك بالرق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ... الحديث » رواه مسلم

(٢٤) — إجماع علوم الدين — (٣)

قام لحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا الصبيحة بالنيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورقيقه ، ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعز من جهل إمام وخرجه ، واعلموا أنه من يأخذ بالمعاقبة فيمن بين ظهره يرزق العافية من هو دونه . وقال وهب بن منبه : الرفق في الحلم .

وفي الخبر موقفا ومرفوعا « العلم خيل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده »^(١) . وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يرينه العلم وما أحسن العلم يرينه العمل وما أحسن العمل يرينه الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله . ما الرفق ؟ قال : تكون ذا أناة فتلاين الولاة . قال فما الخرق ؟ قال : معادة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه : تدررون ما الرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور من مواضعها : الشدة في موضعها واللين في موضعها والسيف في موضعها والسوط في موضعها ؛ وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والغلظة بالرفق كما قيل .

وموضع التدي في موضع السيف بالعملا مضر كوضع السيف في موضع التدي فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر ، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في عمله حسنا كما أن الرفق في عمله حسن ، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو الذم الزبد بالشدة وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يماثيه في الثأني فكتب إليه معاوية . أما بعد ، فإن القهم في الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن السجلة ، وإن الجانب من غاب عن الآناء ، وإن المثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا ، وإن السجل عظمى* أو كاد أن يكون عظيما ، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الحرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المال . وعن أبي عوانة الانصاري قال : ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حنيفة الكوفي : لا تتخذ من الخدم إلا مالا بد منه فإن مع كل إنسان شيطانا . واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن : المؤمن وقاف متأن وليس كخاطب ليل . هذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تنجم ولكن على التدور ، ولما تكاملت من بين مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه في الأكثر ؛

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغايه الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحسد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع وفرع والغضب أصل أصله ثم إن الحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة : قال رسول الله صلى الله

(١) حديث « العلم خيل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائمه والرفق والده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب وفنائل الأعمال من حديث أنس بن مالك ورواه الفضائي في مسند الصحابة من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلامه شريف .

عليه وسلم ، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم في انتهى عن الحسد وأسبابه وثمراته « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تناجروا وكوتوا عباد الله إخوانا » ^(٢) ، وقال أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم ، فلما كان التذ قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه جده الله بن عمرو بن العاص فقال له . إني لأحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت ، فقال « نعم » فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم لصلاة الفجر ، قال : غير أني ما سمعته يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكعدت أن أشتعر عله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف حكاك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فأذا بلغ بك ذلك ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والعيرة والحسد ، وما حدثكم بالخبر من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق وإذا حدثت فلا تبغ ^(٤) ، وفي رواية « ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن ، فأثبتت في هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هي الحاكمة لا أقول حاكمة الشر ولكن حاكمة الدين ، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحاسبوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يلبس القدر » ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنه سيصيب أمي داء الأمم » قالوا : وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر والتكابر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحامد حتى يصحكون البغي ثم الهرج » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تظهر الشهادة لاختيك فيما بينك وبينك » ^(٨) ، وروى أن موسى عليه السلام لما تمجلى إلى ربه تعالى

القول في ذم الحسد

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ... الحديث » ، « يعق عليه وقد هدم . (٣) حديث أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » .. الحديث بطوله وفيه : أن ذلك الرجل قال لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه أحد بائنا صريح على شرط الشيخين ورواه البزار وصح الرجل في رواية له سمعا وثباتا في الحديث (٤) حديث « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والعيرة والحسد الحديث » وفي رواية « وقل من ينجو منهن أحد » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزمري وموسى بن يعقوب الرسي ضعيفا الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن ماجة وهو مرسل ضعيف وقطرباني من حديث سارة بن الثمان نحوه وهدم في آيات السان (٥) حديث « دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير (٦) حديث « كاد القرآن يكون كفرا وكاد الحسد أن يلبس القدر » أخرجه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاني عن أنس وزيد ضعيف ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر لفظ « كادت الحاجة أن يكون كفرا » وفيه ضعف أيضا (٧) حديث « إنه سيصيب أمي داء الأمم قبلكم » قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بائنا جيد (٨) حديث « لا تظهر الشهادة لاختيك فيما بينك وبينك » أخرجه الترمذي من حديث واثقه بن الأصم وقال حسن شريف وفي رواية ابن أبي الدنيا فيرحه الله .

ورأى في ظل العرش رجلا فتبعله بمكانه فقال : إن هذا لكريم على ربه ، فسأل ربه تعالى أن يحضره باسمه فلم يحضره وقال أحدئك من عمله ثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يبق والده ، ولا يمشي بالقيمة . وقال زكريا عليه السلام : قال الله تعالى : الحاسد عدو لتعنى متخط لتضاني غير راض بقسمي التي قسمت بين عبادي . وقال صلى الله عليه وسلم : أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتلون ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : استميتوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن لنعم الله أعداء ، فقيل ومن هم ؟ فقال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة : قبل يارسول الله من هم ؟ قال : الأمراء بالجوهر والعرب بالعصية والنداهقين بالتكبر والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة والمعلماء بالحسد ^(٤) .

الآثار ، قال بعض السلف : أول خطيئة هي الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فخلفه على الحسد والمعصية . وحكى أن نوح بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال : إني أريد أن أعطيك بشيء فقال : وما هو ؟ قال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به ، ثم قرأ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا ﴾ إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ ، الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكر التقدر فأسكت ، وإذا ذكرت الجرم فأسكت . وقال بكر بن عبد الله : كان رجل ينشئ بعض الملوك فيقوم بمجاهد الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسمى سيكتفيك إساءته ، حسده رجل على ذلك المقام والكلام فسمى به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بمجاهدك ويقول ما يقول زعم أن الملك أجبر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال : لا دعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أذنيه ثلاثا يشم ريح البحر ، فقال له : أنصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم ثم فرج الرجل من عنده وقام بمجاهد الملك على عادته فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسمى سيكتفيك إساءته ، فقال للملك : أدن مني فدنا منه فوضع يده على فيه فخافه أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك في نفسه : ما أرى فلانا إلا قد صدق ؟ قال : وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بمائة أو صخرة فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فأذبه ولا تلخه واحش جلدك تباؤا بعت به إلى فأخذ الكتاب وخرج فلقبه الرجل الذي سمى به فقال : ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة ، فقال : به لي !

(١) حديث « أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتلون » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي حاتم الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جده أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد أن ما أخاف عليكم مني ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولهما من حديث عمرو بن صوف البردي « وأما ما أفتخر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا . الحديث » وسلم من حديث عبد الله بن عمرو « لذا فتحت عليكم فارس والروم . الحديث » وفيه يقتادون ثم يحاسدون ثم يتدابرون الحديث . ولأحمد والبخاري من حديث عمر « لا تفتح الدنيا على أحد إلا إلى الله بينهم المساواة واليضاة إلى يوم القيامة » (٢) حديث « استميتوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بن سند ضعيف (٣) حديث « إن لنعم الله أعداء » قيل ومن أولئك ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « أن لأهل النعم حسادا فاحذروهم » (٤) حديث « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قبل يارسول الله ومن هم ؟ قال : « الأمراء بالجور ... الحديث » وفيه « والانداء بالحسد » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأبي سعيد بن جبير .

فقال : هو لك ، فأخذه ومعنى به إلى العامل : فقال العامل : في كتابك أن أذبحك وأسلخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي فأنه الله في أمري حتى تراجع الملك ؟ فقال : ليس لكتاب الملك مراجمة ، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبيشا وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كمدته وقال مثل قوله : فمجبب الملك وقال : ماقلت ذلك ؟ قال : لتيقن فلان فاستوبه من فوحيته له ، قال له الملك : إنه ذكر لي أنك ترمي أني أجنر ، قال : ماقلت ذلك ؟ قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطمعني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تقسمه ، قال : صدقت أرجع إلى مكانك فقد كفى المصير إساءته . وقال ابن سيرين رحمه الله : ما حدثت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي خيرية في الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ؟ وقال رجل للحسن : هل يصد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بني يعقوب ؟ نعم ، ولكن غي في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء : ما أكثر جسد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده أو قال معاوية : كل الناس أقدر على رضا إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقي . وقال أعرابي : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك تقمة عليه . وقال الحسن : يا ابن آدم لم تحسد أحاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم : الحاسد لا يتال من المجالس إلا مذمه وذلا ، ولا يتال من الملازمة إلا لئمة وبغضا ، ولا يتال من الخلق إلا لجرعا وغما ، ولا يتال عند النزاع إلا شدة وهولا ، ولا يتال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراحبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حاتان : إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حقد كراهة النعمة وحسب زوالها عن المتعم عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثله . وهذه تسمى غيبة ، وقد تختص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حرج في الأساى بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن ينبط والمنافق يصعد »^(١) ، فأما الأول فهو حرام بكل حال ، إلا لئمة أصابها قاجر أو كافر وهو يستعين بها على تبييض القتة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها ، فإنه لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ، ولو أنت فسادك لم يمنك بمنعته ، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسقط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لأعذر فيه ولا رخصة ، وأي مصيبة تزيد على كراهتك

بيان حقيقة الحسد وحكمه

(١) حديث « المؤمن ينبط والمنافق يصعد » لم أجده له أصلا مرفوعا ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذا في رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد .

لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله (إن تمسكتم حسنة نسوّم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها) وهذا الفرح شامة للحسد والشامة تلتزم . وقال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) فأخبر تعالى أن جهنم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل (ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء) وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلينا منا ونحن عصبة إنا أبانا إني ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم) فلما كرهوا حب أبيهم له وساءم ذلك وأحبوا زواله عنه غيروه عنه وقال تعالى (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) أي لا تضيق صدورهم به ولا يشتمون فأثى عليهم بعدم الحسد . وقال تعالى في معرض الإنكار (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة) إلى قوله (إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) قيل في التفسير : حسدا . وقال تعالى (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتألفوا بالصلح فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن يتفرد بالرياسة وقبول القول ففرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قالوا قوما قالوا نألك بالني الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا ^(١) . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماحرفوا كفروا به) إلى قوله (أن يكفروا بما أنزل الله بغيا) أي حسدا . وقالت صفية بنت حيي لبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعي من عندك يوما ، فقال أبي لعمى : ما تقول فيه ؟ قال : أقول إنه النبي الذي يشر به موسى . قال : فأتري ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة ^(٢) فهذا حكم الحسد في التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال تميم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة - قال لبي حين قال لها : لا تنديا إليه فإنه لا يؤمر كما عليها - فقال له : ما هذا منك وإنا نفاة والله لقد زوجك لبلته فانفسنا ذلك عليك ^(٣) أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجك إياك طامعة .

والمنافسة في اللغة مشتقة من التفاسسة . والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وقال تعالى (ساقوا إلى مغفرة من ربكم) وإنما المسابقة عند خوف الفتور وهو كالبدن يتسابقان إلى خدمة مولاهما ؛ إذ يجمع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيعطى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ،

(١) حديث ابن عباس : قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قالوا قوما قالوا : نألك بالني الذي وعدتنا أن ترسله .. الحديث : نزل قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أخرجه ابن إسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن حميد بن جبير عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره نحوه وهو متعلق (٢) حديث : قالت صفية بنت حيي لبي صلى الله عليه وسلم : جاء أبي وعي من عندك يوما فقال أبي لعمى : ما تقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي يشر به موسى .. الحديث . أخرجه ابن إسحاق في السيرة قال حديث أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حديث عن صفية فذكره نحوه وهو متعلق أيضا .
(٣) الحديث « هكذا وقع للصف أنه تم والفضل وأما هو والفضل والطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والمطلب بن عبد المطلب فقالا والله لويتنا حذين الثلاثين قال لي والفضل بن عباس اتنيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكاه ؟ فذكر الحديث .

فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما فهو يعمل به ويبله الناس ^(١) » ، ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال « مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه في ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لي مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء - وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مايعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال - ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه في معاصي الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقه في مثل ماأنفقه فيه من المعاصي فهما في الوزر سواء ^(٢) » ، فذمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة تنمية للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله . فإذا لا حرج على من ينبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها فهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه الماسة واجبة ، وهو أن يجب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يجب ذلك فيكون راحيا بالمعصية وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كالإنفاق الأموال في المسكيات والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته والحق في النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المتعم عليه ، والآخر . ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه وبحب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المجالات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل وينافض الزهد والتوكل والرضا ويحبب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب المعصية . وههنا دقيقة فأمضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يجب زوال النقصان ، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن يزول نعمة المحسود ، فإذا انسدت أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشقى عنده من دوامها إذ يزولها يزول تخلفه وتقدم غيره ، وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو أُلقي الأمر إليه ورد إلى اختياره لدمى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما ، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعني عما يحمده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بفعله ودينه ، ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ^(٣) » ثم قال وله منهن مخرج : « إذا حدثت فلا تبغ ، أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به . ويبيد أن يكون الإنسان مريدا للحاق بأخيه في النعمة فيحجر عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة : إذ يحمده لأعماله ترجيحها له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يراحم الحسد الحرام فينبغي أن يتحاطب فيه فلا يتموضع الخطر ، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يجب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد الخطور إن لم يكن قوى الإيمان وزين التقوى . ومهما كان محركة خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى يزول هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد

(١) حديث « لا حسد إلا في اثنتين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمرو وقد تقدم في العلم : (٢) حديث أبي كبشة : مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا ... الحديث » رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

(٣) حديث « ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ... الحديث » تقدم غير مرة .

الدنيا ، ولكن يعنى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى ، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه هى حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الحب . (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تتمم غيره بها . (الثالثة) أن لا يشتى عينها لنفسه بل يشتى مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . (الرابعة) أن يشتى لنفسه مثلها فلن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المغر عنه إن كان في الدنيا ، والتدوب إليه إن كان في الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة حسداً فيه يجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ﴿ ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ فتمنيه لئلا ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسيبها حب ما فيه المنافسة ، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسيبها حب الله تعالى وحب طاعته ، وإن كان دنيوياً فسيبها حب مباحات الدنيا والتعمم فيها . وإنما نظرا الآن في الحسد المذموم ومدخله كثيرة جداً ، ولكن يحصر مجملها بسبعة أبواب : العداوة ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخيب النفس وبخلها . فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختص بالأشغال بل يصح التحصيل للملك بئى أنه يحب زوال نعمته لكونه ميفضاً له بسبب إساءته إليه ، أو لى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بانتمعه عليه وهو لا يطبق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتمزز . وإما أن يكون في طلبه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيم فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحته في أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التي تلبى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لحب النفس وشهها بالخير لعباد الله تعالى . ولا بد من شرح هذه الأسباب .

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وعائلته في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وعضب عليه ورسخ في نفسه الحقد . والحد يقضى التشنى والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يقتنى بنفسه أحب أن يقتنى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظها مكافأة له من جهة الله على يقضه وأنها لأجله ، وهما أصابته نعمة ساء ذلك لأنه حذر مراده ، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه . وبالجمله فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التنى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوى عنده حسره ومسامته ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى ﴿ وإذا لقوكم فاعلموا أنى وإذا خروا على الأرض فاعلموا أنى وإذا خروا على الأرض فاعلموا أنى ﴾

الله عليه بذات الصدور . إن تمسك حسنة تسوم) الآية . وكذلك قال (ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما ظنهم صدورهم أكبر) والحسد يسبب البغضاء ربما يقضى لل تنازع والتقاتل واسترقاق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسماية وهتك السر وما جرى مجراه .

السبب الثاني : التمزق ؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالا غاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتيال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد رضى بمساوئه مثلاً ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه .

السبب الثالث : الكبر ؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستخف به ويستخف به ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه ، فإذا مال لنعمة غاف أن لا يمتثل تكبره ويرفع عن متابعتها ، وربما يتشوق إلى مساواته أولاً أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه . ومن التكبر والتمزق كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا : كيف يتقدم علينا غلام يقيم وكيف نطأطأ رءوسنا ؟ فقالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من الترين عظيم) ^(١) أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له وتبعه إذا كان عظيماً وقال تعالى يصف قول فريش (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) كالاستخفاف لهم والألفة منهم .

السبب الرابع : التمسج ، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا (ماأنتم إلا بشر مثنا) وقالوا أنؤمن لبشرين مثنا) (ولئن أطعتم بشراً مثلكم لإنكم إذا لخاسرون) فتعجبوا من أن يفوز بربية الرسالة والرحمة والقرب من الله تعالى بشر مثلهم لحسدوم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم جزوا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلق ، لاعتقد قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم حداوة أوسبب آخر من سائر الأسباب ، وقالوا متعجبين (أبعث الله بشراً رسولا) وقالوا (لولا أنزل علينا اللامكة) وقال تعالى (أوعجب من جاءكم ذكر من ربكم على رجل منك) الآية .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد ، وذلك يختص بتواضع على مقصود واحد ، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده ، ومن هذا الجنس تحاسد الضرائع في التزام على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة في التزام على نيل المنزلة في قلب الأبرين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال ، وكذلك تحاسد التبليدين لاستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد تدماء الملك وخوفاه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه ، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهم نيل المال بالقبول عنهم ، وكذلك تحاسد المالمين المتزاحين على طائفة من المتفقه محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود . وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم الظن في فن من الفنون إذا غلب عليه حب التناء واستغفزه الفرج بما يجحد به من أنه واحد الدهر

بيان أسباب الحسد والتنافس

(١) حديث : سبب نزول قوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من الترين عظيم) ذكره ابن اسحاق في السيرة ، ولأن قال ذلك الوليد بن المغيرة قال : أيتزل على عهد وأترك وأنا كبير فريش وسيدما وترك أبو مسعود عمرو بن عبد الله بن مسعود فحينئذ التفتين ، فأمر الله فيها يلقى هذه الآية . ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في مسندهما من حديث ابن عباس إلا أنها لا مسعود بن عمرو ، وفي رواية لابن مردويه حبيب بن عبد الله بن مسعود وهو ضعيف .

وفريد العصر في قته وأنه لا نظير له ، فإنه لو سجع بنظيره في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أوز وال النعمة عنه التي بها يشاركه المثلثة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفوقه ، وليس السبب في هذا عداوة ولا تمزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة يدهو الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمثلثة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستباعتهم مهما نسخ عنهم .

السبب السابع : خبث النفس وشها بالخير لعباد الله تعالى ، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما ألتم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإقبال لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه . ويقال البخيل من يبخل بماله نفسه والشحيح هو الذي يبخل بماله غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بيته وبينهم عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقمت الجلبة ، ومما لجته شديدة لأن الحسد الثابت بأسر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيقطع في إزالتها ، وهذا خبث في الجلبة لآعن سبب عارض يقتصر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته . فهذه هي أسباب الحسد وقد تجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل يهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة . وأكثر المحاسنات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ، وقلبا يتجدد سبب واحد منها .

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقارب والإخوة وبنى العم والأقارب

وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه

لاحظ أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتنتظر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عفو ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تتميزهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المحاطبات ويتواودون على الأغراض ، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في فرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه ، فمتد ذلك يريد أن يستحقه ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب ، إذ لارابطة بين شخصين في بلدين متباينتين فلا يكون بينهما محاسبة ، وكذلك في عثتين ، نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتفاضل فيها أغراضهما ، فيشورون التفاضل التنافر والتباغض ، ومنه تتورق أسباب الحسد ، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون المابد ، والمابد يحسد المابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد حرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته . لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتواحدون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر ؛ إذ حريف البزاز لا يطلبه

الإسكاف بل البراز . ثم مزاحمة البراز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق ، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر . وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ويغترد بهذه الحصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الراعظ للراعظ أكثر من حسده للفقير والطبيب ، لأن التزام بينهما على مقصود واحد أخص . فأصل هذه المحاسبات العداوة ، وأصل العداوة التزام بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متساوين ، فذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد من يسامحه في الحصلة التي يتفاخر بها ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا التي تعنيق على المتزاحمين : أما الآخرة فلا ضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملكوته وأنيابه وملكوته سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين . بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذبه ، ولا تنقص لذته واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأناس وثمرة الاستفادة والإفادة . فذلك لا يكون بين علماء الدين محسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً ، فبما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعم لذته لقاءه وليس فيها عناية ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يريد الأناس بكثرتهم . نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام وإذا قصدت في الواحد خلت عنها بالآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا عالة : فيكون ذلك سبباً للحساسة ، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يعظم قلب غيره بها وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد مالم يرتحل عن يده الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه ، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يملكه غيره ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيماؤه ، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوته وأرضه وسبائه صار ذلك ألد عنده من كل نعيم ، ولم يكن غنواه منه ولا مزاحما فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذته هؤلاء في مطالعة مجاميع الملوك على الدوام أعظم من لذته من ينظر إلى أبحار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة ، فإن نعيم المعارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته ، يأمن وزاها وهو أبداً ينجى ثمارها فهو بروحه وقلبه مبتدئ بفائده على وهي فائده غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفا دائية ، فهو وإن غرض العين الظاهرة فهو ربه أبداً ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة ، فإن فرض كثرة في المعارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين (ورضا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا ، فإذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقب ؟ فإذا لا يتصور أن يكون في الجنة محسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محسدة ، لأن الجنة لامضايقة فيها ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً ، فأهل الجنة بالضرورة براء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً ، بل الحسد من صفات المبتدئين عن سعة عليين إلى مضيق محبين ، ولذلك رسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتهاد ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتوعد وعصى . فقد عرفت أنه لا حسد إلا للترادف على مقصود

ينضيق عن الوقاء بالكل . ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء وتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأنظار وأقية لجميع الأَبصار فلم يكن فيها تراحم ولا تحاسد أصلاً . فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ؟ ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله ومعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بجهده للمعرفة أيضاً . فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لفتها وقدر عنها وأبكت وضعفت فيها ورغبتك فأنت في ذلك معذور ؛ إذ العنين لا يشاق إلى لذة الرقاق ، والصلى لا يشاق إلى لذة الملك ، فإن هذه لذات يختص بأدراكها الرجال دون الصبيان والخشنيين . فكذلك لذة المعرفة يختص بأدراكها الرجال (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ولا يشاق إلى هذه اللذة غيرهم ، لأن الصوق بعد الذوق ، ومن لم ينق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشاق ، ومن لم يشاق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بق مع المحرومين في أسفل السافلين (ومن يمش عن ذكر الرحمن تنقش له شيطاناً فبهو له قرين) .

بيان الدواء الذي يفي مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالمعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدن ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدن بل ينتفع به فيما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارتقت الحسد لأعالة . أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكته ، فاستكرت ذلك واستبسمته . وهذه جناية على حدة التوحيد وقذى في عين الإيمان ، وناهيك عما جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيبته ، وفارقت أولياء الله وأتقياءه في جهنم الحير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلياء وزوال الثمم . وهذه خيامة في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتحرقها كما يحرق الليل النهار . وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال في كد وغم إذ أعدائك لا يخلجهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تتصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً مقشعاً القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهي الأعداء لك وتفتيه لأعدائك ، فقد كنت تريد الحق لعدوك فتجرت في الحال محتك وعملك قدا ، ومع هذا فلا تزال التهمة عن المحسود بحسدك . ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى العظيمة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساوئه مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ؟ فما أعجب من العاقل كيف يتمرض بسخط الله تعالى من غير نفع يتاله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة ؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه . فلا حيلة في دفعه ، بل كل شيء عنده بمقدار ، لكل أجل كتاب . ولذلك شكنا في الآنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه : فز من قدامها حتى تنقضي أيامها أي ما قدرناه في الأول لا سبيل إلى تنبيهه فأصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها . ومهما

لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا ولا يكون عليه إثم فى الآخرة ، ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل فإنه بلاه تشبيهه أولاً لنفسك ، فإنك أيضاً لا تتأخر عن عدو بحسبك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضاً ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى (وكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) إذ ما يريد المحسود لا يكون . نعم هو يضل بأرادته الضلال لغيره فإن أراد الكفر كفر . فمن اشتبه أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكنا سائر النعم . وإن اشتبهت أن تزول النعمة عن الخلق بحسبك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والتبؤة ، فإن كل واحد من حق الحساد أيضاً يشتهى أن ينقص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت تجهل شكرها .

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح . أما منفعة فى الدين : فهو أنه مظلوم من جهتك لأسباب إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل والنية والتدبر فيه وهتك ستره وذر مساريه ، فبهذه هدايات يهديها إليه ؛ أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مغلساً محروماً عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة ، فكأنك أهدت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعة فى الدنيا فهو أن أم أغراض الخلق مساة الأعداء ، وغهم وشقاوتهم وكوهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمان أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسبهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ، ولذلك لا يشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتنتظر إلى نعمة الله عليه فيقطع قلبك حسداً . ولذلك قيل :

لامات أصدائك بل خسلها حتى يروا فيك الذى يكبد

لازلت محسوداً على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بنفسك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وهذا لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده ، فأنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهى عدوك ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تعرضت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فى الدنيا والآخرة . وصرت مذموماً عند الخالق والخالق شنياً فى الحال والمآل ، ونعمة المحسود حائمة شئت أم أبيت باقية ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدغال أعظم سرور على إبليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رأى محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك عنك عاف أن تعب ذلك له فتشاركه فى التوب بسبب الحجة ، لأن من أحب الخير للسليم كان شريكاً فى الخير ، ومن فاته الخلق بدرجة الأكارب فى الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك ، غاف إبليس أن تعب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتغزو ثواب الحب فينفضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كالم تلحقه بملاك .

وقد قال أعرابي للبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله الرجل يحب التوم ولما يلحق بهم فقال النبي صلى الله

عليه وسلم « المرء مع من أحب »^(١) ، وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحطب فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا إلى أحب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت^(٢) ، قال أنس : فما فرح المسلمون بحد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر ما يفتيمهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس : فحينئذ يحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا يفعل مثل عملهم ونزجوا أن تكون معهم . وقال أبو موسى : قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصل ويحب الصوم ولا يصوم ، حتى عد أشياء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو مع من أحب^(٣) ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : إنه كان يقال إن استطعت أن تكون علما فكن علما ، فإن لم تستطع أن تكون علما فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبههم ، فإن لم تستطع فلا يبنضهم ، فقال : سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حصدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يفتح به حتى ينض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت ، وكيف لأعدائك بحسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى وينكسف خطؤه ليفتنح ؟ وتحب أن يمرض حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي ثم يريد على ذلك ؟ فليتك إذ تأتلك الحاق به ثم اغتممت بسببه سلت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحبه له والسكاف عنه »^(٤) ، أي من يتكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حصدك في عدوك بل على نفسك ، بل لو كوشفت بحالك في بقطة أو منام لرأيت نفسك أيما الحاسد في صورة من يرى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حقيقته الحق فيقتلها ، فيريد غضبه فيمود الثانية فيرى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيجمعها ، فيرداد غيظا فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداءه حوله يفرحون به ويضحكون عليه . وهذا حال الحسد وسخرية الشيطان منه ، بل حاله في الحسد أفجع من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العيين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا بحالة . والحسد يعود بالإثم والإثم لا يفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار ، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقتلها لحب النار . فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يلها عنه ثم أزالها عن الحاسد ؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من القم والكبد نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ وربما يتلى بين ما يشتهي لعدوه ، وقلما يشمت بشامت بساءة إلا ويبتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها : ما تمنيت لعميان شيئا إلا نزل في ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت . فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجز إليه الحسد من الاختلاف وجعود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشن في الأعداء ؟ وهو الدواء الذي فيه ملك الأهم السالفة .

فهذه هي الأدوية العلية فهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انفضأت فار الحسد من قلبه ، وعلم

(١) حديث : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : سؤال الأعرابي عن الساعة ؟ فقال « ما أعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث أبي موسى : قلت يا رسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصل ... الحديث « وفيه « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث ياقظ آخر مختصرا : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال « المرء مع من أحب » (٤) حديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحبه له والسكاف عنه » لم أجده أسلا

أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومستطو به ومنص عيشه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه تجنبه ، فإن حله الحسد على التدح في عسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بشه على كلف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه ، فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طالب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويستترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً ؛ طبعاً آخره ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له ؛ لو تواضعت وأنتيت عليه حملك العدو على العجز أو على التفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة تكلفاً كانت أو طبعاً - تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتمود القلوب التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباعد .

فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ولكن النفع في الدواء المُر . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلوة الشفاء ؛ وإنساهون مرارة هذا الدواء ، أغنى التواضع للأعداء والتعزب إليهم ، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحسب ما أحبه . وعرة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جمل ، وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الدل إلا بأحد أمرين ؛ إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني ؛ فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياسة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي .

فأما الدواء المفصل ؛ فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعرة النفس وشدة الحرص على ما ينفي - وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى - فلأنها مواد هذا المرض ولا ينفع المرض إلا بقمع المادة ، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده ، فإيه مادام محباً للجاء فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاء والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويضمه ذلك لا محالة ، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه واهه الموفق .

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن اللؤذي يموت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه ظالماً ، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لأجل أن تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوى ذلك فيك حتى يملك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعال الاختيارية فأنت حסود حاص بحسبك ، وإن كفت ظاهرك بالسلبية إلا أنك يباطلك ؛ تب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود حاص ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال الله تعالى (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) وقال عز وجل (وتولوا تكفرون كما كفروا فتكفونون سواء) وقال (إن تمسكتم حسنة نسوّم) أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن

الحسد وليس هو عين الحسد ، بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو مصيبة يتركها وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كشفت ظاهرك وأزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ماني طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أدبت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لها من نعمة أو تعصب عليها من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ، ويرى الكل عباد الله وأقمارهم أفعال الله ، ويرام مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويمود المدق إلى منازعته - أهنى الشيطان - فإنه ينازع بالوسوسة . فهما قابل ذلك بكراهته والزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : غمه فإنه لا يضرك ما لم يبد . وروى عنه موقفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاثة لا يغزو منهن المؤمن وله منهن مخرج - فخرجه من الحسد أن لا يئسى ، والأول أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ما ورد من الأحبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال . فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فلو أن كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد ، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ، إذ يبعد أن يعنى عن البغى في إرادته إساءة مسلم واشتاله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال ، أحدها : أن تحب مساوئهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بمقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه قطعا لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثاني : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساوئهم إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحظور قطعا .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ، وهذا في محل الخلاف . والظاهر أنه لا يغزو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه . والله تعالى أعلم بالحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وآفاتنا . وكشف لهم عن صيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهد ما وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعملوا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بها ، ولما أسرار سوء قبايح تلك الراغبين في وصالها ، ثم هي فرارة عن طلابها ضيحية بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها وبها ، إن أحسنت ساعة أساءت سنة . وإن أساءت مرة جعلتها سنة ، فدوائر إقبالها على التعارب دائرة ، وتجارمة بئنها غامرة بآرة ، وآفاتنا على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجاري أحوالها بذل طالبها ناطقة . فكل مغرور بها إلى الدن مصرير . وكل متكبر بها إلى التصر مسير . شأنها الحرب ، ن طالبها والطلب لها ربا ، ومن خدمها فآتته ، ومن أرض عنها واثته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنفصات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ولعيه لا يشر إلا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة ، طيارة فرادة ، لا تزال تترين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبائها ، كشرت لهم عن أنيابها ، وشوشت عليهم مناظم أسبابها ؛ وكشفت لهم عن مكنون مجامعها ، فإذا قتمت قوائل سماها ؛ ورشقتهم بصواب ساهما . يئس أصحابها منها في سرور وإلغام إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام . ثم عكرت عليهم بدوامها فطحنهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملكك واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيداً كان لمن لا يئس بالأس . تبنى أصحابها سرورا وتقدم غرورا حتى يأملون كثيراً وينبون قصورا . فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم يورا . وسعهم هباء مشورا ودعائهم نبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا . وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصرا وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله وعدوة لأوليائه الله وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها . وأما عداوتها لأوليائه الله عز وجل : فإنها تزيت لهم ريقتها ومهنتهم بذرتهما ولغزاتها حتى يقرعوا مرارة الصبر في مقاطعها . وأما عداوتها لأعداء الله : فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فافتستهم بشبكها حتى وقوا بها . وعزلوا عليها غفلتهم أخرج ما كانوا إليها . فاجتروا منها حسرة تقطع دونها الأكباد . ثم حرمتهم السعادة أبد الأباد . فهم على فراغها يتحسرون ومن مكابدها يستغيثون ولا يفتنون . بل يقال لهم (أخشوا فيها ولا تكلمون - أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعرون) .

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هي ؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويرشكه أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم الدنيا (٢٦ — إحياء علوم الدين — ٣)

الدنيا وأمثلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى . وهو المعين على ما يرتضيه .

بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها وعزيمتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يمشوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر على شاة ميتة فقال « آتون هذه الشاة ميتة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها أقومها . قال ، والذي نفسي بيده للدنيا أهرول على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا بمن المؤمن وجنة الكافر ^(٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها ^(٣) » وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب دنياه أحب بآخرته ومن أحب بآخرته أحب دنياه فأثروا ما يبقى على ما يبقى ^(٤) » وقال صلى الله عليه تعالى وآله وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة ^(٥) » وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فعدنا شراب فأتى بهاء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت : ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرُونَ على مسألته قال : ثم مسح صفيه فقالوا : يا خليفة رسول الله ما بك ؟ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيت يده عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً ؛ فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال ، هذه الدنيا مثلك لي فقلت لها : إليك عنى ثم رجعت فقلت : إنك إن أفلتت منى لم يفلت منى من بعدك ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها كل السجب للصدوق بنار الخلود وهو يسمى لدار القرور ^(٧) » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال « هلوا إلى الدنيا وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال : هذه الدنيا ^(٨) » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الحرق وأن الأجسام التي ترى بها تصير عظاماً بالية . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حارة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فانظروا كيف تعملون إن بني إسرائيل لما

كتاب ذم الدنيا

(١) حديث : مر على شاة ميتة فقال « آتون هذه الشاة ميتة على صاحبها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والمالك ومصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وأخره عنه الترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ؛ وسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد « إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم » (٤) حديث أبي موسى الأشعري « من أحب دنياه أحب بآخرته .. الحديث » أخرجه أحمد والبراز والطيبراني وابن حبان والمالك ومصححه (٥) حديث « حب الدنيا رأس كل خطيئة » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً .

(٦) حديث زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر فعدنا بمراب فأتى بهاء وعسل فلما أدناه من فيه بكى . الحديث . وفيه : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت يده عن نفسه شيئاً .. الحديث . أخرجه البراز وسند ضعيف بنحوه والمالك ومصحح إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه (٧) حديث « يا أيها كل السجب للصدوق بنار الخلود وهو يسمى لدار القرور » أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلاً (٨) حديث : لنه وقف على مزبلة فقال « هلوا إلى الدنيا .. الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن سيون القتيبي مرسلاً ، وفيه بنية بن الوليد وقد ضمنه ومعه مدق .

بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهراً في الحلية والنساء والطيب والثياب^(١) ، وقال عيسى عليه السلام : لا تشتهوا الدنيا
 وبها فتشذمكم صيدا اكلوا كذاكم عند من لا يضيغه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كثرة الدنيا لا يخاف
 عليه الآفة . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامشر الحوارين إني قد كبت لكم الدنيا على وجهها فلا تمسوها
 بمدى فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تسرك إلا بتركها ، ألا تاعبروا الدنيا
 ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورت أهلها حزنناطويلا . وقال أيضاً :
 بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعكم فيها الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تزاوهم الدنيا فلهم لن
 يمرضوا لكم ما تركتموه ودينام ، وأما النساء فاقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضاً : الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب
 الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يهي الموت فيأخذ بعنته . وقال موسى
 ابن يسار : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر
 إليها^(٢) ، وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تطلبه والجن والإنس عن يمينه وشماله قال :
 فر يعباد من بني إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة
 في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، فإن ما أعطى ابن داود ذهب والتسبيحة نبي . وقال صلى الله عليه وسلم : أهلكم
 التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ؟^(٣) ،
 وقال صلى الله عليه وسلم : إن الدنيا دار من لادار له ومال من لاملأ له ، ولما يجمع من لاهل له ، وعليها يمدى
 من لاعمل له ، وعليها يمدد من لا فقه له ، ولما يسمى من لا يقين له^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من أصبح والدنيا
 أكبرهم فليس من الله في شيء وأزعم الله قلبه أربع خصال : مما لا يتقطع عنه أبداً ، وشغلا لا يتفرغ منه أبداً ، وفقر
 لا يبلغ غناه أبداً ، وأملا لا يبلغ منتهاه أبداً^(٥) ، وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة
 ألا أريك الدنيا جرمها بما فيها ، فقلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بيده وأتى في واديا من أودية المدينة فإذا منزلة
 فيها رموس أناس وعذرات وخرق ووظام ، ثم قال : يا أبا هريرة هذا رموس كانت تمرس كرخصم وتأمل كأمسك
 ثم هي اليوم عظام بلا جلد ثم هي صائرة رماذا ، وهذه العذرات هي ألوان أطمعتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها
 ثم قد فرها في بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم وليباسهم فأصبحت والرباح
 تصفقا ، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ؟ فن كان بأكياع الدنيا فليكنه^(٦) قال :
 فأبرحنا حتى اشتد بكأونا^(٧) وروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له : ابن الخراب ولد للفناء .

(١) حديث « إن الدنيا حخرة وذنرة ولن الله مستخفكم فيها فاعلموا كيف تصلون ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه
 من حديث أبي سعيد دون قوله « لن بني إسرائيل ... الخ » والعلل الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن
 مرسل بالزيادة التي ذكره (٢) حديث موسى بن يسار « أن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وآه
 منذ خلقها لم ينظر إليها » أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغاً والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل (٣) حديث
 « أهلكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث هبة الله بن الفخير .
 (٤) حديث « الدنيا دار من لادار له .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث طائفة متصرا على هذا وهل قوله « ولما يجمع
 من لا فقه له » دون بقية وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه « ومال من لاملأ له » وإسناده جيد . (٥) حديث
 « من أصبح والدنيا أكبرهم فليس من الله في شيء وأزعم الله قلبه أربع خصال ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث
 أبي ذر دون قوله « وأزعم الله قلبه ... الخ » وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث
 حذيفة وروى هذه الزيادة عنده صاحب الترمذي من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف (٦) حديث أبي هريرة « ألا أريك الدنيا
 جرمها بما فيها ، قلت : بلى يا رسول الله فأخذ بيده وأتى في واديا من أودية المدينة فإذا من ربك ... الحديث لم أجده إلا أصلا

وقال داود بن هلال مكتوب في صف إمام عليه السلام : يادنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وترينت لهم ، إني قدفت في قلوبهم بفضلك والصدودحتك وماخفت خلقا أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الغناء بصير قضيت عليك يوم خلقك أن لا تدوى لاحدولا يدوم لك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشجع عليك ، طوبى للأبرار الذين أطمعن من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم ما لهم حننى من الجزاء إذ أوفدوا إلى من يقرهم إلا النور يسمى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض ، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة يا رب اجعلنى لأذن أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكنى يا لئىء إني لم أركك لهم في الدنيا أراك لهم اليوم^(١) ، وروى في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الفجرة تمركت معدته فخرج الثفل ، ولم يكن ذلك مجنولا في شيء من ألعمة الجنة إلا في هذه الفجرة فذلك نيباعن أكلها ، قال لجل يدورنى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطب فقال له : قل له أى شيء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضغ ما فى بطنى من الأذى ، فقيل للملك : قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرس أم على السرور أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى هنا مكانا يصلح لذلك ؟ أمبط إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم : ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تامة فيؤمر بهم إلى النار^(٢) قالوا يا رسول الله مصلين ؟ قال : نعم كانوا يصلون ويصومون يأخذون هنة من الليل فإذا عارض لهم شيء من الدنيا وبوا عليه^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه « المؤمن بين غافلين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه ؟ فليترؤد العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لأخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للأخرة ، والذي نفسى بيده ما بعد الموت من مستتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار^(٤) » وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : يا طول الأنياء عمرا كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لما بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . قيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتا يملكك : قال : يكفيني خلقان من كان قبلنا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت^(٥) » وعن الحسن : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العنى ويحمه بصيرا : ألا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعساه الله علما بغير علم ، وعدى بغير هداية : ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا التنى إلا بالقتل والبخل ، ولا المحبة إلا بتابع الهوى : إلا فن أدرك ذلك الزمان منكم فصبى على الفقر وهو يقدر على التنى ، وصبى على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبى على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب تحمين صديقا^(٦) » وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه اللطر والرعد

(١) حديث « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها . . . الحديث » تقدم به من رواه يعقوب بن سيار مرسل ولم أجد بآيه . (٢) حديث « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تامة فيؤمر بهم إلى النار ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلى من حديث أنس وهو ضعيف أيضا (٣) حديث المؤمن بين غافلين بين أجل قد مضى ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع (٤) حديث « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية أبي الفراء الرهاوى مرسل ، وقال البيهقى إن بههم قال عن أبي الفراء عن رجل من الصحابة قال ألقى لايورى من أبو الفراء قال وهكذا منكرا لا سهل (٥) حديث الحسن « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العنى ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه هكذا مرسل وفيه لزامهم بن الأعمش تسلم فيه أبو حاتم .

والبرق يوما لجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمته من بعيد فأثامها فإذا فيها امرأة لحاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل فأثامه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهي جعلت لكل شيء ما يرى ولم تجعل لي ماوى ، فأوحى الله تعالى إليه : ماورك في مستقر رحتي لأزوجهك يوم القيامة مائة حوراء خلقتا بيدي ولأطمعن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كمر الدنيا ، ولأمرن متادبا ينادى أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتفره ويأمنها ، ويثق بها ويخذله ، ويويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون ؟ ويويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى مالك ولندار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها فتمت الدار هي ، يا موسى إلى مرصد الظالم حتى آخذ منهم المظلم ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح لجاء بال من البحرين ، فسمعت الأنصار يقدمون أبي عبيدة فوافوا صلاة العجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر فتموضا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء ، قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم فوائده ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلككم »^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، فقيل ما بركات الأرض ؟ قال : « زهرة الدنيا »^(٢) . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا »^(٣) ، فنهى عن ذكرها فضلا عن إصابتها . وقال حماد بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الآفنة والطرق ، فقال : يا معشر الخواريين إن هؤلاء ماؤا عن سطوة ولومأوا عن غير ذلك لتدافروا ، فقالوا : يا روح الله وددنا أن لو علينا خبرهم . فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم يحييوك ، فلما كان الليل أشرف على نثر ثم نادى : يا أهل القرية فأجابه مجيب لييك يا روح الله ! فقال : ما حالكم وما قصتكم ؟ قال : بتاني حافية وأصبحنا في الهاوية ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : جئنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كان حكم الدنيا ؟ قال : حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم يحييوني ؟ قال لأنهم ملجئون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد ، قال : فكيف أجبتني أنت من بينهم ؟ قال : لأنني كنت فهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنما معلق على شفير جهنم لأأدرى ألتهمها منها أم أكبكب فيها ؟ فقال للسبح للخوااريين : لاكل خبز السمير بالملح الجريش وليس للسوح والنوم على اللزابل كثير مع حافية الدنيا والآخرة . وقال أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم المضياء لتسبق لجاء أحرابي بناقة له فسبها ، فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه »^(٤) ، وقال عيسى عليه السلام : من الذي يبني على موج البحر دارا ؟ تلكم الدنيا فلا

(١) حديث : بعث أبا عبيدة بن الجراح لجاء بال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمون أبي عبيدة . متفق عليه من حديث حمرو ابن عوف البدرى (٢) حديث أبي سعيد « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » أخرجه الترمذى في التلمب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثى مسندا (٤) حديث أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم المضياء لتسبق .. الحديث . وفيه « حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه » أخرجه البهاري .

تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام : هلنا علما واحدا يحينا الله عليه ، قال : ابغضوا الدنيا يحبك الله تعالى . وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولمسناكم عليكم الدنيا ولآتريتم الآخرة ^(١) ، ثم قال أبو الدرداء - من قبل نفسه - لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصدقات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركم أموالكم لا حارس لها ولا جامع إليها إلا مالا بد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرت كالأذن لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبتها ، مالكم لا تحابون ولا تبايعون وأنتم إخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحابيتم ، مالكم تبايعون في أمر الدنيا ولا تبايعون في أمر الآخرة ؟ ولا يملك أحدكم التصحية لمن يجه ويمنه على أمر آخرته ، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم ، لو كنتم توقنون بغير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآتريتم طلب الآخرة لأنها أملك لأمورك . فإن قلتم : حب العاجلة غالب ؟ فإننا نراك تدعون العاجلة من الدنيا للأجل منها ، فكذلك أنفسكم بالشفقة والاحراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه ، فبئس القوم أنتم ما حققت إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم ! فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأتوناثنين لكم ولنريك من الثور ما قطعتم إليه قلوبكم ! والله ما أنتم بالمتفوصة عقولكم فنعلمكم إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحرم في أمورك ، مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه ويحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يقبض ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها للمصائب وتقيمونها للمآثم ، وطاعتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم ، إلى لاري الله قد هربا منكم ياني بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحب بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بهله فاصطلبتم على الثل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعالى أراخي منكم والحق بين أحب رفيقه ولو كان حيا لم يصاركم ، فإن كان فيكم خير فقد أمتعتكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يامشر الحوارين ارضوا بذنوب الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بذنوب الدين مع سلامة الدنيا . وفي معناه قيل :

أرى رجلا لا بأذى الدين قد قتموا وما أراهم رضا في العيش بالدون

فاستغن بالدين من دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنيام عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : يا طالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر . وقال نينا صلى الله عليه وسلم : لتأنيبكم بدنى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب ^(٢) ، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى لا تكن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكيرة هي أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي ، فقال موسى : يارب هديك يبكي من مخافتك فقال : يا ابن حمران لو سال دماغه مع دموع عيني ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال علي رضي الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع الجنة مطلبا ولا عن النار مهربا ؛ أولها : من

(١) حديث أبي الدرداء : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهايت عليكم الدنيا ولآتريتم الآخرة » أخرجه الطبراني دون قوله « ولهايت ... إلخ » وزاد « ولخرجتم إلى الصدقات ... الحديث . وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر « وما تلهذتم بالنساء على الفرج » وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة (٢) حديث « تأنيبكم بدنى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب » لم أجده أصلا .

عرف الله وأطاعه ، وعرف الشيطان ففصاه ، وعرف الحق فاتبه ، وعرف الباطل فأتاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم ودية فأدوها إلى من اتهمهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله : من نافسك في دينك فتنافسه ومن نافسك في دنياك فأتتها في نحره . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينةك فيه تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشرعها التوكل على الله عز وجل ، لملك تجر وما أراك ناجيا . وقال الفضيل : طالت فكرتي في هذه الآية ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجالطون ما عليها صعيدا حرزا ﴾ وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربيعها النار . وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ويمتد الآمال ويقرب المنيه ويبعد الآمنية . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تمسب ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل :

ومن يبعد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرا مومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفرها كسدر وأهلها منها على وجل ، إمانمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية . وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى التمس كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها . وقال أبو سليمان الناذلي : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبي حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار ، فقال : انظر ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذها إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه . ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لآثمه حتى يترحم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئا فيجىء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يبنى والآخرة من خرف يبق ؛ لكان يبنى لنا أن نخترنا خرفا يبق على ذهب يبنى . فكيف وقد اخترنا خرفا يبنى على ذهب يبق ؟ وقال أبو حازم : إياكم والدنيا فإنه يبنى أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظما الدنيا فيقال : هذا عظم ماحرقه الله . وقال ابن مسعود : ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف والماله طارية فالضيف مرغى والمال طارية مردودة . وفي ذلك قيل :

وما للمال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الروائع

وزار رابطة أعمها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : استكروا عن ذكرها فلو لموقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال :

ترقم دينانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبق ولا مازع
فطوبى لبد آثر الله وبه وجباد دينياه لما يفرق

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنما

كبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناء تهتما
وقيل أيضاً في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فيه أظنك ثم آذن بالروال

وقال لثمان لانيه : يا بني بع دنياك بأخركت تريهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك تغسرهما جميعاً . وقال مطرف
ابن الشخير : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين وياشهم ، ولكن انظر إلى سرعة ظنهم وسوء منقلبهم . وقال
ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالؤمن يتزود ،
والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب .
وفي ذلك قيل :

يا حاطب الدنيا إلى نفسها تتع من خطيتها تسلم
إن التي تتخطب غدارة قريبة العرس من اللائم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يمضي إلا فيها ولا ينال ما عهده إلا بتركها . وفي ذلك قيل :
إذا امتحن الدنيا لييب تكشفت له عن علق في ثياب صديق
وقيل أيضاً :

ياراقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة كرجل الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت حروف الدهر من ملا في قد كان في الدهر نفاط وضرارا
يامن يعاقب دنيا لا يقاه لها يمسى ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تماق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنانا لخالد تسكنها فينبغي لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه : لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث
نبي وأخرجت أمة ، قال : يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم ، قال : لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يمددوا إلا وغان ،
ولئما أمددو عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشركه
من هذا نبع . وقال رجل لملي كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ، قال : وما صف لك من دار من
صح فيها سقم ، ومن آمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها
العقاب ، ومشابهاها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقيل : قصر فقال : حلالها حساب ،
وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار : اقرأ السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا . وقال أبو سليمان
الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تراحمها ، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الآخرة
كرامة والدنيا لثيمة . وهذا تشديد عظيم وزجر أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة
يحتسمان في القلب فأيهما غلب كان الآخر بما له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج من الآخرة من
قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج من الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس عفاقه على كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا

والآخرة ضربان ، فبقدر ما ترضى إحداها تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أوقاما كانت الدنيا
أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرفت الدنيا أم غربت ، ذهب إلى ذا أو ذهب إلى ذا ؟
وقال رجل للحسن : ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه ، أحسن له أن يتعيش فيه ؟ - يعني
يقتسم - فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم قفره . وقال الفضيل : لو أن
الدنيا بخافيرها عرمت على حلالا لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أنقذوها كما يتقذرون أحكم الجيفة إذا مر بها
أن تصيب ثوبه وقيل : لما قدم عمر رضي الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على الناقة عظومة بجبل ، فسلم
وسأله ، ثم أتى منزله فلم يرفه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضي الله عنه : لو اتخذت متاعا ؟ فقال : يا أمير
المؤمنين إن هذا ييلتنا القليل . وقال سفيان : خذ من الدنيا ليدنك وعند من الآخرة لتبلك . وقال الحسن : والله
لقد عبت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحجهم الدنيا . وقال وهب : قرأت في بعض الكتب ، الدنيا
غنيمة الأكياس وغلبة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال ثعلبان لابتنة : يا بني
إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تحرب منها أقرب من دار تباعد عنها . وقال
سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتقص آخرته وهو به راض فذلك للمنون الذي يلعب بوجهه
وهو لا يشعر . وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يزهد فيه منكم ، والله ما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له ^(١)
وقال الحسن بعد أن تلقاه تسمى ﴿ فلا تموتكم الحياة الدنيا ﴾ من قال ذا ؟ قاله من خلفها ومن هو أعلم بها ،
إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا وأوشك ذلك الباب أن
يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ، إن أخذه من
حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيبته في دينه ويتهجر
من مصيبته في دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : سلام عليك ، أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه
الموت قد مات ، فأجاباه عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض
الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم : عجبا لمن يعرف أن للوت حق كيف يفرح ؟ وعجبا
لمن يعرف أن النار حق كيف يعضك ؟ وعجبا لمن رأى قلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجبا لمن يعلم أن
القدر حق كيف ينصب ؟ وأقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف
وجدتها ؟ فقال : سنيات بلاه وسنيات رخاء ، يوم فيوم ولية فليته يولد له ويهلك ماله ، فلولا المولود لباد الخلق
ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له : سل ما شئت ، قال : عمر مضى فقرده أو أجل حضر فتدفعه ، قال :
لأملك ذلك ، قال : لا حاجة لي إليه . وقال داود الطائي رحمه الله : يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملاك ، وإني أمتنته
بانتقضاء أجلك ، ثم سؤفت بملكك كان متغتمه لتفرك . وقال بشر : من سأل الله الدنيا فلم يسأله طول الوقوف
بين يديه . وقال أبو حازم : ما في الدنيا شيء يترك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج
نفس ابن آدم من الدنيا إلا بصبرات ثلاث : أنه لم يشيع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما قدم
عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الفنى ، فقال : إنما نال الفنى من عتق من رق الدنيا . وقال أبو سليمان : لا يصبر

(١) حديث عمرو بن العاص : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . . .
الحديث « أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه »
(٢٧ - إحياء علوم الدين - ٣)

عن شهبوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال مالك بن دينار : اصطالحنا على حب الدنيا فلا بأس
بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا ؟ وقال أبو حازم :
يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة ، وقال الحسن . أهيتوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهناً منها لمن أهانها . وقال أيضاً :
إذا أراد الله بعد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسكك ، فإذا نفذ أعاد عليه ، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا
بسطاً . وكان بعضهم يقول في دعائه : يا مسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني . وقال محمد بن
الشكدر : أرايت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وصدق بماله ، وجاهد في سبيل الله ،
واجتنب عارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم في عينه ما صخره الله ، وصغرى عينه ما عظمه
الله كيف ترى يكون حاله ؟ فن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا ؟ وقال
أبو حازم : اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً ، وأما مؤنة الدنيا فإنك
لا تضرب يديك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء
والأرض كالنخل البالي تنادي ربه منذ خلقها إلى يوم يفنيها . يارب يارب لم تمنعني ؟ فيقول لها : استكني بالاشيء .
وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته ، فتي يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه :
من فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب
عليه هواه فهو الغالب . وقيل ليشر : مات فلان فقال : جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ؟ ضجع نفسه قيل له : إنه
كان يفعل ويفعل - وذكروا أبواباً من البر - فقال : وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟ وقال بعضهم : الدنيا تبغض
إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا ؟ وقيل للحكيم : الدنيا لمن هي قال : لمن تركها ؟ فقيل الآخرة لمن
هو ؟ قال : لمن طلبها وقال حكيم : الدنيا دار خراب وأخرى منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأخرى منها
قلب من يطلبها . وقال الجنيد : كان الشافعي رحمه الله من المرادين الناطقين بلسان الحق في الدنيا ، وعظاً أخال في الله
وخوفه بالله فقال : يا أخي إن الدنيا دحض مرارة ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنتها إلى القبور زائر ،
شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إفسار ، والإعصار فيها يسار ، فافزع إلى الله
وارض برزق الله لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فناءك ، فإن عيشتك في زائل وجدار مائل ، أكثر من عمالك
وأفصر من أملك . وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة . فقال دينار في اليقظة
فقال : كذبت ، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام ، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة . وعن
إسماعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنا يا خنزيرة ، فلو وجدوا لها أسما أقبح
من هذا لسموها به . وقال كعب : لتجنبن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله :
العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبني قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالفه قبل أن يلقاه . وقال أيضاً :
الدنيا بلغ شؤمها أن تمنحك لها بملكك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن
يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كطفيء النار بالتبن . وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم
في حمرة الشيطان . وقال أيضاً : من أقبل على الدنيا أحرقتة نيرانها - يعني الحرص - حتى يصير رماداً ، ومن أقبل
على الآخرة صفته نيرانها فصار سيكاً ذهب يفتقع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقتة نيران التوحيد فصار
جوهر أ لا حد لقيمته . وقال علي كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء ، معلوم ومشروب وملبوس ومركوب

ومنكوح ومشوم ، فأشرف المَطعومات السَل وهو مَذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والقاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف الشكوحات المرأة وهي مبال في مبال ، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أن يفسح شيء منها ، وأشرف المشمومات المسك وهو دم

بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغفروا بالآمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخر لكم بنورها وتنتسك بآمانها ، وتزيّن لخطاياها فأصبحت كالبروس الجميلة ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة ، فكمن عاشق لها قتل ، ومطعن إليها خلدت ، فانظروا إليها بين الحقيقة فإنها دار كثير يراهم وذمها حالها ، جديدها بيل ، وملسها يفي ، وعزيمها يذل ، وكثيرها يفل ، ودعا يوت ، وخيرها يموت ، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانقبوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان غليل أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، وهل إلى الطبيب من سيول ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولما له أحصى ، ثم يقال قد ثقل لسانه فإيكم إخوته ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت بقتك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا يتطرق ، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم هرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك ، فسلوك وكفنوك ، فانقطع عزادك واستراح حسادك ، وانصرف أهالك إلى مالك ، وبقيت مرثيتها بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بذم الدنيا وفلاها من بسط له فيها وأعطي حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تمدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه فتبده من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجسه بشيء هو حنين به بين أحبابه ، فالدنيا أحق بالذم ، هي الآخذة ما تعطى ، الراجعة فيما تهب ، بينما هي تهتكك صاحبها إذ انضكت منه غيره ، وبينما تبكى له إذ أبكت عليه ، وبينما هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، فتسند التاج على رأس صاحبها اليوم وتغفره بالتراب غدا ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى ، تجد في الباقي من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكشب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة ، فأحضرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها . والفتى منها فقرا . لها في كل حين قتيل . تذلل من أعواها . وتفقر من جمها . هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حنقه . فكمن فيها كالدواى جراحه يمتنى قليلا بحافه ما يكره طويلا . ويصير على شدة الدواء مخافة طول الداء . فأحضر هذه الدار النذارة الحثالة الخداعة التي قد تزيّن بخدعها وتفتت بنورها وحلت بآمالها وسوّفت بظلالها . فأصبحت كالبروس الجميلة . العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لازواجها كلهم قالية . فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر بالآول مر دجر . ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر . فعاثق لها قد ظفر منها بحاجته فاعثر وطنى ونسى اللماذ ، ففشل فيها ليه حتى زلت به قدمه ، فظلمت ندامته وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتآله وحسرات القوت بفضته . ورأغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بنيد زاد وقدم

على غير مهاد ، فاحذرهما يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ماتكون لها ؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمان منها إلى سرور أنقصته إلى مكروه ، الساكن في أهلها غار ، والتافع فيها غدار ضار ، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء ، فسورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها مولى وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينتظر . أمانها كاذبة وآمالها باطلة وصغوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فياعلى خطر، إن عقل ولطرفه من الثمائم على خطر ومن البلاء على الحذر ، فلو كان الخائف لم يضر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أبقت الثائم ونبت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها اجر وفيها واعظ ؟ فما عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليهما من خلقها ، ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخراتها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأنى أن يقبلها ^(١) ، لذكره أن يخالف على الله أمره أو يجب ما أبغضه خالفه أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختبأ وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؛ ونسى ما صنع الله عز وجل بحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه ^(٢) ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب جعلت غيوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل سرحبا بشمار الصالحين ، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إداى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولياسى الصوف ، وصلاى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابى رجلالى ، وطماى وفاكفى ما أثبتت الأرض ، أبيت وليس لى شىء ، وأصبح وليس لى شىء ، وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه : لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا رو عنكما لباسا الذى ليس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرّف ولا يتنفس إلا بإذنى ، ولا يعجبكما ما تمتع به منها فإنما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تحجر عما أوتيتا فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أقبل بأوليائى إلى الأودم عن نعمهما كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الملكة ، وإنى لأجنهم ملاذها كما يحجب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة ، وما ذاك لخوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا ، إنما يتقون لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى لباسهم الذى يلبسون وذئارهم الذى يظهرن ، وخيبرهم الذى يستشعرون ونجاشتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى لياهم يأملون ، ومجدهم الذى به يفتخرون ، وسياهم التى بها يعرفون ، فإذا لقيتهم فاخضع لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أعاف لى ولما فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها : اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ويجزيون بها ، فلا تترنم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالتندر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وبجبال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها فى رخاء

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز : عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخراتها ... الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا ورواه أحمد والطبراني متصلًا من حديث أبي موسى في إمامة . حديث أبي « لى قد أعطيت غزائى الدنيا وأخذت من الجنة ... الحديث » وسنده صحيح والترمذى من حديث أبي أمامة « عرض على ربي ليعجل لى بطعام مكة ذهبا ... الحديث » (٢) حديث الحسن مرسلًا فى شدته الحجر على بطنه . أخرجه ابن أبي الدنيا أيضًا هكذا فى البخارى من حديث أنس : ولما عن بطوننا عن حجر حجر فرحم رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرتين ، وقال حديث شريف .

وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور . أحوال مختلفة وتارات متصرفة . العيش فيها مدموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدة . ترميهم بسهامها وتقصيصهم بمهامها . وكل حقه فيها مقدور وحظه فيها موفور . وأهلوا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى عن كان أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطنشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا . فأصبحت أصواتهم هامة خامدة من بعد طول ثقلها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها غاوية وآثارهم طافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرور والتمارق الممهدة . الصخور والأحجار المستندة في القبور اللالطة للحدة . فحلها مقرب وساكنها مقرب بين أهل عمارة موحشين وأهل عملة متشاغلين . لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو النار . وكيف يكون بينهم تواصل وقد طعنهم بسلوكه البلاء وأكلتهم الجنادل والثرى ؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتا وبعد نصرة العيش رقانا لجميع الأحاب وسكنوا تحت التراب ظعنوا فليس لهم إياب . ميهات ميهات (كلا إنها كلة ما قاتلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار النوى وارتفعت في ذلك المضجع وضحك ذلك المستودع . فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبعثت القبور وحصل ما في الصدور وأوقفتكم للتصديق بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والستار وظهرت منكم العيوب والأسرار ؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عروجل يقول (ليجزى الذى أساموا بما عملوا ويجزى الذى أحسنوا بالحسنى) وقال تعالى (ووضع الكتاب قرى الجرمين مشفقين بما فيه) الآية جعلنا ذلك وإياكم عاملين بكتابة متعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلباليه وأيامه حتى يسترق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بذلك ؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستقلت عز الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم ، وقد أعييت الواصف لميوها بظاهر أفعالها ، وما تاقى به من المعجائب أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقد بقاتها فقال . الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن مامضى عنك فقد فانتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به ، والدهر يوم مقبل تنهات ليلته وتطويه ساعاته ، وأحداه تتوالى على الإنسان بالتغيير والتقصان ، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانغرام الشمل وتقل الدول ، والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقت لآمر إن كنتم تصفون به فإنكم حق ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم ملوك ، إنما خلقتم للأبد ولكم من دار إلى دار تقولون ، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرع ، لا تصفون لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فرافها ، فأعملوا لما أنتم صائرون إليه وغالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

قال على كرم الله وجهه في خطبته : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التارك لك وإن كنتم لا تمهرون تركها ، للبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكانهم قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكانهم بلغوه ، وكفى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ؟ وكفى عسى أن يبقى من له يوم في

الدنيا ومطالب حيث يطلبه حتى يفارقها ؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرتها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفزعوا بمتاعها ولنماتها فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفل عنه ،

وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أمان الدنيا ، وأنه لم ير ضهاً لأولياتها ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنها ، أكلوا منها قصداً وقدها فضلاً ، وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلحق ، لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه عامسة الجوع ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها قانية ؛ وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الركب لغربوا الدنيا وعمرها بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلوا أنهم سيفتظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علوا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، تعبوا قليلاً وتعبوا طويلاً ، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحب ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سرية الفناء قريبة الانقضاء ، تمتد بالبقاء ثم تختف في الرقاء ، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عنيفاً ومرتبحة احتمالاً سريعاً ، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها ، ولما يحس عند انقضائها ، ومثالها الطفل فإنه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أشد وقال :

أحلام نوم أو كظلم زائل إنَّ اليبس بمثلها لا يندفع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيراً ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اختاراً بطل زائل حق

وقيل إن هذا من قوله . ويقال : إن أعرابياً نزل يقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فالتصقوا الخيمة فأصابته الشمس فأنقته ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظلمة ليلية ولا بد يوماً أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستملك منها بجبل غرور

مثال آخر للدنيا من حيث التفرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها . تشبه خيالات المنام وأصناف الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون ^(١) ، وقال يونس بن عبيد . ما شئت نفس في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فينبأها هو كذلك إذ انتبه ، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركبوا إليه وفرحوا به . وقيل لبعض الحكماء . أي شيء أشبه بالدنيا ؟ قال أسلم التائيم .

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها . اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخرها ، وهي كامرأة تزني للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرأها في صورة مجوز هتاء عليها من كل زينة ، فقال لها . كم تزوجت ؟ قالت . لا أحصيهم ، قال

(١) حديث « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون » لم أجده أصلاً .

فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتل ، فقال عيسى عليه السلام : يؤسأ لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تملكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ؟ ٤١ .

مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها : اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز مزيّنة تخدم الناس بظواهرها ، فلذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها مثل لم يقبضها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظواهرها . وقال الملاء بن زياد : رأيت في المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس يحكوف عليها معجبون ينظرون إليها ، فحشت ونظرت وتعجبت من نظرم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها : ويلك من أنت ؟ قالت : أو ما تعرفني ؟ قلت : لا أدري ! من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا ، قلت : أعوذ بالله من شرك ! قالت : إن أحببت أن تماذ من شري فأقبض الدرهم . قال أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شعثاء تصفق بيديها وخلقه خلق يتبونها ويصفقون ويرقصون ، فلما كانت بمحاذي أقبلت على قالت : لو نظرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال الفضيل بن عياض : قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شعثاء زرقاء ، أنيابها بادية ومشوهة خلقتها ، فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعموز بالله من معرفة هذه أفيقال : هذه الدنيا التي تباحثهم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغترستم . ثم يقذف بها في جهنم فتنادي : أرى رب أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله عز وجل : الحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل : بلغني أن رجلا عرج بروحه فلذا امرأة على قاعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته ، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس ، وإذا هي أقبلت كانت أفحش شيء رآه الناس ، عجوز شعثاء زرقاء عضاء قال : فقلت : أعوذ بالله منك ! قالت : لا والله . لا يبيدك الله حتى تحبى تبض الدرهم ! قال : فقلت من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا .

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها : اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئا وهي ما قبل وجودك إلى الأزل ، وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد ، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا : فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : مالي والدنيا ! وإنما مثل ومثل الدنيا كمثل راكب سافر في يوم صائف فرفقت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها ^(١) . ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يكن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية ، بل لا يبنى لبنة على لبنة . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبه على قصبه ^(٢) . ورأى بعض الصحابة يبنى بيتاً من جص فقال « أرى الأمر أصعب من هذا وأنكر ذلك ^(٣) » وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : الدنيا قطرة فاعبروها ولا تمروها . وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الميل الأزل على رأس القنطرة ، واللحد هو الميل الآخر ،

(١) حديث « مالي والدنيا إنما مثل ومثل الدنيا كمثل راكب ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : ما وضع لبنة على لبنة ... الحديث . أخرجه ابن حبان في الثقات والطبراني في الأوسط من حديث طايفة بسند ضيف « من سأل عن أسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث صاحب مشر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث » (٢) حديث : رأى بعض أصحابي يبنى بيتاً من جص فقال « أرى الأمر أصعب من هذا » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح .

وبينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القطر ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها . وكيفما كان فلا بد له من البور ، والبناء على القطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت حابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها : اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هيئة لينتة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها حلاوة الخوض فيها وهيئات ، فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب على رضى الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثلها فقال : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراغها ، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ، فإن صاحبها كلما اطمان منها إلى مرور انفضه عنه مكروه والسلام .

مثال آخر للدنيا في تعدد الخلاص من تبعها بعد الخوض فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثل صاحب الدنيا كالساشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا يبتل قدماء ^(١) » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة ، وعلاقتها عن برابطهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا عمام فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها ، فكأن الساشي على الماء يقتضى بللا لاحتالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابس الدنيا تقتضى علاقة وظلمة في القلب ، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة . قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذبه من شدة الوجد كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا ، وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تترك وتمتن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ ، وبحق أقول لكم ، إن الرزق مالم يخرق أو يقتل يوشك أن يكون واهل الحسل كذلك القلوب مالم تحرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسها النعيم فسوف تكون أوعية الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كتل الرعام إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله ^(٢) » .

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فيبقى متعلقا بخيوط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع ^(٣) »

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ونصارة أوائلها وخبث عواقبها ، اعلم أن شهوات الدنيا في القاب لذينة كشهوات الأطعمة في المعدة ، وسبيح العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من السكراة والمثان والتبجح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة فانتبت ، وكأن الطعام كلما كان ألد طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان جميعه أفقر وأشد نقا ، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ أقوى ، ففتنها وكرهاها والتأذى بها عند الموت أشد .

(١) حديث « إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الساشي في الماء ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره . ورواه البيهقي في الشعب والزهدي من رواية الحسن عن أسد
(٢) حديث « إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن جهم في مشيخه ورواه تواتر
(٣) حديث « مثل هذه الدنيا كتل ثوب شق من أوله إلى آخره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أمي بسند ضيف :

يل هي في الدنيا مشاهدة ، فإن من نبيت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وأله وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وجه له وحرصه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الضحك ابن سفيان الكلاني : ألتست توتى بطعامك وقد ملع وقرح ثم تشرّب عليه اللبن والماء ؟ ، قال : بلى ؛ قال : فألم يصير ، قال : إلى ما فقد علمت يارسول الله ، قال : « فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم »^(١) ، وقال ابن أبي كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قرحه وملحه لإلام يصير^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم من آدم للدنيا مثلاً وإن قرحه وملحه^(٣) ، وقال الحسن : قد رأيتهم يطيبونه بالأناوبة والطيب ثم يرمون به حيث رأيتهم وقد قال الله عز وجل (فلينظر الإنسان إلى طعامه) قال ابن عباس : قال رجل لابن عمر إن أريد أن أسألك وأستعصي قال فلا تستعص وأسال قال إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى ما غلبت به أنظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول المطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم ومعتهم .

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يحمل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم به يرجع إليه^(٤) .

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها : اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبو سفينة فأتت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالهروج إلى قضاء الحاجة وحذرم للقمام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها ، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فعصى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان عالياً فاخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها المتنفة ونفثات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الفرية وصار يلحظ من ربها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة للنظر العجيبة التقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها ، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقر فيه ؛ وبعضهم أكب على تلك الأحصاف والأحجار وأعجبه حسننها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة ، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حله من الحجارة ضيقاً وصار ثقيلاً عليه ووبالاً ، فقدم على أخذها ولم يقدر على رميها ولم يجد مكاناً لوضعها ، فخله في السفينة على عتقه وهو متأسف على أخذها وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولى القيلنس ونسى للركب وبهد في متفرجه ومتزنده منه حتى لم يملكه نداء الملاح لاشتغاله بكل تلك الثمار واستشام تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأنهار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات

(١) حديث : أنه قال الضحك ابن سفيان الكلاني ألتست توتى بطعامك وقد ملع وقرح ... الحديث . وفيه : « فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » أخرجه أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جهمان مختلف فيه (٢) حديث أبي بن كعب : أن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم ... الحديث . أخرجه الطبراني وابن حبان فقط : أن مطعم ابن آدم قد ضرب الدنيا مثلاً ورواه عبد الله بن أحمد في زيادته فقط « جبل » (٣) حديث : أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم من آدم للدنيا مثلاً ... الحديث « الصل الأول منه غريب والصل الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحك ابن سفيان » أن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلاً لدنيا (٤) حديث : ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يحمل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر به يرجع إليه » أخرجه مسلم من حديث السعدي بن شداد .

والسكبات ، ولا منفك عن شوك ينشب بثياه وغضن يجرح بدنه وشوكه تدخل في رجله وصوت هائل يفرغ منه وعوسج يفرق ثيابه ويبتلك عورته ويمنه عن الانصراف لو أراد ، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف متقلبا معه ولم يجد في المركب موضعا فيقي في الشط حتى مات جوعا . وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فتم من اقتصرته السباع ، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات في الأوحال ، ومنهم من نشته الخليات ، فتنفروا كالجيف الملقاة .

وأما من وصل إلى المركب بقتل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقتة وشغله الحزن بحفظها والحوف من فوتها وقد ضيق عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكادت تلك الألوان والأحجار تظهر نفن رائحتها فصارت مع كونها مضيقا عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها . فلم يجد حيلة إلا أن أنفاما في البحر هربا منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيا مدبرا . ومن رجع قريبا ما فاته إلا سمة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما . فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحفظ ظهم العاجلة ونسيانهم موردوم ومصدهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغزه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم الثبت وهي زينة الدنيا ، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بيل يصير كلا وبوالا عليه وهو في الحال شاغل له بالحزن والحوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم لإلأمن عصمه الله عز وجل .

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضغف إيمانهم : قال الحسن رحمه الله بلفظي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنما مثل أولئك ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ، ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي ؟ أنفذوا الزاد وخسروا الظهور وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حيلة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه ، فقالوا : هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء ؟ فقالوا : يا هذا ؟ فقال علام أنتم ؟ فقالوا : على ما ترى ، فقال : أرأيتم إن هدبتكم إلى ماء رواء ورياض خضرا ما تعلمون ؟ قالوا : لا نصيصة شيئا ، قال : عهدكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهدكم ومواثيقكم بالله لا يصونه شيئا قال : فأوردكم ماء رواء ورياضا خضرا فكث فيهم ما شاء الله ثم قال : يا هؤلاء ؟ قالوا : يا هذا ؟ قال : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كالماء وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أننا لن نجد وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة - وهم أقلهم - ألم تعطوا هذا الرجل عهدكم ومواثيقكم بالله أن لا تنصوه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقكم في آخره ؟ فراح فيمن اتبعه وتحلف بقبهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل (١) .

ومثال آخر لتتم الناس بالدنيا ثم تفجهم على فراقها : أعلم أن مثل الناس فيها أعطوا من الدنيا مثل رجل هيا دارا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما ، واحدا بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور وراحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليمسكه ويأخذه ، فجعل ربه وظن أنه قد وهب ذلك فتملق به قلبه لما ظن أنه له ، فلما استرجع منه ضجر وتفجع ، ومن كان طالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب

(١) حديث الحسن : بلفظي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إنما مثل أولئك ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء . . . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحد الوزراء والبرابر من حديث ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى الناس ملكا الحديث وفيه : فقال أي أحد المسلمين لن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر اتهموا للمفازة . فذكر نحوه أنصر منه ولستأده حسن .

وانشرح صدر ، وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار خضيفة سلبت على المجتازين لا على المقيمين ليرتدوا منها ويتفتنوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فرافها . فهذه أمثلة الدنيا وآفاتا وغوائلها نسال الله تعالى الطيف الخبير حسن العون بكرمه وحله .

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لاكتفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة ماهي ؟ وما الذي ينبغي أن يحتجب منها وما الذي لا يحتجب ؟ فلا بد وأن تبين الدنيا المذمومة الأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهي ؟ فنقول : دنياك واخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت ، فكل ما للقلب حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة حاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقه إلا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام . القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيان : العلم والعمل فقط ؛ وأغنى بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وما سكوت أرضه وسماؤه والعلم بشريعة نبيه وأغنى بالعمل . العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأمن العالم بالعلم حتى يصير ذلك أذى الأشياء عنده فيبهر التورم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار خطأ عاجلا في الدنيا . ولكننا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا إنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأمن بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر . فهذا قد سارت الصلاة عنده من حظوظه الحاجة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نقف بالدنيا المذمومة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « حب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وقرة عين في الصلاة » (١) ، لجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحرك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فذلك أضافها إلى الدنيا إلا أننا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأنفى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصي كلها والتتعمق بالمباحة الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والروعات ، كالتمتع بالقناطر المقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والنيلان والجواري والحيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذات الأاطعمة ، لحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة وفيها يعد فضولا أدنى محل الحاجة نظر طويل ، لأدروى عن عمر رضى الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حصص فأتخذه كنيفا أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر : من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين . إلى عمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تنكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه .

(١) حديث « حب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وقرة عين في الصلاة » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس دون لونه « ثلاث » وهم في السكاح .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متأتلا للدنيا ولم يصبر به من أبناء الدنيا ، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا . ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب ؛ أعنى طهارته عن الآذناس ، وأنسه بذكر الله تعالى ، وحيه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والآنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد في الأخبار : إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يده جاءت الصدقة تدفع عنه ^(١) . الحديث .

وأما الآنس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة لقاء والمشاغدة ، وهذه السعادة تستعمل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ؟ وكانت العوايق تمنعه من دوام الآنس بدوام ذكره ومطالمة جماله ، فارتفعت العوايق وأفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوايق ؟ وكيف لا يكون حب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الخيلة في الرجوع إليه ؟ ولذلك قيل :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما إنما هو فراق لحباب الدنيا وقدم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المواطن على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي الذكر والفكر والعمل الذي يقطعه عن شهوات الدنيا وينفض إليه ملاذها ويقطعه عنها ، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن ، وصحة البدن لا تتصل إلا بالقوت وملبس ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذ العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة ، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التتميم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها ، إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يمرض صاحبه عذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فن ترقش الحساب عذب ^(٢) . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عذاب ^(٣) » ، وقد قال أيضا « حلالها عذاب » لإلا زنه عذاب أخف من عذاب الحرام ،

(١) حديث : مناقشة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجله جاء قيام الليل فدفع عنه . . . الحديث « أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن سمرة بسنده وفيه خالد بن عبد الرحمن الخزرجي شعبة ، البزار وأبو سالم وللأحد من حديث أسماء بنت أبي بكر » وإذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنا أحزبه عمله الصالحات والميام . . . الحديث « ولسناده صحيح (٢) حديث « من ترقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث مالهة (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه موقوفا على علي بن أبي طالب بإسناد متعلق بلفظ « وحرامها النار » ولم أجد مرفوعا .

بل لو لم يكن الحساب لكان مايقوت من الدرجات الملا في الجنة ومايرد على القلب من التحسر على تقوتها لحظوظ حقيرة خسيسة لايقاه لها هو أيضاً عذاب ، وقس به حاله في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دينوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علك بأنها سعادات منصرمة لايقاهما ؟ منفصة بكدورات لاصفاهها فما حاله في فوات سعادة لايعيطها الوصف بظلماتها وتقطع الدهور دون غايتها ؟ فكل من تتم في الدنيا ولو بسباح صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه « هذا من النعم الذي تسأل عنه »^(١) وأشار به إلى الماء البارد . والتمريض لجواب : السؤال فيه دل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : اعزلوا عني حجابي ، حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بيسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه . فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أمان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأقن كان حذره من نعم الدنيا أشد ، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال : رغبت في الدنيا ، وحتى إن سليمان عليه السلام في ملكه كان يعلم الناس الدائد الألعمة وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتناناً وشدة ، فإن الصبر عن الدائد الألعمة مع القدرة عليها وجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان بطوى أياماً^(٢) وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع^(٣) ، ولهذا سلب الله البلاد والنحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة عظمتهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم القصد والحاجة شفقة عليه وحباؤه لايجلأ عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذي هو لله ؟ فأقول : الأشياء ثلاثة أقسام : منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمخبطورات وأنواع التمتع في المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ماصورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة : الفكر والذكر والكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليس من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحيلة لصحة البدن والاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ماصورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله ، وذلك كالأكل والشكاح وكل مايرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصد : حفظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال حلى الله تعالى : « من طلب الدنيا حلالاً مكثراً فمأخرا لقي الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وسيانة لنفسه جاء يوم النتيامه وجهه كاتمر ليله البدر »^(٤) ، فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد ، فإذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة إليه لآمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (ونهى النفس عن

(١) حديث هذا من النعم الذي تسأل عنه تقدم في الألعمة (٢) حديث : زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان بطوى أياماً أخرجه محمد بن خفيف في شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال : قلت يا رسول الله عيالتك يسلب الله لهم الدنيا وزواها عنك . . . الحديث . وهو من طريق إسحاق بن عمار وقرئ منى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليال المتتابعة طاولاً وأهله . . . الحديث . قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث : كان يشد الحجر على بطنه من الجوع . تقدم . (٤) حديث « من طلب الدنيا حلالاً مكثراً فمأخرا لقي الله وهو عليه غضبان . . . الحديث » أخرجه أبو لمع في الطيبة والبيهقي في الشعب من حديث أمى هريرة بسند ضعيف

الموتى فإن الجنة هي المآوى) وجميع الموى خمسة أمور : وهي ما جمعه الله تعالى في قوله ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة : بمعجمها قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فقد عرفت أن كل ما هو في فليس من الدنيا ، وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو الله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تنعم وهو لغیر الله . وبين التمتع والضرورة درجة يبعد عنها بالحاجة . ولها طرفان وواسطة : طرف يقرب من حد الضرورة فلا يعسر فإن الاقتصاد على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يراحم جانب التمتع ويقرب منه ويلبى أن يحذر منه ، ويتنعم وساطة متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

والحزم في الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما يمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أويسا القزفي كان يظن أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه ، فبنا له بيتا على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والستان والثلاث لا يرون له وجها ، وكان يخرج أول الأذان ويأتي إلى منزله بعد المشاء الآخرة ، وكان طعامه أن يقطع الثوى ، وكسا أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يسب ما يقوته من الخشب باع الثوى واشترى بثمنه ما يقوته ، وكان لباسه مما يلتقط من الرابل من قطع الأكسية فيفسلها في الفرات ويلتقط بعضها إلى بعض ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه وكان ربما سمر الصبيان فيمرونه ويفترون أنه مجنون ، فيقول لهم يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فأروني بأحجار صفار فإن أخاف أن تدموا عني ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء ، فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن إشارة إليه رحمه الله » ، ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : أيها الناس من كان منكم من المراق فليقيم ، قال : فقاموا . فقال : اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، فجلسوا ، فقال : اجلسوا إلا من كان من مراد ، فجلسوا فقال : اجلسوا إلا من كان من قرن ، فجلسوا كلهم إلا رجلا وحدا فقال له عمر : أقرني أنت ؟ فقال : نعم فقال : أتعرف أويس بن عامر القزفي ؟ فوصفه له ، فقال : نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين ؟ والله ما فينا أحق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه ، فيكى عمر رضى الله تعالى عنه ثم قال : ما قلت ما قلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر » (١) فقال هرم بن حيان : لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي م إلا أن أطلب أويسا القزفي وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه ، قال : فرفته بالثمن الذى نعت لي ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة مخلوق الرأس كش الحية متغير جدا كره الوجه منهيب المنظر قال : فسلبت عليه فرد على السلام ونظر إلى ، فقلت : حياك الله من رجل ومددت يدي لأصالحه فأبى أن يصالحني ، فقلت : رحلك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحلك الله ؟ ثم خففتي المرة من حي إياه ووقتي عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى ، فقال : وأنت لحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخى ومن ذلك على ؟ قال : قلت الله فقال :

(١) حديث « لى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » أشار به إلى أويس القزفي تخدم في قواصد القائد لم أجده أملا .
(٢) حديث عمر « يدخل الجنة في شفاعته مثل ربيعة ومضر » يريد أويسا وروينا في جزء ابن السناء من حديث أبي أمامة « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمي أكثر من ربيعة ومضر » وإسناده حسن ، وليس فيه ذكر لأويس بل في آخره : فكان المصطفى يرون أن ذلك الرجل ضيان بن ضلان .

لا إله إلا الله سبحانه الله (إن كان وعد ربنا لمفعولا) قال : فنجيت حين عرفني ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رأيته ! فقلت : من أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيته قبل اليوم ؟ (قال نبأني العليم الخبير) وعرفت روعي وروحك حين كتبت نفسي نفسك ، إن الأرواح لما أنفس كأنفس الأجساد وإن المؤمنين يعرف بعضهم بعضا ويتحايرون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل ، قال : قلت حدثني رحمة الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لي معه محبة : بآبي وأبي رسول الله ، ولكن رأيته رجلا قد تحبوه ويلقى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون معدئا أو مفتيا أو قاضيا في نفسى شغل عن الناس يا هرم بن حيان ! فقلت : يا أخى أقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وأدع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك فأني أحبك في الله حبا شديدا ، قال : فقام وأخذ يدي على شاطئ القرات ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى . ثم قال : قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) حتى انتهى إلى قوله (إنه هو العزيز الرحيم) فنهق شققة خلقت أنه قد غشى عليه ثم قال : يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فأما إلى الجنة ولما إلى نار ، ومات أبوك آدم ومات أهلك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نبي الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ، ومات أبويك خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفي ، ثم قال : يا عمره يا عمره ، قال : فقلت رحمة الله إن عمر لم يمت ، قال : فقد نعا إلى ربى ونمى إلى نفسى ! ثم قال : أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان ، ثم سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال . هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد لعبت إلى نفسي ونفسك ، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طريقة عين ما بقيت ، وألزم قومك إذا رجعت إليهم والصح للأمة جميعا ، وإياك أن تفارق الجماعه قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخا . النار يوم القيامة ، ادع لى ولتفلسك ، ثم قال : اللهم إن هذا يزعم أنه يحبنى فيك وزارنى من أجلك ففرغنى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه مادام فى الدنيا حينما كان ضمن عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين وأجره عن خير الجزاء ثم قال : أستودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لأأراك بعد اليوم رحمة الله تعطينى فأني أكره الشهرة والوحدة أحب إلى لى كثير ألهم شديد ألهم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلا تسأل عنى ولا تعطينى ، وأعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترى فأذكرنى وأدع لى فأني سأذكرك وأدعوك إن شاء الله ، أطلق أنت ههنا حتى أطلق أنا ههنا . غرست أن أمشى معه ساعة فأنى على وفارقت فبكى وأبكاني وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السلك ، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحدا يخبرنى عنه بشيء رحمه الله وغفر له .

فهكنا كانت سيرة أبناء الآخرة للمرحنين عن الدنيا .

وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الفياكل ما أظله الحضره وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى بما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج إذ حلف أنه فى طريق الحج

لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل مالا بد الحج منه لم يحش في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج . فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر ، فتمهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا . نعم إذا قصد تلذذ البدن وتعمقه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنابسي : كنت على باب بني شبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاولوا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين القطة والثوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أوصى الله عين قلبه . فهذا يبان حقيقة الدنيا في حقله . فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم
وخالقهم ومصنوعهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد بطن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها فالله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ فالأرض فراش للكافرين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومعلم ومشرب ومنكح .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات : فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي وأما المعادن : فيطلبها للكلات والأواني ، كالنحاس والرصاص ، والنقد ، كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فيقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها للآكل وظهرها للركب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الآدمي : أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخروهم كالغلمان ؛ أو ليستمتع بهم كالجوارى والنسوان ؛ ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يفرس فيها التعميم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاء ؛ إذ معنى الجاء ملك قلوب الآدميين . فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ وهذا من الإنس ﴿ والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ؛ وفيه تلبية على غيرهما من اللؤلؤ والياقوت وغيرها ﴿ والحيل المسومة والأنعام ﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿ والحرث ﴾ وهو النبات والزروع .

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصرافه مه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستتر بالدنيا . ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المحلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداينة وحب التناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن : وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما لبسوا أنفسهم ومآتهم ومتعلوهم بالدنيا لغايتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميها دنيا لم تخلق إلا لعلة الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى ، وأعي بالدابة البدن ، فإنه لا يبق إلا بمعلم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبق الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال .

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده : مثال الحجاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يصف التائه ويشهد بها ويظن أنها ويسكوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويرد لها الماء بالتلج ، حتى تنفثه القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقاءه في البادية فريسة السباع هو ونافته . والحاج البصير لا يهيم من أمر الجبل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتهدد وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى القافلة بقدر الضرورة . فكذا البصير في السفر إلى الآخرة لا يشغل بتمهيد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجها من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ، ومن ممتة ما يدخل بطنه فقيمه ما يخرج منها . وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن ، فإن الفوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تسترقهم أشغال الدنيا وإنما استرقهم لجلهم بالدينا وحكمها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتذاعت إلى غير نهاية محدودة ، فتأهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا ، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنسهم حافة أمورهم ؟ فنقول : الأشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ترى الخلق متكين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس . فالتقوت : الغذاء والبقاء . والملبس : لدفع الحر والبرد . والمسكن : لدفع الخبز والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه .

نعم خلق ذلك للبهائم ، فإن النباتات ينفذ الحيوان من غير طبخ . والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغنى عن البناء ويقتنع بالصحرَاء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فلتستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك فخدمت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية ، وهي الفلاحة ، والرعاية ، والاقتصاد ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فلمسكن . والحياكة : وما يكتسبها من أفرال الغزل والحياطة فللبلباس . والفلاحة للطعم . والرعاية للدواشي والحيل أيضا للطعم والمركب . والاقتصاد لتقوى به تحصيل ما خلقه الله من حيد أو معدن أو حشيش أو حطب ، فالصلاح يحصل النباتات والرعي يحفظ الحيوانات ويستتبعها . والاقتصاد يحصل ما نبت وتنتج بنفسه من غير صنع آدمي ، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ، ولغنى بالاقتصاد ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة . ثم هذه الصناعات تقتصر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتصاد ، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والبرصا وغيرهما ، أو من جلود الحيوانات . لحدثت الحاجة إلى ثلاث أنواع أخر من الصناعات : التجارة ، والحداثة ، والخز . هؤلاء هم عمال الآلات ، ونغنى بالتجارة ؛ كل عامل في الحطب كيفما كان . وبالحداد ؛ كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى التحاس والإبري وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما أحوال الحرف فكثيرة . وأما الخراز ؛ فغنى به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها . فهذه أمهات الصناعات .

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين ؛ أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما . والثاني :

التعاون على تهتئة أسباب الملبس ولتربية الولد ، فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لاعماله ، والواحد لا يستقل بحفظ الولد وتهتئة أسباب القوت . ثم ليس يكفي الاجتماع مع الأهل ، والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم يجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة . فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها ، ويحتاج الآلة إلى سداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ؟ وكذلك كيف بفرد تحصيل الملبس وهو يفتر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والحياطة وآلات كثيرة ؟ فذلك مما تمتع عيش الإنسان وحده وحدته الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر والصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل يفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والآلات والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها ، لكن المنازل قد قصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة .

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتماثلوا تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضيف يحتاج إلى قوام به . ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة الخاصة وإن ظلت ، فأما المرأة فتخاصم الزوج ، والولد يخاصم الأبوين ، هذا في المنزل .

وأما أهل البلد أيضا فيتماثلون في الحاجات ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتنازعون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لاعماله . ثم قد يسجن بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولترك ضائعا هلك ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتناذروا ولو خص واحد من غير سبب يفرضه لكان لا يذعن له ،

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى . فلها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي يلزم أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يتكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في الماملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لا بد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والمداينة ، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المماش ، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا تعطلت الصناعات ، ولو اشتغل أهل الحرب بالسلح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستغثر الناس ، فست الحاجة إلى أن يصرف إلى معاشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لامالك لها إن كانت ، أو تصرف الفتنم إليهم إن كانت المداواة مع الكفار ، فلن كانوا أهل ديانة وورع قنموا بالتفليل من أموال المصالح وإن أزدوا التوسع فتمس الحاجة لاعمالهم أن يمدّم أهل البلد بأموالهم ليدوم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات آخر ؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال . وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمتعرجون ، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان ، وإلى من يفترق عليهم بالعدل وهو القارض للمساكر . وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يديرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل خصوصا ، ويختار لكل واحدا يليق به ويراعى الصفة في أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل

طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين السكاكة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجبالة والعامل . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الحراج . وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف : الفلاحون والرعاة والمخترقون : والثانية : الجندية الحماة بالسيف . والثالثة : المفردون بين الطائفتين في الأخذ والمطاء وهم العمال والجبالة وأما لهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والسكن وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا ويفتح بسببه أبواب أخر . وهكذا تنتهي إلى غير حد محصور كأنها حاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالي . فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تنتم إلا بالأموال والآلات . والمال عبارة عن أعيان الأرض وماعليها مما ينتفع به ، وأعلامها الاغذية ، ثم الأمتعة التي يأوى الإنسان إليها وهي الدور ، ثم الامتعة التي يسمى فيها للتعبير كالخزائن والأسواق والمزارع ، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون الآلات ماهو حيوان كالكلب آلة الصيد ، والبقرة آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب في الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحديد والتجار يسكنون قرية لا يمكن فيها الزراعة . فبالضرورة يحتاج الفلاح إليها ويحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبدل ماعده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المفاوضة ، إلا أن التجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من التجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتوق الأغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أبواب الحاجات ؛ وإلى آليات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتره منهم صاحب الآليات ليترصد به أبواب الحاجات ، وفطرت لذلك الأسواق والمخازن فيعمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بشئ رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أبواب الحاجات طعاما في الربح ، وكذلك في جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشتررون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات ، وينقلون ذلك ويتمشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم ؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام ، فالبعض يحتاج إلى البعض فيخرج إلى النقل ، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وابعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيبتعون طول الليل والنهار في الاسفار لغرض غيرهم ، وتصميم منها جمع المال الذي يأكله لاحقا غيرهم ؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . يل جميع أمور الدنيا انتظمت بالنفلة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وادفعت منهم لهدوا في الدنيا ، ولو فعلوا ذلك لعلت الممايش ، ولو بطلت لملكوا ولهلك الزهاد أيضا .

ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها ، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة ، ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى التقيدين فإن من يريد أن يشتري طعاما بثوب فن أن يدرى المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو ؟ والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تقاسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يبدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى

مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدرم . وأبقى الأموال المعادن فالتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ، ثم مست الحاجة إلى العزب والنقش والتقدير فست الحاجة إلى دار العزب والصارفة . وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ماتراه . فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم . وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وقب في الابتداء .

وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب المعجزة عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسنى فيه غيره ، فيحدث منه حرقتان خبيستان : اللصوصية والكداية ؛ إذ يجمها أنهما يأكلان من سعى غيرهما ثم الناس يمتزجون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فاقتفروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير .

أما اللصوص : فبهم من يطلب أحوانا ويكون فى يديه شوكة وقوة فيجسمون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة النفلة ، وإما بأن يكون طوازا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها .

وأما المكدي فإنه إذا طلب ماسعى فيه غيره وقيل له اقم واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئا ، فانفقوا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتهديد العذر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا للتعطى بالعجز إما بالحقيقة بكاعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليمدروا بالعمى فيعطون ، وإما بالتأني والتناج والتجائن والتفارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة ، وجماعة يلتمسون أفواجا وأفعالا يتحجب الناس منها حتى تيسر قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخرها برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة ، وقد يكون بالإشعار الغريبة والكلام المتشور المسجع مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لاسمها إذا كان فيه تمصص يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت ، أو الذى يحرك دامية العشق من أهل المجانة كهضنة الطيبالين فى الأسواق ، وحسنة ما يشبه العوض وليس بمعرض كيمع التويعات ، والحشيش الذى يخيل بأنه أنها أدوية فيضدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل فى هذا المجلس الوعاظ والمكدون على رموس المنابر إذا لم يكن وراهم طائل على وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع والفن . وكل ذلك استبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة . فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبروا عليها ، وجرم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسرة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم وآبهم فقاموا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بد أن كدتها زحمة الاشتغالات بالدينيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه :

فطائفة غلبهم الجهل والنفلة فلم تفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل ، فياكلون ليسكبوا ثم يكسبون ليأكلوا ، وهذا مذهب الفلاحين والمخترفين ومن ليس له تتم فى الدنيا ولا قدم فى الدين ؛ فإنه يتعب تبارا

لياً كل ليلاً ويأكل ليلاً ليمتع نهاراً ، وذلك كبير السواقي فهو سفر لا يقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تظنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يبقى الإنسان بالعمل ولا يقيم في الدنيا ؛ بل السعادة في أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرخوا بهم إلى اتباع النسوان وجمع لثأد الأطمعة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فدخلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهبوا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع ، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون ، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شهاً ويملا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحرصهم إلى أن يدركهم الموت ؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات ؛ فيكون للجامع تبه وبواه وللأكل لذته . ثم الذين يجمعون يظنون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالتشامخ والمدح والتجمل والمروءة ؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في الطعام والمشرب ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ، ويرغفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة ، فهمتهم في نهارهم وليهم في تمهد موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس واتقيا دالحلق بالتواضع والتوقير ، فصرخوا بهم إلى استعجار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقليد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا أسمع ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة ، وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء دخلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكير في آخرتهم ومعادهم .

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وإنما جزم إلى جميع ذلك حاجة الطعام والملبس والسكن ونسوا ما تراه هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها . وانهمزت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاول يمكنهم الرق منها ، فن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وطام بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تمهد بدته بالقوت والكسوة حتى لا يهلك ، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلظ عليه ذكر الآخرة وانصرفت المهمة إلى الاستعداد له ، وإن تمدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية ، فتنصب به الهوموم ومن تشعبت به الهوموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أملكه منها . فهذا شأن المهلكين في أشغال الدنيا . وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا لحسد الشيطان ولم يتركهم ، وأشغلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف :

فظننت طائفة أن الدنيا دار بلاء وعنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا ولم يتعب ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من عنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من البعاد من أهل الهند فهم يهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من عنة الدنيا .

وظلت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والنفس ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشدوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض والسد عليه الطريق في العبادة . وبهذههم عجز عن قبح الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تليس لا أصل له فوق في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعبد كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متبذ ، فمادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطولوا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيطة ، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع علمهم في معرفة الله سبحانه عن أن يتيمنا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .

وراء هذا مذاهب باطلة وعتلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيماً وسبعين فرقة ، وإنما التاجي منها فرقة واحدة ؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يجمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيجمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل . ولا يجمع كل شهوة ولا يترك كل شهوة ، بل يجمع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدة مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحرق والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنهه مته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالافتداء بالفرقة التاجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال « التاجي منها واحدة » قالوا : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة » فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي »^(١) ، وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفرط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى . كما سبق ذكره في مواضع . والله أعلم .

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) حديث : إقرار الأمة وفيه « التاجي منهم واحدة » قالوا : ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه « غفرق أمي على ثلاث وسبعين مة تكلم في النار لامة واحدة » قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » . ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأصحابها جيد .

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ، ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ووردهم فيها بين السر واليسر ، والثنى والفقر ، والطعم واليأس ، والثروة والإفلاس ، والمعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير ، كل ذلك ليلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم أثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتنى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا ، والصلاة على محمد الذى نسخ بملته ملا ، وطوى بشريته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذلا ، وسلم تسليلا كثيرا .

أما بعد : فإن فن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكاف ، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطمع عنها ، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها ، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا ، وإن وجد حصل منه الطغیان الذى لا تكون طاقته أمره إلا خيرا . وبالجملة ففى لا تقدر من الفوائد والآلات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتنا من المهلكات ، ونعيم خيرها من شرها من المعوصات التى لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين من العلماء الراعفين دون المسترحمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فلن ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة بل فى الدنيا عامة ؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ حاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاء بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشتى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها . ولها أباض كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ حاجل . ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل . وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الثنى . وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان .

ثم لفائف حالتان : القناعة والحرص ، وإحداها مذمومة والأخرى محمودة . وللحرص حالتان : طمع فيما فى أيدي الناس ، وتقسر الحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شر الحالتين .

وللواجد حالتان : إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداها مذمومة والأخرى محمودة . ولللنفق حالتان : تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد .

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم . ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو : بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائده المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع . ثم فضيلة السخاء . ثم حكايات الأعياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء . ثم الإيثار وفضله . ثم حد السخاء والبخل . ثم علاج البخل . ثم مجموع الوظائف فى المال . ثم ذم الثنى ومدح الفقر ؛ إن شاء الله تعالى .

بيان ذم المال وكرامة حبه

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وضيع خسرانا عظيما وقال عز وجل ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ اثْنَانِ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حب المال والشرف ينتنان التفاق في القلب كما يفتت الماء البقل ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما ذنبان ضاربان أرسلا في زريبة غم بأكثر إفسادا فهما من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ملك المسكرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ماله ^(٣) ، وقيل : يارسول الله أي أمتك شر ؟ قال « إلا غنياء » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : سيأتي يبدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا والوفا ويركبون فراء الخيل والوفا ويسكنون أجل النساء والوفا ويلبسون أجل الثياب والوفا ، لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تهتم ، ما تكونون على الدنيا يفتنون وبروحون إليها ، اتخذوها آلهة من دون الله ربها دون ربهم ، إلى أمرها يلتون ولها هم يفتنون ، فمريضة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عتيق وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يمدو مرضاهم ولا يتبع جنازهم ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتهفه وهو لا يشعر ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأعفيت ؟ ^(٧) ، وقال رجل : يارسول الله مالي لأحب للوت فقال : هل مملك من مال ؟ قال : نعم يارسول الله ؟ قال : قدّم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قمته

كتاب ذم البخل وحب المال

- (١) حديث : حب المال والعرف ينتنان التفاق في القلب كما يفتت الماء البقل ، لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ « الجاه » بدل « العرف » (٢) حديث : ما ذنبان ضاربان أرسلا في زريبة غم بأكثر إفسادا فهما من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم ، أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقال « جالمان » مكان « ضاربان » ولم يوقلا في زريبة » وقال « العرف » بدل « الجاه » قال الترمذي حسن صحيح والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد ، ما ذنبان ضاربان في زريبة غم ... الحديث ، ولفزار من حديث أبي هريرة « ضاربان جالمان » وأسناد الطبراني فيها ضعيف (٣) حديث : ملك المسكرون إلا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا ... الحديث ، أخرجه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بن خلفه المسكرون ، ولم يقل في عباد الله ، ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بلفظ المسكرون ، وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « لا يمشونهم ولا يمدوهم ولا يتبع جنازهم ولا يوقر كبيرهم » ، قال أبو ذر : من هم ؟ فقال « هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا ... الحديث » (٤) حديث : يارسول الله أي أمتك شر ؟ قال « الأغنياء » غريب لم أجده بهذا اللفظ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عبدة بن جعفر « شرار أمتي الذين ولوا في النعم وغذوا بها يكونون من الطعام الوفا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى في الزهد ، من رواية هرو بن روم مهمل ولفزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، لأن من شرار أمتي الذين غذوا بالأنتم وعلبت عليكم أجسامهم » (٥) حديث : سيأتي يبدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا والوفا ويسكنون أجل النساء والوفا ... الحديث ، بطلوه أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة « سيكون رجال من أمتي يأكلون الوان الطعام ويهربون أوان الفرباب ويلبسون ألوان الثياب يتقدمون في الكلام أولئك شرار أمتي » وسنده ضعيف ولم أجده باقيه أصلا (٦) حديث « دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتهفه وهو لا يشعر » أخرجه الترمذي من حديث أس وفيه ما في من المتوكل منه ابن حبان (٧) حديث « يقول السيد مالي .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبدة بن الصغير وأبي هريرة وقد قدم

أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم ، أخلاء ابن آدم ثلاثة . واحد يتيمة إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ، والثالث إلى عشره . فالذي يتيمة إلى قبض روحه فهو ماله ، والذي يتيمة إلى قبره فهو أهله ، والذي يتيمة إلى عشره فهو عمله ^(٢) .

وقال الحواريون لمعيسى عليه السلام : مالك تمشي على الماء ولا تقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكهما والمدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى لرباك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يجماء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أدبت حق الله في ، ثم يجماء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله وبك ألا أدبت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعى بالويل والثبور ^(٣) .

وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذم النفي وطلب الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا تلطول بتكريره ، وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة .

قال صلى الله عليه وسلم « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا الشيعة فتصبروا الدنيا ^(٥) .

الآثار : روى أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراموسا فقال : اللهم من فعل بي سوما فأصحب جسمه وأطل عمره وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاد مع صحة الجسم وطول العمر ؟ لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان ووضع على كرامته وجهه درهماً على كفه ثم قال : أما إنك ما لم تحرج حق الافتقار . وروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش ببطائنها فقالت : ما هنا ؟ قالوا : أرسل إليك عمر بن الخطاب ، قالت : غفر الله له ، ثم سلت سترًا كان لها فقطعته وجعلته صرراً وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ، ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقاً به . وقال الحسن : والله ما أعز درهم أحد إلا أذله الله . وقيل : إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إليس ثم وضعهما على جهته ثم قبلهما وقال . من أحببنا فهو عبدي حقا . وقال سميط بن مجلان : إن الدرهم والدينارين أزمة الخائفين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقر فإن لم تقصم رقيقته فلا تأخذه ، فإنه إن لدك قتلك سمه ، قيل : وما رقيقته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه في حقه . وقال العلاء بن زياد : تثلث في الدنيا وعليها من كل زينة فقلت : أعوذ

(١) حديث : قال رجل يارسول الله مالي لا أحب الموت ... الحديث . لم ألق عليه (٢) حديث « أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتيمة إلى قبض روحه ، والثاني إلى قبره ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث الثماني بن سعيد بإسناد جيد نحوه ، ورواه أبو داود الطيالسي وأبو الشيخ في كتاب التواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس بن مالك أيضاً وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب والشيخين من حديث أنس . يبلغ المبت ثلاثة فيرجع اثنتان وروى واحد ... الحديث (٣) حديث : كتب سلمان إلى أبي الدرداء وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجماء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ... الحديث » قلت : ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان ؟ فكذا رواه البيهقي في الشعب وقال بدل « الدنيا » « المال » وهو متقطع (٤) حديث « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة يبلغ به وقد تقدم في آداب المحبة .

(٥) حديث « لا تتخذوا الشيعة فتصبروا الدنيا » أخرجه الترمذي والمحاكم وصححه لسانه من حديث ابن مسعود فقط « فترهبوا (٣٠) — لحياء الدين علوم — (٣) »

بأنه من شرك فقالت : إن شرك أن يميزك الله من قابض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أشتاتها ، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفي ذلك قيل :

إني وجدت فلا تفتلوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تفك تحوى المسلم

وفي ذلك قيل أيضاً :

لا يتركك من المر • قيس رقعه • أولزار فوق عظم الساق منه رفقه
أو جبين لاح فيه • أثر قد غلظه • أروه الدرهم تعرف • حبه أو وروعه

ويروي عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال : يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار - وكان له ثلاثة عشر من الولد - فقال عمر : أقصدوني فأفقدوه فقال : أما قولك لم أدر لهم دينار ولا درهما فإن لم أمتهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم وإنما ولدت أحد رجلين : إما مطيع لله فله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإما حاسد لله فلا أبالي على ما وقع . وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالا كثيراً فقيل له : لو أدخرك لولدك من يدك ؟ قال : لا ولكن أدخره لنفسى عند ربي وأدخر ربي لولدي . ويروي أن رجلاً قال لأبي عبد ربه : يا أخى لا تذهب بشر وتمترك أولادك بخير ! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته ، قيل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله .

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الدم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز (إن ترك خيراً) الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح (١) ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى (ويستخرجنا كنزها رحمة من ربك) وقال تعالى (تمتنا على عبادك) ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً (وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفراً » (٢) ، وهو ثناء على المال . ولا تحف على وجه الجمع بعد الدم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغرائله ؛ حتى يكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر ، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعاً وما هذا وصفه فيمدح لاحتالة تارة ويذم أخرى ، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم ، ويانه بالاستعداد عما ذكرناه في كتاب الفكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم ، والقدر المتع فيه هو أن مقصد الاكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي التميم الدائم والملك والمقيم . والقصد إلى هذا دأب الكرام والاكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال : « أكرمهم للثوت ذكراً وأشدهم له استعداداً » (٣) ،

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن الناس بسند صحيح بلفظ « نعم » وقالوا « للره » . (٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفراً » أخرجه أبو مسلم البجلي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أسد بن وهب في كتاب ذم النفس (٣) حديث : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ قال : « أكرمهم للثوت ذكراً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بسند صحيح بلفظ : أي المؤمن أكيس ؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ الصنف ولسانه جيد .

وهذه السعادة لاتصال إلا بثلاث وسائل في الدنيا وهي الفضائل النفسية ، كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنية : كالصحة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن : كالمال وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة .

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجيات ، وأدناها الدرهم والدنانير ، فإنها خادمان ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما . ولا يرادان لذاتهما ؛ إذ النفس هي الجوهر التفتيس المطلوب لسعادتها ، وأنها تقدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها ، والبدن يقدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء ، والمطاعم والملابس تقدم البدن . وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن . ومن المنافع إبقاء النسل ، ومن البدن تمكيد النفس وتركيبها وتزيينها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير . ومن عرف قائمة الشيء وفائده ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لما فقد أحسن واتقن ، وكان ماحصله الغرض محموداً في حقه ، فلذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فائدة وهي المقاصد الصاعدة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذا محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفي فقد أخذ حثفه وهو لا يشعر ^(١) كما ورد به الخبر .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات الفاطمة لسبيل الله وكان المال مسهلماً وآلة إليها ، عظم الخطر فيها يزيد على قدر الكفاية فاستماز الانبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل قوت آل محمد كقوتا ^(٢) » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتحصن به من شره وقال « اللهم أحيني مسكيناً وأميت مسكيناً واحشني في زمرة المساكين ^(٣) » ، واستماز إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال « واجنبي وبني أن تعبد الأصنام » وعن أبي هذيل المجبرين الذهب والفضة ، إذ ربة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفى قبل النبوة مع الصغر ، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاضرار بهما والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم تسع عبد الدينار وتسع عبد الدرهم تسع ولا اتشمس وإذا شيك فلا اتفش ^(٤) ، فبين أن محبهما باطلهما ومن عبد حبراً فهو عابد صنم . بل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم ، أي قطعه ذلك من الله تعالى وعن آداه حقه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلا أن الشرك شركان : شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقلبا ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من ديب القتل ، وشرك جلي يوجب الخلود في النار لنموذ باقه من الجميع .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حبة فيها سم وترياق ، ففوائده تزيته ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحتجز من شره ويستدر من خيره .

(١) حديث « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفي فقد أخذ حثفه وهو لا يشعر » تقدم قبله باسمه أحاديث وهو ينية « احذروا الدنيا » (٢) حديث « اللهم اجعل قوت آل محمد كقوتا » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « اللهم أحيني مسكيناً وأميت مسكيناً » أخرجه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٤) حديث : تسع عبد الدينار تسع عبد الدرهم ... الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل « واتقش » وإنما على آخره بلفظ « تسع واتقش » ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

أما الفوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ، ولولا ذلك لم يبالوا على طلبها . وأما الدينية فتتضمن جميعها في ثلاثة أنواع .

(النوع الأول) أن ينفعه على نفسه إما في عبادة أو في الاستمانة على عبادة . أما في العبادة : فهو كالاستمانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات الثمرات والفقير محروم من فضلها . وأما فيما يقربه على العبادة : فذلك هو الطعام والملبس والسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستمانة على الدين من الفوائد الدينية . ولا يدخل في هذا التمتع والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

(النوع الثاني) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا يعني ثوابها وإنها تملأ غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم .

وأما المروءة فتعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكسب صفة السخاء ويتحق برزمة الأصحاء . فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة ، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها .

وأما وقاية العرض فتعني به بذل المال لدفع هجوم الشعراء ، طلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضاً مع تنجز فائدته في الماجة من الحظوظ الدينية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة » (١) ، وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتران مما يورث من كلامه من العداوة التي تحصل في المكافاة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتقدر عليه سبوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطمحه وكسب البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه ، وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران .

(النوع الثالث) مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجلباب في الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرسدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبدة الدائمة بعد الموت المستجيلة بركة أديعية الصالحين إلى أوقات متبادلة ، ونافعية بها خيراً . فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ الماجة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والجد بين الخلق وكثرة الإخوان والأعران والأصدقاء ، والوقار والكرامة في القلوب ، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

(١) حديث « ملوك المرء عرضه به فهو صدقة » رواه أبو يعلى من حديث جابر وقد اقدم .

وأما الآفات فذيفية ودنيوية أما الذيفية فثلاث .

(الأولى) أن يجر إلى المعاصي فإن الشهوات متفاحلة والمجور قد يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصمة أن لا يجد . ومهما كان الإنسان أيسر عن نوع من المعصية لم يتحرك داعيته ، فإذا استثمر القدرة عليها انبثقت داعيته والمال نوع من القدرة بحرك داعية المعاصي واركتاب الفجور ، فإن اقتحم ما اشتاء هلك وإن صبر وقع في شدة ؛ إذ الصبر مع القدرة أشد ، وقتة السراء أعظم من فتنة الضراء .

(الثانية) أنه يجر إلى التمتع في الباحات ، وهذا أول الدرجات ، فمَن يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن لا يقيم بالدنيا ويمرن عليها نفسه ، فيصير التمتع مأزقا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ، ويجزه البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويغوص في المراماة والمداينة والكذب والتفاخر وسائر الأخلاق الرديئة ، لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تتمعه ، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن يناقضهم ويصصى الله في طلب رضاهم ، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم من هذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تنور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنيمة والغبية وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ، ولا يغفل عن التمدى أيضا إلى سائر الجوارح . وكل ذلك يلزم من شوم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

(الثالثة) وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلغيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : في المال ثلاث آفات ، أن يأخذ من غير حله ، فقيل : إن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه في غير حقه ، فقيل : إن وضعه في حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى ، وهذا هو البدء المعضال . فإن أصل المبادات وغناها وسرها ذكر الله والتفكر في جلالة ، وذلك يستدعي قلبا فارغا وصاحب الضيعة يسمى ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح وعماسته ، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في المساء والحدود ، وخصومة أعران السلطان في الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير في العبارة ، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراد بالربح وتقصيره في العمل وتضييعه للمال . وكذلك صاحب المواشي . وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعد ما عن كثرة الشغل : التقاعس كثرة تمتع الأرض ، ولا يزال الفسك مرتددا فيها يصرف إليه وفي كيفية حفظه والخوف بما يمرض عليه وفي دفع أطباع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها ، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد وتجهش المعاصب في حفظ المال وكسبه ، فإذا نرى المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك محرم وآفات . نسأل الله تعالى السلامة وحسن المون بطلفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس بما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود - كما أوردناه في كتاب الفقر - ولكن ينبغي أن يكون الفقير قائما منتفع الطمع من الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حرصا على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يتبع قدر الضرورة

من المعلم والمليس والمسكن ، ويقتصر على أهله قنرا وأخيه نوحا ، ويرد أمه إلى يومه وأولى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكبير أو طول أمه فاته عن القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذلك الحرص ، وجزء الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للرومات ، وقد جبل الآدي على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب »^(١) ، وعن أبي واقد الليثي قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أمناه يملأ بما أوحى إليه ، ليجتته ذات يوم فقال : « إن الله عز وجل يقول : « لنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثلث ولا يكون له الثاني لأحب أن يكون لها ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب »^(٢) ، وقال أبو موسى الأشعري : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لفتى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب »^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : « منهومان لا يشيمان منهوم العلم ومنهوم المال »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يهرم ابن آدم ويشب معه الثنتان : الأمل وحب المال » أو كما قال^(٥) .

ولما كانت هذه جبهة للآدي مضنة وغريزة مهلكة اتى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم طريق لمن هدى للإسلام وكان دينه كفافا وقنع به^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد فقير ولا غني إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس »^(٨) ، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال : « أيها الناس أجلوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة »^(٩) ، وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : « أي عبادك أغنى ؟ قال : أقتنهم بما أعطيتهم ، قال : فأيهم أعدل ؟ قال : من أصف من نفسه ، وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجللوا في الطلب »^(١٠) ، وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار » ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن ورعا ، تكن أعبد الناس وكن قنما تكن أشكر الناس ، وأحب الناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا »^(١١) ،

- (١) حديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لاجتى لهما ثالثا ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس
- (٢) حديث أبي واقد الليثي : « إن الله عز وجل يقول : « لنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة : ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح
- (٣) حديث أبي موسى : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ... الحديث » أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله « لنا الله يؤيد هذا الدين » ورواه بهذه الزيادة الطبراني وفيه بن زيد متكلم فيه
- (٤) حديث « منهومان لا يشيمان منهوم العلم ومنهوم المال » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف
- (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه الثنتان ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس
- (٦) حديث طريق لمن هدى للإسلام وكان دينه كفافا وقنع به » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث أنس
- (٧) حديث « ما من أحد إلا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة
- (٨) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس » متفق عليه من حديث أبي هريرة
- (٩) حديث « ألا أيها الناس أجلوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له » أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده ، وقد تقدم في آداب الكسب والملاش
- (١٠) حديث ابن مسعود « لن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه
- (١١) حديث أبي هريرة « كن ورعا تكن أعبد الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيا رواه أبو أيوب الأنصاري : أنَّ اعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله عظمي وأوجر فقال : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدث بحديث تعتذر منه غدا ، وأجمع اليأس بما في أيدي الناس ^(١) ، وقال عرف بن مالك الأنصبي : كما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة - فقال : ألا تبايعون رسول الله ، قلنا : أوليس قد بايعناك يا رسول الله ؟ ثم قال : ألا تبايعون رسول الله ، فبسطنا أيدينا هيأيناه فقال قائل منا : قد بايعناك فلي ماذا نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الخس ، وأن تسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية ، ولا تسألوا الناس شيئا ^(٢) ، قال : فلقد كان بعض أولئك الثفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يتأوله إياه .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : لأن الطمع فقر ولأن اليأس غنى ولأنه من يياس عما في أيدي الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، وفي ذلك قيل :

العيش ساجات تمزَّ وخطوب أيام تمكز
اتقح ببيتك رَحْه وارك هواك تميش حَز
فارب حقف ساهه ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع يمل الحزب اليائس بالماء ويأكل ويقول : من قنع بهما لم ينجح إلى أحد . وقال سفيان : خير دنيا كم مالم يتهلوا به وخير ما بليتيم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود : مامن يوم إلا وملاك ينادي ؛ يا ابن آدم قليل يكنفك خير من كثير يطعك . وقال سبط بن مجلان : إنما يطعك يا ابن آدم شرب في شرب فلم يدخلك النار ؟ وقيل للحكيم : ما مالك ؟ قال : التجل في الظاهر والتقص في الباطن والياس بما في أيدي الناس . وبروي أن الله عز وجل قال : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهره ، وإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو مازق . وكتب بعض بني أمية إلى إبي حازم - يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه - فكتب إليه : قد رفعت حوائجي إلى مولاي فأعطاني منها قبلت وما أمسك حتى قمت . وقيل لبعض الحكماء : أى شيء أسر للماقل ولما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعوتها له على دفع الحزن الرضا بحسب القضاء وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غشا الحسود ، وأنهم عيشا الفزع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفصهم عيشا أرضهم للناس ، وأعظمهم تدامة العالم للفرط . وفي ذلك قيل :

أوفه يبال في أمسى على نقمة أنَّ التي قسم الأرزاق يرزقه
فالمرض منه مصون لا يئله والوجه منه جديد ليس ينفقه
إن التناعة من يحل بساحتها لم يلق في دهره شيئا يؤزقه

(١) حديث أبي أيوب : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدث بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس بما في أيدي الناس : أخرجه ابن ماجه وتقدم في الصلاة ولما كان نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإستاذ (٢) حديث عرف بن مالك : كنانة رسول الله صلى الله عليه وسلم - سبعة أو ثمانية أو تسعة - فقال : ألا تبايعون ... الحديث وفيه : ولا تسألوا الناس ، أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل : فقال قائل ولا قال : تسألوا . وقال : سوط أحدكم . وفي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

وقد قيل أيضا :

حتى متى أنا في حل وترحال وطول سعى وإدبار وإقبال
وتنازع النار لأنفسك مقتربا عن الأجرة لا يدرون ماحالي
بمشرق الأرض طورا ثم مغربها لا يخطر الموت من حرص على بالي
ولو قممت أغاني الزرق في دمه لأن التمتع النقي لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه : ألا أخبركم بما أستعمل من مال الله تعالى : حلتان لشتا في وقطيني ، وما يسمن من الظاهر الحسي وحمري ، وفوق يمد ذلك كعقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضحهم ، فوالله ما أدرى أجمل ذلك أم لا ؟ كأنه شاك في أن هذا القدر مل هو زيادة على الكفاية التي تجب التناعة بها ؟ وعاتب أعرابي أعماه على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب ، بطلبك من لافوته وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، زمانت فيه قد قلت عنه ، كأنك يا أخى لم ترحبنا عروما وزاهدا مرزوقا . وفي ذلك قيل :

أراك يديك الإثم حرصا على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوما إليها قلت حسي قد رخصت

وقال الشعبي : حكى أن رجلا صاد قنبرة فقالت : ما تريد أن تصنع بي ؟ قال : أذبحك وآكلك ، قالت : والله ما أشق من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أطلبك ثلاث خصال هي خير لك من أكلى : أما واحدة : فأعطيك وأنا في يدك ، وأما الثانية : فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الأولى ، قالت : لا تلتهن على ما فاتك ، غلاما فلما صارت على الشجرة قال : هات الثانية : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : يا شقي لو ذهبتى لأخرجت من حوصلى ديزين زنة كل دقة عشرون مثقالا ، قال : فمض على شفته وتلف وقال : هات الثالثة ، قالت : أنت قد نسيت اللتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلتهن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أن يكون ، أنا لحي ودي ورشي لا يكون عشرون مثقالا فكيف يكون في حوصلى درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت . وهذا مثال لفرط طمع الأدنى فإنه يعميه عن دوك الحق حتى يفتقر مالا يكون أنه يكون . وقال ابن السماك : إن الرجاء جبل في قلبك وفيدي في رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدي : دخلت على الرشيد فرجسته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب ، فلما رأى أني تبسم ، قلت : فأندة أصلع الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدت هذين البيتين في بعض خرائن بني أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا . وأشدني :

إذا سد باب عنك من دون حاجة فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سومات الأمور اجتنبها
ولا تملك ميلا لمرضك واجتنب ركوب المعاصي يمتنك عذابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء إذ دعوها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشراء النفس وطلب الخواص . وقال رجل للفضيل : فسر لي قول لكعب ، قال : يطعم الرجل في الشيء يطليه فيذهب عليه دينه ، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا عصاهما لك حرم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له . فمن حبك للدنيا سلبت عليه

إذا مرت به وعده إذا مرض ؛ لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تدهقه ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك . ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من يجيب أمر الإنسان انه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوئ خلقته من الحرص على الجمع أكثر عما قد استعمله مع قصر مدتها تتمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مرت برأهب فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من بيدر اللطيف الخبير ، الذي خلق الرسا بأنيها بالطيحين - وأرمأ بيده إلى رسا أحراسه - فسيحان التقدير الخبير .

بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذي يكسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر والملم والعمل ، وجميع ذلك خمسة أمور :
 الأول : وهو العمل ؛ الاقتصاد في الميشة والرفق في الإنفاق ، فن أورد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلا مالا يده منه ، فن كثر خرجة وتوسع إنفاقه لم تمسكه القناعة ، بل إن كان وحده فينبغي أن يقيم ثوب واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ؛ يقلل من الإدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر ؛ فإن هذا القدر ينير بأدى جهده . ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في الميشة وهو الأصل في القناعة ؛ وفيه به الرق في الإنفاق وترك الخرق فيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الرفق بالمرءة »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات ؛ خشية الله في السر والعلانية ، والصدق في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب »^(٣) ، وروى أن رجلا أبصر أبا الرداءة يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من قهقهة رفقك في معيشتك . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة »^(٤) . وفي الخبر « التدبير نصف الميشة »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمرا فليعلك بالتؤدة حتى يحصل الله لك فرجا ومخرجا »^(٧) « والتؤدة في الإنفاق من أم الأمور .

الثاني : أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا يبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق ، بل يبغي أن يكون واثقا بوعد الله تعالى إذ قال عز وجل ﴿ وما من حاة في الأرض

(١) حديث « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « ما عال من اقتصد » أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ « مقتصد » (٣) حديث « ثلاث منجيات ؛ خشية الله في السر والعلانية والصدق في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب » أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الصعي من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقدم وتأخير وقال « الست الصالح » وقال « من غبه وعشرين » ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال « التؤدة » بدل « الهدى الصالح » وقال « من أرمه » (٥) حديث « التدبير نصف الميشة » رواه أبو أمامة بن عمرو الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلل بن عيسى جهل القيل ووجه ابن مينا . (٦) حديث « من اقتصد أغناه الله ... الحديث » أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « ومن ذكر الله أحبه الله » وشيئة فيه عمران بن حارون البصري قال القمي : شيخ لا يعرف حاله إلى غير منكر أي هذا الحديث ، ولأحمد وأبو داود في حديث أنس بسند « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » (٧) حديث « إذا أردت أمرا فليعلك بالتؤدة حتى يحصل الله فيه فرجا ومخرجا » رواه ابن المبارك في البر والصلوة وقد تقدم (٣١) — إحياء علوم الدين — (٣)

إلا على الله رزقها) وذلك لأن الشيطان يمدد الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تسهر وتحتاج إلى احتيال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضطره عليه في احتياله التمس بقندا مع الغفلة عن الله فتوم ثوب في ثاني الحال وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

ومن يفتق الساعات في جمع ماله عصفاه فقر فألذي فعل: الفقير

وقد دخلنا أينا عاهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: لا بأساً من الرزق ما تهزمت رموكاً فإن الإنسان علمه أمه أحر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى (١) ، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن مسعود وهو حزين فقال له: لا تكثر منك ما قدر يكن وما ترزق يأهلك (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم: ألا أيها الناس أجعلوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبداً من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة (٣) ، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن فته بتدبيره تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لاحتاجة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحسب أكثر قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحسب) فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله، وقال صلى الله عليه وسلم: أي الله أن يرزق عبده للمؤمن إلا من حيث لا يحسب (٤) ، وقال سفيان: اتق الله فما رأيت تقياً محتاجاً. أي لا يترك التقي قائداً لضرورته، بل يلقى الله في قلوب السليمان أن يوصلوا إليه رزقه. وقال المنفلوطي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال نذر الحاج وقلت: فإذا صدروا، فسبك وقال: لولم نمش إلا من حيث ندرى لم نمش، وقال أبو حازم رضى الله عنه: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لى، فأن أعمله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض. وشيئاً منهما هو لنفسي فذلك لم أنه فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى، يمنع الذى لنفسي منى كما يمنع الذى لى من غيرى، ففى أى هذين أفنى عمرى؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لنفخ تخويف الشيطان. وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعرف مافى القناعة من عز الاستثناء وما فى الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب، وفى الطمع لا يخلو من ذل. وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول. وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة. وذلك بما يضاف إليه نظر الناس وفيه الويال والمأسم. ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه للمدانة، وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو تركك العقل ناقص الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: عز للمؤمن استثناءه عن الناس (٥) ، وفى القناعة الحزينة

(١) حديث « لا بأساً من الرزق ما تهزمت رموكاً ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث: حبة وسواء ابن خاذ، وقد تقدم. (٢) حديث « لا تكثر منك ما قدر يكن وما ترزق يأهلك » قاله ابن مسعود أخرجه أبو يعين من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحته ورواه الأسفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المذافرى مرسل (٣) حديث « ألا أيها الناس أجعلوا فى الطلب ... الحديث » تقدم قبل هذا ثلاثة عشر حديثاً.

(٤) حديث « أي الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحسب » أخرجه ابن جرير فى النسخة من حديث على بن إسناد رواه، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات. (٥) حديث « عز للمؤمن استثناءه عن الناس » أخرجه الطبراني فى الأوسط والمجاكم وصححه إسناده، وأبو الفيض فى كتاب الثواب، وأبو يعين فى الحلية من حديث سهل بن سعد: أن جبريل قال لنبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث « وفيه زفرين سليمان من عهد بن مينة وكلاماً مختلف فيه وسجدة لفضاضة من سجد المصائب من قول لنبى صلى الله عليه وسلم

والمر . ولذلك قيل : استغن عن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرابع : أن يكثر تأمل في تعمم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحق من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لادين لهم ولا عقل . ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمات الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم . ويخبر عقله بين أن يكون على مشابة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعر أصناف الخلق عند الله ، حتى يكون عليه بذلك الصبر على الضيق والقناعة باليسير ، فإنه إن تمتع في البطن فالحمار أكثر أكله منه وإن تمتع في الوقاع فالحنظير أعلى رتبة منه ، وإن زين في الملبس والحق في اليهود من هو أعلى رتبة منه ، وإن قنع بالقليل ورضى به لم يساهم في رتبته إلا الأنبياء والأولياء .

الخامس : أن يفهم مافي جمع المال من الخطر - كما ذكرنا في آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضيق ؛ وما في خلو اليد من الأمن والفراغ ، ويتأمل ماذكرناه في آفات المال مع مايقوته من المدافعة من باب الجنة إلى خمسينة عام ، فإنه إذا لم يتع بما يكفيه الحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول : لم تنفع عن الطلب وأرباب الأموال يطمعون في المطاعم والملابس ؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول : ولم تضيق على نفسك وتغاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ؟ والناس كلهم مشغولون بالتعمم فلم يرد أن تستبين عنهم ؟ قال أبو ذر : أوصاني خليل صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوق ^(١) أي في الدنيا . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل عليه ^(٢) » فهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وحماد الأمر الصبر ونفس الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل فتنتع ذمرا طويلا ، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طعمه في انتظار الشفاء .

بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطفاع المعروف والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة . وعنه عبر التي صلى الله عليه وسلم حيث قال « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بنفسها قاده ذلك الفتن إلى الجنة ^(٣) » وقال جابر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال جبريل عليه السلام . قال الله تعالى إن هذا دين أرحمته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم ^(٤) » وفي رواية « فأكرموه بهما ما محببتموه » وعن عائشة الصديقيرضى

(١) حديث أبي ذر : أوصاني خليل صلى الله عليه وسلم أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوق « أخرجه أحمد وابن حبان في أثناء حديث وقد تقدم (٢) حديث أبي هريرة « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه بمن فضل عليه » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث « السخاء شجرة في الجنة .. الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عمر والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسياق بيده وأبو بكر من حديث جابر وكلاهما ضيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد (٤) حديث جابر مرافقا حكاية من جبريل من الله تعالى « لن هذا دين أرحمته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطني في المستجاد وقد تقدم

الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جيل الله تعالى ولها له إلا على حسن الخلق والسخاء »^(١) وعن جابر قال . قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال « الصبر والسجدة »^(٢) وقال عبد الله بن عمرو . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان ييئضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان ييئضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فى قضاء حوائج الناس »^(٣) وروى المتقدم بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دلتنى على عمل يدخلنى الجنة قال « إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام »^(٤) وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة فى الجنة فمن كان سخيّا أخذ بفنن منها فلم يترك ذلك الفنن حتى يدخله الجنة »^(٥) وقال أبو سعيد الخدرى . قال النبي صلى الله عليه وسلم ويقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرءاء من عبادى تعيشوا فى أكتافهم فأتى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فأتى جعلت فيهم مخطئى »^(٦) وعن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تحافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر »^(٧) وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البير وإن الله تعالى لياهى بمطعم الطعام الملاكمة عليهم السلام »^(٨) وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفاسفها »^(٩) وقال أنس . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا

(١) حديث عائشة « ما جيل الله ولها له إلا على السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد دون قوله « وحسن الخلق » بسند ضيف ومن طريق ابن الجوزى فى الموضوعات وذكره بهذا الزيادة ابن عدى من رواية ياقب عن يوسف بن أبى السفر من الأوزامى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، ويوسف ضيف جدا (٢) حديث جابر : أى الإيمان أفضل ؟ دل « الصبر والسجدة » أخرجه أبو يعلى وابن جابر فى السخاء بلفظ : مثل عن الإيمان . وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضيفه الجمهور ورواه أحمد بن حديث عائشة وعمر بن عتبة بلفظ : ما الإيمان ؟ قال « الصبر والسجدة » وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى فى الزهد بلفظ : أى الأعمال أفضل قال « الصبر والسجدة وحسن الخلق » وإسناده صحيح (٣) حديث عبد الله بن عمرو « خلقان يحبهما الله وخلقان ييئضهما الله ، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء ... الحديث » أخرجه أبو منصور البيرى دون قوله فى آخره « وإذا أراد الله بعبد خيرا » وقال فيه « الصغارة » بدل « حسن الخلق » وفيه محمد بن يونس الكديمى كذب أبو داود وموسى بن هرون وغيره ورواه الخطيب ، وروى الأسفهانى جميع الحديث مولوا على عبد الله بن عمرو ، وروى الديلمى أيضا من حديث أنس « إذا أراد الله بعبد خيرا صبر حوائج الناس إليه » وفيه يحيى بن شبيب ضيفه ابن جابر (٤) حديث المتقدم بن شريح عن أبيه عن جده « إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام » أخرجه الطبرانى بلفظ « بذل السلام وحسن الكلام » وفى رواية له « يجب الجنة إطعام الطعام وإفشاء السلام » وفى رواية له « عليك بحسن الكلام وبذل الطعام » (٥) حديث أبي هريرة « السخاء شجرة فى الجنة ... الحديث » وفيه « والشح شجرة فى النار ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وفيه عبد العزيز ابن عمران الزهرى ضيف جدا (٦) حديث أبي سعيد « يقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرءاء من عبادى تعيشوا فى أكتافهم ... الحديث » أخرجه ابن جابر فى السخاء والمخارم فى مكارم الأخلاق والطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن سهراب السدى الصغير ضيف ، ورواه البشير فى الضعفاء جلله عبد الرحمن السدى وقال أنه مجهول ، وتابع محمد بن سهراب السدى عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غرره ابن الضائل ، وتابعه عليه عبد الفتاح بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حامد لأبى عبد الله وتكلم فى الجوزجاني والأزدي ، ورواه الحاكم من حديث على بن وهب قال له صحيح الإسناد وليس كما قال .

(٧) حديث ابن عباس « تحافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والمخارم فى مكارم الأخلاق . وقال الخرائمى « أبلغوا السخي زنته » وفيه ليث بن أبى سليم يختلف فيه ورواه الطبرانى فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطنى (٨) حديث ابن مسعود « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البير ... الحديث » لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ « خير أسرع إلى البيت الذى يفتى » وفى حديث ابن عباس « يؤكل فيه من الصفر قلى ستام البير » ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر « الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء ... الحديث » وكلها ضعيفة (٩) حديث « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأمور ويكره سفاسفها » أخرجه الخرائمى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله ابن كرز وهذا مرسل والطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد « إن الله كرم يحب الكرم ويحب مكارم الأمور » وفى الكبير والبيهقى « مكارم الأخلاق ... الحديث » وإسناده صحيح وهمم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

أعطاه ، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاة كثيرة بين جبلين من شاء الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ؛ فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة ^(١) ، وقال ابن عمر : قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن لله عبادا ينصهم بالنعم لمنافع العباد ، فمن بخل بثلث المنافع على العباد قلها الله تعالى عنه وحولها إلى غيره ^(٢) ، وعن الحسن قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسرى من بني النضير فأمر يقتلهم وأفرد منهم رجلا ، فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فإياك هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : نزل على جبريل فقال : اقتل هؤلاء وارك هذا فإن الله تعالى شكر له سبحانه فيه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تسجيل السراح ^(٤) ، وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه ^(٦) ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكروا من شيء لأنكم لا تبار ، وقيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الجنة دار الأسحياء ^(٧) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإن البخيل بعيد من الله من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وسجاهل سعى أحب إلى الله من عالم بخيل ، وأدوأ الهاء البخيل ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للسلين ^(١٠) ، وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن

(١) حديث أنس : لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فأما رجل فسأله ، فأمر له بهاء كثير بين جبلين ... الحديث . أخرجه مسلم وهدى في أخلاق النبوة

(٢) حديث ابن عمر : لأن لله عبادا ينصهم بالنعم لمنافع العباد ... الحديث « أخرجه البخاري في الكبير والأوسط وابن عديم وعبد بن حسان السنن وفيه ابن وولته ابن ميم مروي عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعف الأزدى (٣) حديث الحسن : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بني النضير فأمر يقتلهم وأفرد منهم رجلا ... الحديث » وفيه « فإن الله شكر له سبحانه فيه » لم أجده له أصلا (٤) حديث « أن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تسجيل السراح » لم ألق له على أصل (٥) حديث نافع عن ابن عمر « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء » أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وأبو يعلى الصفدي في موائيه رجاله بنات أئمة قال ابن القطان ولهم لحاهم بنات لا مقدم بن دلود لأن أهل مصر تركوا فيه .

(٥) حديث « من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه » رواه ابن عدي وابن جابر في الشفاء من حديث معاذ بنطيظ « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره » وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الدارقطني في معترك الأخلاق من حديث عمر بن الخطاب مطيع ، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ، ورواه الطيالسي من حديث ابن عباس قال ابن عدي مروي من وجوده كلها غير محفوظة (٧) حديث عائشة « الجنة دار الأسحياء » أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والمحرطاني قال الدارقطني لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات . وقال الأدهمي حديث منكر ما أخته سوى جعفر قالت : رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضيف جدا (٨) حديث أبي هريرة « لأن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال قريب ولم يذكر فيه « وأدوأ الهاء البخيل » ورواه بهسذه الزيادة الدارقطني فيه (٩) حديث « اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عرسلا وهدى في آداب الميعة (١٠) حديث « أن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن نلال في معترك الأخلاق من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز الماركي الفيدي أورد ابن عدي له ما ذكره ، وفي الميزان أنه ضيف منكر الحديث ، ورواه المحرطاني في معترك الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المري منكر فيه .

الله عز وجل جميل للعروف وجوها من خلفه حب إليهم المعروف وحب إليهم فماله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطائه كما يسر النيث إلى البلدة الجديدة فيحبها ويحبى به أهلها ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعل الله خلفها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة والمال على الخير كفضله الله يحب إعانة اليتامان ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة ^(٤) » ، وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي وقال جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة لجهدوا فصر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجود لمن شية أهل ذلك البيت ^(٥) » . الآثار : قال علي كرم الله وجهه : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تنفي ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تنحب : وأشد :

لا يتخلن بدنيا وهي مقبلة فليس يتقصها التذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فأنفق منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهما عن المروءة والتجدة والكرم فقال : أما المروءة لحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيغه وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية . وأما التجدة فالذب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل التامل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت في رقتك ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن ذلك مقامه بين يدي حتى أقرأ رقتك . وقال ابن السكيت عجب لمن يشتري المال بكماله ولا يشتري الأحرار بمرؤفه . وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من أحتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهنا وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف يبذل ماله لطلابه لم يكن سخياً وإنما السخي من يبتدئ بمقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكره إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاماً . وقيل للحسن البصري ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل فما الحرم ؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياضة . وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أحرص من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كاللشاعة إلا وإن الله عز وجل يقول : إني جواد كريم لا يمحورني ثيم والثوم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة

(١) حديث أبي سعيد « إن أهل جمل للعروف وجوها من خلفه حب إليهم المعروف ... الحديث » أخرجه المارغلاني في المستجاد من رواية أبي هريرة النبي عنه وأبي هريرة ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه (٢) حديث « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ... الحديث » أخرجه ابن عديم المارغلاني في المستجاد والمارغلاني في التيقظ للصب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الملال ورواه ابن حبان وضعفه الجمهور ، والجلية الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة (٣) حديث « كل معروف صدقة والمال على الخير كفضله الله يحب إعانة اليتامان » أخرجه المارغلاني في المستجاد من رواية المصالح بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده المصالح ضعيف والبيهاقم في الجلية الأولى تضمنت قبله والجلية الثانية تضمنت في العلم من حديث أنس وغيره والجلية الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس وفيها زياد الضمير ضعيف . (٤) حديث « كل معروف فعلته إلى غنى أو فقير صدقة » أخرجه المارغلاني في من حديث أبي سعيد وجابر والبيهاقم في المارغلاني كلاماً في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين (٥) حديث جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة لجهدوا فصر لهم ... الحديث . وفيه « فقال لمن الجود لمن شية أهل ذلك البيت » أخرجه المارغلاني في من رواية أبي حنيفة الحميري عن جابر ولا يرف اسمه ولا حاله .

رضي الله عنه رب طاهر في دينه أخرق في ميثقه يدخل الجنة بسياحته . وروى أن الأحف بن قيس رأى رجلاً يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لي فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل :

أنت للسال إذا أمسكته فإذا أنفقتة فالسالك

وسمى واصل بن عطاء : الفزال ، لأنه كان يجلس إلى الفزاليين ؛ فلذا رأى امرأة ضعيفة أعطاهم شيئاً . وقال الأصمعي كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي ورضوان الله عليهم يعتب عليه في إعطاء الثمراء فكتب إليه خير السال ما وقي به المرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمال . قال وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صرورا إلى إخوانه . وقال قد كنت أسأل الله تعالى لأخواني الجنة في صلاتي أفأجزل عليهم بالمال ؟ وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود متبهي الجود . وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثرت أيديه عندي ، قيل : فإن لم يكن ، قال من كثرت أيادي عنده . وقال عبد العزيز مروان إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضاع معروفه عنده فیده عندي مثل يدي عنده . وقال للمهدي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في داري ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راحياً ويمثل ممثلاً عند عبدالله بن جعفر فقال :

إن الصنية لا تكون صنية حتى يصاب بها طريق للمصنع

فلذا اصطنعت صنية فاعمد بها لله أو لدوى القرباة أو دوح

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين البيتين ليخيلان الناس ، ولكن أطر المرفوف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا وإن أصاب اللئام كنت له أهلا .

حكايات الأسياء

عن محمد بن المنكدر عن أم درة - وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها - قالت إن معاوية بعث إليها بمال في شراريتين ثمانين ومائة ألف درهم ، فهدت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمسيت قالت بأجارية لم تطوري بلحمتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة . ما استطعت فبما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحا نطبخ عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتي ليفعلت .

وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فألقى وجوه فريش فقال يقول لكم غيبه الله فتعدوا عندي اليوم ، فأتوه حتى ملأوا عليه الدار ، فقال ما هذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا وخبزوا ، وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا ، فقال عبيد الله لوكلاءه أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم ، قال فليتنقذ عنا هؤلاء في كل يوم .

وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة ، فقال الحسين بن علي لأخيه الحسن لا تنقه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية ، قال الحسن إن علينا ديناً فلا بد لنا من إتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه ، ففروا عليه يخبئ عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتختلف عن الإيل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية ما هذا ؟ فنذكر له ، فقال اصرفوه بما عليه إلى أبي محمد .

وعن وائد بن محمد الواقدي قال حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه ، فوقع المأمون على ظهر رقعة ذلك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق

ما في يدك ، وأما الحياء فهو الذي يملكه عن تبليغنا ماأنت عليه ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فأزدد في بسط يدك ، وإن لم أكن قد أصبت لجنايتك على نفسك . وأنت حدثني وكنت على قضاء الرشيد ؛ عن محمد بن إسحق عن الزهري عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لؤبيرة بن العوام « يا زبير اعمل أن مفاتيح أرزاق العباد يلازم العرش يبعث الله عز وجل إلى كل عبد قدر نفقته ، فمن كثر كثر له ، ومن قل قل له وأنت أصل »^(١) ، قال الواقدي : فوافقه لذاكرة المؤمن لرباه بالحديث أحب إلى من الجائزة وهي مائة ألف درهم .

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له : يا هذا حق سؤالك لرباه يعظم لدى ومعرفتي بما يجب لك تكبر على ، ويدي تسجر عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير في ذات الله تعالى قليل ، وما في ملكي وقاه لشكره ، فإن قبلت للمسور ووفقت عن مؤنة الاحتمال والاحتياح لما أتكلفه من واجب حقك فعلت ، فقال : يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع ، فدعا الحسن يركيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استصاها فقال : مات الفضل من الثلاثمائة ألف درهم ، فأحضر خمسين ألفا قال : فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال : هي عندي ، قال أحضرها ، فأحضرها فدفعت الدنانير والدرهم إلى الرجل وقال : مات من يحملها لك ، فأما بهالين فدفعت إليه الحسن ردها لكرام الخالين ، فقال له مواليه : والله ما عندنا درهم فقال : أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم .

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا : لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد تزوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلها داره وقنع صندوقا فأخرج منه ست بدر فقالوا : أحملوا ، فحملوا فقال : ابن عباس ما أنصفناه أعطياه ما يشقه عن قيامه وصيامه ، أرجعوا بنا تكن أعوانه على تجهيزها فليس لدينا من القدر ما يشغل مؤننا عن صباغة ربه ، وما بنا من الكبر ما نلخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال : والله لأعلن الشيطان أني عدوه ؛ فقال عاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم فرحل ولتجار عليه ألف ألف درهم ، فرفضهم بها حتى نساءه وقيمتها خمسمائة ألف ألف ؛ فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تله صلاته .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل . بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي ثغلك بموضع كذا وكذا ، فقال : قد فعلت ، وحقه لأحبيتك ما يليها ، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فندسه بعض الشعراء فقال للشاعر : والله ما عندني ما أصليتك ولكن قدمني إلى القاضي وأدع على بمشرة آلاف درهم حتى أقولك بها ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتكفرون بحبوسا ، ففعل ذلك فلم يس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان ممن بن زائدة عاملا على العراقيين بالبصرة لحضر بابه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على ممن فلم يتيأ له فقال يوما لبعض خدامه ممن : إذا دخل الأمير البستان فمترقي ، فليدخل الأمير البستان أعليه ، فكتب الشاعر بيتا على خضبة وألقاه في الماء الذي يدخل البستان وكان ممن على رأس الماء فلما بصير بالخضبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها .

(١) حديث أنس « يا زبير اعمل أن مفاتيح أرزاق العباد يلازم العرش ... الحديث » وفي أوله قصة مع المؤمنين أخرجه الواقدي في وثق استاده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالفتح والاصح .

أياجود معن تاج معنا بجاجتي فلى إلى معن سواك شنيع

فقال : من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال له ، فأمر له بمشرب بدر ، فأخذها ووضع الأمير الخبثية تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجهما من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم ، فلما أخذها الرجل تفكر وعاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج ، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن : حق على أن أعطيه حتى لا يبق في بيت مالى ولا دينار .

وقال أبو الحسن اللدائي : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا ففاتهم أمثالهم فجاءوا وعطشوا ، فزورا بمجوز في شياه لما فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت نعم ، فأتاها وإليها وليس لها إلا شوية في كسر الخمية فقالت : احلبوها وامتنعوا لبنا . ففعلوا ذلك ثم قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا ، إلا هذه الشاة فليذهبها أحدهم حتى أهبي لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم ميات لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فلذا رجعتنا سالمين فألمى بنا فإنا صائمون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال : ويحك تدعين شاتي لقوم لا تعرفهم ، ثم قولين نفر من قريش ؟ قال : ثم بعد مدة ألبأتها الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلها وجعلها يتفقد البعر إليها ويبيمانه ويتمشان بشته ، فزوت المجوز ببعض سلكه للمدينة ، فلذا الحسن بن علي جالس على باب داره ففرق المجوز وهي له منكرة ، فبعت غلامه فدعا بالمجوز وقال لها : يا أمه الله أنرفيني ؟ قالت : لا قال : أنا صيفك يوم كذا ويوم كذا ، فقالت المجوز : بأني أنت وأمي أنت هو قال : نعم ثم أمر الحسن فاشترى لها من شياء الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعت بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين : بكم وصلك أخى ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعت بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها عبد الله بألف شاة وألف دينار ، وقال لها : لو بدأت بي لأتعبتها ، فرجعت المجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار .

وخرج عبد الله بن عامر بن كرب من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك رأيتك تشى وحدك فقلت أقبلك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بمناكب مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال : استغنى هذه فقم ما أهلك أهلك .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياتهم للزيارة ، فزفوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاموا من سفر بعيد ؛ فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين ، فقال له في النوم : نعم ، فباعه في النوم بعيره بنجيبه ، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره ففصره في النوم ، فأنبى الرجل من نومه فلذا الدم شج من نحر بعيره ، فقام الرجل ففصره وقسم لحمه فطبخه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب ، فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منكم ؟ - باسم ذلك الرجل - فقال : أنا ، فقال له هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر ، قال : نعم بعت بعيرى بنجيبه في (٣٢ - أسخياء علوم الدين - ٣)

اليوم ، فقال : خذ هذا نجية ، ثم قال : هو أبي وقد رأيته في النوم وهو يقول : إن كنت ابني فادفع نجيتي إلى فلان بن فلان وسماه .

وقدم رجل من قريش من السفر فتر رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أغمده الدهر وأضر به المرض ، فقال : يا هذا أتنا على الدهر فقال الرجل لنلامه : ما بقى منك من الثففة فأدفعه إليه ، فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم ، فذهب لينفض فلم يقدر من الضعف ، فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقلت ما أعطيك ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عتبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خاله فقال لأهله : ما هؤلاء ؟ قالوا يسكرون لناهم ، فقال يا غلام اتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا .

وقيل بعت هرون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار ؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأغضب إليه ألف دينار ، فغضب هرون وقال أعطيت خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيي ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار ؛ فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمه الله عليه شيئا من عسل ، فأمر لها برفق من عسل ، فقيل له إنها كانت تمنع بدون هذا ؟ فقال . إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيا على قدر النعمة علينا . وكان الليث ابن سعد لا يشك كل يوم حتى يتصدق على ثلثائة وستين مسكينا .

وقال الأعمش : اشتكت شاة عندى فكان خيشة بن عبد الرحمن يعودها بالعداء والعشى ويسألني هل استوفت عليها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ مانتك البلد ، حتى وصل إلى في علة الشاة أكثر من ثلثائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تهرأ .

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن عارضة : بلغني عنك خصال لحدثني بها ، فقال : هي من غيري أحسن منها مني ، فقال : عزمت عليك إلا حدثني بها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جالس لي قط ، ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على مني عليهم ، ولانصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئا فاستكرت شيئا أعطيت إياه .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأل له صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

لأن سمعت مع الصباح مناديا يا من يعين على التقي المعوان

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : ديني ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دينك ومثله .

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال : أخرى الله ما يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر متاديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء ، قال : فأنكرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده .

وعن أبي إسحق قال : صليت العصر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريما لي ، فلما صليت وضع بين يدي حلة ولملان ، فقلت : لست من أهل هذا المسجد ، فقالوا : إن الأشعث بن قيس الكندي قدم البصرة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة وملين .

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي التيسابوري رحمه الله : سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع الفقهاء شيئا ، فولد لبعضهم مولود قال : لجئت إليه وقلت له : وليل مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء ، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحمه الله كنت تفعل وتفنع وإلى دوت اليوم على جماعة فكففتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء ، قال : ثم قام وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وناولني نصفه ، وقال : هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء ، قال : فأخذته وانصرفت فأصلحت ما أتفق لي به قال : فرأى ذلك الخصب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال : سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ، ولكن احضر منزل وقل لأولادي يحضروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسة دنانير فأحلبها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدمت إلى منزل الليث وقص عليهم القصة فقالوا له : اجلس وحضروا الموضوع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم وليس لرواي حكم ، فقالوا : هو يتسخر ميتا ولا تقسخي نحن أحياء ؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها ديناراً ففسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحل النصف الآخر ، وقال : يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أي هؤلاء أحق ؟

وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مروا فلانا ينسلني ، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال : اتوني بتذكريته ، فأتى بها فظفر فيها فلذا على الشافعي سيمون ألف درهمين ، فكتبها على نفسه وقضاهما عنه ، وقال هذا غسلي إياه ؟ أي أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سببا الخير وآثار الفضل فقلت بلغ آرمي الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى (وكان أبوهما صالحا) وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكبا حماره فاقطع زره ، فز على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط والله لازلت أقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلها إلى الخياط واعتذر إليه من قتلها ، وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه :

يا لهف قلبي على مال أجود به على اللعين من أهل المروءات
لئن اعتذاري إلى من جاء يسألني مائيس عندي لمن إحدى الصيحات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال يارب أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه حتى وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بمشرة آلاف دينار ففرضت خيابه في موضع خارج عن مكة ونورها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونقض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال ، وكان قلبا يمسكه شيئا من سمائه ، فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك ، قال فخرج ثم قدم علينا فمأته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكن أن أشتريها لمعرفي بأصلها وقد وثق أكثرها ، ولكني بنيت بني مصر يا يكون لأصحابنا إذا حبرا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول .

أرى نفسي تنوق إلى أمور يقصر دون مبلغن مالي
فنفي لا تطاوعني يخل ومالي لا يلغني فسالي

وقال محمد بن عباد المهلبى . دخل أبى على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون ، فبلسا حاد إليه عاتبه المأمون فى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، فوصله بمائة ألف أخرى .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال - أبكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلاً فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه . وقال - عسى أن أقوم من مرضى فأكافته ، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرتقى من الصفد

كما الدرهم والدنانير فى البيع حرام إلا يدا يد

فلما وصل البيت إلى إبراهيم قال لحاجبه . كرام أقام بالباب ؟ قال - شهرين . قال - أعطه ثلثين ألفاً وجئى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأناك عاجل برقا فلا ولو أمهلتنا لم نقل

نخذ القليل ولكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لثمانى على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة . قد تيمم مالك فأقبضه ، فقال - هو لك يا أبا محمد معونتك على مروءتك . وقالت سعدى بنت عوف . دخلت على طلحة فرايت منه نقلاً فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غنى ، فقلت وما يملك ادع قولك ؟ فقال يا غلام على بقوى ، فقمه فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال : أربع مائة ألف . وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرّب إليه برحم فقال : إن هذه الرحم ماسأتى بها أحد قبلك ، إن لارضاء قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فإن شئت فأقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن . وقيل بكى على كرم الله وجهه يوماً فقيل : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتنى صيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهانتى .

وأبى رجل صدقاً له فدق عليه الباب فقال ، ما جاء بك ؟ قال على أربع مائة درهم دين ، فوزن أربع مائة درهم وأخرجها إليه وعاد يسكى ، فقالت امرأته لم أعطيتك إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتيحى فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

بيان ثم البخل

قال الله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لم بل هو شر لهم يصدّقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حلهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح »

(١) حديث « إياكم والشح .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال « وأما الشح فإن الشح .. الحديث » ، ولأبى داود والنسائى فى الكبرى وابن جرير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « إياكم والشح فإنما ملك من كان قبلكم الشح » =

فإنه دعا من كان قبلكم ففسكوا دماءهم ودعاهم فقتلوا عارهم ودعاهم فقتلوا أرواحهم ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا عائن ولا سيء الملكة ^(٢) ، وفي رواية : ولا جبار ، وفي رواية : ولا منان ، وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات : شحم مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يفض ثلثة : الشيخ الزاني ، والبخيل اللتان ، والميل المختال ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل المنافق كبخل رجلين علمهما جبتان من حديد من لدن فديهما إلى ترافهما ، فأما المنافق فلا ينق شيئا إلا سبقت أو وفرت على جلده حتى يخفى بانه ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قصصت ولومت كل حقة مكانها حتى أخذت بترافيه فهو يرسمها ولا تقص ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إياكم والنظر فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكسب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطعية فقتلوا ^(٨) . وقال صلى الله عليه وسلم : شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع ^(٩) وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته بأية فقالت : واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أنه شهيد فقله كان يتكلم فيها لا ينيه أو يبخل بما لا يتقصه ^(١٠) ، وقال جبير بن مطعم : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علق رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة غطفت رداءه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فقال : أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العصاة لعمدا لقسمت بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ^(١١) . وقال عمر رضي الله عنه : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كان أحق به

= أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطعية فقتلوا وأمرهم بالفجور ففجروا ^(١) . حديث « إياكم والشح فإنه دمان كان قبلكم ففسكوا دماءهم ودعاهم فقتلوا عارهم ودعاهم فقتلوا أرواحهم » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بلفظ « حرمتهم » مكان « أرواحهم » وقال صحيح على شرط مسلم ^(٢) . حديث « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا عائن ولا سيء الملكة » وفي رواية « ولا منان » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله « ولا منان » فهي عند الترمذي وله ولاين ما به « لا يدخل الجنة سيء الملكة » ^(٣) . حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم في العلم ^(٤) . حديث « إن الله يفض ثلثة : الشيخ الزاني والبخل اللتان والفحش المختال » أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله « البخل اللتان » وقال فيه « الذي الظالم » وقد تقدم ولطيف في الأوسط من حديث علي « إن الله يفض ثلثة : الشح المطاع والهوى المتبع والإعجاب المرء بنفسه » ^(٥) . حديث « مثل المنافق والبخل رجلين علمهما جبتان من حديد من لدن فديهما إلى ترافهما » الحديث « شح هالع وجبن خالع » ^(٦) . حديث « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال فريب ^(٧) . حديث « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن ... الحديث » أخرجه البخاري من حديث سعد وهدم في الأذكار ^(٨) . حديث « إياكم والنظر فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « أمرهم بالكسب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا » قال عوسا عنها « والبخل فبخلوا والفجور ففجروا » وكذا رواه أبو داود عن ذكر الشح وقد هدم قبله بسمة أحاديث وأسلم من حديث جابر « أهوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة وأهوا الشح » فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش .

^(٩) . حديث « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع » أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد ^(١٠) . حديث « وما يدريك أنه شهيد فقله كان يتكلم فيها لا ينيه أو يبخل بما لا يتقصه » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت إنك الدهادة وهو عند الترمذي : إلا أن رجلا قال له أيعمر بالجنة ^(١١) . حديث جبير بن مطعم . بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر علق الأعراب به ... الحديث « أخرجه البخاري وهدم في أخلاق النبوة .

منهم؟ فقال: إنهم يخبروني بين أن يسألوني بالقحش أو يخلوني ولست ياخذ (١) ، وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن بعير فأعطاهما دينارين؛ فخرجا من عنده فلقبهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالوا معروفاً وشكراً ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بهما قالاً: فقال صلى الله عليه وسلم: لكن قلان أعطيتهم مائتين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسأله متابعها وهي نار؛ فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: «يا بون إلا أن يسألوني ويأتي الله لي البخل» (٢) ، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجود من جود الله تعالى فحودوا بحمد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود لجملة في صورة رجل وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة طوي، وشدة أغصانها بأغصان حذرة المتهى، ودل بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بنصن منها أدخله الجنة، ألا إن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة. وخلق البخل من مقتته وجعل رأسه راسخاً في أصل شجرة الزقوم ودل بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بنصن منها أدخله النار، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار» (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ الجنة إلا سقى، والبخل شجرة تنبت في النار فلا يبلغ النار إلا بحبل» (٤) ، وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بني لحيان: «من سيديكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جد بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل، فقال صلى الله عليه وسلم: «وأي داء أدوا من البخل ولكن سيديكم عمرو بن الجوح» (٥) ، وفي رواية أنهم قالوا: سيدنا جد بن قيس، فقال: «م تسودوه؟» قالوا: إنه أكثر مالا وأنا على ذلك لئري منه البخل، فقال عليه السلام: «وأي داء أدوا من البخل ليس ذلك سيديكم»، قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قالوا: «سيديكم بشر بن البراء»، وقال علي رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ينص البخل في حياته السخى عنه موته» (٦) ، وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخیل» (٧) ، وقال أيضاً: قال صلى الله عليه وسلم: «السخى والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد» (٨) ، وقال أيضاً: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق» (٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً» (١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم: «يقول قائلكم الشحيح عليه وسلم»

- (١) حديث عمر: قسم التي صلى الله عليه وسلم فيها... الحديث « وفيه » ولست ياخذ... أخرجه مسلم
(٢) حديث أبي سعيد: في الرجلين الذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقبهما عمر فأثنيا وقال معروفاً... الحديث. وفيه « ويأتي الله لي البخل » رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري نحوه ولم يقل أحمد: إنها سألاه عن بعير. ورواه البخاري من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثلاث (٣) حديث ابن عباس: «الجود من جود الله وجوداً مجداً لكم... الحديث» بطوله ذكره صاحب التردوس ولم يخرجوه وقد في مسندهم ألف له على استناد (٤) حديث « السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يبلغ إلى الجنة إلا سقى... الحديث » تقدم دون قوله « فلا يبلغ إلى الجنة » إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب التردوس من حديث علي ولم يخرجوه وقد في مسندهم.
(٥) حديث أبي هريرة: «من سيديكم يا بني لحيان؟» قالوا: سيدنا جد بن قيس... الحديث « أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم فقط » يا بني سلفه. « وقال سيديكم بشر بن البراء » وأما الرواية التي قال فيها « سيديكم عمرو بن الجوح » فرواها البخاري في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن (٦) حديث علي « لأن الله لينص البخل في حياته السخى عنه موته » ذكره صاحب التردوس ولم يخرجوه وقد في مسندهم ولم أجده له استناد (٧) حديث أبي هريرة « السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخل » أخرجه الترمذي بإسناد ورجاهل سقى وهو بقية حديث « إن السخى قريب من الله » وقد تقدم (٨) حديث أبي هريرة « لا يجتمع السخى والإيمان في قلب عبد » أخرجه النسائي وفي مسندهم اختلاف (٩) حديث « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقد تقدم (١٠) حديث « لا ينبغي لمؤمن أن يكون جباناً ولا بخيلاً » لم أره بهذا اللفظ.

أعدو من الظالم وأي ظلم أضرم عند الله من الشح ، حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا غليل^(٢١) .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول :
 صرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم : وما ذنبك صغلي ؟ فقال : هو أعظم من أن
 أسفه لك ! فقال : وميك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ فقال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم
 أم الجبال ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم البحار ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول
 الله ، قال : فذنبك أعظم أم السموات ؟ قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم العرش ؟
 قال : بل ذنبي أعظم يا رسول الله ، قال : فذنبك أعظم أم الله ؟ قال : بل الله أعظم وأعلى ، قال : وميك
 ففصل لي ذنبك ؟ قال : يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني بسأني فسكأنما يستقبلني بشملة
 من نار ، فقال صلى الله عليه وسلم : (إليك عني لا تحرقني تبارك فوالذي بشئ بالمداية والكرامة لو كنت بين الزكن
 والمقام ثم صلت أثنى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقي بها الأشجار ثم مت وأنت تليم
 لا كلبك الله في النار) وميك : أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر في النار ، وميك : أما علمت أن الله تعالى يقول
 (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ... ومن وق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (١٢) .

الآثار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما خلق الله جنة عدن قال لها تزيني فتزينت ، ثم قال لها : أظهرى أنهارك فأظهرت عين السلسيل وعين الكافور وعين التسليم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل والبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكرواسيك وحليك وحور عينك فأظهرت فظهر لإليها فقال تكلمي فقلت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزتي لا أسكنك بخيلا . وقالت أم البين أخت عمر بن عبد العزيز : أف البخل لو كان البخل قيصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر : كان يقال إذا أراد الله بقرم شرا أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرواقهم بأيدي بخلائهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته : إنه سأتى على الناس زمان عضوض بعض المومنين على ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال عبد الله بن عمرو : الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يده غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه ، والبخل هو الذي يبخل بما في يده . وقال الشعبي لا أدري أيهما أهد غورا في نار جهنم البخل أو الكذب ؟ وقيل ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندي : تكلم ، فقال : خير الناس من أتى سحيا وعند الغضب وقورا وفي القول متأنيا وفي الرفقة متواضعا وعلى كل ذي رحم مشفقا . وقام الرومي فقال : من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجس وأهل الكذب مذمومون وأهل النية يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾ قال : البخل ، أسكنك الله تعالى أيديهم عن الثقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى . وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان اللهم عجل لمسلمك تلقا

(١) حديث « يقول فالتسكع الشجعان أعذر من الظالم وأعلى وأظم من الفصح . الحديث » وفيه « لا يدخل الجنة شحيع ولا يغيب » لم أجده بنامة وقترمتى من حديث أبى بكر « لا يدخل الجنة غيبيل » وقد تقدم (٢) حديث : كان يقول بإبليت فإذا رجل شقاق بأستار الكعبة وهو يقول بحمة هذا البيت لا أغرت لى . الحديث » فى ذم البخل وفيه قال « إليك على لأعترقى بنارك ... الحديث » بطوله وهو باطل لا أصل له .

وجعل لثمن قلفا . وقال الأصمعي سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وكأنيما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يخين ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال علي كرم الله وجهه والله ما استقمي كرم قط حقه . قال الله تعالى (عزف بعضه وأعرض عن بعض) وقال الجاحظ ما بق من القذات إلا ثلاث ذم البخله ، وأكل القديد ، وحلج الجرب . وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنك إذا لبخيل ، ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا قال : فما خيرها إذا (١) ، وقال بشر النضر إلى البخيل يحمي القلب ولقاء البخله كرب على قلوب المؤمنين . وقال يحيى بن معاذ ما في القلب للاستياء إلا حب ولو كانوا لجارا ، وللبخله إلا بنض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بما له أجودهم بمرسته . واتي يحيى بن زكريا عليهما السلام . إبليس في صورته فقال له : يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال : أحب الناس إلى المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخي ، قال له : لم ؟ قال : لأن البخيل قد كفأ بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في صفاته فيقبله ، ثم ولي وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

حكايات البخله

فيل كان بالصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه وقدم إليه طبائجه بيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت ، فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال : لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت ، فقال : ماه ! أتقيأ طبائجه بيض ؟ الموت ولا ذلك . وقيل : أتبل أعرابي يطلب رجلا ، وبين يديه تين فطلى التين بكساته ، فجلس الأعرابي فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا ؟ قال : نعم ، قرأ (... والزيتون وطور سينين) فقال : وأين التين ؟ قال : هو تحت كساتك . ودعا بعضهم أخاه ولم يعلمه شيئا ، فحبسه إلى مصر حتى اشتد جوعه وأخذته مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بحياتي أي صوت تشفى أن أحملك ؟ قال : صوت المقل . ويحك أن محمد بن يحيى بن خاله بن برمك كان بخيلا فيسحب البخل ، ففشل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل : صف لي مائدتك فقال : هي قدر في قدر ، وصحافه مقورة من حب الحشخاش ، قيل فن يحضرها ؟ قال : الكرام السكاكين قال : فما يأكل معه أحد ؟ قال : بل اللباب ، فقال : سواك بدت وأنت خاص به وثوبك غرق ، قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيط بها ، ولو ملك محمد دينارا من بغداد إلى التوبة معلوما لإبرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهم ما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة ويسألونه إعادتهم إياها أخيط بها قميص يوسف الذي قد من دير مافعل ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله فقيل له . نراك لا تأكل إلا الروم في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال نعم الرأس أعرف سعره فأمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يثني فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقذر أن يأكل منه ، إن مس عيننا أو أذنا أو خذا وقفت على ذلك ، وأكل منه أروانا ، عينه لونا ، وأذنه لونا ، ولسانه لونا ، وغلصمته لونا ، ودماغه لونا ، وأكفي مؤونة

(١) حديث : مدحت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا ... الحديث . تقدم في كتاب السان .

طبخه ! فقد اجتمعت لي فيه سرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة الهندي فقالت له امرأة من أهله : مالي عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال : إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً فأعطى ستين ألفاً فأعطاهما أربعة دنانير . واشترى مائة من الدراهم فباعها بدينار ففرد اللحم إلى القصاب فبقيت دنانير وقال : أكره الإسراف . وكان للأعشى جار وكان لا يزال يمرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فبأنى عليه الأعشى ، فمرض عليه ذات يوم فوافقه جوع الأعشى فقال : سربنا ، فدخل منزله فغزب إليه كسرة وملحاً ، فجاء سائل فقال له رب المنزل : بورك فيك ، فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك ، فلما سأل الثالثة قال له اذهب واثق ولا خرجت إليك بالمصا ! قال فغاداه الأعشى وقال اذهب ويحك ! فلا واثق ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه ! هو منذ مدة يدعو على كسرة وملح فوافقه ما زادني عليهما !

بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجة السخاء الإيثار ، وهو أن يعجز بالمال مع الحاجة . وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد . وكان السخاوة قد انتهت إلى أن يسخر الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من يبخل بمسكه المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجاناً لأكلها . فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة ؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء . وقد أمى الله على الصحابة ورضى الله عنهم به فقال (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيما امرئ اشتبه شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له ^(١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لقمعنا ولكننا كننا نؤثر على أنفسنا ^(٢) . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطعامه السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من ضيفكم إليه إلى ضيفكم ، ونزلت (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ^(٣) قال السخاء خلق من أخلاق الله تعالى ؛ والإيثار أهل درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيمًا فقال تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقال سهل بن جند الله التستري قال موسى عليه السلام ، يارب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمتي فقال يا موسى إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أدريك منزلة من منازل جليلة عظيمة فضلت بها عليك وعلى جميع خلق ، قال فكشفت له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها

(١) حديث : أيما رجل اشتبه شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له . أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو الفتح في التوابين من حديث ابن عمر بسند ضيف وقد تقدم . (٢) حديث عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ولو شئنا لقمعنا ولكننا كننا نؤثر على أنفسنا . أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ : ولكنه كان يؤثر على نفسه . وأول الحديث عند مسلم بلفظ : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا . وفيه من حديثه : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة أيام إلا باع حتى ليس زاد مسلم : من طعام . (٣) حديث : نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله ... الحديث . في قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣٣ - لحياء علوم الدين - ٣)

من الله تعالى ، فقال : يا رب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال : بخلق اختصاصته به من بينهم وهو الإيتار ، ياموسى لا يأتينى أحد منهم قد جعل به وقتاً من عمره إلا استحييت من عاصيته ، وبوقاته من جنتى حيث يشاء : وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى حثيمة له فزول على نخيل قوم وقبه غلام أسود يعمل فيه ؛ إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رى إليه الثانى والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ؛ قال فلم آتت به هذا الكلب ؟ قال ما هى بارض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جالما فكرمت أن أضيف وهو جائع قال ؛ قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال: أطوى يوى هذا فقال عبد الله بن جعفر الأم على السخاء ؛ إن هذا الغلام لاصحى منى ، فاشتري الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعق الغلام ووهبه منه . وقال عمر رضى الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى كان أخرج منى إليه فبعت به إليه ، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول . وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : إنى آخيت بينكما وجعلت عمر أحكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة وأجابا : فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبى طالب آخيت بينه وبين نبي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله وجبريل عليه السلام يقول : يخرج من مثلك يابن أبى طالب والله تعالى يباهى بك للملائكة ؛ فأرسل الله تعالى () ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد (١) وعن أبى الحسن الأنطاكى : أنه اجتمع عنده ثيف وثلثون نفسا - وكانوا في قرية بقرب الرى - ولم أر غفة معدودة لم تنسح جميعهم ، فكسروا الرضفان وأطفوا السراج وجلسوا الطعام ، فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئا إيتارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاهد سائل وليس عنده شيء ؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رفق سقيته ونمست به وجهه ، فإذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ... فأشار ابن عمى إلى أن أطلق به إليه ، لجنته فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال : آه ... فأشار هشام أطلق به إليه ، لجنته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهقان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستمار ثوبا فبات فيه . وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد ، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بداية ميتة فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ورمه مقدار عشرين كلبا ، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة ، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد ، فقام ذلك الكلب

(١) حديث : بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل أنى آخيت بينكما وجعلت عمر أحكما أطول من الآخر ... الحديث . في نزول قوله تعالى (ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضات الله) أخرجه أحد مختصرا من حديث ابن عباس : شترى على نفسه ثيابا التي صلى الله عليه وسلم ثم قام مكانه ... الحديث . وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أتف لهذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكسر .

وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقي عليها قليلا ثم انصرف .

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا وباقه التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

بيان حد السخاء والبخل وحقيتهما

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الفرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخيا وربما يراه غيره بخيلا ، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويعبد من نفسه حبا للنال ولاجله يحفظ النال ويمسكه ، فإن كان يصير يأساك المال بخيلا فإذا لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذي يستحق به البعد صفة السخاوة وثوابها ؟ فتقول : قد قال قائلون حد البخل منع الواجب ، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخل ، وهذا غير كاف ؛ فإن من يرد اللهم مثلا إلى القصاب والخبز التجار بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعد بخيلا بالافتاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذي يفرغه التقاضى ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه أو ثمرة أكلوها من ماله يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف لحضر من يفلن أنه يأكل معه فأخافه منه عد بخيلا . وقال قائلون البخيل هو الذي يستصعب العطية ، وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا في الجرد ، فقيل الجرد عطاء بلا من وإسراف من غير روية . وقيل : الجرد عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل . وقيل : الجرد السرور والسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجرد عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عباده مال الله على غير رؤية الفقر . وقيل : من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود ، ومن قاسى الضر وأثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل .

وجملة هذه الكلمات غير حيلة بمحققة الجود والبخل ، بل تقول : للمال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك بذير . وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ؛ إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء ، وقد قيل له (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والتبعض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يمكن أن يفعل ذلك بموارحه ما لم يكن قلبه طيبا به غير منازع له فيه . فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تازعه هو يصارحها فهو مفسخ وليس بمسخي ، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : فقد صار هذا موقوفاً على معرفة الواجب فأ الذي يجب بذله ؟ .

فأقول : إن الواجب قسمان : واجب بالشرع ، وواجب بالمرودة والمادة . والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المرودة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يودعها ولكنه يثق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يقسئ بالتكلف ، أو الذي يتيمم الخيـث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه فهذا كله بخل .

وأما واجب المرودة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات ، فإن ذلك مستقيم ، واستيفاء ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فنكثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقيم من الرجل المضايقة مع أهله وأثابه وماليكه مالا يستقبح مع الأجانب ، ويستقيم من الجار مالا يستقبح مع البعيد ، ويستقيم في الضيافة من المضايقة ما لا يستقيم في المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب ، إذ يستقبح في الأطلعة ما لا يستقبح في غيرها ، ويستقيم في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأختية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في غيره من المضايقة . وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي . وبين منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير . فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المرودة ، وذلك لا يمكن التمييز على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال ، فإنَّ صيانة الدين أهم من حفظ المال ، فالع الزكاة والنفقة بخيل . وصيانة المرودة أهم من حفظ المال ، والمضايقة في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هائلة ستر المرودة لحب المال فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المرودة ولحسبك منه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين ، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نواب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجته في الآخرة ، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس يبخل عند عوام الخلق ، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكاً لئلا ينفق نواب الزمان مهما وربما يظهر عند العوام أيضاً حمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فتمنه وقال : قد أدبت الزكاة الواجبة وليس على غيرها . ويختلف استقبح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصالح دينه واستحقاقه . فن أدى واجب الشرع وواجب المرودة اللائقة به فقد تبرأ من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل المرجات ، فإذا أقسمت نفسه لبذل المال حيث لا يوجب الشرع ولا توجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تنفع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض ، فاصطفاح المعروف وراء ما توجه به المادة والمرودة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع في الفكر والثناء فهو يباع وليس بجواد ، فإنه يشتري المدح بماله والمدح لذبه وهو مقصود في نفسه ، والجود هو بذل الشيء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى ، أما الأدنى فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا

الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهباء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يترقبه من نفع يناله من التمتع عليه فكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعراض مسجلة له عليه فهو متمسك لأجواد ، كما روى عن بعض المتعبدين أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سأل مما شئت - وأشاروا إلى حبان بن هلال - فقالت : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : السخاء بالبذل والإيتار ، قالت : هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين ؟ قالوا : أن نمد الله سبحانه بحجة بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت : فتريدون على ذلك أجراً ؟ قالوا : نعم ، قالت ولم ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت سبحانه الله ! فإذا أعطيت واحدة وأخذت عشرة فبأي شيء تسخيت عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندكم يرمله الله ؟ قالت السخاء عندى أن تعبدوا الله متمعين متلذذين بطاعته غير كارهين لارتيدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ! ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئاً بشيء ؟ إن هذا في الدنيا لفتح ! وقالت بعض المتعبدين انصبوب أن السخاء في الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندى في الميع . وقال المحاسبي السخاء في الدين أن تسخر بنفسك لتفعلها لله عز وجل ويسخر قلبك بيدك مهتلك وإمراك دمهلكة تعالى بسباحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا أجلاً ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغبى على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك .

بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سيان أحدهما حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ التقدر الذى يحتاج إليه في يوم أوفى شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقادم كبقاه نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام « الولد بمنزلة بمنزلة بمنزلة »^(١) ، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوى البخل لا محالة .

السبب الثانى : أن يحب من المال يفن الناس من معه ما يكتفي بقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادة بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمع نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار عيا للدنانير عاشقاً لها يلتذ بوجودها في يده ويقدرته عليها ، فيكفرها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمع نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بجملة واحدة ، وهذا مرض القلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبار السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه : مثال رجل عثق شخصاً فأحب رسولهُ لنفسه ثم نسي محبوه واشتغل برسولهُ ، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصول إلى اللذيق لذيق ، ثم قد نسي الحاجات وصور الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب اللال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فتعالج حب الشهوات بالقناعة

(١) حديث « الولد بمنزلة » زاد في رواية « عزة » ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله « عزة » رواه بهذه الزيادة أبو يعلى وإيزار من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وأسناده صحيح .

باليسير والبصر ، وتماذج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، وينظر في موت الأقران وطول تبعهم في جمع المال وضياءه بهم . وتعالج انتفاخ القلب إلى الولد بأن خافه خلق معه وزقه ، وكَم من ولد ولم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن من وراثته ؟ ويُن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقيا صالحا فاقه كافي ، وإن كان فاسقا فيستحي بماله على المعصية وترجع مضلته إليه . ويعالج أيضا غلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم ، ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له ، فإنه ما من بخل إلا ويستفتح البخل من غيره ، ويستغل كل بخل من أصحابه ، فيعلم أنه مستقل ومستغنى في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق ؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذه . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإسكاف في الدنيا والآخرة حاجت ورغبته في البذل إن كان عاقلا ، فلن تحرك الشهوة فينبغي أن يجيب المخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يمدد الفقر ويخوفه ويصدده عنه .

حكى أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الحلاء فدعا تلميذه وقال : أنزع عني القميص وادفعه إلى فلان ، فقال : ملا صبرت حتى تخرج ؟ قال : لم آمن على نفسي أن تتغير ، وكان قد خطر لي بذه ! ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كما لا يزول المشق إلا بفارقة المشوق بالسفر عن مستقره ؛ حتى إذا سافر وشارك تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه ، فكذلك الذي يريد علاج البخل فينبغي أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله ، بل لو رماه في الماء كان أول به من إمساكه إياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه أن يتخذه نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ، ولكن ينسلط بعد ذلك على الرياء ويؤذله بملاحجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي بالمرب والمصافير وغيرها لا ليخلو والمرب ، ولكن لينفك عن الثدي إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة فينبغي أن يسلمط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورها بها ، ويسلمط الغضب على الشهوة وتكسر عورتها به ، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل لأقرب بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من عقوبه يزد في أخرى مثله ، إلا أن علامة ذلك أن لا يقل عليه البذل لأجل الرياء ، ولذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه ، فإن كان البذل يسقى عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه .

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض . حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى ائمتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت ، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلمط بعضها على بعض حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تنفع الثانية بحورها وإذا بها بالجائعة وهو منع القوت عنها . ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تفتنى لا عمالة أعمالا ، وإذا خولفت عادت الصفات وماتت . مثل البخل فإنه يقتضى إمساك

المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه ، فإن علاج البخل يعلم وعمل ، فالمعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وقاعدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التشكف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعنى وبهم فيمنع بتحقيق المعرفة فيه ، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريد أن يمنهم من الاختصاص بزيادهم . وكان إذا توم في مريد فرحه بزاويته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ولبسه ثوبا خفقا لا يميل إليه قلبه .

فهنا يحتاج القلب عن متاع الدنيا . فن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها ، فلو كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألت به مصيبة يقدر حبه له ، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يجب الكل وقد سلب عنه ، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقْد والملاك .

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ، ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : أراه مصيبة أو فقرا ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقْر ، ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وهظمت مصيبة الملك عليه فقال : صدق الحكم ليت لم يحمل إلينا ! وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى التار ، وعدوة أولياء الله إذ تنهمم بالصبر عنها ، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس . والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير ، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس يبخل ، ولا يحتاج إليه ، فلا يشب نفسه بحفظه فيذله ، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراق ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سبها من حيث لا يدرى ولا غلوا أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همه فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كالسلطان ، ومجتنب الجهات المذكورة القاذفة في الرومة كالحدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالدوال التي فيه الذلة ومثلك للرومة وما يجرى مجراه .

الثالثة : في المقدار الذي يكتبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة ، والحاجة

ملبس ومسكن ومعلم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . وما دام ماعلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان تحفا ويحى من جملة المحفين ، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد .

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبلر ولا مقفركا ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضمه في غير حقه ، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العباداة ، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على رضي الله عنه : لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس براهد . فتمكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يمين عمل العباداة ، فإن أبعد الحركات عن العباداة الأكل وقضاء الحاجة وهما مميّنان على العباداة ، فإذا كان ذلك فصدك بهما صار ذلك عبادة في حقله . وكذلك ينبغي إن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قيص وإزار وفراش وآنية ، لأن كل ذلك ما يحتاج إليه في الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن يلتفت به عبد من عبادة الله ولا ينمته منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية المال جهرها وترباها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأق ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه . والعامى إذا تشبه بالعلم في الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الهبي الذي يرى المزمع المذاق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترباها فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدما ، فيأخذها اقتداء به فتقتله في الحال ، إلا أن قليل الحية يدرى أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية قتيل :

هي دنيا حية تنفث السم وإن كانت الحية لانت

وكا يستحيل أن يشبه الأعمى بالبعير في تخطي قل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فحال أن يشبهه العاى بالمالم الكامل في تناول المال .

بيان ذم الثنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في تفصيل الثنى الشاكر على الفقير الصابر . وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكننا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأحل من الثنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال ، وقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضي الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم المعاملة وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار المبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه . وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال : يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصتقون ولا تفعلون ما همومون ، وتدرسون مالا تعملون فيا سوء ماتحكون ، تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى ، وما ينهى عنكم أن تتقوا جلودكم وتزكوا دنس ، بحق أقول لكم لا تكونوا كلنخل يخرج منه الفقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ؛ كذلك أنتم

تخرجون الحكم من أفواهكم ويقيم التل في صدوركم ؛ يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تمتنع من الدنيا شهوة ولا تقطع منها رغبة ؟ بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت السلتكم والعمل تحت أقدامكم ؛ بحق أقول لكم أفندتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ؛ فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ؟ ويلكم ختام تصفون الطريق للدينين ويقيمون في عمل التحيرين ؛ كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركبوها لكم ، مهلا مهلا ؛ ويلكم ماذا يفتي بين البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ؛ كذلك لا يفتي حكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعلة ؛ يا عبيد الدنيا لا كسيد أفتيائه ولا كأحرار كرام ؛ توشك الدنيا أن تقلصكم عن أصولكم فتقليصكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلك إلى الملك الذين عراة فرادى ، فيوقصكم على سواكم ثم يجرىكم بسوء أعمالكم . ثم قال الحارث رحمه الله : إخواني هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس ؛ رغبوا في عرض الدنيا ورفضوها وآثروها على الآخرة ، وادلوا الدين الدنيا فهم في العاجل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون أو يعرفوا الكريم بفعله .

وبعد ؛ فإني رأيت هالكا الموزل للدنيا سروره عزوج بالتنفيس ، فيتنفجر عنه أنواع الموموم وقنون المعاصي وإلى البوار والتلف مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم يبق له دنياه ولم يسلم له دينه (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) ؛ فإلها من مصيبة ما أظلمها ورزية ما أظلمها ، ألا فراقبوا الله إخواني ولا يترنك الشيطان وأوليائه من الآمنين بالحجج الباحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يظلمون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويرحمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيترين المفروون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهام الشيطان وما يشعرون . ويحك أيها المفتون إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتبلك ؛ لأنه متى زعمت أن أخبار الصحابة أرادوا المال لتكثر والشرف والرياسة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أجل وأفضل من تركه فقد إزدريت محمدا والمرسلين ؛ ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبته فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال ^(١) وقد علم أن جمع المال خير للأمة ؟ فقد غشهم يرحمكم حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أفقدت كان للأمة ناصحا وعليهم مشفقا وجهم رموا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير لهم ؟ أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فذلك نهاهم عنه ، وأنت علم بما في المال من الخير والفضل لذلك رغبته في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون ؟ تدبر بقلبك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ؛ ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبس الرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يوت من الدنيا إلا قوتا ؟

(١) حديث : التهم من جمع المال . أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود « ما أوصى الله إلا أن أجمع المال وأكون من الفائزين ... الحديث » ولا يقيم والحليب في التنازع واليهيق في الزهد من حديث المختار بن سويد في أثناء الحديث « لا تمسوا مالا كأكون » وكلاما ضعيفا .

وقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نغاف على عبد الرحمن فيما ترك ! فقال كعب : سبحان الله ! وما تغافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً ! فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مضطرباً يريد كعباً فربطه على بصره فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعباً ، فقبل لكعب . إن أبا ذر يظلمك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، وأقبل أبو ذر يقصص الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب يجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يا ابن اليهودية ! تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه فقال : يا أبا ذر ، فعلت ؛ ليئك يا رسول الله فقال له الآكثرون هم الآفكون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدمه وخلفه وقليل ماله ، ثم قال : يا أبا ذر ، قلت : نعم يا رسول الله بأن أنت وأمي ، قال : ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقت في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قهراطين ؟ قلت أو قهراطين يا رسول الله ؟ قاله بل قهراطان ، ثم قال : يا أبا ذر أنت تريد الأكر وأنا أريد الأقل ^(١) ، فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ؟ كذبت وكذبت من قال ! فلم يرد عليه خوفاً حتى خرج .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فذهبت للمدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها : ما هذا ؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن ، قالت : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبد الرحمن فساءلها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيها ، ولم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم جواً » ^(٢) ، فقال عبد الرحمن : إن العير وما عليها في سبيل الله ، وإن أرقاهها أحراراً لعل ادخلها معهم سعيها .

وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف : أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كذبت أن تدخلها إلا جواً ^(٣) .

ويصلح أيها المفتون ، لما احتجنا لك بالمال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرائه بالجنة ^(٤) أيضاً يوقف في عرصات القيامة وأمرها لا يبب مال كسبه من حلال للتنفيع ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصداً ، وأعطى في سبيل الله سعيها ،

(١) حديث أبي ذر « الأكثرون هم الآفكون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف : كسب طيباً وترك طيباً . وإنكار أبي ذر عليه ؟ فلم أقف على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كما ذكره المصنف ، وقد رواه أحمد وأبو دلى أنصر من هذا وإنكار كعب : لذا كان قضيته حتى قال لا بأس به ، فرفع أبو ذر عصاه فضره كعباً وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لي ذهباً ... الحديث . وفيه إيناس . (٢) حديث عائشة « رأيت الجنة فرأيت قراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيها .. الحديث » في أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة جواً رواه أحمد مختصراً في كون عبد الرحمن يدخل جواً دون ذكر قراء المهاجرين والمسلمين ، وفيه عبارة بن زاذان يختلف فيه (٣) حديث : أنه قال « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي وما كذبت بتدخلها إلا جواً » أخرجه الترمذي من حديث أسد بن شبيب ضعيف والمالك من حديث عبد الرحمن بن عوف « يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً » وقال صحيح الإمامة قلت : بل ضيف فيه تارة بن أبي مالك ضعيف الجمهور (٤) حديث : بعير النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجن . أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديثه « أبو بكر في الجنة ... الحديث » وفيه « وعبد الرحمن بن عوف في الجنة » وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخاري والترمذي وهذا أسح .

منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو في آثامهم حياء ؟ فاطلك بأمثالنا الفرق في فتن الدنيا ؟
ويعد : فالسبب كل السبب لك يامفتون تتبرخ في تخاليط الشهوات والسحت ، وتكالب على أوساخ الناس ،
وتتقلب في الشهوات والزينة واللباهة ، وتتقلب في فتن الدنيا ثم تتحجج بعبد الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد
جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ؟ ويعلمك إن هذا من قياس إبليس ومن فتياء لأوليائه ! وأسف لك
أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائلهم وفضل الصحابة . ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها
للتعفف والبذل في سبيل الله ، فكسروا - لالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يبنموا منها حقا ،
ولم يبنموا بها ، لكنهم جادوا به بأكثرها ، وجاد بعضهم جميعها ، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا ، فبأه
أ كذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد السبب بالقوم .

ويعد : فإن أسيار الصحابة كانوا للمسكنة عجب ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبأه في أرزاقهم واهقين ، وبغادير
الله مسرورين ، وفي البلاد راضين ، وفي الرخاء شاكرين ، وفي الضراء صابرين ، وفي السراء حامدين ، وكانوا لله
متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر زرعين . لم ينالوا من الدنيا إلا البياح لهم بالبلغه منها وزجوا الدنيا
وصبروا على مكارمها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهرتها . فبأه أ كذلك أنت ؟

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا : ذنب مجلت عقوبته من الله ، وإذا أروا الفقر مقبلا
قالوا : مرحبا بشمار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شيء أصبح كئيبا حزينا ، وإذا لم يكن
عندهم شيء أصبح فرحا مسرورا ، فقيل له : إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا ، وإذا كان عندهم شيء فرحوا ،
وأنت لست كذلك ! قال : إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت إذ كان لي رسول الله صلى الله عليه وسلم
أسوة ، وإذا كان عند عيالي شيء اغتممت إذ لم يكن لي بآل محمد أسرة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء
حزنوا وأشفقوا وقالوا : مالنا والدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل
البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن تصاهدنا ربنا . فهذه أحوال السلف وتعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما
وصفنا . فبأه أ كذلك أنت ؟ إنك لبعيد السبب بالقوم .

وسأف لك أحوالك أيها المفتون حننا لأحوالهم ، وذلك أنك تظن عند الغنى ، وتبطل عند الرخاء ، وتبرح
عند السراء ، وتغفل عن شكر ذي النعماء ، وتنتقل عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم
وتبغض الفقر وتأف من المسكنة ؛ وذلك غر المرسلين وأنت تأف من غرم . وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا
من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بفضائه ، وكفى به إثمًا ، وعساك تجمع المال لتقيم الدنيا
وزهرتها وشهواتها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمي الذين غدا بالنعيم فريت
عليهم أجسامهم »^(١) ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليحى يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم (أذهبتم
طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيالها حسرة
ومصيبة ! نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر
أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو

(١) حديث « شرار أمي الذين غدا بالنعيم ... الحديث » هدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه
« من أسف على دنياه فاته القرب من النار مسمية سنة » .

نعم وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله واهل لقتالك أكره وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا ؛ وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أسف على دنيا فاتته أقرب من النار مسيرة شهر . » وقيل سنة . « وأنت تأسف على ما فاتك غير مكثرت بقرئك من عذاب الله . نعم ولعلك تخرج من دنياك أحياناً لتوفد دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب الدنيا وسرها ذهب خوف الآخرة من قلبه » (١) ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : إنك تحاسب على التحرن على ما فاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تنفي بأمور دنياك أضعاف ما تنفي بأمور آخرتك ، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك ، ونعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب ، وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للصلو والرفعة في الدنيا ، وعساك ترضى المخلوقين مسأخطة تعالى كما تكرم وتبظم . ويحك ! فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إليك ، وعساك تخفى من المخلوقين مساويلك ولا تكثر باطلاح الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العيب أعلى عندك قدراً من الله ، تعالى الله عن جهلك ! فكيف تنطق عند ذوى الأبواب وهذه المثالب فيك ؟ أف لك ! متلونا بالأفكار ونحتج بحال الأبرار ؟ هيهات هيهات ما أبعدك عن السلف الأخيار ، واهل لقد بلغني أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيأخزم عليكم ، إن الذي لا بأس به عندهم كان من الموبقات عندهم ، وكأروا الزلة الصغيرة أشد استظماماً منكم لكبار المعاصي ، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبات أموالهم ؟ وليتك أشققت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل ؟ ليت صوملك على مثال إظهارهم ؟ وليت اجتهدك في العبادة مثل فتورهم ونومهم ؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال : غيمة الصديقين ما قطعهم من الدنيا ونهبتهم مازوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة ، فسيحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ؟ فريق خيار الصحابة في الملوحة الله وفريق أمثالكم في السفاهة ، أو يفواؤه الكريم بفضله .

ويعد : فإنك إن زحمت أنك متأس بالصحابة بجميع المال للتشف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغني أن بعض الصحابة قال : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن تقع في باب من الحرام ، أفتطعم من نفسك في مثل هذا الاحتياط ؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك ! ويحك ! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقك بسبب البر في اكتساب الشبهات المزوجة بالصح والحرام ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اجتراً على الشبهات أو شك أن يقع في الحرام » (٢) « أيها المفرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أهل وأفضل وأعظم لقد تركك عند الله من اكتساب الشبهات ، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهما واحداً مخافة أن لا يكون حلالاً خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدري

(١) حديث « من أحب الدنيا وسرها ذهب خوف الآخرة من قلبه » لم أجده إلا بلافاً لمجارت بن أسد الهامسي كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث « من اجتراً على الشبهات أو شك أن يقع في الحرام » متفق عليه من حديث الثمان بن بغير نحوه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

أبخل لك أم لا؟ فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال البذل في سبيل الله! ويحك! إن كنت كما زعمت بالنفا في الورع فلا تترض للحساب، فإن خيار الصحابة عافوا المسألة، وبلغنا أن بعض الصحابة قال: ما ربي أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجمعة، قالوا: ولم ذاك رحمة الله؟ قال: لأنني غني عن مقام يوم القيامة فيقول عبيد من ابن اكتسبت وفي أي شيء أنفقت؟ فهؤلاء المتقون كلوا في جنة الإسلام والحلال موجود لديهم، تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره، وأنت بناية الأمن والحلال في دهرك مفقود. تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال، ويحك! أين الحلال فتجمله

وبعد: فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند النني قلبك، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه؟ أفتطمع أن يكون قلبك أنفي من قلب الصحابة فلا يزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الإمارة بالسوء، ويحك! إلى لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من نوقش الحساب عذب^(١) وقال عليه السلام: يؤتى رجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حلال فيقال اذهبوا به إلى النار، ويؤتى رجل قد جمع مالا من حلال وأنفق في حلال فيقال له: قب لملك قصرت في طلب هذا شيء ما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها، وفرضت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول: لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئا فرضت علي، فيقال: لملك اختل في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول: لا يارب لم أختل ولم أباه في شيء، فيقال: لملك منمت حتى أحد أمرتك أن تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقول: لا يارب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم أضيع شيئا بما فرضت علي ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حتى أحد أمرتني أن أعطيه، قال: فيجىء أولئك فيخاصونه فيقولون: يارب أعطيتنا وأعنته وجعلته بين أظهرنا وأمرنا أن يعطينا، فإن كان أعطاهم وما ضيع من ذلك شيئا من الفرائض ولم يحتل في شيء فيقال: قب، الآن هات شكر كل لمة ألعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لفة فلا يزال يسأل^(٢)، ويحك! فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي قلب في الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى القرائض بحدودها، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثاله النقي في فتن الدنيا وتغاليطها وشبائنها وشهواتها وزينتها؟ ويحك، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال، فلك ويحك هؤلاء الأخيار أسوء، فإن آيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى، ولم تجمع المال إلا من حلال - بزعمك - لتتصف والبذل في سبيل الله، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يجب الله، ولم تسخط الله في شيء من سرارك وعلانيتك ويحك فإن كنت كذلك، ولست كذلك، فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة وتمتثل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيل الأول في

(١) حديث من نوقش الحساب عذب، متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفق في حرام فيقال اذهبوا به إلى النار... الحديث، بلوه لم أفه له أصل

زمرة المصطفى ، لا حيس عليك للسأه والحساب ، فلما سلامة وإما عطب . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بمخمسائة عام ^(١) » وقال عليه السلام « يدخل قراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعت فيأعطيتكم ^(٢) »

وبلغنا أن بعض أهل السلم قال . ما سرى أن لى حمر التمم ولا أكون فى الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه . يا قوم فاستبقوا السباق مع الخفين فى زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والافتقار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين . لقد بلغنى أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطن فاستسقى فأنى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خفته العبوة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح النموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد فى البكاء ، فلما أكر البكاء قبله : أكل هذامن أجل هذه الشربة قال : نعم ، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد فى البيت غيرى ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول « إيلك عنى ! » فقتله . فذاك أبى وأمى ما أرى بين يديه أحدا فن تخاطب ؟ فقال « هذه الدنيا تطاولت إلى بعثتها ورأسها فقالت لى . يا محمد خذنى ، فقلت . إيلك عنى ، فقالت . إن تتج منى يا محمد فإنه لا يتجر منى من يمدك ، فأخاف أن تكون هذه قد لحقتى فتعلمنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) يا قوم فهو لاء الأخبار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ! ويملك أنت فى أنواع من التمم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الافتقار ؟ أف لك ما أعظم جهلك ! ويملك فإن تخلف فى النيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتظنن إلى أهوال جزعت منها للامسكة والأنياء ، ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك الحاق ، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب غير ، ولئن لم تنفع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وهويل ؛ ولئن رزيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليبين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتتممين ، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين . فتدبر ويملك ما سمعت وبعد . فإن زعمت أنك فى مثال خيار السلف ، فأنع بالقليل ، زاهد فى الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئا لديك ، مبغض للتكاثر والنقى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكة ، مسرور بالذل والفضة ، كاره للعلو والرفعة قوى فى أمرك . لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الله ، وحسنت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ولن توقف فى المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين . وإنما تجمع المال الحلال للذل فى سبيل الله ، ويملك أنها المخرور فتدبر الأمر وأمنن النظر ! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وقرأغ القلب بالذكر والتذكر والتذكور والفكر والاعتبار . أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للسياقة وأمن من روعات القيامة وأحرز للثواب وأهل لقدرك عند الله أضافا . بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال . لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان

(١) حديث « يدخل صمالك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بمخمسائة عام » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بلنظ « قراء » مكان « صمالك » ولها والشافى فى الكبرى من حديث أبى هريرة « يدخل القراء الجنة ... الحديث » ، وسلم من حديث عبد الله بن عمر « أن قراء المهاجرين يسمون الأنبياء إلى الجنة بأربعين خريفا » .

(٢) حديث « يدخل قراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ... الحديث . لم أره أصلا (٣) حديث : أن بعض الصحابة عطن فاستسقى فأنى بشربة ماء وعسل ... الحديث . فى دفع النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه ووجه « إيلك عنى ... الحديث » أخرجه الجزر والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال : كنا عند أبى بكر فقاما بهرأنا فأنى بماء وصل ... الحديث . قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضيف وقد هدم قبل هذا الكتاب .

الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه إيه . وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ، أحدهما . طلب الدنيا حلالاً فأصابها ، فوصل بها وجه وقدم لنفسه . وأما الآخر . فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها ، فأيهما أفضل ؟ قال . بيد والله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها . ويحك هذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ، ولك فى العاجل إن تركت الاستغفال بالمال ، وإن ذلك أرواح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأغل لمعولك . فاعطوك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل .

وبعد . فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكالم الإخلاق أن تتأذى بنيلك إذ هذا لك الله به ، وترضى ما اختاره لنفسه من مجابة الدنيا . ويحك ! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والقصور ومجابة الدنيا ، فسر مع لواء المصلح سابقاً إلى جنة المأوى . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تقدمى لم يجد عشاء ، وإذا استقرض لم يجد قرصاً ، وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه ، ولم يقدر على أن يكتسب ما يفتنيه ، يرمى مع ذلك ويصبح راضياً عن ربه » (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) (١) ، ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنه لم يطل فيها ادعيت أنك البر والفضل تجمعهم ، لا ! ولكلك خوفاً من الفقر تجمعهم ، ولتشم الزينة والتكاثر والفقر والموت والرياء والسمة والتعظيم والتكرمة تجمعهم ، ثم تزم أنك لأعمال البر تجمع المال : ويحك راقب الله واستحى من دهر الأياها المفرور . ويحك إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فكأن متزاً أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجابهة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزدياً على نفسك معتزلاً بإساءة تلك وجلا من الحساب ، فذلك أهمل لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحبيب جمع المال . إخوانى اعلوا أن دهر الصحابة كان الحال فيه موجوداً وكانوا مع ذلك من أروع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وسقر المودة . فأما جمع المال فى دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه .

وبعد : فأين لنا بمن تلوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل خيائهم وحسن نيائهم ؟ دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون الورود ؛ فياسادة الخفين يوم النشور وحن طويل لأمل التكاثر والتخاليط ، وقد لصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل . وقتنا أقول إياكم فكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على الفقى ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا ، وفى كتاب الفقر والزهد .

ويشهد له أيضاً ما روى عن أبى أمامة الباهلى : أن لمبة بن ساطب قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : يا لمبة قليل تودى شكره خير من كثير لا يطقه . قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال : يا لمبة أما لك فى أسوة أمارضى أن تكون مثل نبي الله تعالى ؟ أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير مسمى الجبال ذهباً وفضة لسارت ، قال : والذى بثلثك بالحق نبياً لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأعطيك كل ذى حق حقه ، ولأعطين ولأعطين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أرزق لمبة مالا ، فانقلد غنيا فمت كما ينمو البود ، فضاقت

(١) حديث « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تقدمى لم يجد عشاء ... الحديث » عزاه صاحب مسند الترمذى لعبد الله بن رواحة . ورواية أبى حازم من أبى هريرة خلاصتها فقط « سادة الفقراء فى الجنة ... الحديث » ولم أره فى مساجد الطبراني .

عليه المدينة فتحت عنها قنول وأديا من أوديتها ، حتى جعل يصل الطهور والعصر في الجحاة ويدع ماسواهما ، ثم تمت وكثرت فتحت حتى ترك الجماعة إلا الجملة ، وهي تنمو كما ينمو القود حتى ترك الجملة ، وطلق يلقى الزكيان يوم الجمعة فيسلم من الأخبار في المدينة ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال « ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ » فقيل : يا رسول الله اتخذ غنا فضاعت عليه المدينة ؛ وأخبر بأمره كله ، فقال « يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة قالوا نزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وحمل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ » وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهة ورجلا من بني سليم على الصدقة ، وكتب لها كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين : وقال « مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بني سليم - وخذا صدقاتهما : خرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الإجازة ما هذه الإجازة إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تمودا إلى قاطلنا نحو السلمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إله فمر لها بالصدقة ، ثم استقبلها بها ؛ فلما رأوها قالوا : لا يجب عليك ذلك وما تريد نأخذ هذا منك ، قال بلى خذوها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أروني كتابك ، فظفر فيه فقال : هذه أخت الجزية انطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأهما قال « يا ويح ثعلبة ، قبل أن يكلمها ودعا السلمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السلمي فأنزل الله تعالى ثعلبة (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلافه وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يأتونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) » وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال : لأم لك يا ثعلبة أقد أنزل الله عليك كذا ؟ فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله مني أن أقبل منك صدقتك ، لجعل يحو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا علك أمرتك فلم تقبلني ، فلما أتى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فأتى أن يقبلها منه ، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى أن يقبلها منه ، وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان ^(١) فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ، ولأجل بركة الفقر وشؤم الثنى أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كانت لي من رسول الله منزلة وجاء فقال « يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاءها فهل لك في عيادة قاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقلت : نعم يأتي أنت وأبى يا رسول الله ، فقام وقت معه حتى وقفت بباب منزل قاطمة ففرح الباب وقال « السلام عليكم أدخل ؟ » فقالت : أدخل يا رسول الله قال أنا ومن معي ؟ قالت ومن معك يا رسول الله ؟ فقال عمران بن حصين ، فضالت : والذي يملك بالحق نبي ما على إلا عبادة فقال ، اصنعى بها هكذا وهكذا ، وأشار يده ، فقالت : هذا جسدي فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملادة كانت عليه خلقة فقال « شئى بها على رأسك » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السلام عليكم يا ابتاه كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ماى أتى ، لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدت الجروح ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا تجرحى يا ابتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاثة ، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا

(١) حديث أبي أمامة : أن ثعلبة بن حاطب قال ليرسوله الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال « يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا طيليه ... الحديث بطوله » أخرجه الطبراني بسند ضعيف .

ثم حرب بيده على منكبها وقال لها « أبشري فواكه إنك لسيدة نساء أهل الجنة » فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن في بيوت من قصب لأذى فيها ولا صخب » ثم قال لها « اقمى بآبى عمك فواكه لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة ^(١) » فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وترك المال . ؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأمرأهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوق من الشهوات والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال .

وقد روى عن جرير عن ليث قال : سمعت رجلا عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : أكون مملوك وأصحابك ، فانطلقا فأتيا إلى شط نهر جلسا يتحديان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلهجدهم الرغيف ، فقال للرجل : من أخذ الرغيف ؟ فقال : لأدري ، قال : فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعهما خشفان لها ، قال : فدعا أحدهما فأناها ، فدبها فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ، ثم قال للخشف : قم يا ذن الله فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال : لأدري ، ثم اتبها إلى وادي ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال لأدري ، فأتبها إلى مفازة جلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهابا يا ذن الله تعالى ، فصار ذهابا ، قسمه ثلاثة أثلاث ثم قال لك لي وثلك لك وثلك لمن أخذ الرغيف ، فقال أما الذي أخذت الرغيف ، فقال كله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام ، فأتبى إليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذهما منه ويقتلاه ، فقال هو بيتنا أثلاثا ، فابعثوا أحداكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله ، قال فيبشرا أحدهم فقال الذي بمس لآى شيء أقسم هؤلاء هذا المال ؟ لكني أضنع في هذا الطعام سمنا فأقتلهم وأخذ المال وحدي ، قال ففعل ، وقال ذاك الرجلان لآى شيء تفعل لهذا ملك المال ؟ ولكن إذا رجعت قتلناه واقتسنا المال بيتنا ، قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فانا ، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، ففرجهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها .

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احفرتوا قبورا ، فإذا أصبحوا تمهدوا تلك القبور وكسوها ما صلوأعندها وعروا البقل كترعى البهائم ، وقد قبض لهم في ذلك معاش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذو القرنين ، فقال مالى إليه حاجة ، فإني كان له حاجة فليأتني فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأبني فأبيت ، فها أنا قد جئت ، فقال لو كان لي إليك حاجة لأيتيك ، فقال له ذو القرنين مالى أراك على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وما ذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شيء أقلأ اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها ؟ قالوا إنما كرمناهم

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال « فهل لك في عبادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله وفيه » لقد زوجتك سيدا في الدنيا وسيدا في الآخرة » لم أجده من حديث عمران . ولأحد الطبراني من حديث سهل بن يسار : وضأت النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « هل لك في فاطمة سموها .. الحديث » وفيه « أما ترضين أن زوجتك آدم أمي سلما وأكثرتم علما وأعظمتم علما ولستأده صحيح .

لأن أحدا لم يطمع منهما شيئا إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالكم قد احضرتهم قبورا فلماذا أصبحت تواعدنهما فكفستنموها وصليتم عندهما ؟ قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا ممتنعا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعم لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأتعام فاحلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا في نبات الأرض بلاغا وإنما يكنى ابن أدنى العيش من الطعام وإنما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كاتنا ما كان من الطعام ؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة ؛ فقال : يا ذا القرنين أتدري من هذا ؟ قال : لا ؛ ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فنشتم وظلم وعتا ؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالمرت فصار كالخبر الملقى ؛ وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : يا ذا القرنين هل تدري من هذا ؟ قال : لا أدري ومن هو ؟ قال : هـذا ملك ملكه الله بعده ؛ قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغش والظلم والتجبر ؛ فتواضع وخضع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته ؛ فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به في آخرته . ثم أھوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال . وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع ؟ فقال له ذو القرنين : هل لك في صحبتى فأتخذك أبا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن تكون جيسا ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولى صديق ، قال : ولم ؟ قال : يمدونك لما في يدك من الملك والمال والدنيا ؛ ولا أجد أحدا يمدني لرفضى لذلك ولما عدنى من الحاجة وقلة الشيء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متسجيا منه ومتعظا به ، فهذه الحكايات تدل على آفات التي مع ما قد نمتها من قبل وبقائه التوفيق .

تم كتاب ذم للمال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليهِ كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبار الذنوب ، العالم بما تجتبه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر التيات وخفايا الطويات ، الذى لا يقبل من الأعمال إلا ما كلزوفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك . والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرزين من الحياة والإفلك ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم : لئن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية التي هي أغنى من ديب الخلة السوداء على الصخرة الصماء في البلية الظلمات ^(١) ، ولذلك يحذر عن الوقوف على غوائلها ماسرة

كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث : لئن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية « أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس ولا « الشرك » يدل « الرياء » وفسره بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضيف وهو عند ابن المبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف .

العباد فضلاً عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمؤمنون عن ساق الجند لسلك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشهات وحلوا بالقهر على أشتات العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الفاحشة الرائعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم ، فوجدت خلاصاً من عشق المجاهدة إلى لذة التبول عند الحلق ونظرم إليه بعين الوفاق والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الحلق ولم تنزع باطلاع الحقائق ، وفرحت بحمد الناس ولم تنزع بحمد الله وحده ، وعلت أنهم إذا عرفوا ترك الشهوات وتوقية الشهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا السننهم بالمدح والثناء وبالنوا في التفریط والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولفاته ورضوا في بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رايه وفائقه بالخدمة والسلام ، وأكرموا في المحافل غاية الإكرام ، وصاحوه في البيع والمعاملات ، وقدموه في المجالس وأثروهم بالمطامع والملابس ، وقصاغروا له متواضعين وناقدوا له في أغراضه موقرين ، فأصابته النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والمفونات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات ، فهو يظن أن حياته باقة وبمبادته للرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تسمى عن دركها القول النافذة القوية ، يرى أنه غطس في طاعة الله ويمتنع بحرام الله ، والنفس قد أبغضت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتلصصاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنة والوفاء ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال ، وقد أهبط اسمه في جريدة المتأخرين وهو يظن أنه عند الله من المتقدمين . وهذه مكيدة النفس لا يسل منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرق منها إلا اللقويون ، ولذلك قيل : آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرئاسة .

وإذا كان الرياء هو الماء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ، ويضع الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين ؛ الفصل الأول : في حب الجاه والشهرة ، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب في كونه محبوباً أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي ، وبيان ما يصمد من حب الجاه وما يذم ، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم . وبيان العلاج في حب الجاه وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهة الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم . فهي اثنا عشر فصلاً منها تفشاً معنى الرياء ، فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم ، بل المحمود الخول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يحذر الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله »^(١) ، وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يحذر الناس إليه

(١) حديث أنس . « حسب امرئ من الشر ألا من عصمه أن يحذر الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه » أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

بالأصابع في دينه ودنياه . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم^(١) ، ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلاً ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث فقيل له : يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ، فقال : إنه لم يمين هذا وإنما حتى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه وقال على كرم الله وجهه : تبذل ولا تشتر ولا ترفع نفسك لذكر ، وتعلموا كتم ، وصحت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم ابن آدم رحمه الله : ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السخيتاني : والله ماصدق الله عبد إلا سره أن لا يشمر بمكانه . وعن خالد بن معدان . أنه كان إذا كثرت حلقته قام عفاة الشهرة . وعن أبي العالية . أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال : ذباب طمع وفرأش نار . وقال سلم بن حفظة : بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رأه عمر فعلاه بالذرة . فقال انظر يا أمير المؤمنين ما صنع ؟ فقال : إن هذه ذلة للتابع وقسمة للمتبوع . ومن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فأتبعه ناس فالتفت إليهم فقال : علام تبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما أتبعني منكم رجلاً ؟ وقال الحسن : إن خلق المال حول الرجال قلباً تلبث عليه قلوب الحق . وخرج الحسن ذات يوم فأتبعه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا فاعصوني أن يبقى هذا من قلب المؤمنين . وروى أن رجلاً سمع ابن عمر يري في سفر فلما فارقه قال : أوصني ، فقال : إن استعملت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشي إليك وتسلم ولا تسلم فافعل . وخرج أيوب في سفر فسمع ناس كثيرين فقال : لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قيصره فقال . إن الشهرة فيا معنى كانت في طولها وهي اليوم في تشمير . وقال بعضهم : كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال : إياكم وهذا الحمار الناقح ! يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثوري : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الزبدية إذ الأبصار تمت إليهما جميعاً . وقال رجل لبشر بن الحارث . أوصني ، فقال أحمل ذكرك وطيب مطعمك . وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذنب دينه واقتصر . وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين ،

بيان فضيلة الخول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره^(٢) منهم البراء بن مالك ، وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وسلم : رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ألا

(١) حديث جابر ، بحسب امرئ من العبر ... الحديث ، مثله وزاد في آخره : «لأن الله لا ينظر إلى صوركم ... الحديث» وهو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة روى الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مختصرين على أوله ورواه مسلم مختصراً على الزيادة التي ذكره ، وروى الطبراني في المعجم في الشعب أوله من حديث حمران بن صدين بلفظ «كفى بالمرء أتعساً» ورواه ابن أبي شيبة في تاريخ الأبرار من حديث ابن عمر بلفظ «أهلك بالرجل» وقدر دينه بالدمعة وديناً بالصدق وسنداً حاضراً . (٢) حديث «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «رب أشعث مدقوق بالأوباب لو أقسم على الله لأبره» ولفظ «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك» وهو عند المالكية نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بن خزيمة (٣) حديث ابن مسعود «رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً» أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الهيثمي في مسند القردوس بسند ضعيف .

أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ^(١) ، وقال أبو هريرة : قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الدين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخلل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : إن من أمق من لواتي أحكم يسأله دنبارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما منها إياه إلا لخوانها عليه ، رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره^(٢) ، وروى أن عمر رضى الله عنه دخل للمسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن السير من الزيادة شرك وإن الله يحب الانقياد للأغنياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة^(٣) ،

وقال محمد بن سويد : قسط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقتان فصلى ركعتين أوجز فيها ثم بسط يديه فقال : يارب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة ! فلر يد يديه ولم يقطع دعاءه حتى نثشت السماء بالغيام ، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من عذابة الغرق ، فقال : يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فأرفع عنهم ، وسكن ، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى صرف منزله ، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال : إلى أين بك في حاجة ؟ فقال ما هي ؟ قال تخصص بدعوة ، قال : سبحانه الله ! أنت أنت وتساألني أن أخصصك بدعوة ؟ ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت ؟ قال : أطلعت الله فيما أمرني ونهاي فسألت الله فأعطاني . وقال ابن مسعود : كونوا يابصير العلم مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقتان الثياب ، تعرفون في أهل السياء وتقفون في أهل الأرض . وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعة في السر كان فامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك ، قال : ثم تقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال : عجبت منيته وقل تراثه وقلت براكيه^(٤) ، وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما : أحب عباد الله إلى الله الغنياء ، قيل : ومن الغنياء ، قال : الفائزون بدينهم يهتمون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض : بليت أن الله تعالى يقول في بعض ما بين به على عبده : ألم أكرم عليك ! ألم أترك ! ألم أخل ذكرك ! وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك ، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك . وقال الثوري : وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعطاء . وقال إبراهيم بن آدم : ما قوت عيني يوما في الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان في البطن ، لجزى المؤذن برجلى حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل : إن قدرت على أن لا تعرف ناقمل ،

(١) حديث « ألا أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف ... الحديث » متفق عليه من حديث حذرة بن وهب

(٢) حديث « إن من أمق من لواتي أحكم يسأله دنبارا لم يعطه إياه ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله « ولو سأله درهما لم يعطه إياه وما منها إياه إلا لخوانها عليه » .

(٣) حديث معاذ بن جبل « لن لا يسير من الزيادة شرك وإن الله يحب الأغنياء ... الحديث » أخرجه الطبراني والحاكم والاقطع وقال صحيح الإسناد ، قلت بل شيعته فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرق مترك (٤) حديث أبي أمامة « لن أغبط أوليائي عندى مؤمن خفيف الحاذ ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه بإسنادين ضعيفين .

وما عليك أن لاتعرف وما عليك أن لايتنى عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى ؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول . وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمزلة في القلوب ، وحب الجاه هو منشأ كل فساد .

فإن قلت : فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ! فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فأعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وهم كالفرق الضعيف إذا كان معه جماعة من الفرق القليلة به أن لا يعرفه أحد منهم فأنهم يتعلقون به فيضف عنهم فبذلك معهم ، وأما القوى القليلة إذا كان يعرفه الفرق ليعملوا به فينجيم ويتأب على ذلك .

بيان ذم الجاه ومعناه

قال الله تعالى ﴿ تلك النار الآخرة تجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو ، وبين أن الدار الآخرة الخال من الإرادتين جميعاً . وقال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وهذا أيضاً متناول بمعومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه يفتنان التفاف في القلب كما يلبس الماء البجل ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذهبان ضاربان أرسلاني زريبة غنم بأسرع إفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لعل كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الأهوى وحب التناء ^(٣) » ، لسأل الله المغفور والمغفيرة بته وكرمه .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المتنفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذي يملك الدراهم والدينارين ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل برأيه أو بأمره . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال افتاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كالأندوة في اعتقاده ، وقد يعتقد ما ليس كالأكالا ، وبذعن قلبه للبرصوف به اقتياداً ضرورياً بحسب اعتقاده ، فإن اقتياد القلب حال للقلب وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتحيلاتها ، وكما أن حب المال يطلب ملك الأرقام والميسد

(١) حديث « المال والجاه يفتنان التفاف ... الحديث » تقدم في أول هذا الباب ولم أجد (٢) حديث « ما ذهبان ضاربان أرسلاني زريبة غنم ... الحديث » تقدم أيضاً هناك (٣) حديث « إنما هلاك الناس باتباع الأهوى وحب التناء » لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس « ثلاث مهلكات شغل مطاع وهوى متبع ... الحديث » ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس يستد ضيف « حب التناء من الناس يمس ويهم »

فطالب الجاه يطلب أن يسرق الأحرار ويستعبد ويملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه أنسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً وبغياً أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية والطاعة له ، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذا معنى الجاه : قيام المنزلة في قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لئمت من نومت الكمال فيه ، فبقدر ما يعتقدون من كاله تدنعه قلوبهم ، وبقدر لإذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه . فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمسح والإطراء فإن المعتدل للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقد ، فيثنى عليه ، وكالخدمة والإجابة فإنه لا يخل يذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سحرته مثل العبد في أغراضه ، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمقابلة بالسلام وسلم الصدر في الحافل والتقديم في جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب . ومعنى قيام الجاه في القلب اشتغال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال أو صورة أو قوة في بدن أو شيء . مما يستدقه الناس كالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تنظم عمله في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يظن عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذي يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو بسببه يقتضى كون الجاه محبوباً ، بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساوى في المقدار ، وهو أنك تعلم أن الدرهم والدينار لا غرض في أعيانها إلا لصلح لمعلم ولا مشرب ولا منسك ولا ملبس ، وإنما هي والحصبة بمثابة واحدة ، ولكتهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات ، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب ، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استخراها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض ، فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ، وملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه .

الاول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه ، فالعلم أو الزاهد الذي تمزق له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب وميدولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الجاهل الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كثراً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ، فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال ، فن ملك الجاه فقد ملك المال ، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال ، ولذلك صار الجاه أحب .

الثاني : هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق وينصب ويطمع فيه الملوكة والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب إذا ملكتك فلا تتمتع لهذه الآفات فهي على التحقيق خزانة عديدة ، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والنصب ، وأئمة الأموال الغفار ولا يؤمن فيه النصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظة ، وأما خزانة القلوب فهي محفوفة بحراسة بانفسها ، والجاه في أمن وأمان من النصب والسرقة فيها . نعم إنما تصيب القلوب بالتصرف وتبيح الحال وتغيير الاعتقادات في صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك بما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله .

الثالث : أن ملكة القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعن لشخص واعتقدت كماله يعلم أو عمل أو غيره أفصح الآلية لا محالة بما فيها ، فيصف ما يعتقد لغيره ويقتنع ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يجب الطبع الصيت وانتشار الذكر . لأن ذلك إذا استطار في الأنظار اقتنع القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين ، وأما المال فمن ملكه منه شيئاً فهو مالكه ولا يقدر على استنائه إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبداً في التناء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الآلية بالتناء استقرت الأموال في مقابلته ، فهذه جماع ترجيعات الجاه على المال . وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيع .

فإن قلت فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه . نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالاحتياج إلى اللبس والسكن والمطعم أو كالإبتلى بمرض أو بقربة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بالمال أو الجاه ، فحب المال والجاه معلوم ، إذ كل مالا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكثر الكنوز وإدخال الذخائر واستكثار الخزان وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا ينبغي لها ثالث ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يظفها ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليجروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ؛ ومع اليأس من ذلك فإنه يلذ به غاية الالتئاذ وحسب ذلك ثابت في الطبع ، ويكاد يظن أن ذلك جبل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة ؛ فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان ؟ أحدهما : جلي تدركه السكافة . والآخر : خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبدهما عن أهمام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يتقف عليها إلا الفواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق يسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ويحظر بياحه أن المال الذي فيه كفايته ربما يتف فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بياحه حاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفرغ إليه إن أصابت هذا المال جائحة ، فهو أبداً لشفته على نفسه وجه الحياة يقدّر طول الحياة ؛ ويقدر هجوم الحاجات ؛ ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستدبر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطاعمة من ماله استغنى بالآخر ، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لثله موقف إلى أن يملك جميع مافي الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هو مان لا يشبعان من العلم ومنهم المال » (١) . ومثل هذه العلة تطرد في حب قيام المنة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده ، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزججه عن الوطن أو يزجج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ؛ ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لمسا فيه من الأمن من هذا الخوف .

(١) حديث « من هو مان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبخاري في الأوسط من حديث ابن عباس بسند ابن وقد همم

وأما السبب الثاني وهو الآفوي : لأن الروح أمر رباني ، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ أو معنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة لإظهاره إذا لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) . ولكنه قبل معرفة ذلك تعلم أن القلب ميلا إلى صفات هجمية كالأكل والواقع ، وإلى صفات سلبية كالقتل والضرب والإيذاء ؛ وإلى صفات شيطانية كالسكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوية كالكرم والعز والتعجب وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوية بالطبع ، ومعنى الربوية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوا بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود تقصص لآحالة ، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والتفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواء ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لأفروام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن للمعية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكامل من لا نظير له في رتبته . وكأن إشران نور الشمس في أفطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس بل هو من جهة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويا في الرتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافي العالم يرجع إلى إشران أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فإذا منى الربوية التفرد بالوجود وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه يحب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفي باطنه ماصرح به فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكنه ليس بمجد له مجالا وهو كمال ، فإن العبودية قهر على النفس . والربوية محبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أوما إليها قوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ ولكن لما مجزت النفس عن ذك متبى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال ، فهي حبة للكمال ومشبهة له وملتبذة به لذاته لا لمخى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ولكال ذاته ؛ ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بمد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات ؛ فإنما كل الكال أن يكون وجود غيرك مثلك فان لم يكن مثلك فان تكون مستوليا عليه ، فصار الاستيلاء على الكل محبوا بالطبع ، لأنه نوع كال . وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كال ذاته ويلتذ به ، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخرأ لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكونه استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته . وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق ، كالأملاك والكواكب وملوك السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ؛ وكالجلال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالارض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جعلها قلوب الناس ، فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالآرذنيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء ؛ إذ المعلوم المحاط به كالمأخوذ تحت العلم ، والعالم كالستولى عليه ، فذلك أحب أن يعرف

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الله تعالى ولللائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كال . وهذا يضاهي اشتياق من حجر من صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يهجر عن وضع الطلح ، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللب به وأنه كيف وضع ؟ وكمن يرى صنعة عجيبة في الخنثية أو الشجيرة أو جر الثقل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض المجر والقصور عنه ولكنه يشترك إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض المجر متلذذ بكال العلم إن حله .

وأما القسم الثاني : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يجب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان : أجساد وأرواح

(أما الأجساد) فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع ، فأن ذلك قدرة والقدرة كال ، والكال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شئوات نفسه ، وبذلك طلب استرقاق السيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والتلبه حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كاله حتى يصير محبوا لها ويقوم القهر منزلة فيها ، فإن الخشعة القهرية أيضا لذينة لما فيها من القدرة .

(القسم الثاني) نفوس الأدميين وقلوبهم وهي أنفس ماعل وجه الأرض ، فهو يجب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية ، والقلوب إنما تسخر الحب ولا تحب إلا باعتقاد الكال ، فإن كل كال محبوب لأن الكال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان ، وهو الذي لا يبليه الموت فيمده ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الراسل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فاذا منى الجاه تسخير القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كال وهو من أوصاف الربوبية . فاذا من محبوب القلب بطبعه الكال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للقدورات ، وما دام يبقى معلوم ، أو مقدور فالشوق لا يسكن والتقصان لا يزول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « منبهمان لا يشبعان » فاذا من مطلوب القلوب الكال ، والكال بالعلم والقدرة وبمناوات الدرجات فيه غير محصور ، فسروكل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكال ، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوا ، وهو أمر وراه كونه محبوا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه الملة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يجب الإنسان من العلوم مالا يصاح للتوصل به إلى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع السجائب والمشكلات ، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوا بالطبع ، إلا أن في حب كال العلم والقدرة أعاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى .

بيان الكال الحقيقي والكال الوهمي الذي لاحقيقة له

قد عرفت أنه لا كال بعد فروات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة ، ولكن الكال الحقيقي فيه متلبس بالكال الوهمي ، ويانه أن كال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : (أحدها) من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط

بجميع المعلومات ، فذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى (الثاني) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به ، وكون العلوم مكتوبة به كشفا تاما ، فإن للمعلومات مكتوبة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه ، فذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى (الثالث) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والافتلاب كان أقرب إلى الله تعالى .

وللمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات .

أما المتغيرات : فتألف العلم بكون زيد في الفار ، فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الباروق اعتقاد كونه في الدار كما كان فيقلب جهلا ، فيكون نقصانا لا كمالا ، فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن يَنقَلِبَ المعتقد فيه عما اعتقده كتب بعدد أن ينقلب كالك قصا ، ويعود عليك جهلا . وينطبق هذا المثال لجميع متغيرات العالم ، كعلبك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض ، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأيام والفراسخ ، وسائر ما يدكر في المسالك والممالك ، وكذلك العلم بالقائات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعمار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كالا في القلب .

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات وجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ولا الجائز عالا ولا المحال واجبا . فكل هذا الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله ، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكته في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كالا لنفسه بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نور المعارف في بطلوت (يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أئتم لنا نورا) أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف عالم ينكشف في الدنيا ، كما أن من معه سراج خفي فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل النور الخفي على سبيل الاستتمام ، ومن ليس معه أصل السراج فلا قطع له في ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مقطع في هذا النور ، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل (كظلمات في بحر لجي يشاء موج من فوقه موج من فوقه بحباب ظلمات بعضها فوق بعض) فإذا نال لاسمادة إلا في معرفة الله تعالى وأما ماعدا ذلك من المعارف فها مالا قائمة له أصلا كعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منعمة في الإجابة على معرفة الله تعالى كعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة مافي القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى (قد أطلع من زكاهما) وقال عز وجل (والذين جاءوا فينا لنهدينهم سبلا) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى ، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى . ومن حيث ارتباطها بالقدر والإرادة والحكمة ، فهي من تسكته معرفة الله تعالى ، وهنا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائفا بأحكام الجاه والياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى وليس له قدرة حقيقية ، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهى حادثة بإحداث الله - كالتزواه فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل وفى مواضع شتى من ربيع المنجيات - فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا . نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهى وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبلش ووجهه للشئ وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوة آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم ، وقد يحتاج فى استيلاء هذه القوى إلى القدرة بالمسال والجاء للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التى تنقضى على القرب ، ومن ظن ذلك كالأفق جمل ، فالتخلق أكثرهم هالكون فى غمرة هذا الجهل ، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بغير الحفصة ، وعلى أعيان الأموال بسعة النقي ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه ؛ كمال ، فلما اعتقدوا ذلك أجبروه ولما أجبروه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهلكوا عليه ففسدوا الكمال الحقيقى الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية (أما العلم) فـا ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرية) فالخلاص من أسر الشهوات وغرور الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستفهم الشهوة ولا يستهيم غضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذى هو من صفات الملائكة . ومن صفات الكمال لله تعالى استعالة التنير والتأثر عليه فن كان عن التنير والتأثر بالموارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ، ومزنته عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة ، وإنما لم نورد في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم نقصان ، فإن التنير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والحلاك نقص فى القدرات وفى صفات الكمال .

فإن الكالات ثلاثة - إن عدنا (عدم التنير بالشهوات وعدم الاقتران لها) كالأكمال العلم والحرية ؛ وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية - وكال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم ، وكال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تقطع بالموت ، ومعرفته وحزنته لا ينضممان بالموت بل بقيان كالألأ فيه ووسيله إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجماهول وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاء والمسال ، وهو الكمال الذى لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذى إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له ، وهؤلاء الذين اشتروا الحياة الدنيا بالأخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس ، والمال والجاء هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الآية وقال تعالى (واخرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى قوله (فأصبح هشيا تذروه الرياح) وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمسال والجاء كمال ظنى لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله عتاة فقر قالى فعل : الفقر
إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيق اللهم اجعلنا من وفته الخير وهديته بلطفك .

بيان مايحيى من حب الجاه وما ينم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها لحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالسالم ، والدنيا مزهرة الآخرة ، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة ، وكما أنه لا بد من أدنى مال لصورة المطعم والمشرب والملبس ، فلا بد من أدنى جاء لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يتنازع به الطعام ، فكذلك لا يغفل عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يمينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، لجهل أن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، ووجه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، ووجه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، ووجه لأن يكون له من المحل في قلب سلاطه ما يحسنه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالسالم ، فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانها محبوسين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ، ويؤد أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء ، فهذا على التحقيق ليس عيبا لبيت الماء فكل ما راد لتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتذكر التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة ، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ، ولو كنى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كنى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به ، وقد يجب الإنسان زوجته لذاتها حب العشق ولو كنى الشهوة لبقى مستصحباً لنكاحها ؛ فهذا هو الحب دون الأول ، وكذلك الجاه والمال . وقد يجب كل واحد منهما على هذين الوجهين ، لهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وساحته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية . وما يتوصل به إلى اكتساب يكذب وخبثاء وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سياتى .

فإن قلت : طلبه المنزل والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلاطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص ؛ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور : فهو أن يطلب قيام المنزل في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها ، مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك . فهذا حرام لأنه كذب وتليس أما بالقول أو بالمعاملة .

أما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزل بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى (اجعلنى على خزان الأرض لى حفظ علمى) فإنه طلب المنزل في قلبه بكونه حفيظا عليها ، وكان

عناجا إليه وكان صادقا فيه (والثاني) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه وممصة من مماصيه ، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضا مباح لأن حفظ السر على التبأغ جائز ، ولا يجوز هناك السر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا قائدة في العلم به ، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه روح ، فإن قوله : لئلا يروى ، تلبس ، وعدم إفراده بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب . ومن جهة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو وراءهما بفعله ، فكيف يكون غلصا ؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية ، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكلاهما يجوز له أن يمتلك مال غيره بتلبس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يمتلك قلبه بذور وخذاع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

بيان السبب في حب للدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه

وبعضها للدم ونفرتها منه

اعلم أن حب للدح والتذاد القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول ، وهو الأولى : شعور النفس بالكمال فإذا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فأدراكه لذيد . فمما شعرت النفس بكاملها ارتاحت واعتزت وتلذذت ، وللدح يشعر نفس المدوح بكاملها ، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جليا ظاهرا غسوسا كانت اللذة به أقل ، ولكنه لا يخلو عن لذة كئامة عليه بأنه طويل القائمة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تنفعل منه فتخلو عن لذته ، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كائنا عليه بكمال العلم أو كمال الزرع أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكيا في كمال حسنه وفي كمال حله وكال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الكمال بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تعلمن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره أورت ذلك طمأنينة وطمع باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته ، وإنما تعظم اللذة بهذه الملة مهما صدر الثناء من بصير هذه الصفات خير بها لا يحازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلبذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغرارة الفضل فإنه في غاية اللذة ، وإن صدر عن يحازف في الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الوصف ضعف اللذة ، وهذه الملة يفيض الدم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان عند الكمال المحبوب فهو محقوت الشعور به مؤلم ، ولذلك يظم الألم إذا صدر الدم من بصير موقوف به كما ذكرناه في المدح .

السبب الثاني : أن للدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بمصولة لذيد ، وهذه الملة تعظم اللذة مهما صدر الثناء من تسع قدرته ويستمتع باقتناص قلبه كالملك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح من لا يؤبه له ولا يقدّر على شيء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وهذه الملة أيضا يكره الدم ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الثناء به أعظم .

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لاسيا إذا كان ذلك من يلتفت إلى قوليه ويحسد بثناءه ، وهذا مختص بثناء يقع على المثل فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى

قوله كان المدح الذوالتم أشد على النفس .

السبب الرابع : أن المدح يدل على حصة المدوح ، واضطرار السامع إلى إطلاق اللسان بالثناء على المدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لا بد منها فيها من القهر والقنطرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المدح لا يعتمد في الباطن مأموح به ، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنح السامع وقوته ، فتكون لذة ثناء القوي المستمع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع في مدح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفرق فتقص اللذة بها . أما الملة الأولى وهي استشعار السكال فتندفع بأن يعلم المدوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه عند ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشعار السكال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات ، فإن كان يعلم أن السامع ليس يعتقد مايقوله ويعلم غلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاءه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لقوات الأسباب الثلاثة فهذا ما يكشف النفاط عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة ، فإن مالا يعرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور المهم على مراعاة الخلق مشغولاً بالتودد إليهم والمراعات لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملغياً إلى مايعظم منزلته عندهم وذلك بذرف النفاق وأصل الفساد ، وغير ذلك لا حاجة إلى التسامح في العبادات والمراعاة بها وإلى اقتحام المحظورات التي تتصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذيئيين ضارين وقال عليه السلام : إنه ينبت النفاق كما ينبت للماء البقل ، وإذا النفاق هو مخالفة الظاهر الباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيحضر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بفصال حميدة هو غال عنها ، وذلك هو عين النفاق .

حب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال ، وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على إغفال الناس وعلى قلبهم ، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كل من على بساط الأرض من المشرق إلى المغرب فزلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا للسجود له ، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له . فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ، ومن فهم السكال الحقيقي والسكال الزمى - كما سبق - صغر الجاه في عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستشعر الحاجة ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز (أما بعد : فكانك بأخبر من كتب عليه الموت قد مات) فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كاتماً . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه (أما بعد : فكانك بالدينا لم تكن

وكأنك بالآخرة لم تزل) فهو لا كان التفاتهم إلى العاقبة ، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا تمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال عز وجل (كلا بل تحبون العاجلة ، وتدرون الآخرة) فن هذا حقه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالملم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا ، فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء وعائف على الدوام على جامه وعمره من أن تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب أشد تنبها من القدر في غلبتها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما يبني على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فإنه لا ثبات له ، والاشتغال بمراجعة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غوم عاجلة ومكدرة للذة الجاه ، فلا ينبغي في الدنيا مرجوها بنوعها فضلا عما يفوت في الآخرة ، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أعمال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقة لذة القبول وبأس باقول ورد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملازمة ؛ إذ اقتسموا الفرواح في صورتها ليستقسطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلبوا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين ، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محذور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ؛ كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم يقربه منه استدعى طعاما وبثلا وأخذ يأكل يشربه ويعظم القصة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني . ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس . وهذا في جوارحه نظر من حيث الفقه إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفيق به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير ، كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وحضروه واستردوا منه الثياب وقالوا : إنه طزار ومجرود وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخول ، فإن المنزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزل التي ترسخ له في القلوب بسبب عزله ، فإنه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مفرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فدموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإمالة ذلك التبار عن قلوبهم ، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وعليل ولا يزال به ، وبه ويتبين بعد أنه محب الجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإن فتنة الجاه أعظم ، ولا يمكنه أن لا يحب المنزل في قلوب الناس مادام يطعم في الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس وأسا أصبح الناس كلهم عنده كالأردال ، فلا يزال أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يزال بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يرام ولا يطعم فيهم ، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالفتنة ، فن تقع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ، ولا يتم ترك الجاه إلا بالفتنة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في دم

الجاء ومدح المحول والذل مثل قولهم : المؤمن لا يخطئ من ذلة أوقلة أو علة . وينظر في أحوال السلف وإثرائهم للذل على المزور وبغيتهم في ثواب الآخرة وحى الله عنهم أجمعين .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكرامة الدم

اعلم أن أكبر الناس إنما هلكوا بخير مدامة الناس وحسب مدحهم ، فصار حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم ، وذلك من اللهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استعمار الكمال بسبب قول المادح فطريقته فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع ، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدينية فإن كانت من الأعراض الدينية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشياً تنفوه الرياح ، وهذا من قلة العقل ، بل الماعقل يقول كما قال المتنبي :
أشدّ الهم عندى في سرور . يثقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بمرض الدنيا ، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الحاجة غير معلومة ، وهذا إنما يتحقق الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى ، وخطر الحاجة باق في الخوف من سوء الحاجة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا ، بل الدنيا دار أحران وغوم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الحاجة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح ، فإن اللذة في استعمار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح ، والمدح لا يزيدك فضلاً وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت عال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ، ومثالك مثال من يهواه الإنسان ويقول سبحان الله ما أكثر المطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح التي تنفوح منه ؟ إذا قضى حاجته ، وهو يعلم ما تستعمل عليه أعماله من الاقتدار والأتان ، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبايا باطنك وغوائل سريرتك وأقدار صفاتك . كان ذلك من غاية الجهل : فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغي أن يملك ذلك ولا تفرح به .

وأما السبب الثاني : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكرمه سبباً لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمزلة في القلوب . وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ومطلب المزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله ! فكيف تفرح به ؟

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا بايات لها ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يملك مدح المادح وتكرمه وتفضله به . كما قل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على المدوح عظيمة . كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل . وروى في بعض الأخبار . فإن صح فهو قاصم القهقور .

أن رجلا أتى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال : لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فأت على ذلك دخل النار ^(١) ، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مرة للسادح : ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة ^(٢) ، وقال عليه السلام : ألا لا تهادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب ^(٣) ، فلهاذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من اللدح وقتته وما يدخل على القلب من المرور العظيم به ، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء فقال : أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم ، فنضب وقال : إني لم أتركك بأن تركيني وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله ، فنضب وقال : إني لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم - لما مدح - اللهم إن عديك تهذب إلى بمقتك فأشهدك على مقتك . وإنما كرهوا اللدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم يعقوتون عند الخلق ، فكان اشتغال قلوبهم بمخالعهم عند الله تعالى يفيض إليهم مدح الخلق ، لأن المدح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المجد من الله الملقى في النار مع الأشرار فهذا المدح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وماتته عليه إذ ليس أمره يد الخلق . ومهما علم أن الأرزاق والأعمال بيد الله تعالى قل التفتاه إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب للذم واشتغل بما يهيمه من أمر دينه . والله الموفق للصواب برحمته .

بيان علاج كراهة الذم

قد سبق أن الملة في كراهة الذم هو حدة الملة في حب المدح ، فملاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يظفر من ثلاثة أحوال .

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ؛ وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعننت وإما أن يكون كاذبا .

فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسبه ، بل ينبغي أن تتقصد منه فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه ، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتنامك بسبه وكرهاتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل ، وإن كان قصده التمتع فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به ، وأذكرك عيبك إن كنت خافلا عنه ، أو فبحه في عينك ليبحث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدت منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتبع لك أسبابا بسبب ماسمته من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك ووثبك ملوث بالمذمة وأنت لا تدري ، ولو دخلت عليه كذلك لحفت أن يحز رقبك لتلوثك بحسبه بالمذمة فقال قائل : أيها الملوث بالمذمة طهر نفسك ، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنية ، وجميع مساوى الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يقتنمه . وأما قصد الملوث التمتع لجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتفرح هو به ؟

(١) حديث : أن رجلا أتى على رجل خيرا فقال « لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار » لم أجده إلا (٢) حديث « ويحك قصمت ظهره ... الحديث » قال للسادح هدم (٣) حديث « ألا لا تهادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب » هدم دون قوله « ألا لا تهادحوا » .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبى أن لا تكره ذلك ولا تشغل بذهمه ، بل تفكر في ثلاثة أمور (أحدها) أنك إن غلوت من ذلك العيب فلاتخطئ عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يظلمه على عيوبك ودفنه عنك بذكر ما أنت برىء عنه . (والثاني) أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك فكأنه رماك بحبب أنت برىء منه وطهرتك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من عتابك فقد أهدى إليك حسنه وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فإياك تفرح بقطع الظهور وتمحون لهدايا الحسان التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتمرض لبقابه الآليم ، فلا ينبى أن تعصب عليه مع غضب الله عليه فقتضت به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه ، بل ينبى أن تقول : اللهم أصلحه اللهم رب عليه اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ^(١) . لما أن كسروا ثنيتي ونهجو وجهه وقتلوا معه حرة يوم أحد . ودعا إبراهيم بن آدم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال : علبت أني مأجور بسبه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسبي . وما يؤمن عليه كراهة الذمة قطع الطمع فإن من استغنى عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه ، وأصل الدين القناعة وبها يقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائما كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المزية في قلبه مصروفة ، ولا يخال ذلك إلا يهدم الدين ، فلا ينبى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جدا .

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والمد

اعلم أن الناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الدام والمدح :

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر المدح وينضب من الدام ويحقد على الدام ويكافئه أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يمتنع في الباطن على الدام ولكن يملك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ، ويرتاح للبادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من التقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كال .

الحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه الذمة ولا تهره استغفالا . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته . وعلاماته أن لا يجمد في نفسه استغفالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المدح ، وأن لا يجمد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المدح فوق ما يجده في قضاء حاجة الدام ، وأن لا يكون انقطاع الدام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المدح ، وأن لا يكون موت المدح المطرى له أشد نكابة في قلبه من موت الدام ، وأن لا يكون غم بمصيبة المدح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الدام ، وأن لا تكون زلة المدح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الدام . فهما خف الدام على قلبه كما خف المدح واستورا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب ! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستقبل في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون

(١) حديث « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » قاله لما خرج به قومه . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وقد تقدم والمحدث في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال حكاية من نبى من الأنبياء حين خرج به قومه .

أنفسهم بهذه العلامات ، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الثام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الثام قد عصي الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تموت بينهما ؟ وإنما استغفارك للثام من الدين المحض . وهنا بعض التليس ، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبار المعاصي أكثر مما ارتكب الثام في مذمته ، ثم إنه لا يستقلهم ولا ينفر عنهم ، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره . ولا يمدح في نفسه نفرة عنه بعمدة غيره كما يمدح لمذمة نفسه ، والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المفرور لنفسه بغضب ولهواء يتمض ، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يستل على الله بهواه فيريده ذلك بعدا من الله ، ومن لم يطلع على مكابدة الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته لمبضائع يفوت عليها الدنيا ويحضره في الآخرة ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ قل هل ننبشكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة ؛ أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذا يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين ، ويجب الثام إذ يعلم أنه مهد إليه عيب ومرشده إلى مهمه ومهد إليه حسنة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : رأس التواضع أن تذكره أن تذكر بالبر والتقوى ^(١) ، وقد روى في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثاله إن صح ، إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ويل للصائم ويول للثام ويول لصاحب الصرف إلا من ... ، فويل يارسول الله إلا من ؟ فقال : إلا من تمزعت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة ^(٢) ، وهذا شديد جدا ، وغاية أمثاله الطمع في الحالة الثانية ، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الثام والمادح ، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل ، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والثام فلنا نطعم فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لا تأتي بها ، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتكاثر على إكرام الثام والثناء عليه وقضاء حوائجه ، ولا تقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا تقدر عليه في سريرة القلب ، ومن قدر على التسوية بين المادح والثام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ؟ وكل واحدة من هذه الرب أيضا فيها درجات . أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرى بالعبادات ، ولا يزال بمقارفة المخطورات لا سبالة قلوب الناس واستطراق السليم بالمدح وهذا من المالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المخطورات ، وهذا على شرف جرف هار ، فإن حدود الكلام الذي يستعمل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكن أن يضبطها فوشكه أن يقع فيها لا يميل لتليل الحمد ، فهو قريب من المالكين جدا . ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجبره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جامد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتشكر في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه . ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم ينغم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن

(١) حديث « رأس التواضع أن تذكره أن تذكر بالبر والتقوى » لم أجده إلا أصلا (٢) حديث « ويل للصائم ويول للثام » وويل لصاحب الصوف ... الحديث ، لم أجده مذكرا وذكر صاحب القردوس من حديث أس « ويل لمن لبس الصوف مخالفا لعهده » ولم يخرج له في مسنده .

لا يتبى به إلى أن يغضب على المادح ويشكر عليه ، وأقصى درجاته أن يكرهه ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه ، لا أن يظهر الغضب وقلبه يحب له فإن ذلك عين التفاف ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه ؛ وكذلك بالصد من هذا تفاوت الأحوال في حق الدام ، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا من في قلبه حق وحقد على نفسه لغردها عليه وكثرة عيوبها وما أعيدها الكاذبة وتليساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو ، والإنسان يفرح عن يذم عدوه ، وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الدام على ذلك ويستمد فطنته وذكاه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشني له من نفسه ويكون غشيمة عنده إذ صار بالذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس ، وإذا سبقت إليه حسنات لم يغضب فيها فمساء يكون خيراً لمحبوه التي هو عاجز عن إقامتها ، ولو جاهد المرید نفسه طول عمره في هذه المحصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامة ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ، ولا قطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل

الشطر الثاني من الكتاب : في طلب الجاه والمزلة بالعبادات

وهو الرياء : وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء وما يرائي ، وبيان درجات الرياء ؛ وبيان الرياء الخفي ؛ وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه ؛ وبيان الرخصة في إظهار الطاعات وبيان الرخصة في كتمان الذنوب ؛ وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق ؛ وبيان ما يجب على المرید أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبمدها . وهي عشرة فصول وبالله التوفيق .

بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله مقنوع ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار .

أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ قَوْلِ لِلصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يَرَامُونَ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ قال مجاهد م أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ فندح المخلصين ينفي كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء عنده وقال تعالى ﴿ فَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ^(١) ﴾ نزل بعد ذلك فيمن يطلب الآجر والحمد بمباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال : يا رسول الله فيم النجاة ؟ فقال : أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس ، وقال أبو هريرة في حديثه الثلاثة - للقول في سبيل الله وللتصدق بالله والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه في كتاب الاخلاص - : وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه

(١) حديث : نزول قوله تعالى ﴿ فَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية فيمن يطلب الآخرة بمباداته وأعماله . أخرجه الحاكم من حديث طاوس : قال رجل لني أنس الملقب أيتني وجه الله وأحب أن يرى موافق فل يرد عليه حتى نزلت هذه الآية . هكذا في نسخ من المستدرک والله يعط من ابن عباس أو أبو هريرة . ولقباز من حديث معاذ بنند ضيف « من قام رياء فقد أشرك ... الحديث » وفي : أنه صلى الله عليه وسلم لاف هذه الآية

وسلم أنهم لم يثابروا وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم ^(١) وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى رياءً رأى الله به » ^(٢) ، وفي حديث آخر طويل « إن الله تعالى يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فأجعلوه في جهنم » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ » قال الرياء « يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : أذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل يجدون عندكم الجزاء » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا بالله عز وجل من جب الحزن » قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال « واد في جهنم أعد للقراء المراءين » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : من عمل لي عملاً أشرك فيه غيره فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » ^(٦) ، وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم صرم أحدكم فليدن من رأسه ولحيته ويمسح شفتيه ثلاثاً يرى الناس أنه صائم ، وإذا أظلى يمينه فليخف عن شبابه ، وإذا صلى فليخف ستره بابه فإن الله يقسم التثاء كما يقسم الرزق » وقال نبينا صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله عز وجل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء » ^(٧) ، وقال عمر لما ذاب بن جيل حين رآه يبكي : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أدنى الرياء شرك » ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشبهة الخفية » ^(٩) ، وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاذب يخفيها عن شبابه » ^(١٠) ، ولذلك ورد : « أنفضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفاً » ^(١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن المرائي ينادي عليه يوم القيامة يا فاجر يا فاجر يا مرائي ضل عمالك وحبط أجرك أذهب غلظ أجرك من كنت تعمل له » ^(١٢) ، وقال شاذان بن أوس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقلت ما يبكيك يا رسول الله ؟

(١) حديث : أبي هريرة في الثلاثة : المتكفل في سبيل الله والمتصدق بماله والبارئ لكتابه فإن الله تعالى يقول لسلك واحد منهم كذبت . رواه مسلم وسأقي في كتاب الإخلاص . (٢) حديث ابن عمر « من رأى رياءً رأى الله به » ومن سمع سمع الله به « متفق عليه من حديث جعجع بن عبد الله ، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكي أما يزيد عنه بلفظ « من سمع الناس سمع الله به » سماع خلقه وخرقه وصنعه « وفي الترمذي وابن المبارك وسند أحمد بن حنبل من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث « إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فأجعلوه في جهنم » أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب الظلة من رواية حمزة بن حبيب مرسلًا ورواه ابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورواه هات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج (٥) حديث « استعينوا بالله من جب الحزن » قيل وما هو ؟ قال « واد في جهنم أعد للقراء المراءين » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضمه ابن عدي (٦) حديث « يقول الله من عمل لي عملاً أشرك فيه غيره فهو له كله ... الحديث » أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله « وأنا منه بريء » ، وسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً وهي عند ابن ماجه بسند صحيح .

(٧) حديث « لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء » لم أجد هكذا (٨) حديث مماذه « إن أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبراني هكذا والمالك بلفظ « إن البعير من الرياء شرك » وقد تقدم (٩) حديث « أخوف ما أخاف عليكم الرياء ... الحديث » تقدم في أول هذا الكتاب (١٠) حديث « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاذب » أخرجه عن صفاء « متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه في حديث « سبعة يظلمهم الله في ظله » (١١) حديث : « تحسب عمل السر على عمل الجهر بسبعين » ضمه البيهقي في الشعب من حديث أبي الفداء « لأن الرجل ليس الصل يكسبه عمل صالح سمول » في السر يفتل أجره سبعين ضعفاً « قال البيهقي هذا من أفراد بنية عن شيوخه الجوهريين ، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث طائفة بسند ضيف « يغسل الذكر الحق الذي لا تسمة الخفظة سبعين درجة » (١٢) حديث « إن المرائي ينادي عليه يوم القيامة يا فاجر يا فاجر يا مرائي ضل عمالك وحبط أجرك الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبة البصري عن صاحب في رسم وزاد « يا كافر يا خاسر » ولم يقل « يا مرائي » ولستاده ضيف .

قال « إني تخوفت على أمي الشرك أمانهم لا يبدون صنوا ولا شمس ولا قرأ ولا حبرا ولكنهم يراون بأعمالهم »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها خلق الجبال فصورها أوتادا للأرض ، فقالت الملائكة : ما خلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال ، خلق الله الحديد فقطع الجبال ، ثم خلق النار فأذايت الحديد ، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار ، وأمر الريح فكدرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نسأل الله تعالى : قالوا : يارب ما أشد ما خلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة يمينه فيخفيها عن شياؤه فهذا أشد خلقا خلقه »^(٢) وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لماذا بن جبل : حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فيكي معاذ حتى ظننت أنه لا يمكث ثم سكنت ثم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا معاذ ، قلت ليلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال « إني بحديثك حديثا إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه افطعت حجتك عند الله يوم القيامة ، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلق السموات لجعل لكل سماء من السبعة ملكا يوايا عليها فاجعلها عطايا تصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى ، له نور كور الشمس ، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكوة ، فكثرة يقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس بماوروني إلى غيري ، قال « ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتقر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله بماوروني إلى غيري إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم ، قال « وتصدق الحفظة بعمل يتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك التكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله بماوروني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم ، قال « وتصدق الحفظة بعمل العبد يزهركم كما يزهركم الكوكب البدر له دوى من تسييح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وأحمله على قافله أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتمل ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادات يخدم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله بماوروني إلى غيري ، قال « وتصدق الحفظة بعمل العبد من صوم وصلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباداته أصابه بلاء أو ضرر أضرب به بل كان يهتتم به ، أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله بماوروني إلى غيري » قال « وتصدق الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الورد وحسنه كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل

(١) حديث شدد بن أوس « إني تخوفت على أمي الشرك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا
(٢) حديث « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها . الحديث » وفيه « لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق يمينه فيخفيها عن شياؤه » أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

وجه صاحبه ، احترى به جوارحه اقبلوا به على قلبه لاني احبب عن ربي كل عمل لم يرد به وجهه وبنيانه أراد بسمه غير الله تعالى ، إنه أراد رقعة عند الفقهاء وذكرنا عند العلماء وصيتنا في المدائن ، أمرني ربي أن لأدع عمله بماورني إلى غيري ، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرأى ، قال : وتصدق الحفظة بمثل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمره وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشميه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحبيب كلها إلى الله عز وجل فيفتقرون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله ، قال : فيقول الله لهم أتم الحفظة على عمل عبيد وأنا القريب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنة ، فيقول الملائكة كلهم : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول الميائات كلها : عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه الميائات السبع والأرض ومن فبين ، قال معاذ : قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال : اقتدي وإن كان في عملك نقص ، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حلة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا ترك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تكبر في مجلسك لكن يحذر الناس من سوء خلقك ، ولا تاج رجالا وعندك آخر ، ولا تنظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ، ولا تمزق الناس فتزرك كلاب التاريخم القيامة في النار قال الله تعالى (والثائغات نشطا) أئدري من من يا معاذ ؟ قلت : ما هن بأني أنت وأبي يا رسول الله ؟ قال : كلاب في النار نشطا لهم والعظم ، قلت : بأني أنت وأبي يا رسول الله فن يطبق هذه الحاصل ومن ينسب منها ؟ قال : يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه ^(١) ، قال فما رأيت أكثر تلاوه القرآن من معاذ للحزب بما في هذا الحديث .

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأ طي رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ارفع ركبته ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب ورأى أبو أمامة الباهلي رجلا في المسجد يبكي في سجوده فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للرائ ثلاث علامات ، يكسل إذا كان وحده ويلبث إذا كان في الناس ويريد في العمل إذا أتى عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لمباداة بن الصامت : أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد بهوجه الله تعالى ومحمد الناس ، قال : لا شيء لك ، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول : لا شيء لك ، ثم قال في الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأضياء عن الشرك ... الحديث . وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر ، فقال له : أحب أن تمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا علمت الله عملا فأخلصه . وقال الضحاك . لا يقول أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقول هذا لله والرحم ، فإن الله تعالى لا يشرك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص مني الفضل : لا بل أدعاه لله ولك . فقال له عمر : ما صنعت شيئا إلا أن أدعاه في أهرق ذلك أو تدعاه لله وجهه ، فقال : ودعاه لله وحده ، فقال : فم إن . وقال الحسن : لقد سمعت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو لطق بها لتفتتت ونفمت أحبابه وما يمنه منها إلا عفاة الشهرة وإن كان أحدهم لير فيرى الأذى في الطريق فما يمنه أن ينحيه إلا عفاة الشهرة ويقال : إن المرأى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يا مرأى يا غادر يا عاسر يا فاجر اذهب غخذ أجرك من عملك له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن عياض : كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون

(١) حديث ماذ أطول : إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض لجل لكل سماء من السبعة ، لمسا برأها عليها ... الحديث بطوله في مسود الحفظة يسلم العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك مزاء المنصف للرواية عبد الله بن المبارك يستأذن من رجل عن ساذ وهو كما قال رواد في الزهد وفي إسناده كما ذكرتم لم يسم ، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات .

بما لا يعلمون . وقال عكرمة : إن الله يعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأنَّ آتية لآراء فيها . وقال الحسن رضي الله عنه : للرائي يريد أن يخلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح ، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الرأى ؟ فلا بد لقلوب المؤمنين أن تمر به . وقال قتادة : إذا رأى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار التزاء : ثلاثة تزاء الرحمن وتزاء الدنيا وتزاء الملوك ، وأن محمد بن واسع من تزاء الرحمن . وقال الفضل : من أراد أن ينظر إلى مراه فينظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى : أظهر السمات بالليل فإنه أشرف من سمته بالنهار لأنَّ السمات بالنهار للخلقين وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوفى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان ، فقل له وكيف ذاك ؟ قال يجب أن لا يذكر أنه بجاور بمكة . وقال إبراهيم بن آدم : ما صدق الله من أراد أن يشتر .

بيان حقيقة الراء وما يراه به

اعلم أن الراء مشتق من الرقية ، والسمة مشتقة من السماع ، وإنما الراء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس ليراهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات . واسم الراء مخصوص بحكم المادة بطلب المنزلة في القلوب بالمادة وإظهارها . فلهذا الراء هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالرائي هو العابد والمرادى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم ، والمرادى به هو الحصول الذى قصد الرائي إظهارها ، والراء هو قصده إظهار ذلك ، والمرادى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي بجماع ما يتزين به العبد بالناس وهو : البدن ، والذى والقول ، والعمل ، والاتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يرامون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الراء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الراء بالطاعات .

(القسم الأول) الراء فى الدين بالبدن : وذلك بإظهار الحول والصغار ليوم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وايدل بالحول على قلة الأكل وبالصغار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرائى بتشميت الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفريط لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت استدلت الناس بها على هذه الأمور فأرتاحت النفس لمعرفتهم ، فذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لتبيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . ومن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدمن رأسه ويرجل شره ويكمل عيفه . وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزح الشيطان بالراء ؛ ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنتين . فهذه مرادة أهل الدين بالبدن .

فأما أهل الدنيا فيرامون بإظهار السن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ولفافة البدن وقوة الأعضاء وتماسها .

(الثانى) الراء بالمهية والذى : أما المهية فيتمشيت شعر الرأس وخلق الشارب وإطراق الرأس فى المشى والمطدود فى الحركة وإيقاظ أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأظفار وترك تنظيف الثوب وترك غفرا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد به بعباد الله

الصالحين ، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة وليس الثياب الزرق تشبها بالصرفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن . ومنه التفتع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على السنين ليرى به أنه قد انتهى تنقشه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدواعة والعليلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوم أنه من أهل العلم .

والمرامون بالزى على طبقات : فهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح لإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة الصغيرة الغليظة ليرأى بغفلتها ووسخها وقصرها وتفرقها أنه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفاً بما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح ، وذلك لحوقه أن يقول الناس قد بدله من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أهين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، ولذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والقوط الرقيقة فيلبسوها ، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهباته لون ثياب الصلحاء فيلتبسون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء إن كفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، ولو كفوا لبس الدقيق والكثان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم - لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص فيقتل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحا خيفة من المدة .

وأما أهل الدنيا فرامتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرقيقة وأنواع التوسع والتجمل في الملابس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والعليلاسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس فلأنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشترى عابهم لو برزوا فأناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا في الرقة .

(الثالث) الرياء بالقول : ورياء أهل الدين بالوظف والتذكير والتعلق بالحسنة وحفظ الاختيار والآثار ، لأجل الاستعمال في المحاوراة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للشنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ، وأدعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه يصير بالأحاديث واللبادة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه ، وباجتادة على قصد إلهام الخضم . ل يظهر للناس قوته علم الدين . والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تحصر .

وأما أهل الدنيا فرامتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التردد إلى الناس لاستئالة القلوب .

(الرابع) الرياء بالعمل : كرمادة المصل يطول القيام ومدّة الظهور وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم والنزوة والحج والصدقة وإطعام الطعام ، وبالإخبارات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتكيس الرأس والوقار في الكلام ، حتى إن الرائي قد يسعى في المشي إلى حاجته فإذا أطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من

أن ينسب إلى العجلة وقلة الوفاق ، فإن غاب الرجل عاد إلى مجلته ، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجتهد الخشوع له ، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء ، ومنهم من إذا سمع هذا استحيما من أن يخالف مشيئته في الخلوة مشيئته برأى من الناس ، فيكف نفسه للثنية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفكر إلى التنبير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رباؤه ، فإنه صار في خلوته أيضا مرآتيا ، فإنه إنما يحسن مشيئته في الخلوة ليكون كذلك في اللأ لالخوف من الله وحياء منه .

وأما أهل الدنيا فراماتهم بالتبحر والاختيال وتحريك اليدين وتحريب الخطأ والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحسنة .

(الخامس) الرماة بالأصحاب والزائرين والمخالطين : كالذي يتكلف أن يستور عالما من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا ، أو عابدا من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويرددون إليه ، أو ملكا من الملوك أو حاملا من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين . وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوعا كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ورماته تترشح منه عند غنائه ، فيقول لغيره : من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ ؟ وما يجري مجراه فهذه جماع ما يرأتى به المرامون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنازلة في قلوب العباد . ومنهم من يقتنع بحسن الاعتقادات فيه فكأنه من رهاب الزوى إلى دبره سنين كثيرة ؟ وكأنه من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، ولما خابته من حيث عليه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقتنع بعلومه براءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع أنه قد قطع طمعه من أموره ولم يكن يجب مجرد الجاه - فإنه لا يذكا ذكرناه في أسبابه - فإنه نوع قدرة وكال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ، ومن المرائين من لا يقتنع بقيام منزلته بل يلتبس من ذلك لإطلاق اللسان بالثناء والمجد . ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه . ومنهم من يريد الانتشار عند الملوك لتقبل شفاعة وتجر الخواص على يده فيقوم له بذلك جاء عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال التباي وغير ذلك من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يرامون بالأسباب التي ذكرناها . فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء .

فلن قلت : فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل ؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بنزير العبادات ، فإن كان بنزير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتليسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه ، وكأن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود ، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال (إني حفيظ عليم) وكان للمال فيه سم نافع ودرداق نافع فكذلك الجاه ، وكما أن كثير المال يلهي ويعطين وينسى ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثيرا لجاه بل أشد ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال ، وكما أنا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حلت كثره المال وكثرة الجاه على مباشرة مالا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كالانصراف الهم إلى كثرة المال ، ولا يقدر حب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها ، وأما سعة

الجهاد من غير حرص منك على طلبه ومن غير اعتناء بزيواله إن زال فلا ضرر فيه ، فلا جاء أوسع من جاء
ورسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصرافهم إلى طلب
الجهاد قصان في الدين ولا يوصف بالتحريم ، فعل هذا يقول : تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج
إلى الناس مراعاة وهو ليس بمرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالفتيا ، وقس على هذا كل يحمل الناس وترين لهم .
والدليل عليه ما روى عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة
فكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره فقالت : أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم إن الله تعالى يحب
من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم ^(١) . نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان
مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستئالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه ، فكان يجب
عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تردديه أهينهم ، فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر ، فكان
ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم خذرا من مذمهم ولومهم
واستروا إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباهيا ، إذ للإنسان أن يمتزج من ألم المذمة ويطلب راحة
الأس بالإنحراف . ومهما استقلوه واستقدروه لم يأنس بهم .

فلئن المرادة بما ليس من العبادات قد تكون مباهية ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة ، وذلك
بحسب الفرض المطلوب بها . ولذلك يقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة
والصدقة ولكن ليمتد الناس أنه سعى فهذا مراعاة وليس بمرام وكذلك أمثاله .

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والنزوع والحج فلهما في حالتان إحداها : أن لا يكون له قصد
إلا الرياء المحض دون الآخر ، وهذا يطل عبادته لأن الأعمال بالنيات ، وهذا ليس بقصد العبادة ، لا يقتصر ،
على إحباط عبادته حتى تقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات .

والخفي فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه يخلص مطيع لله وأنه من
أهل الدين وليس كذلك ، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضا ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع
عليهم ليمتدوا بصفاته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر . (والثاني) يتعلق بالله وهو أنه
مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله . ولذلك قال قتادة : إذ ارأى العبد قال الله للملائكة انظروا
إليه كيف يستهزئ في .

ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول التهاجر كما جرت عادة الخدم وإنما وقفه للملاحظة جارية من
من جواري الملك أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك
عبدا من عبده ، فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراعاة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا ؟
وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذاك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقريب إليه من الله إذ أثره
على ملك الملوك لجله مقصود عبادة ؟ وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق اللوى ؟ فهذا من كبار الهلكات ولهذا

(١) حدثت عائشة : أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره ... الحديث أخرجه
ابن عدى في السكائل وقد تقدم في السهولة .

سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ^(١) .

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض - كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى - ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المرادة ولولم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لتبرأ الله لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ، ولم يرقى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرًا جليًا ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرأتى عظم في قلبه الناس ، فاقترضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريبًا من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فمن هذا كان شركًا خفيًا لا شرًا جليًا ، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأورم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه وورثته وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى ، فذلك عدل يوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكلة الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صفيته ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف يملكون لنفوسهم هذا في الدنيا ؟ فكيف في يوم لا يجرى والله عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا بل يقولون لأنبياء فيه نفسى نفسى ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتبه بطعمه الكاذب في الدنيا من الناس ؟ فلا ينبغي أن تفك في أن المرأتى بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعًا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحد جميعًا في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص . وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص ، ويدل على ما قلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبد بن الصامت : إنه لا أجر له فيه أصلا .

بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض ، واختلافه باختلاف أركانه ونماوات الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المرادى به والمرادى لأجله ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب ، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلظ أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعة :

(الأول) وهو أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلا ، كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصل ، بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس ، فهذا مجرد قصده إلى الرياء فهو المقبوض عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولا خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء .

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضئيلا ، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يشمله ، ولا يعمل ذلك التقصد على العمل ، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يعمل على العمل ، فهذا قريب مما قبله

(١) حديث : سمى الرياء الشرك الأصغر . أخرجه أحمد من حديث حماد بن زيد وقد تقدم روى الطبراني من رواية حماد بن زيد عن رافع بن خديج عنه في مسند رافع وقد تقدم قريبا وإلحاقا وصححه إسناده من حديث شداد بن أوس : كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر .

وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا يثني عنه المقت والإيم .

(الثالثة) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما غاليا عن الآخر لم يعيش على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل ؛ فهذا قد أقصد مثل ما أصلح فترجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص .

(الرابعة) أن يكون إطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نقلته والملم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء وبشأن على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح .

الركن الثاني : المراد به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول وهو الأغلط : الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات .

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلط أبواب الرياء ومواجه غلط في النار ، وهو الذي يظهر كلفى الشهادة وابعلته مشحون بالتكذيب ولكنه يراني بظواهر الإسلام ، وهو الذي ذكره تعالى في كتابه في مواضع شتى قوله عز وجل ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أى في دلائلهم بقولهم على خباياهم وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يسجدك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وقال تعالى ﴿ يرآمون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك ﴾ والآيات فيهم كثيرة . وكان اتفاق يكثر في ابتداء الإسلام عن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض ، وذلك مما يقل في زماننا ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجسد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة ، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين والمراهمين المخدلين في النار ، وليس وراء هذا الرياء به وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فلنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأولى بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بأخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجهما ، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليقطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف اللزمة لكان لا يحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والده لاعت رغبة ولكن خوفا من الناس ، أو يفزو أو يبيع كذلك . فهذا مرآه أصل الإيمان بالله يعتقد ألا لمعبر دسواء ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكل وبشيط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخلق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته في محبتهم أشد من رغبته في ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاحتقاد .

(الثالثة) أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائي بالتواضع والسنن التي لو تركها لا يصح ، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها وإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرياء على فعلها ، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعبادة المريض وإتياع الجنابة وغسل الميت ، وكالتجهد بالليل وصيام يوم عرفة ومشاوراه ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحبة ، ويملك الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله ، فإن الذي قبله أثر حمد الخلق على حمد الخالق . وهذا أيضاً يفعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على شطر من الأول وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لأبصولها ، وهو أيضاً على ثلاثة درجات .

(الأولى) أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة ، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتم القعود بين السجدين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أي أنه ليس يبالي بإطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا أطلع عليه أدى أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان متربهاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديماً للعلم على السيد واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في المالدون الخلوة . وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا أطلع عليه غيره أخرجهما من الجبذة خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصوم عن الغيبة والرفق لأجل الخلق لا لإكمال عبادة الصوم خوفاً من المذمة ، فهذا أيضاً من الرياء المخطئ لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التقطعات .

فإن قال المرائي : إنما فعلت ذلك صيانة لآلستهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغبية ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ؟ فيقال له : هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبس ، وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغبية غيرك ، فلو كان باعثك الدين لكان شغفتك على نفسك أكثر ، وما أنت في هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها ، فبهديها إليه وهي عوراء فيحس مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلبانه امتنع خوفاً من مذمة غلبانه ؛ وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينفى أن تكون مراقبته الملك أكثر .

نعم للرائي فيه حالتان : إحداهما أن يطلب بذلك للزوجة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً . والثانية : أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ، ولو خفت كانت صلاتي عتدهم ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم ، فأستعيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيغوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره الثانية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمرامة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق .

(الدرجة الثانية) أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التشككة والتتمة لعبادة ، كالطول في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبير الأولى وتحسين الاعتدال

والزيادة في التزامة على السور المعتادة ، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإحسان الرقة الغالية في الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

(الثالثة) أن يرأى بزيادات خارجة عن نفس التواضع أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى بين الإمام وما يجرى مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يصوم بالصلاة ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرأى به وبعضه أشد من بعض . والكمل مذموم .

الركن الثالث : المرائى لأجله ، فإن للمرائى مقصودا لأعماله ، وإنما يرأى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لأعماله ، وله أيضا ثلاث درجات :

(الأول) وهو أشدّها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية ، كالذي يرأى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة التواضع والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولي القضاء أو الأوقاف أو الرعايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها ، أو يودع الرادائع فيأخذها ويصدها ، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استتباع الحبيب ويتوصل بقوتهم إلى مقاصدة الفاسدة في المعاصي . وقد يظهر بعضهم زى التصوّف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوطء والتذكير وإنما قصده التحجب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وخلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده النظر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبنض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربه سبلا إلى معصيته وانفذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم في فسقهم ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دعوتهم من هو مقترف جرمية اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينقي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لئلا تثمة كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

(الثانية) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة ، كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء ، فيقصده إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، والكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته . فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه .

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين القمص ولا يبد من الخاصة والزهاد ويمتد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستجسلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك المعلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسو لا من أهل الوفاق ، وكذلك إن سبق إلى الضحكة أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيقع ذلك بالاستغفار وتفنن الصمداء وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، والكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتجهّدون أو يصومون الخليس واللائين أو يتصدقون فقيراتهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان

لا يفعل شيئاً من ذلك ، وكالذي يعلتن يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم ، فإذا غلظوا به الصوم امتنع عن الأكل لاجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصح بأن صائم ولكن يقول : لي عذر ، وهو جمع بين خيبتين ، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس براء ، وأنه يفتخر من أن يذكر عبادته فتناس فيكون مرئياً فريد أن قال إنه سائر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر من أن يذكر نفسه فيه عذراً قصرحياً أو تعريضاً بأن يشعل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول أظرت قليلاً لقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يمتدز رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً ؛ مثل أن يقول : إن فلاناً يحب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح علي اليوم ولم أجده من تطيب قلبه . ومثل أن يقول : إن أي ضميعة القلب مشقة على لظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم ، فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه ؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون مليساً ، وإن كان له رغبة في الصوم لله فتح يعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد يحظر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه ومكيدة وغرور - وسيأتي شرح ذلك وشروطه - .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من ديب الخلق كما ورد به الخبر ، يزل فيه لحول العلماء فضلاً عن العباد الجاهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

بيان الرياء الحق الذي هو أخفى من ديب الخلق

اعلم أن الرياء جلي وخفي ، فالجلي هو الذي يبيت على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجله ، وأخفى منه قليلاً هو ألا يعمل على العمل بمجرده ، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله ، كالذي يمتد التهجيد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده شيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لو لا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ، ومهما لم يؤثر في البقاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر بإطلاع الناس على طاعته قرب عبد مخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتم العمل كذلك ، ولكن إذا أطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند إطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكناً التار في الحجر فأظهر عنه إطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر لذة السرور بالإطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوماً وغذاء للعرق الحق من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبياً يطلع عليه بالترخيص وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح ، وقد يخفي فلا يدعوا إلى الإظهار بالطلق نمرضاً وقصرحاً ولكن بالشائيل ، كما يظهر التحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الرق وآثار المجموع وقلبة التناس البالد على طول التهجيد ، وأخفى من ذلك أن يحتج بحج لا يريد الإطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أو يدموه بالسلام وأن يضاهوه بالشاشة والتوقير وأن يشعروا عليه (٣٩ - ليعاد علوم الدين - ٣)

وأن ينشطوا في قضاء حوائجهم وأن يساعوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان ، فإن قصر فيه مقصر فقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقدير الناس في حقه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كمدحها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد فنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديب البخل^(١) وكل ذلك يوشك أن يحيط بالأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ، ألم يكن يرخص عليكم السر ألم تكونوا تبتدون بالسلام ألم تكونوا تقضي لكم الحوائج . وفي الحديث : لا أجر لكم قد استوفيت أجوركم ، وقال عبد الله بن المبارك . روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد غفلة الطغيان فتخاف أن تكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم ، إن أحدا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجليل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك ، فقال للفلام اتلي بطعام فأنا بقل وزيت وقلوب الشجر ، لجل يحشو شدته ويأكل أكلا ضيفا فقال الملك أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا ، قال كيف أنت ؟ قال كالناس ، وفي حديث آخر : بعير ، فقال الملك ما عند هذا من خير ؟ فلم يصر عنه ، فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجهدون لذلك في عيادة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفاؤها أعظم مما يحرص الناس على إظهار فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تنخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملا من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلوا شدة حاجتهم وفاقهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يهزي زواله عن ولده ، ويشغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد . نفسى نفسى ! فضلا عن غيرهم فكانوا كروار بيت الله إذا توجعوا إلى مكة فلم يهتم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص لمعلم أن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والبهرج ، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفرغ إليه ولا حريم يتمسكه به فلا ينحى إلا الخالص من النقد ، فصكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والراد الذي يتزودونه له من التقوى . فإذا شوا رب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة فيه شعبة من الرياء فإنه لما نفع طمعه عن البهائم لم يبال حضرة البهائم أو الصياني الرضع أم فايوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا ، فلو كان غلصا قائما بلم الله لاستحقر عقلاء المباد كما استحقر صيانيهم وبعائيتهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب وتقضان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصياني والجانين ، فإذا لم يجد ذلك فيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محيطا للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفضيل .

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته ، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول . أولا ، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم .

فأما المحمود فأربعة أقسام (الأول) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه

(١) حديث « في الرياء شوائب أخفى من ديب الجمل » أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري « أهوا هذا المرك فانه أخفى من ديب الجمل » ورواه ابن حبان في النسخة من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني .

الحق علم أن الله أعلمهم وأظهر الجليل من أحواله ، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه واللطف به ، فإنه يستر الطاعة والمصيبة ثم الله يستر عليه المصيبة ويظهر الطاعة ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجليل ، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام الميزة في قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فكانه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به .

(الثاني) أن يستدل بإظهار الله الجليل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما سر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة »^(١) فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا الثبات إلى المستقبل .

(الثالث) أن يظن رغبة المطلقين على الاقتداء به في الطاعة فيتنافس بذلك أجره ، فيكون له أجر العاليتين بما أظهر أخراً وأجر السريما قصده أولاً ، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور غايل الرجح لذيد وموجب للسرور لا محالة .

(الرابع) أن يحمد المطلقون على طاعته فيفرح بطاعتهم في مدحهم وبجهم للطبع وبجميل قلوبهم إلى الطاعة وإذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقت ويحسده أو ينم ويهزأ به أو ينسب إلى الرياء ولا يحمد عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله . وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمده غيره مثل فرحه بحمده رياء . وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلة في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بتفضاء حوائجهم ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

بيان ما يحيط بالعمل من الرياء الخفي والجليل وما لا يحيط

فقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخار إما أن يرد عليه بمدفراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بمدفراغه سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل ، وإذا العمل قد تم على نعمت الإخلاص سالماً عن الرياء فإبطراً بمدفه فيرجو أن لا ينمط عليه أثر ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يمتن إظهاره وذكره ولكن انفق ظهوره على إظهار الله ، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بمدفه رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا غفوف .

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحيط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول قرأت الباردة البقرة فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له : سمعت الله يرسل الله . فقال له « ما سمعت ولا أفطرت »^(٢) فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كرامة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يغفل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً ثواب العمل بل الأقبس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي معنى ومعاقب على مراعاته بطاعة الله بمد التفراغ منها ،

(١) حديث « ما سر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٧) حديث قال لرجل قال : سمعت الله « ما سر الله ولا أفطرت » أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة : قال عمر يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال « لا صام ولا أفطر » وإلخبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث ، فيه : فقال رجل لبي سامم ، قال بعض القوم إنه لا يفطر لأنه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا صام ولا أفطر من صام الأبد » ولم أجد بلفظ الخطاب .

بمخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثناءها وأرد الرياء ، فلا يحبط إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره . ومثاله : أن يكون في تقطع فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتري أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة قاستمتها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم : « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » (١) أي النظر إلى عاقبته . وروى « أنه من رأى يعمل ساعة حبط عمله الذي كان قبله » (٢) وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لأعلى الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فأي خطأ يفسد الباقي دون الماضي ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتها أيضا ، فهذا ويا قد أثر في العمل وانتهى باعثا على الحركات ، فإن غلب حتى امتنع معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة متعمورا ، فهذا أيضا ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه ، لأننا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلب ويفسدها ، ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضحك بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحارث المحاسب رحمه الله تعالى إلى الإحياط في أسر هو أهون من هذا وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور بإطلاع الناس - يعني سرورا هو كعب المنزلة والجاه - قال : « قد اختلف الناس في هذا ؛ فصارت فرقة إلى أنه يحبط لأنه ينقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يتعم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بتأتمنه ، ثم قال ولا أنقطع عليه بالمحبط وإن لم يتزدد في العمل ولا آمن عليه وقد كتبت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى : إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لم تنقض الثانية . وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيفسري قال : لك أجران أجر السر وأجر العلانية » (٣) ، ثم تكلم على الخبر والافتراق : أما الحسن فإنه أراد بقوله : لا يفسره ، أي لا يبدع العمل ولا تنقضه الخطأ وهو يريد الله ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يفسره ، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ . (الثاني) أنه أراد أن يسر به للاستعداد به أو لسرور آخر محمود بما ذكرناه قبل لاسرورا بسبب حب المحدثه والمنزلة ، بذليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذهاب من الأمانة إلى أن السرور بالمحدثه أجرا وفايته أن يمين عنه ، فكيف يكون للخص أصرا وللرأي أجرا ؟ (والثالث) أنه قال : أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح ، ومنهم من يرفعه ، فالحكم

(١) حديث « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أخرجه ابن ماجه من حديث سائقة بن أبي سفيان بلطف . لذا طاب أسفه طاب أعلاه . وقد تقدم (٢) حديث « من رأى يعمل ساعة حبط عمله الذي كان قبله » لم أجده بهذا اللفظ ولينسحب من حديث جندب « من سمع سبع الله به ومن رأى رضى الله به » ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث : إن رجلا قال أسر العمل لأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيفسري فقال « لك أجران .. الحديث » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجب قال « له أجر السر والعلانية » قال الترمذي غريب وقال إنه روى عن أبي صالح وهو ذكر أنه من سل .

بالعمومات الواردة في الرياء أولى . هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الإحباط .

والأئسي عندنا : أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم يتعمد به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام .

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق ، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه ، أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه فلا يحيط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة ، ولا يبعد أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة عالصة لوجه الله .. والخالص مالا يشوبه شيء .. فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاما أوفى عما أوردناه الآن فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ .

القسم الثالث : الذي يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف في أنه يقضى ولا يمتد بصلاته ، وإن قدم عليه في أثناء ذلك واستغفروا رجوع قبل التمام فبما يلزمه ثلاثة أوجه (قالت فرقة) لم تعتد صلاته مع قصد الرياء فليست بآفة (وقالت فرقة) تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريم الصلاة لأن التحريم عقد ، والرياء عاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا (وقالت فرقة) لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى عاتق العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وغتم بالرياء لكان يفسد عمله .

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطعن بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالى بجمد الناس وذمهم فتصح صلاته . ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو غتم بالإخلاص صح لغيره إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يتعدى في النية وأولى الأوقات براعاة أحكام النية سالما للافتتاح ، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعته مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتنال الأجر لم ينقذ افتتاحه ولم يصح ما بعده ، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصل لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة . فأما إذا كان بحيث لو لا الناس أيضا لكان يصل إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وماليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج ، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب (فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحيط أحدهما الآخر . وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا ، فإن كانت نفلا لم تكن حكما أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجهه وأطاع من وجهه ، إذ اجتمع في قلبه الباعثان ، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صل

التراويح وتبين من قرآن حاله أن يصدده الرياء بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلاف بيته وحده لما صلى ليصبح الانتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جدا ، بل يظن بالاسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتلوته فتصح باعتبار ذلك التقصد صلاحه ويصح الانتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص ، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الاتيماع بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه ، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا في حقه بمجرد واستقلاله ، وإن كان كل باعث مستقلا حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفراغ من ، ولو لم يكن باعث الفرض لأننا صلاة تطلوها لأجل الرياء فهذا عمل النظر ، وهو محتمل جدا ، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة عارضة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بإعانت مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة وسقط الفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة ، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من باهر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لآخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا يتبدئ صلاة لأجل الرياء فهذا عما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يمارسه غيره بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد من التدحس في التنية ، هذا في رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه ، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعد أن يفسد الصلاة . فهذا مأزق لا تخاف قانون الفقه ، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه ، والذين غاضوا فيها وقصروا لم يلاحظوا قرائن الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والمعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للفت عند الله تعالى وأنه من كبار المهلكات ، وما هذا وصفه لجدير بالتضمير من ساق الجدة في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المزة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطر إليها المبادكلهم ، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والخيال يمتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم ، فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فينبط عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه ، وإنما يفسر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انفرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمة إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشق أولا وتخف آخرأ وفي عزاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه (والثاني) دفع ما يضطر منه في الحال .

(المقام الأول) في قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حب المنزلة والمجاهة . وإذا فضل رجوع إلى ثلاثة أصول وهي لذة المحمدة ، والفرار من ألم الألم ، والطمع فيما في أيدي الناس . ويشهد للرياء هذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ماروي أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل (١) حمية — ومعناه أنه يأبى أن يهزم أو يذم بأنه مهزوم مغلوب — وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر

(١) حديث أبي موسى : أن أعرابيا قال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ... الحديث . - معنى عليه

في القلوب - والرجل يقابل الذكر - وهذا هو الحمد بالسان - فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفان نزلت للملائكة فكبروا الناس على مراتبهم ؛ فلان يقابل الله كروفلان يقابل الملك ، والقتال للقاء إشارة إلى الطمع في الدنيا . وقال عمر رضي الله عنه : يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملائقتى رحلته ووقا . وقال صلى الله عليه وسلم « من غزا لا يئس إلا عتقلا فله ماوى ^(١) » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهي الحمد ولا يطعم فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبنيل بين الاستياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يئسل ، وهو ليس يطعم في الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجناب بين الشجعان لا يفتز من الزحف خوفا من الذم وهو لا يطعم في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم ، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطعم في الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم . فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرأى إلى الرياء ، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة .

ولكننا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما في الحال وإما في الآمال ، فإن علم إنه لذيق في الحال ولكنه ضار في الآمال سهل عليه قطع الرغبة عنه ، كن يعلم أن العسل لذيق ولكن إذا بان له أن فيه سبأ أضر منه ؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يجرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر . حيث ينادى على رءوس الخلائق ؛ يا فاجر يا فاجر يا مرأى ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله ، وتحببت إلى العباد بالتبذير إلى الله ، وتزينت لهم بالكين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتمرس لخطأ الله ، أما كان أحد أهون عليك من الله ! فهما فكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحيط من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجم به ميران حسنة لو خلس ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجم به وهوى إلى النار ، هو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في مرة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسنة راجعة فقد كان ينال هذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ود إلى صف الثمال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تفتت اللحم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضائ الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يخط به فريق ورضا بعضهم في خطئ بعضهم ، ومن طلب رضاهم في خطئ الله عليه وأخطاهم أيضا عليه ، ثم أى غرض له في مدحهم وإثارة ذم الله لأجل مدحهم ؟ ولا يريد مدحهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة . وأما الطمع في أبيهم فإن يعلم أن الله تعالى هو لسخر القلوب بالمع والاعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ، ومن طمع في الخلق لم يحل من الذل والحنية ، وإن وصل إلى المراد لم يحل من اللذة والمهابة ، فكيف يترك ما عند الله رجاء

(١) حديث « من غزا لا يئس إلا عتقلا فله ماوى » أخرجه النسائي وقد علم .

كاذب وروم فاسدته يصيب وقد يخطئ وإذا أصاب فلان في لذته بألم مثله ومذله ؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيد ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله ، ولا يعمل أجله ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يفيضه إلى الله إن كان محموداً عند الله ، ولا يزيد مقتاً إن كان معقوباً عند الله ، فالعباد كلهم عجرة لا يمكن أن تنفسهم ضرراً ولا نفعاً ولا يمكن موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فحقت رغبته وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكتفي أن الناس لو علوا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه ، وسيكشف الله عن سره حتى يفيضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراد معقوت عند الله ، ولو أخلص الله لكشف الله لهم إخلاصه وحبه إليهم ويحرم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والتناء عليه ، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم : إن مدحى زين وإن ذى شين إ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبت ؛ ذلك الله الذي لا إله إلا هو ^(١) ، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه ، فأى خير لك في مدح الناس . وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المؤمنين ؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها للتوיד والمتناول الرقيقة عند الله استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنقصات ، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذله الرياء ومقتاة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنه بالله ووخشته من الخلق واستخاره الدنيا واستظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه وأحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص . فهذا وما تقدمنا في الشطر الأول هي الأدوية العلية القائمة مفارس الرياء .

وأما الدواء العملي : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تعلق الأبواب دون القواحش ، حتى يتقنع قلبه بعلم الله أو إطلاعه على عباداته ولا تآخره النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لاجتماعنا بعد هذا . فلم يرخص في إظهار هذا التقدر لأن في ضم الدنيا دعوى الزهد فيها ، فلا دواء الرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق في بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتراصل ألطاف الله وما يعتبه عباده من حسن الترفيق والتأييد والتسديد و (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يشيروه ما بأنفسهم) فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب (والله لا يضيع أجر المحسنين ؛ وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من الله أجراً عظيماً) .

(المقام الثامن) في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضاً ، فإن من جاهد نفسه وقطع مفارس الرياء من قلبه بالنشاعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحار مدح المخلوقين وذهم الشيطان لا يتركه في أثناء العبادات ، بل يمارعه بمخاطر الرياء ، ولا تقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا يمتحى بالكلية ، فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة .. قد تغطر دفعة واحدة كالحاطر الواحد وقد تترادف على التدرج .. فالأول : العلم بإطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوهم هيجان الرغبة

(١) حديث : قال شاعر من بني تميم إن مدحى زين وإن ذى شين : فقال « كذبت ذاك الله » أخرجه أحمد من حديث الأفرع بن حابس وهو قال « ذاك » دون قوله « كذبت » ورواه ثعلب إلا أن لا أرفق لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماه الأفرع ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل « إن حدى » .

من النفس في حدهم وحصول اللذة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعند الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثاني : حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعل يسمى العزم وتقسيم المقدر . وإنما كمال القوة في دفع الخطأ الأول وردّه قبل أن يتلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال : مالك والخلق صلوا أو لم يصلوا والله عالم بما لك فأى فائدة في علم غيره ؟ فإن حاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكركما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتمرّنه للقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوال أوقاته إلى أعماله ، فكما أنّ معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمرة آفة الرياء تثير كراهة له تعادل تلك الشهوة ، إذ يتفكر في تمرّنه لمقت الله وعقابه الأليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإيابة ، والنفس تطاول لا محالة أقوامها وأغلبيها .

فلذا لا بدّ في ردّ الرياء من ثلاثة أمور : للمعرفة ، والكراهة ، والإيابة . وقد يشرع البعد في العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرّد خاطر الرياء فيقبله ولا يحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها ، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بغوف الذمّ وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب منفع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بأفات الرياء وشؤم حاقبته إذ لم يبق موضع في القلب غال عن شهوة الحمد أو خوف الذم ، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذمّ النضب ، ويهزم على التحلم عند جريان سبب النضب ثم يجرى من الأسباب ما يشتدّ به غضبه فينسى سابقة حرمة ويمتثل قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة النضب ويشغل قلبه عنه ، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل حرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله : يا أيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحت الشجرة على أن لا تفتر ولم نيايمه على الموت فألستما يوم حين^(١) حتى نودى : يا أصحاب الشجرة فرجوا . وذلك لأنّ القلوب امتلأت بالخوف فنسيته المهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ ينسى معرفة مضرتها الماخلة في عقد الإيمان . ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة . وقد يتذكر الإنسان فيعلم أنّ الخطأ الذي خطر له هو خاطأ الرياء الذي يمرّنه لسطأ الله ، ولكن يستمرّ عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال ، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكير في ذلك لشدة الشهوة ، فكمن عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا بواه الخلق وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمرّ عليه فتكون الحجة عليه أوكد ؟ إذ قبل داعي الرياء مع حله بفائلته وكونه مذموما عند الله ، ولا تنفع معرفته إذا خلّت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإحاطة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضا لا يفتنع بكرامته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فلذا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث : وهي للمعرفة ، والكراهة ، والإيابة . فالإيابة ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحسب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكير فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضا ويشمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمآزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكير في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأثر العلوم ،

(١) حديث جابر : يا أيها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الفجرة على أن لا نمر ... الحديث . أخرجه مسلم مختصرا دون ذكر « يوم حين » فرواه مسلم من حديث أبيه .

فإن قلت : فمن صافى من نفسه كراهة الرأيه وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وجبه له ومنازعة إياه إلا أنه كاره لحبه وميله إليه وغير محب إليه ، فهل يكون في زمرة المرائين ؟ فأعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما يطيق وليس في طاعة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يعيل إلى الشرهات ولا يزعج إليها ، ولإنما غايته أن يقابل شبهته بكراهة استئثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإذا فعل ذلك فهو النسيئة في أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شكوا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نغفر من السياء فتدخلنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان صحيح أحب إلينا من أن نتكلم بها ، فقال عليه السلام : « أو قد وجدتموه » قالوا : نعم قال : « ذلك صريح الإيمان »^(١) ، ولم يحدوا إلا الوسواس والكراهة له ، ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة ، فلم يبق إلا حله على الكراهة للمساواة للوسوسة ، والرأيه وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فإن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث ابن عباس أنه قال : « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة »^(٢) ، وقال أبو حازم : ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك ، وما كان من نفسك فرحمته نفسك لنفسك فمناها عليه . فإذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادها بالإباء والكراهة ، وانحوا طرفا في العلوم والتذكرات والتخييلات للأسباب الملهية للرأيه من الشيطان ، والرغبة والليل بعد تلك الاضطرابات من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل ، إلا أن الشيطان مهنا مكيدة وهي أنه إذا جرح من حمله على قبول الرأيه خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجidal حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب ، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعتة انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزله عند الله .

والمختصون عن الرأيه في دفع خواطر الرأيه على أربع مراتب (الأولى) أن يردده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه بل يشغل بمجادلته ويطيل الجidal معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه ، وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو يصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتمرير على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك . (الثانية) أن يعرف أن الجidal والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشغل بمجادلته (الثالثة) أن لا يشغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت ، بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرأيه وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستمحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالخاصة . (الرابعة) أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرأيه ، فيكون قد علم أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيها هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والمادة غيظاً للشيطان ، وذلك هو الذي يفيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلاناً يذكرك ، فقال : والله لا غيظ من أمره ، قيل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان ، اللهم اغفر له . أى لا غيظاً بشأن

(١) حديث : شكوى الصبية ما يمرض في قلوبهم وقوله « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً : مثل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الوسوسة فقال « ذلك مرض الإيمان » والنسائي في اليوم والليالي وابن حبان في صحيحه ورواه النسائي فيه من حديث مائة . (٢) حديث ابن عباس « الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليالي بفظ « كيد » .

أطع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه المادة كعب عنه خيفة من أن يزد في حسنة . وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يعلمه وليحدث عند ذلك خيرا ، فإذا رآه كذلك تركه : وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك ، وإذا رآك مداوما ملك وفلاك

وطرب الحارث المحاسبي رحمه الله هذه الأروبة مثالا أحسن فيه فقال : مثلهم كأروبة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفنلا وهداية وورثدا ، لحسدم على ذلك حال مبتدع وعاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فتمه وصرفه عن ذلك ودعاة إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد صلاه وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفتقر عليه بقدر تأخره . فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتمل بالقتال واستعجل ، فخرج منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث فلم يلفظ إليه ولم يشتمل بدفعه ولا يقاتله ، بل استمر على ما كان ، فغاب منه رجاءه بالكيفية . فتر الرابع فلم يتوقف له ، وأراد أن يخطئه فزاد في جملته وترك الثاني في المشي ، فيوشك أن عادوا ومرورا عليه مرة أخرى أن يماود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يماوده خيفة من أن يرداد فائدة باستعماله .

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا يؤمن بزعمه فهل يجب التردد له قبل حضوره الجذر منه انتظاراً لوروده ، أم يجب التوكل على الله ليسكون هو الدافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة والفضلة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهب فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتولهم الشيطان وأيس منهم وغشس عنهم . كما أبس من ضعفاء البعاد في الدعوة إلى الخير والزنا - فصارت ملاذ الدنيا عتدهم - وإن كانت مباحة - كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكيفية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهب فرقة من أهل الشام إلى أن التردد الجذر منه إنما يحتاج إليه من قل جبنه ونقص توكله ، فمن أين بأن لا يتركه في قه تدييره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أَرَادَ الله فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحداية يغنيه عن الحذر . وقالت فرقة من أهل العلم : لا يذعن الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكيفية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان وزعماته فكيف يتخلص غيرهم ؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا ، بل في صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البعد والفضل وغير ذلك ، ولا يشعروا أحد من النظر فيه ولذلك قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تخلى أثقى الشيطان في أميته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه ليغان على قلبي ^(١) ، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير ^(٢) فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فالجنة التي هي دار الأمن والسرور بيد أن قال الله لها ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن الله أن لا يخرج فيها ولا يضرى وأنت لك لا تقصا فيها ولا تقصى ﴾ ومع أنه لم يته إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن من نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لتغيره أن يأمن في دار

(١) حديث : إنه ليغان على قلبي . ع . (٢) حديث : إن شيطانه أسلم فلا بأس إلا بخير . ع .

والدنيا وهي منبع الخن والمعن معدن لللاذ والشهوات التي عنها ؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى (هذا من عمل الشيطان) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى (يا بني آدم لا يفتنك الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) وقال عز وجل (إنه يراكم هو وقيسه من حيث لا ترونهم) والقرآن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه ؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحبائه ، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى (ولما أخذوا حذرهم وأسلمتهم) وقال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) فإذا لمسك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فإن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به ، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان ، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للثار والمقاب الآليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قاذح في التوكل ، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح في التوكل الخوف بما خوف الله به والحذر بما أمر بالحذر منه ؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) لا يناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضر والنافع والمحي والمميت هو الله تعالى ، فكذلك يبحر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة - كما ذكرنا في التوكل .

وهذا ما يخافه الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم ، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لا يفزع عليهم ، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاسترقاق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا يلزني أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له ، فإننا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغالهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا ، بل لفتنل بالمادة وبذكر الله تعالى ولا نفسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين ، فإننا إن نسينا ربنا عرض من حيث لا نحسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله ، فالجواب أولى . وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان ؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا ينفى غلظه ، وإننا أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى حرر العدو ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى ، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه ، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان ، ويقدح ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله ، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه - إبليس وغيره - فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكسب عليه بكل الهمة ولا ينظر بيا له أمر الشيطان ، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له عليه له ،

وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزعة الشيطان بل الرجل ينأى وهو عاقب من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ؛ فيلزم نفسه الحذر وينأى على أن يتنبه في ذلك الوقت فيقتبه في القليل مرات قبل أوأته لما أسكن في قلبه من الحذر ، مع أنه بالنوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الحوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة للشيطان وترصدوا ألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فقال القلب مثال بشر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتنجز منها الماء الصافي . فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر ، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزع الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعب ولا تنجز البئر من الماء القذر ، والبصير هو الذي جعل لجري الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب .

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

إعلم أن في الأسرار للأعمال قائمة بالإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار قائمة بالإقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز المعلن ، ولكن في الإظهار أيضا فائدة ولذلك أتى الله تعالى على السر والملائية فقال (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) .

والإظهار قسمان (أحدهما) في نفس العمل (والآخر) التحدث بما عمل

انقسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في الملا ترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصاري الذي جاء بالصره فتتابع الناس بالمطية لما رآوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه^(١) ، ويحرى سائر الأعمال هذا الجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغاوى إذا هم بالخروج فاستمد وشد الرجل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال الملائية لا يمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل ليغبه جيرانه وأمله فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد واجبة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء ، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإظهار حرام . فإن لم يكن فيه إرباء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم : السر أفضل من الملائية وإن كان في الملائية قدوة ، وقال قوم : السر أفضل من علانية لاقدوة فيها ، أما الملائية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمصنبة النبوة ، ولا يجوز أن يتأنهم أنهم حرموا أفضل المعلنين . ويدل عليه قوله عليه السلام : فله أجرها وأجر من عمل بها ، وقد روى في الحديث

(١) حديث : من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه ، وفي أول قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي .

« إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استأن بأماله على عمل السر سبعين ضعفاً^(١) ، وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شواحب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الخاتين فاستدنى به أفضل لأعماله ، وإنما يخاف من ظهور الرياء ، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينقصه اقتداء غيره ومالك به ، فلا خلاف في أن السر أفضل منه .

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً ، ورب رجل يقتدى بأمله دون جيرانه ، وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق ، وربما يقتدى به أهل محله ، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدى به الناس كافة . فخير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والتناق وذمهم ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة ، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة بمن هو في عمل القدوة على من هو في عمل الاقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الحق فيصده الإظهار بغير الاقتداء ، وإنما شيوته تتجمل بالعمل ويكونه يقتدى به ، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المتخلصين وقليل مأم . فلا ينبغي أن يمدح الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر ، فإن الضعيف مثاله مثال الفريق الذي يمسح سباحة ضئيفة فتنظر إلى جماعة من الفرق فرحهم فأقبل عليهم حتى تشبوا به فهلكوا ومالك ، والفرق بالماء في الدنيا أمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله ، لا بل ضا به دائم مدة مديدة ، وهذه من الأقدام العباد والمعلم بأنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتتبع أجورهم الرياء ، والتفتن لذلك غامض ، وماله ذلك أن يمرض على نفسه أنه لو قيل له أخف تعمل حتى يقتدى الناس بما بعد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباتت الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به وغيبتهم في الخير ، فأنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم ؟ فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب ، وقد تامل الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً والسلامة في الإخفاء ، وفي الإظهار من الإخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا ، فاحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .

القسم الثاني : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة التعلق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى في الحسكية زيادة ومبالغة والنفس لذة في إظهار النطاوى عظيمة ، لإلأنه لو تعلق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة للمناسبة بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وحضر الناس في حيشه واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت التوبة وسلبت عن جميع الآفات ، لأنه ترغيب في الخير ، والترغيب في الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ :

(١) حديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استأن به على عمل السر سبعين ضعفاً » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الفداء مكثر على الشغل الأول بضمه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه الجمهوريين ، وقد تقدم قبل هذا بنحو وركبتين وله من حديث ابن عمر « عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وقال ترمذ به بنية من عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة « يفضل - أو يضاعف - الفكر الخلق الحق لا يسهو الحظف على الذي تسمه بسعين ضفاً » وقال ترمذ به بأسوة بن يحيى الصدوق وهو ضعيف .

ما صليت صلاة منذ أسلمت لحذفت نفسي بغيرها ، ولا تبت جنازة لحذفت نفسي بغير ما هي قائمة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق . وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي أصبحت على عصر أو يسر لاني لأدري أيهما خير لي ؟ وقال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتنبئت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه : ما تنبئت ولا تخبت ولا مسست ذكرى يسبقني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وقال شقاذ بن أوس . ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطئها ، غير هذه ! وكان قد قال لفلانة : اثقنا بالسفرة لتبعت بها حتى ندرك النداء . وقال أبو سفيان لأمه حين حضره الموت : لا تبكوا حل فاني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ما قضى الله في قضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره ، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية للمرامة إذا صدرت عن رأيي بها ، وفيها غاية للترغيب إذا صدرت من يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يستتاب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار الرأى للمباداة إذ لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للرأي . فكم من غلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مرء عند الله ؟ وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصنص بهمضم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف ! فإظهار للرأي فيه خير كثير لمنه ليدرك رياءه . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لإخلاقي لهم ^(٢) كما ورد في الأخبار وبعض المرائين من يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة نهمهم له

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والملاية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل : عليك بعمل الملاية ، قال : يا أمير المؤمنين وما عمل الملاية ؟ قال . ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه . وقال أبو مسلم الخولاني : ما علمت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إيماني أهلي والبول والناياط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب قبله أو مجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك فلا رادة العبد لإخفائها عن العبد ربما يظن أنه رياء محذور وليس كذلك بل المحذور أنه يستتر ذلك ليري الناس أنه وديع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر للرأي .

وأما الصادق الذي لا يرى فيه ستر للمعاصي ويصح قصده فيه ، ويصح اغتيامه بإطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه :

(الأول) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا اقتضى غم بترك الله ستره وعاف أن يترك ستره في القيامه ، إذ ورد في الخبر « أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة ^(٣) » ، وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان .

(١) حديث عثمان قوله : ما تنبئت ولا تخبت ولا مسست ذكرى يسبقني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده بإسناد ضعيف من رواية أبيه عن أبيه في أثناء حديثه وإن عثمان قال : يا رسول الله ، فذكره باط من بايعتك ، قال « هو ذاك يا عثمان » (٢) حديث « أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وأقوام لإخلاقي لهم » ما حديثان الأول متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم والثاني رواه النسائي من حديث أبي بصير صحيح وهم أيضاً . (٣) حديث « أن من ستر الله عليه في الدنيا يستر الله عليه في الآخرة » تقدم قبل هذا جملة .

(الثاني) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور للمعاصي ويجب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم «من ارتكب شيئا من هذه العاذورات فليستر بستر الله»^(١)، فهو وإن عصى الله بالذنوب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور للمعاصي ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنوب من غيره أيضا وينتقم بسببه .

(الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يفضي ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة ، وهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان .

(الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لئلا يذم الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا للإنسان بهطام وإنما يعصى إذا جرعت نفسه من ذم الناس ودعت إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان أن لا يستر بلم الحلق ولا يتألم به . نعم كمال الصدق في أن نزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لئله أن الصانع والساقع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون ؛ وذلك قليل جدا ، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ، وببآلم بالذم بمجرد إذا كان اللام من أهل البصيرة في الدين فإيهم شهادة الله ، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا ينتقم به ؟ نعم اللوم للذموم هو أن يتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يجب أن يحمده بالورع ، ولا يجوز أن يجب أن يحمده بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره ، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد .

وأما كراهة اللوم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يجب الحمد ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما ، فكمن صابر عن لذة الحمد لا يصير على ألم الذم ؟ إذ الحمد يطلب المنة ، وعدم المنة لا يؤلم ، وأما الذم فإنه مؤلم ؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال ، وأما كراهة الذم على المعصية فلا يحدور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله عنه بإطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين ، بل ينبغي أن يكون عنه بإطلاع الله وذمه له أكثر .

(الخامس) أن يكره الذم من حيث إن اللوم قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع .

(السادس) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم ، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان بمن يؤمن شره ، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه .

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر ، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من الفبايح إذا شوهدت وهو منه وصف محمود إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحياء خير كله»^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم «الحياء شعبة من الإيمان»^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم «الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب المحي الحليم»^(٥) ، فالذي يفسق ولا يبالي أن ينظر لفسقه

(١) حديث «من ارتكب من هذه العاذورات شيئا فليستر بستر الله» أخرجه الحاكم في المستدرک وقد تقدم .

(٢) حديث «الحياء خير كله» أخرجه مسلم من حديث عمران بن حميم ولقد تقدم (٣) حديث «الحياء شعبة من الإيمان» متفق عليه من حديث عمران بن حميم ولقد تقدم (٤) حديث «الحياء لا يأتي إلا بخير» متفق عليه من حديث عمران بن حميم ولقد تقدم (٥) حديث «إن الله يحب المحي الحليم» أخرجه الطبرانی من حديث طائفة ، والبخاري من حديث أبي هريرة «إن الله يحب المحي الحليم المتخلف» وفيه ليث بن أبي سلمة مختلف فيه .

فإن جمع إلى الفسق والتبتك والوقاحة وفقد الحياء ، فهو أشد حالا من بستر ويستحي ، إلا أنا الحياء منتج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ، ويدعى كل مرآة أنه مستحي وأن سبب تحسينه العيات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتبيح عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص منه ويتصور أن يراقى منه .

وبإياه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب ، فله عند ذلك أحوال : أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء ، وهذا فعل من أحياء له . فإن للمستحي إما أن يتحمل أو يقرض .
فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال :

أحدها . أن يمزج الرياء بالحياء بأن يبيع الحياء فيقبح عنده الرد ، فيبيع خاطر الرياء ويقول : ينبغي أن تعطى حتى يثني عليك ويمدحك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء .

الثاني : أن يتمدح عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء ، فيبيع داعي الإخلاص ويقول له : إن الصدقة براحدة والقرض بثان عشرة فقيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخر النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا غلص هيج الحياء لإخلاصه .

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء ، وهو عاجبه في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه ، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبايح كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرأى يستحي من المباحات أيضا ، حتى إنه يرى مستجلا في المشي فيعود إلى الهدوء ، أو مضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويرعى أن ذلك حياء وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح ، والمراد به الحياء بما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة ، وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود . وقد نشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تسكر عليه لأن من إجلال الله لإجلال ذي القبة المسلم ، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضعف الأمر بالمعروف ، فالتقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبايح والذنوب .

(اتقان) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجري عليه غيره ويتقدي به ، وهذا العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به ، وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يعني المأمي أيضا بمعصيته من أهله وولده لأهم يتعلمون منه .

ففي ستر الذنوب : هذه الأعداد الثمانية ، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ، ومهما فسد بستر المعصية أن يخجل إلى الناس أنه ورج كان مراتبا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للبد أن يحب حمد الناس له بالصالح وحبه إياه بسبه وقد قال رجل لثني صلى الله عليه

وسلم : دلتى على ما يحنى الله عليه ويحنى الناس قال « أزدد فى الدنيا يحبك الله وابتدأ اليهم هذا الخلق يحبك »^(١) ، فقول : حبك لى الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمدا وقد يكون مذموما . فالحمود أن تحب ذلك لشرف به حب الله لك ، فإنه تعالى إذا أحب عبداً حببه فى قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبيم وحدهم على حبك وغروك وصلائك وعلى طاعة بينما ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المحيية ؛ لىك ذلك كىك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كلك الأموال فلا فرق بينهما .

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من ىترك العمل خوفاً أن يكون مراميا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، بل الحق فى ترك من الأعمال وما لا ىترك لخوف الآفات ما نذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : مالا لذة فى عينه ؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاسة بمجاهدات ، إنما تصير لذينة من حيث إنها توصل إلى حد الناس ، وحد الناس لذينة ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : ما هو لذينة ؛ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل ىتعلق بالخلق كالحلقة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة .

القسم الأول : الطاعات اللازمة البدن - التى لا تتعلق بالغير ولا لذة فى عينها - كالصوم والصلاة والحج ، فطرات الرياء فيها ثلاث (أحداها) ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبى أن ىترك لأنه معصية لاطاعة فيه ، فإنه تدفع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها : ألا تسعين من مولاك لاسعين بالعمل لأجله وتسعين بالعمل لأجل عباده ؟ حتى ىدفع باعث الرياء وتسخر النفس بالعمل لله بقوة النفس على خاطر الرياء وكفارة له فليسفعل بالعمل . (الثانية) أن ىبعث لأجل الله ولكن ىعرض الرياء مع عقد العبادة وأولها ، فلا ينبى أن ىترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا ، فليسفعل فى العمل وليجاهد نفسه فى دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمجاهات التى ذكرناها من لإزام النفس كراهة الرياء والإيابة عن القبول (الثالثة) أن ىعقد على الإخلاص ثم ىطرأ الرياء ودواعيه ، فينبى أن ىجاهد فى الدفع ولا ىترك العمل لىكى يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه فها حتى ىتم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل ، فإذا لم تحب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تحب ودفعت بقى يقول لك : هذا العمل ليس بمخلص وأنت مرء وتبلىك ضائع فإى فأفدك لك فى عمل لا إخلاص ؟ حتى ىملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه . ومثال من ىترك العمل لخوفه أن يكون مراميا كىسلم إليه مولا ؛ خطة فيها زقان وقال : خلصها من الزقان ونفها منه تقياً بالفة ، فترك أصل العمل ويقول : أخاف إن اشتغلت به لم تخلف خلاصا صافيا تقياً . فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له . ومن هذا القبيل أن ىترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا إنه مرء فيمضوناه به . فهذا من مكاييد الشيطان لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حق أن ىظن بهم ذلك ، ثم إن كان فلا ىضره قولهم ويدعوا ثواب

(١) حديث : قال رجل دلى على ما يحنى الله عليه ويحنى الناس قال « أزدد فى الدنيا يحبك الله . » الحديث « أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بنسب . وأزدد فيها فى أى نفس » وقد فهم

العبادة ، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مرأه هو عين الرياء ، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم لآله ولقولهم قالوا إنه مرأه أو قالوا إنه غلط ؟ وأى فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مرأه ، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل مقصر ؟ بل ترك العمل أشد من ذلك . فبهذه كلها مكاييد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخلى به بل يقول له : الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه غلط لا يشئ الشهرة . فيضطررك بذلك إلى أن تهرب ، فلن تهرب ودخلت سرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتطييعهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه ؟ بل لا تنجاة منه إلا بأن تلام قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك ، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي ، وإن بزغ المدق نازغ الطبع فلن ذلك لا ينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات . فاستعدت بعداً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجامد عامر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعته نفسك إلى أن تسجد بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو أطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدك لم تتحرك ، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل . فإذن قال لك الشيطان : أنت مرأه ، فأعلم كذبه وخدعه بمقتضاه في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحياكك من الله تعالى ، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع في العمل قد فلا بد أن يبق معه أصل قصد الثواب .

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل عناية الشهرة . روى أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال : لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمي : إذا أهجلك الكلام فاسكت وإذا أهجلك السكوت فتكلم . وقال الحسن : إن كان أحدهم يميز بالأذى ما يمنه من دفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدهم يأية البكاء فيصرفه إلى الضحك خافة الشهرة . وقد ورد في ذلك آثار كثيرة ؟ قلنا : هذا يمارضه ماورد من إظهار الطاعات عن لاصعي ، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعد أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإمالة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك التواضع جازر والكلام في الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتم العمل ويجهت في الإخلاص ولا يتركه ، وأرباب الأعمال قد يمارجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف ، فالابتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء . وأما إطلاق إبراهيم النخعي للمصحف فيمكن أن يكون لعله بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستنائه بعد خروجه للاشتغال بكاملته ، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو حازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك من يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم براه عن عبادات هي أكبر مه رفع خشية من الطريق ، فيكون ترك ذلك للحفاظ على عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمي : إذا أهجلك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالتفصاح في الحكايات وغيرها فلن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت يليح عندور فهو جدول من مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المتدوب إليه فلم ينص عليه ، على أن الآفة مما ينظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني ، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة يدين

العبد عما لا يتعلق بالناس ولا تنظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لحوف الشهرة وربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخفيفاً لناس من آفة الشهرة وزجراً من طلبها .

القسم الثاني : ما يتعلق بالخلق وتنظم فيه الآفات والأخطار ، وأعظمها الخلقة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفقرى ثم لفتاق المال .

أما الخلقة والإمارة : فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإنصاف ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً ^(١) ، فأعظم بمادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة ، وقال صلى الله عليه وسلم : أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط ^(٢) ، أحدم . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل ^(٣) ، أحدم . وقال صلى الله عليه وسلم : أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل ^(٤) ، ورواه أبو سعيد الخدري . فالإمارة والخلقة من أعظم العبادات ، ولم يزل المؤمنون يتركونها ويمتدحون من يتقدمها وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويقلب النفس حسب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا : فإذا صارت الولاية محبوبة كان الرأى ساعياً في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يندفع في جامعه وولايته وإن كان حراً ، ويقدم على ما يريد في مكانته وإن كان باطلاً ، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول : من يأخذها بما فيها ، وكيف لارعد قال النبي صلى الله عليه وسلم : مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة منقولة يده إلى عنقه أطلقه هذه أو أوقه جوره ^(٥) ، ورواه معقل بن يسار ، ورواه عمر ولاية فقال : يا أمير المؤمنين أشر على ، قال : اجلس وأكرم على . وروى الحسن : أن رجلاً ولاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي : خذني قال : اجلس ^(٦) ، وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمره إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها ^(٧) ، وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر : لا تأمر

(١) حديث « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً ... الحديث » أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس وله تقدم (٢) حديث « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عياض بن حاد « أهل الجنة ثلاث : ذو سلطان مقسط ... الحديث » ولم أر فيه ذكر الأولية (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل » تقدم (٤) حديث أبي سعيد الخدري « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل » أخرجه الأسهاني في الترهيب والترهيب من رواية عطية الموق وهو ضعيف عنه وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم المدائني ضعيف أيضاً (٥) حديث « ماس والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده منقولة إلى عنقه لا يشكها إلا عدله » أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبخاري من رواية رجل لم يسم من سعة بن عبادة وفيها يزيد بن أبي زياد مشكك فيه ورواه أحمد والبخاري وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البخاري والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وتواتر له من حديث أبي الدرداء « مامن والى ثلاثة إلا نكده منقولة عني ... الحديث » وله هزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار « مامن من يدبصره الله رغبة لم يحطها بصيغة إلا لم يرح وأمة الجنة » متفق عليه (٦) حديث الحسن : أن رجلاً ولاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : خذني قال : « اجلس » أخرجه الطبراني موصلاً من حديث مصعب بن أبي مالك وفيه التعليل بن المختار وأحاديث منكرة يحتمل بالأطويل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ « الزم بيتك » وفيه التراب بن أبي التراب ضلع ابن مجن وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق .

(٧) حديث عبد الرحمن بن سمره : لا تسأل الإمارة ... الحديث « متفق عليه .

على اثنين ، ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بلى وأنا أقول لك ذلك فن لم يعدل فيها فعليه جلة الله ، يعني لعنة الله - ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعنى بالقوى الذي لا يميله الدنيا ولا يستغزه الطمع ولا يأخذه في افه لومة لائم ، وهم الذين سقط الحق عن أحييتهم وزهدوا في الدنيا وبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكواهم وقهروا الشيطان فأيس منهم ، فهو لا يصحركم إلا الحق ولا يسكتهم إلا الحق ولو ذهقت فيهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات ، ومن جرب نفسه فرأها صابرة على الحق كافة عن الصعوبات في غير الولايات ، ولكن عاف عليها أن تتغير إذا ذقت لذة الولاية وأن تستحل الجاه وتستلذ نفاذاً الأمر فتكره العزل ، فيدأ من خيفة من العزل : فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الحرب من تقلد الولاية ؟ فقال قائلون : لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يهد نفسه إلا قربة في ملازمة الحق وترك لذات النفس ، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداع مدعية للحق واعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد . ؟ والامتناع من قبول الولاية أمون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كقل العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع لانسح نفسه بالعزل وتعمل نفسه إلى المداينة وإعمال الحق وتنبؤ به في قعر جهنم ، ولا يستطيع التزويج منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً ، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمانة الشر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إنا لآول أمرنا من سألنا ^(١) ، فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهي أبي بكر رافعا عن الولاية ثم نقله لما ليس بمتناقض .

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناها ، فإن كل ذي ولاية أمير سأل له أمر نافذ - والإمارة محبوبة بالطبع ، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق ، والمناقب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : القضاء ثلاثة : قاضيان في النار وقاض في الجنة ^(٢) ، وقال عليه السلام : من استغنى فقد ذبح بغير سكين ^(٣) ، لحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من الدنيا ولذاتها وزن في عينه ، وليقلده الأقوياء الذين لا يأخذهم في افه لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداينتهم وإعمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه ، فليس له أن يتقذ القضاء ، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذراً مخصصاً له في الإعمال أصلاً ، بل إذا عزل سقطت المهدة عنه ، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضى الله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه لوأبا ؟ وهو مع الظلة في الدرك الأسفل من النار .

وأما الوعظ والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية - وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به

(١) حديث « إنا لآول أمرنا من سألنا » متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث « القضاء ثلاثة .. الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقدم في العلم وأسناده صحيح (٣) حديث « من استغنى فقد ذبح بغير سكين » أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ « من جبل فاضيا » وفي رواية « من ول القضاء » وأسناده صحيح .

التقى : فأقته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات ، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون القترى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون : حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدثنا ، فقد قال أسعوا لي . ودفع بشر كذا وكذا قطرا من الحديث وقال : ينبغي من الحديث أتى أشبه أن أحدث ، ولو اشتبهت أن لا أحدث لحدثت . والواظ يمد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكلماتهم وزعماتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على قلبه مال بطبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ، ويفر عن كل كلام يستقله العوام وإن كان حقا ، ويصير معروف الهمة بالكلية إلى ما يجرى قلوب العوام ويعظم منزلة في قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ، ثم يقول : إذا أنعم الله على عبده النعمة ونفخ في هذه الحكمة فأعجبها ليشاركني في نعمها إخواني السالكون . فهذا أيضا مما يظم فيه الخوف والفتنة لحكمه حكم الولايات ، فن لا يابعد إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكثار فينبغي أن يترك ويخالف الموى فيه ، إلى أن ترخص نفسه وتوقى في الدين حمته ويأمن على نفسه الفتنة ، فمعد ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعلمت العلوم واندردت وهم الجهل كافة الخلق ؟ فتقول قد نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة وترعد عليها ^(١) حتى قال : « إنكم تهرصون على الإمارة وإنها حيرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحمها » ^(٢) ، وقال : « نعمت للمرءعة وبئست الفاطمة » ^(٣) ، ومعلوم أن السلطة والإمارة لو تعلمت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعلمت المعاش فلم ينبى منها مع ذلك ؟ وحضر عمر رضى الله عنه أبى بن كعب - رأى قوما يقيمونه - وهو في ذلك يقول : أبى سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فتع من أن يقيموه وقال ذلك فتعقل المتبرع ومذلة على التابع ، وعمر كان بنفسه يخطب ويحفظ ولا يسمع منه واستأذن رجل عمر أن يحفظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فنهى فقال : أمتحن من نصح الناس ؟ فقال : أئشى أن تلتفخ حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه غنايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والقترى ، وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نبيهك عن ذلك يؤدى إلى اندراس الصلح فهو غلط ، إذ نبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء ^(٤) بل الرياسة وجبا يعطى الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تتدرس ، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم اتى فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ، ثم إنى أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس في الهى عنه إلا امتناع بعضهم ، وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمعته في الظاهر وتغيبه إلى العوام أنه إنما

(١) حديث : الذين من طلب الإمارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة . لاسل الإمارة . وقد هدم فيه بثلاثة أحاديث .
(٢) حديث : « إنكم تهرصون على الإمارة وإنها حيرة وندامة إلا من أخذها بحمها » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة دون قوله « إلا من أخذها بحمها » وزاد في آخره « نعمت المرءعة وبئست الفاطمة » ودون قوله « حيرة » وصح في صحيح ابن حبان (٣) حديث : « لبست المرءعة وبئست الفاطمة » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وهويبة الحديث الذى فيه ودواء ابن حبان بلفظ « لبست المرءعة وبئست الفاطمة » (٤) حديث : الذين من القضاء ... أخرجه مسلم من حديث أبى فر . لا يؤمن على اثنين ولا بين مائة يقيم .

يريد الله بوعظه وأمره تارك الدنيا ومعرض عنها فلا تمنعه منه وتقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفسى فتقول : اشتغل وجاهد ، لأننا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذا لا قام به غيره ، ولو واظب وغرغنه الجاه فهو الهالك وحده ، وسلامه من جميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فجهده فداء لقوم وتقول لعل هذا هو الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم »^(١) ، ثم الواظ هو الذى يرغب فى الآخرة ويرعد فى الدنيا بكلامه وبظواهر سيرته . فأما ما أحسنه الواظ فى هذه الأعمار من الكلمات للزخرفة والآلفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار عما ليس فيه تعظيم لأمر الله وتغوير المسلمين ، بل فيه الترجية والتجرف على المعاصى بطياريات التكتك ، فيجب إخماد البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان ، وإنما كلامنا فى الواظ حسن الواظ جميل الظاهر يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره ، وقبلا أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما يبين لزوم الخذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون ، وهمرسون ما لا تعملون ، فيا سوء ما تكونون تزيرون بالقول والآمانى وتعملون بالهوى ، وما يبنى عنكم أن تتفواجلوكم وقلوبكم دلسة ، بحق أقول لكم : لا تكونوا كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى النخل فى صدوركم ، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكى من أفعالكم ، جعلتم الدنيا تحت السنتكم والعمل تمسقا أقدامكم ، بحق أقول لكم : أضدتم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأى ناس أخس منكم لو تعلمون ، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للدلجين ، وتقيمون فى حفلة التلجسين إذا كنتم تدعون أهل الدنيا ليركبوها لكم مهلا مهلا ، ويلكم ماذا يبنى عن البيت المظلم أن يوضع المراج فوق ظهره وجوفه وحش عظم الكذلك لا يبنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة مغطاة يا عبيد الدنيا ، لا كسبيد أنقياء ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلمكم عن أصولكم فتنتفكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على منابركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيركم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سواكم ، ثم يهزئكم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسنى هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس وغبرا فى عرض الدنيا ورفعنا وأثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا ، فهم فى العاجل طار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد فى العلم والعظ رقاب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أيا دأع دعا إلى هدى وأبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه »^(٣) ، إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبى أن يقال للعلم اشتغل بالعلم وأترك مراعاة الخلق كما يقال لمن عالج الزيادة فى الصلاة لا تترك العمل ولكن أتم العمل وجاهد نفسك ، فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمامة ، ولا تقول لأحد من عباد الله أترك العلم إذ ليس فى نفس العلم آفة وإنما الآفة فى إظهاره بالتصنى للوسط والتدريس ورواية الحديث ، ولا تقول له أيضا أترك ما دام يمد

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائى وقد تقدم فريا (٢) حديث « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » متفق عليه من حديث سهل بن سعد يلفظ « خير لك من حر النعم » وقد تقدم فى العلم (٣) حديث « أيا دأع دعا إلى هدى وأبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » أخرجه ابن ماجه من حديث أس زبادة فى أوله وسلم من حديث أبي هريرة « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ... الحديث » .

في نفسه باعثا دينيا عروجا باعث الرياء ، أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها ، أما إذا خطر له وسارس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم .

وبالجملة فالمراتب ثلاث (الأولى) الولايات ؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة (الثانية) الصوم والصلاة والحج والغزو ؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفائهم ولم يؤثر عنهم الترك لحوق الآفة . وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدره على نفها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة (الثالثة) وهي متوسطة بين الرمتين ؛ وهو التصدي لخصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس ، والآفات فيها أقل عما في الولايات وأكثر عما في الصلاة ، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع عاثر الرياء ، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء وأما دون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما ، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاية أشبه ، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم .

وهنا ربة رابعة وهي : جمع المال وأخذة للتفرقة على المستحقين ، فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضا كبيرة .

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب الثوت ثم أسلكه ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال : القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما يبرئني أني أقت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها ، أما إني لأحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا يلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والتوافل ، وقال قوم : الجلوس في دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أيز ؛ وقال . أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات ، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركها لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل

وبالجملة : ما يتعلق بالخلق والنفس فيه لذة فهو مثار الآفات ، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات ، فإن مجزئ ليعتبر وليجتهد وليستغف قلبه ، وليؤمن ما فيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع .

وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لا تميز إلا بالشر وقلبا تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا في بعض الأحوال ، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاسيلها بنفى وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لذته وبدع ما يريه إلى ما لا يريه ، ثم قد يقع بما ذكرناه غرور الجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل . ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب : أن الأفضل الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر ؟ وذلك لما في الكسب من الآفات ، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقه أفضل من إمساكه بكل حال .

فإن قلت فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق عظم في وعظه غير مرید رياء الناس ؟ فأعلم أن لذلك علامات (إحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالقبلة وهو أن يتبنى نفسه مثل عليه (والأخرى) أن الأكار إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه ، فينظر إلى الخلق بعين واحدة (والأخرى) أن لا يجب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق . ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

وقد روى عن سديد بن أبي مروان قال : كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على رذون أصفر ، فدخل المسجد على رذوته ، فجعل يلتفت في المسجد فلم يرحقه أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركة فزول ومضى نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له من ناحية مجلسه ، قال سديد : وتجايفت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة وجلس للحجاج ، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له - يتكلم به في كل يوم - فلما قطع الحسن كلامه قال سديد : فقلت في نفسي : لأبكون الحسن اليوم ولأنظرون هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه ، أو يحمل الحسن هية الحجاج أن ينقص من كلامه ؟ فتكلم الحسن كلاما واحدا نحو مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه ، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكثرت به ، رفع الحجاج يده فغضب بها على منكب الحسن ثم قال : صدق الشيخ وبر فعلكم بهذه المجالس وأشياها فأتخذوها حلقا ومادة فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن مجالس الذكر رياض الجنة ^(١) ، ولولا ما حلهاء من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها ، قال : ثم اقر الحجاج فتكلم حتى حجب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ طفق فقام ، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن - حين قام الحجاج - فقال : عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأني أغزو فأكف فرسا وبئلا ، وأكف فسطاطا ، وأن في ثلثة درهم من العطاء وأن في سبع بنات من العيال ؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له ولاصحابه ، والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال : ما لهم قائلهم الله اتخذوا عباد الله خرلا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عتق الله غزا في التفاسيط الحسابة وعلى البضال السباقة ، وإذا أغزى أماء أغزاه طاولوا واجلا ؟ فأقر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده ، فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسمى به إلى الحجاج وحكى له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أمته رسل الحجاج فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم ، وقلنا رأيت فآغر آفاه بضحك إنما كان يبتسم ، فأقبل حتى قعد في مجلسه فمظم الأمانة وقال : إنما تبالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الحيانة ليست إلا في الدينار والدرهم ، إن الحيانة أشد الحيانة أن مجالسنا الرجل فنعلمن إلى جانبته ثم نطلق فيسمى بنا إلى شرارة من نار ! إلى أينيت هذا الرجل فقال : أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عتق الله غزا كذا وكذا ، وإذا أغزى أماء : أغزاه كذا ! لا أبالك ! تخرض علينا الناس ؟ أما إنا على ذلك لأنهم نصيبك فأقصر عليك من لسانك ، قال : فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد للزول فيبيناه هو يسير إذا التفت فرأى قوما يتبعونه فوقه فقال : هل لكم من ساجة أو تسألون عن شئ . وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد ؟ فهذه

(١) حديث : أن مجالس الذكر رياض الجنة . تنهم في الأذكار والمهمات .

العلامات وأمثالها تبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتفانون ويتحاذون ولا يتعاونون فأعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم أرحنا بلطفك يا أرحم الراحمين .

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع التوم في موضع فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم في بيته ساحة قريبة ، فإذا رآهم انبثت نشاطه للواقعة حتى يزيد على ما كان يمتاده ، أو يصل مع أنه كان لا يمتد الصلاة بالليل أصلاً ، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولا لم لما انبثت هذا النشاط ، فهذا ربما يظن أنه رياء . وأن الواجب ترك الواقعة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ، ولكن قد تموه العرائق ويئسه الاشتغال وينبذه التمكن من الشهوات أو تستويه النفلة ، فربما تكون مشاهدة الغير بسبب زوال النفلة ، أو تدفع العرائق والاشتغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل في منزله فقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من التوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجه ، أو الحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع محامليه ، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تغتر رغبتة عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فيناضهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتشرك داعيته للدين للالراء ، أو ربما يفارقه التوم لاستكراهه للموضع أو سبب آخر فيقتنم زوال التوم ، وفي منزله ربما يغلبه التوم وربما يضاف إليه أنه في منزله على الدوام ، والنفس لا تسبح بالتهجد دائماً وتسبح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العرائق ، وقد يسر عليه الصوم في منزله ومعه أطيب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها ، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عرائق ودوافع تغلب باحث الدين ، فإذا سلم منها قرى الباحث . فهذا وأمثاله من الأسباب بتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم ، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لا تعمل فإنه تكون مراغباً إذا كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة ، وقد تكون رغبتة في الزيادة لأجل رقيتهم وخوفاً من ذمهم وسبهم إياه إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لا تسبح بأن يسقط من أعينهم ويريد أن يحفظ منزلته ، وهذا قد يقول الشيطان : صل فإنه غلبت وليس تصلى لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العرائق وإنما داعيتك لزوال العرائق لا لإحلالهم . وهذا أمر مشبه إلا على ذوى البصائر ، فإذا عرف أن الحركه الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يمتاده ولا ركة واحدة ، لأنه يسعى الله بطلب عمدة الناس بطاعته ، وإن كانا يماهه لدفع العرائق وتحرك النبهة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بينه هل كانت نفسه تسخر بالصلاة وهم لا يرونه ؟ فإن سجدت نفسه فليصل فإن باعته الحق ، وإن كان ذلك ينقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعته الرياء . وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم ، ويمكن أن يكون ذلك لحب حدم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يشرك بذلك باعث الدين ويقارنه بزوح النفس إلى حب الحمد ، فمما علم أن الطالب على قلبه إرادة الدين فلا

ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الخلق ، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويستغل بالعبادة . وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الريب ، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ، ولكن بكاء الناس يؤثر في تريق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيبكي - تارة رياء وتارة مع الصدق - إذ يغشى على قلبه قساوة القلب حين يكون ولا يدمع عينه فيبكي تكلفاً ، وذلك محمود . وعلمة الصدق فيه أن يمرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيبكي أم لا ؟ فإن لم يمد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قال في القلب فينبغي أن يترك التباكي . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تغشى ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصبيحة والتنفس والأتين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال ، تارة تكون من الصدق والحرن والخوف والتألم والتأفف وتارة تكون لمشاغدة حزن غيره وقساوة قلبه ، فيشكل التنفس والأتين ويتحازن وذلك محمود ، وقد يفتقر به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحرن ليعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الداعية فهي الريب ، وإن اقترنت بداعية الحرن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكائه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وركن إليه قبله حيث أجره وضاغ سميه وتعرض لسلط الله تعالى به ، وقد يكون أصل الأتين عن الحرن ، ولكن يمدد ويبريد فيرفع الصوت فتلك الزيادة رياء ، وهو محذور لأنها في حكم الابتداء لجرد الريب ، فقد ينشع من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الريب فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدفعة على الوجه حتى تبصر بمد أن استرسلت لشبهة الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الريب . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحي أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة ، فيزعم ويتواجدتكلفاً ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه وقد كان ابتداء السقوط عن صدق ، وقد يزل عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فيجزع نفسه أن يقال حاله غير ثابتة ، وإنما هي كبرق خاطف ، فيستدبر الرغبة والحرص ليرى دوام حاله ، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزل ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال لم تكن شبيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه ، فيستدبر إظهار الضعف والأتين فيشكر على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتأبل في المشى ويقرب التخطا ليطور أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكاييد الشيطان ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلموا على ضميره لمقتوه ، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتاً ، كما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أنه قام وزعم ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ ! الذي يراك حين تقوم ؟ جلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المناقضين .

وقد جاء في الخبر « تمرّدوا بالله من خضوع التفائق ^(١) » ، وإنما خضوع التفائق أن تخضع الجوارح والقلب غير خاشع ، ومن ذلك الاستغفار والاستمعاة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لغا طمخ خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراعاة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهي مع تطايرها متشابهة ، فراقب قلبك في كل ما ينظر لك وانظر ما هو ومن أين هو ؟ فإن كان له فاضحه واحد مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الريب الذي هو كديب الليل ، وكن على وجل من عبادتك أي مقبولة أم لا ؟ لا خوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدد لك خاطر الزكون إلى حدم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً ،

(١) حديث « تمرّدوا بالله من خضوع التفائق » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الأيادي نسخة أحمد وابن معين .

فلذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقتك لك . وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال : يا أيوب أما علمت أن المبد تفضل عنه علانيتي التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزي يسريره . وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي مانت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما : اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامة العيون علانيتي وتخبث لك في أخلو سررتي ، عافظا على رياء الناس من نفسى مضيقاً لما أنت مطلع عليه مني ، أبدى الناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسيأتى ، فيحل بي مقتك ويحب على غضبك ، أعذنى من ذلك يارب السالمين . وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم بهذه جل آفات الرياء . فلهذا راقب المبد قلبه ليقف عليها في الخبر . إن الرياء سبعين باباً (١) ، وقد عرفت أن بعضه أفضى من بعض ، حتى إن بعضه مثل ديب النمل ، وبعضه أخفى من ديب النمل ، وكيف يدرك ما هو أخفى من ديب النمل إلا بشدة التدقيق والمراقبة ؟ وليته أدرك بمد بذل المجهود فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد القلب وامتحان النفس وتفتيش عن خبائها ؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

بيان ما ينبغي للريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أول ما يلزم للريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله ، فأما من عاف غيره وأرجأه اشتى اطلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان في هذه الرتبة فلizard قلبه كرامة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للفت ، وليراقب نفسه هند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغفل حرصاً على الإنشاء وتقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك ! فإلى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس علك ويتكبرون قدرك ويمرحون بالاعتداء بك ؟ ففى مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ، وينذكر في مقابلة عظم عله : عظم ملك الآخرة ولعم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقتك على من طلب بطاعته ثواباً من عباده ، ويعلم أن إظهاره لغیره محبب إليه وسقوط عذابه وإجباط العمل العظيم فيقول : وكيف أتبع مثل هذا العمل بمجد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن يياس عنه فيقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأما المخطئون فليس ذلك من شأنهم ، فيترك المجاهدة في الإخلاص ، لأن المخطئ إلى ذلك أحوج من المتق ، لأن المتق إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة ، والمخطئ لا يظفر بفرائضه عن نقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسل صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به ، فالمخطئ إلى الإخلاص أحوج . وقد روى تميم الدارى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : بحاسب العيد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ

(١) حديث « الرياء سبعون باباً » مكناً ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكأه تصح عليه أو من ثقة من كلامه أنه « الرياء » ابتداءً ولأنه هو « الرياء » بالوحدة والرسوم كتابته بالرو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « الرياء سبعون حوبا أسرها أن يتسبح الرجل أمه » وفي نسخة أبو مسهر وأسمه تميم تخلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الرياء ثلاث وسبعون باباً » ولنسخه صحيح هكذا ذكر ابن ماجه المحدثين في أبواب التجارات وقد روى الزائر حديث ابن مسعود بلفظ « الرياء سبع وسبعون باباً والعرك مثل ذلك » وهذه الزيادة قد يستبدل بها « الرياء » بالثبات لانه مع العرك والله أعلم .

بطريقه فأتى في النار ^(١) ، فيأتى المخطط يوم القيامة وفرسته ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكثير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص التواقل ، وأما التقي لجهده في زيادة الدرجات فإن جبط تعلقه بتي من حسنة ما يرجع على السيئات فيدخل الجنة .

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافه ، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحت به ، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلا من عمله عاتقا أنه ربما داخل من الرياء الخفي مالم يقف عليه ، فيكون شاكيا في قبوله ووده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الحقيقة ما يقتضيه ماورد عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعبء إلا في ابتداء المقد ، بل ينبغي أن يكون متيقنا في لا ابتداء أنه غلط ما يريد بمعله إلا الله حتى يصح عمله ، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة من شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو صعب أولى به ، ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده رياء ؟ فيكون رجاءه لا يقول أغلب ، وبذلك تعظم لذته في المنجاة والطاعات . فإخلاص : يقين ، والرياء : شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر عاقل الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بميله فقط ، دون شكر ومكافأة وحدوثها من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة ، أو مراقبه في المشي في الطريق ليستكثر باستيقانه ، أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره ملا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بميله ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمته التلبذ بنفسه فقبل خدمته ، فزجر أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريد منه ، ولا يستعبد منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى إن بعضهم وقع في بئر لجاء قرم فأدلو حبالا ليرفعوه خلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البجلي : أهدبت لسفيان الثوري ثوبا فردده علي ، فقلت له : يا أبا عبد الله لست أنا من يسمع الحديث حتى تردده علي قال : علمت ذلك ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأعاف أن يبين قلبه لأخيه أكثر مما يبين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان يدور أو بدرين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان بأبيه كثيرا ، فقال له : يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء ؟ فقال : يرسم الله أباك - كان وكان وأخيه عليه - فقال : يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا للمال إلى ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها علي عيالك (قال) فقبل سفيان ذلك (قال) فلما خرج قال لولده : يا مبارك الحق فردده علي ، فرجع فقال : أحب أن تأخذ مالك ، فلم يزل به حتى رده عليه . وكأنه كانت أخوه مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده : فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويحك أي شيء ففعلك هذا ؟ حجارة ؟ عد أنه ليس لك عيال ؟ أما ترحني ؟ أما ترسم إخوتك ؟ أما ترسم عيالك ؟ فأكثر عليه فقال لي : يا مبارك تأكلها أنت ههنا سريرا وأسأل عنها أنا .

فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اعتدائه الناس به فقط ، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل اللذة عنده ، لا عند العلم وعدد الخلق . وربما يظن أن له أن يرائي بطلاعة لينال عند العلم ربهته ، فيتعلم منه ، وهو خطأ لأن إرادته بطلاعة غير الله خسار في الحال ، والعلم ربما يفيد وربما

(١) حديث تميم الداري : في كمال لفة الصلاة بالتكلم أخرجه أبو داود وابن ماجه ومحمد في الصلاة .

لا ينبغي ؟ فكيف يحضر في الحال علائقا على ترم علم ! وذلك غير جائز ، بل ينبغي أن يتعلمه ويبدقه ويحفظه العلم ، لا ليكون له في قلبه منزلة ، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة ، فإن العباد أسروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخمد أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين ، ولا يجوز له أن يراى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين ، فإن ذلك معصية في الحال وسيكتشف الله عن ربه وتسلط منزله من قلوب الوالدين أيضا . وأما الزاهد المنزلة من الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والفتنة بعلمه ، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستظامهم علمه ، فإن ذلك يفرس الزيادة في صدره حتى تتيسر عليه المبادات في خلوته به ، وإنما سكوتة لمعرفة الناس باعتزاله واستظامهم لحمله وهو لا يدري أنه يخفف العمل عليه .

قال إبراهيم بن آدم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومته فقلت : يا سمعان منذ كم أنت في صومتك ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : يا حبيبي وما ذاك لي هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم ، قال : في كل ليلة حمصة قلت . فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير الذي بمذالك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتون في كل سنة يوما واحدا فيزيتون صومتي ويطوفون حولها ويظلموني ، فكلما تشاقت نفسي عن العبادة ذكرت ما هم تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لهم ساعة ! فأحتمل يا حبيبي جهد ساعة لهم الأبد ، ففرق في قلبي للمعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى ، قال : انزل عن الصومعة ، فزلات فأدلى لي وكرة فيها عشرون حمصة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير اجتمع على الصاري فقالوا : يا حبيبي ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت : من قوته قالوا : فما تصنع به ونحن أحق به ؟ ثم قالوا : سامم ! قلت : عشرون ديناراً فأعطوني عشرين دينارا فرجعت إلى الشيخ فقال : يا حبيبي ما الذي صنعت ؟ قلت : بته منهم ، قال : بكم ؟ قلت : بعشرين دينارا ، قال : أخطأت ! لو ساءمتهم بعشرين ألف دينار لأصطوك ، هذا من من لا تعبده فأفطر كيف يكون عز من تعبده ؟ يا حبيبي أقبل على ربك ودع الذهاب والجلية .

والمقصود أن استعمار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخطوة وقد لا يشعر العبد به ، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ، فلو تغيروا عن اعتقادهم لم يجرع ولم يعتق به ذرعا إلا كرامة ضئيلة ، وإن وجدها في قلبه فليردعها في الحال بقله وإيمانه ، فإنه لو كان في عبادة وأطلع الناس كلهم عليه لم يردعه ذلك خشوعا ولم يداخه سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكرامة العقل والإيمان وبأدلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالزكون إليه فيرجى له أن لا ينجيب سمي : إلا أن يريد عند مشاهدتهم في الخشوع والانتباه كي لا ينسوا إليه ، فذلك لأبأس ولكن فيه غرور ، إذ النفس قد تكون شهودها الخفية إظهار الخشوع وتعمل بطلب الانتباه فيطالبها في دعواها قصد الانتباه بموت من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انتباههم عنه إنما حصل بأن يمد كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتمسح نفسه بذلك ؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فينبغي أن يكون مرادها اللزوم عنهم ، ولا ينجز من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خيرات ضئيلة لا يبق عليه إلا التها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة مرة

في نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان في التقى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالتقوى ، فن كان استرواحه إلى مشاهدة الأعيان أكثر فهو مراد أو طامع ، وإلا فالنظر إلى الفقراء يريد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة ، والنظر إلى الأعيان بخلافه ، فكيف استروح بالنظر إلى التقى أكثر مما يتروح إلى الفقير ؟ وقد حكى أنه لم ير الأعيان في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري ، كان مجلسهم ورما نصف ويقيم الفقراء حتى كانوا يتمتعون أنهم قراء في مجلسه . نعم لك زيادة إكرام التقى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم التقى عليه في إكرام وتقدير أليته ، فإن الفقير أكرم على الله من التقى ، فأثارك لا يكون إلا طمعا في غناه ورياء له ، ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للتقى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء غنى أو طمع خفى ، كما قال ابن السكك لجارية له مالى إذا أتيت بئساد فتحت لي الحكمة ؟ فقالت : الطمع يحمي لسالكه وقد صدقت ! فإن الإنسان يطق عند التقى بما لا يطق به عند الفقير ، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير . ومكابد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجليك منها إلا أن تفرح ما سوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بغير عزمك ولا ترضى لها بالتأرجح بسبب شهوات متغصنة في أيام مقاربة ، وتكون في الدنيا كذلك من ملوك الدنيا قد أمكنت الشهوات وسادته الذات ، ولكن في بدته سقم وهو يخاف الملوك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات ، وطم أنه لو احتجى وجاهد شهوة عاش ودام ملكه ، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارث الصيدلة وعود نفسه شرب الأدوية للمرة وصبر على بشاعتها وجر جميع الذات وصبر على مفارقتها ، فبدته كل يوم يزداد تحولا لثة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم قصصا لثتها واحتاجه ، فهما نازعتا نفسه إلى شهوة تفكر في توالى الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت للفرق بينه وبين ملكته الموجب لشبهة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيها يستفيد منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هناء وبدن صحيح وقلب رضى وأمر نافذ ، فيخف عليه مهاجرة الذات ومصاراة المكروهات . فكذلك المؤمن المرءى للملك الآخرة احتجى عن كل مهلك له في آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فأجتنى منها بالقليل ، واختار التحول والذبول والوحشة والحزن والخوف ، وترك المزاينة بالخلق خوفا من أن يحمل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجا أن ينجو من عذابه ، تخف ذلك كله عليه عند شدته يقينه وإيمانه بما فيه أمره وبما أمده له من النعم اللقيم في رضوان الله أبد الآباد ، ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده الرزدين لمرضاة عرفانهم وروافد وطيبهم صلوة ولو شاء لأغنام عن التعب ، ولكن أراد أن يعلوم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وهدلا ، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمونة والتيسير ووطئته الأعباء وسهل عليه الصبر ، وحجب إليه الطاعة ورزقها فيها من لذة النجاة ما يطويه عن سائر اللذات ويقويه على إمامة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمدته بمعونه ، فإن الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا ينجيب أمل المحب وهو الذى يقول : من تحزب إلى شبرا تهزبت إليه ذراعا ، ويقول تعالى : لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وإلى إلى لقاءهم أشد شوقا ، فليظهر العبد في البداية جهده وصدقه وإخلاصه فلا يموزه من الله تعالى على القرب مأمور بالاتق بمجوده وكرمه ورافته ورحمته .

ثم كتاب ذم الجاه والرياء والخذلة وحده

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يرضه عن مجده واضع ، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع ، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذي يبر أبصار الخلاق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستملاؤه واستيلاؤه ، وحصر السن الأنبياء وصفه وتناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه ، فاعترف بالمجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبيائه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبريائه ، فالعظمة لإزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيما قسمه بدهاء الموت فأعجزه دواؤه ، جل جلاله وتتمست أممائه ، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه التور المنقشر ضياؤه ، حتى أشرفت بنوره أكفاف العالم وأرجائه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأوليائه ، وغيره وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(١) » ، فالكبر والعجب دمان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقجان مريضان ، وهما عند الله بمقوتان يفيضان . وإذا كان القصد في هذا الربيع من كتاب إحياء علوم الدين شرح للمهلكات وجب لإيضاح الكبر والعجب فلينها من قبائح اللرديات . ونحن نستغنى بيانها من الكتاب في شطرين : شطر في الكبر ، وشرط في العجب .

الشرط الأول من الكتاب : في الكبر ؛ وفيه : بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البراءة على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر . وبيان امتحان النفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع وللمدوم منه .

بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق) وقال عز وجل (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال تعالى (واستفتحوا وعاب كل جبار ضيق) وقال تعالى (إنه لا يحب المسكينين) وقال تعالى (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) وقال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) وذم الكبر في القرآن كثير وقد

كتاب ذم الكبر والعجب

(١) حديث « قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة لزراري فمن نازعن فيها قصته » أخرجه الحاكم في المستدرک دون ذکر « العظمة » وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم ، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » أخرجه البزار والطبرانی والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان »^(١) ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى للكبرياء رداً والمظلة إزارى فمن نازعني واحداً منهما ألقيت في جهنم ولأبالي »^(٢) ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقي عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمرو على الصفا فتواقفا ، فعني ابن عمرو وأقام ابن عمر يركي ، فخالوا ما يكره يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه »^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب »^(٤) ، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً - للظلم والإفساد والجن والبائس : اخرجوا ، اخرجوا في ماتي ألف من الإنس وماتي ألف من الجن ، فرفع حتى جمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مسّت أقدامه البحر ، فسمع صوتاً : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر خشف به إهدم ما رفعت . وقال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار عتق له أذان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بذلالت بكل جبار عتيد وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالمصوّرين »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بقيل ولا جبار ولا سيء الملكة »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « تحتاج الجنة والنار ذوات النار : أوثرت بالتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمة أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال النار : إنما أنت عذابي أذب بك من أشاء ولكل واحدة منك ما ملؤها »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « بشئ العبد يجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بشئ العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير التعلل ، بشئ العبد غفل وسها ونسى المقابر والبل بشئ العبد عتيا وبشئ العبد ألد »^(٨) ، وعن ثابت أنه قال : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال : أليس بعده الموت ؟^(٩) ، وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا أولاده وقال : إني آسركم بالثنتين وأنهاكم عن الثنتين ، أهاكم عن الشرك والكبر ، وآسركم بلاه إلا الله ، فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها ، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها ، وآسركم بإسحان الله

(١) حديث « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود . (٢) حديث أبي هريرة « يقول الله تعالى للكبراء رداي والشفعة لأزاري من نازع وأندأ منها أقيمت في جهنم » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ « وقال أبو داود « فقلت في النار » والمسلم « وعذبه » قال « وداؤه » و « آزاره » بالنسبة وزاد مع أبي هريرة « ما سديد أيضا » (٣) حديث عبد الله بن عمر « ومن كان قلبه مثقال حبة من كبر في الله في النار عليه » أخرجه أبو يعقوب والبيهقي في شعبه الأئمة في طريقه بإسناد صحيح . (٤) حديث « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ... الحديث » أخرجه الترمذي وسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله « من الذاتية » (٥) حديث « يخرج من النار من لا أذان ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث « لا يدخل الجنة جبار ولا غيبل ولا صبي المسك » تقدم في أسباب الكسب والمراعاة والأدب « ثامن » مكان « جبار » (٧) حديث « حاملة النار والنار تقاتل النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٨) حديث « بش البعبد تبعه » الحديث « أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة في مع تقدم وأثنى وقال غريب وليس إسناد بأقوى ورواه الحاكم في المستدرک وصححه ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي بن حنبل وصححه (٩) حديث « تبعه » إلتنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال « ليس بعه الموت » أخرجه البيهقي في الشعب كسرًا صوابا .

وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء^(١) ، قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن عليه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال صلى الله عليه وسلم : أهل النار كل جعظري جعوظ مستكبر جعاع مناع ، وأهل الجنة الضعفاء القلون^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن أحبك إلينا وأقربكم منا في الآخرة أساستكم أخلاقاً ، وإن أبغضتكم إلنيا وأبغضكم منا الثرثارون المتشبهون المتضيقون ، قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتضيقون المتكبرون^(٣) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الدرد قطوم الناس ، ذراً في مثل صور الرجال يملوم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى جهنم يقال له بولس يملوهم نار الأنبياء يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار^(٤) ، وقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الدرد قطوم الناس لهوانهم على الله تعالى^(٥) ، وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له : يا بلال إن أبأك حديثي عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن في جهنم وادياً يقال له مهبب حتى على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في النار قصرًا يجعل فيه المتكبرون ويطلق عليهم^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء^(٨) » ، وقال : « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والغلول^(٩) » .

الآثار : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يجترن أحد أحدًا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن فطر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وكان الأخنف بن قيس مجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، بلجأ يوماً ومصعب ماد رجله فلم يقبضهما ، وقعد الأخنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال : هبالات آدميتكبر وقد خرج من جري البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم ، ينسل الحجر بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يمارض جبار السموات . وقد قيل في (وفي أنفسكم

- (١) حديث عبد الله بن عمرو : « لن نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال : إني أمرتكم يا بنيين بولائها كما من اثنين ، أنهما كل من الصرك والكبر ... الحديث » أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والمآكل زيادة في قوله قال صحيح الإسناد .
- (٢) حديث : « أهل النار كل جعظري جعوظ مستكبر جعاع مناع » وهذه الزيادة عندنا من حديث لحوية بن وهب المزاعم : « ألا تخبركم أهل النار ؟ كل عتل جعوظ مستكبر » (٣) حديث : « إن أحبك إلينا وأقربكم منا في الآخرة أساستكم أخلاقاً ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي سلمة الخثعمي بلفظ « ال » و « من » وفيه اضطراح ومكحول لم يسمع من أبي سلمة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث (٤) حديث : « يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في مثل صور الرجال ... الحديث » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال شريب .
- (٥) حديث أبي هريرة : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الدرد ... الحديث » أخرجه الزبائر هكذا مختصراً دون قوله « الجبارون » وأسناده حسن (٦) حديث أبي موسى : « لن في جهنم وادياً يقال له مهبب حتى على الله أن يسكنه كل جبار » أخرجه أبو يعل والترمذي والمآكل وقال صحيح الإسناد ، قلت فيه أثر من ستان ضمة ابن معين وابن حبان وأوردته في الضعفاء هذا الحديث (٧) حديث : « لن في النار قصرًا يجعل فيه المتكبرون ويطلق عليهم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي وهب قال : « ثوابت » مكان « نصرا » وقال « فيقول » مكان « يلق » وفيه أبان بن أبي ميثاق وهو ضعيف .
- (٨) حديث : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء » لم أره بهذا اللفظ ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمية حديث : « أعوذ بالله من الفيضان من فضه وقتة وهمة » قال : قلته الضعوفه الكبريه وهمة القوة ، وأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه ، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الباب .
- (٩) حديث : « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة : الكبر والدين والغلول » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للجمهور في الرواية أنه الكبر (بالوحدة والراء) لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد من الفارغاني قال (إنما هو الكثر) (بالثبوت والواو) وكذلك أيضاً ذكر ابن صحويه الحديث في تفسيره (والذين يسكنون الشعب والنفقة)

أفلا يتصورون (ح) هو سبيل الفاظ والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن علي : ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو أكثر . وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر وقال الثمان بن بشير - على الخبر - إن الشيطان مصالي وغوفا ، وإن من مصالي الشيطان وغوخته البطر بأنعم الله والفرح بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله . نسال الله تعالى العفو والمغفرة في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

بيان ذل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بيننا رجل يتبختر في ربدته إذ أصبحت نفسه غشفت الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فز به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول : أي بني أرفع إزارك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء^(٣) . وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال : يقول الله تعالى : ابن آدم أتسجرتي وقد خلقتك من مثل هذه ! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وميد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ! وأني أران الصدقة^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مشيت أمتي المحيطاء وخدعتهم فارس والروم سلبت الله بعضهم على بعض^(٥) ، قال ابن الأعرابي : هي مشية فيها اختيال . وقال صلى الله عليه وسلم : من نظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان^(٦) .

الآثار : عن أبي بكر المذلل قال : بينا نحن مع الحسن إذ سر علينا ابن الأهمر يريد المقصورة وعليه جباب خر ، قد تضد بعضهما فوق بعض على ساقه وانفرد عنها قبائره وهو يمشي يتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف ... أف ... شاع بأفقه فأنى عطفه مصرع خده ينظر في عطفه ، أي حقيق أنت تنظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها ، والله أن يمشي أحد طيعته يتخلل تحلق المهنون في كل عضو من أعضائه به نعمة ، وللشيطان به لفنة ، فسمع ابن الأهمر فرجع يبتدر إليه فقال : لاعتذر إلى ربك إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى (ولا تمشي في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) ؟ ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدهاه فقال له : ابن آدم مصعب يشايه عجب لشبابه ، كأن القبر قد وارى بدلكه وكأنك قد لاقيت حملك ، ويحك ! ذاك قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر

(١) حديث « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « بينا رجل يتبختر في ربدته قد أصبحت نفسه غشفت الله به الأرض » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث ابن عمر « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء » رواه مسلم مقتصرًا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية أسلم أن السار رجل من بني ليث غير مسمى (٤) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال « يقول الله : ابن آدم أتسجرتي وقد خلقتك من مثل هذه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث بصير بن جعاش (٥) حديث « إذا مشيت أمتي المحيطاء .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديثين عن : المحيطاء (بضم الميم) واليهذين بينهما مشاة من تحت) منقول من متصل مكبرا (٦) حديث « من نظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان » أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر .

ابن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف ؛ ففطر إليه طائوس وهو يحتال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من في بيته خراء ؟ فقال عمر كالمعتذر : يا عمر لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى لمبستها وراى محمد بن واسع ولده يحتال فدعاها وقال : أأدري من أنت ؟ أما أملك فأشتريها بما في جردم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله ! وراى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال : إن للشيطان إخرا ما ... كرهامرتين أو ثلاثا ... ويروى أن معمر بن عبد الله بن النخعي راى المهلب وهو يمشي في جبة خرو ، فقال : يا عبد الله هذه مشية يبعثها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفي ؟ فقال بلى أعرفك أولئك نطفة منرة وآخرتك جيفة قدرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة ! فعلى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أى يلبس ثيابه وراى ذلك من الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد إلا و معه ملكان وعليه حكمة يسكانه بها فإن هو رفع نفسه جنداهما ثم قال الله لهما هما وإن وضع نفسه قال الله لهما ارفعه » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن تواضع في غير مسكة وأتقى ما لا جمعة في غير مصمية ورحم أهل الذل والمسكنة وعالم أهل الفقه والحكمة » (٣) ، وعن أبي سلة المدني عن أبيه عن جده قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائما فأبته عند إفطاره بتقديم لبن وجعلنا فيه شيئا من صل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال : « ما هذا ؟ » قلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال : « أما إنى لا أصرمه ومن تواضع لله زفحه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أنقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » (٤) ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكبر منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على غلظه ثم قال له : « اطعم » فكان رجلا من قريش أشما من وتكبره لما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها » (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خيرنى ربى بين أسمرين أن أكون عبدا رسولاً أو ملكا نبياً فلم أدر أيهما أختار وكان صفيى من الملائكة جبريل فرفعت رأسى إليه فقال : تواضع لربك فقلت عبدا رسولاً » (٦) ، وأوحى الله

(١) حديث « ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث « ما من أحد إلا و معه ملكان وعليه حكمة يسكانه بها ... الحديث » أخرجه الترمذى في الضعفاء والبيهقى في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاما ضيف . (٣) حديث « طوبى لمن تواضع في غير مسكة ... الحديث » أخرجه الباقى وابن قانع والطبرانى من حديث زك بن المصري والترمذى وابن عساف من حديث أس وقد تقدم بعنه في العلم وبه في آفات اللسان . (٤) حديث أبي سلة المدني عن أبيه عن جده قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقاء وكان صائما الحديث » وفيه « من تواضع لله الله ... الحديث » رواه الترمذى من رواية طلحة بن طلحة بن عبد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » ولم يقل « بقاء » وقال الترمذى في الميزان إنه خبر منكسر وقد تقدم ورواه الطبرانى في الأوسط من حديث طائفة قالت أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم فيه لبن وعسل ... الحديث » وفيه « أما إنى لا أصرمه ... الحديث » وفيه « من أكثر ذكر الموت أحبه الله » وروى المرفوع منه أحد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله « ومن بذر أنقره الله » وذكرنا فيه قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » ونقدم في ذم الدنيا . (٥) حديث السائل الذى كان به زمانة منكورة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على غلظه ثم قال « اطعم » الحديث لم أجده له أصلا والموجود حديث أطعمه مع مجزوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب . (٦) حديث « خيرنى ربى بين أسمرين عبدا رسولاً وملكاً نبياً ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من حديث طائفة والطبرانى من حديث ابن جابر وكلا الحديثين حثيف

تعال إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاتك من تواضع لعظمي ولم يتعاطى على خلق وأرمل قلبه خوفاً وقطع ناره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجل وقال صلى الله عليه وسلم ، الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى ^(١) ، وقال المسيح عليه السلام : طوبى للتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للطهارة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم : بلنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجمله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربع لا يطمع الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادات والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا ^(٣) ، وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله ^(٥) ، ويروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى لجاء رجل أسود به جدري قد قشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إنه ليحبيني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبير عن نفسه ^(٧) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوماً « مالي لا أرى عليكم حلالة العبادات » قالوا : وما حلالة العبادات ؟ قال : التواضع ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المتواضعين من أمي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار ^(٩) » .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله مكانه وقال انتفش رفعه الله وإذا تكبر وعدا طوره رهمه الله في الأرض وقال أخشاك الله ، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبد الله : انتبيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطح له وقد جاوزت الشمس النطح فسوّته عليه ، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلبان الفارسي ، فذكرت له ما صنعت فقال لي : يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلة النار يوم القيامة ؟ قلت : لا ، قال : إنه ظم الناس بعضهم في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتقتلون عن أفضل العبادات ، التواضع .

(١) حديث « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً وأسنده الحاكم أوله من رواية الحسن بن سمرة وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته ... الحديث » أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه وفيه المسودى يختلف فيه .

(٣) حديث « أربع لا يطمع الله إلا من يحب : الصمت وهو أول العبادات ، والتوكل على الله والتواضع ، والزهد في الدنيا » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس « أربع لا يطمع الله إلا من يحب : الصمت وهو أول العبادات والتواضع وذكر الله وله العاقبة » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروي المروزيات ثم روى له هذا الحديث .

(٤) حديث ابن عباس « إذا تواضع العبد رفعه الله رأسه إلى السماء السابعة » أخرجه البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمة بن صالح ضيف الجمهور (٥) حديث « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ... الحديث » أخرجه في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بصر بن الحزين وهو ضيف جبار ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاختصاصي وخارجة بن مصعب وكلامه ضيف (٦) حديث : كان سلم لجاء رجل أسود به جدري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . لم أجده هكذا والشعوب أسطه مع مجزوم رواه أبو داود والترمذي وقال شريف وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٧) حديث « إنه ليحبيني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبير عن نفسه » غريب (٨) حديث « مالي لا أرى عليكم حلالة العبادات » قالوا : وما حلالة العبادات ؟ قال : التواضع « غريب أيضاً . (٩) حديث « إذا رأيتم المتواضعين من أمي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار » غريب أيضاً ،

وقال يوسف بن أسباط : يحزى قليل الورع من كثير العمل ويحزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو ؟ قال : أن تخضع الحق وتتأد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلم أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عن من فوقك في الدنيا حتى تعلم أنه ليس له بدنياك عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جالا أو ثيابا أو علفا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتمها عليك . وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكلها الله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نعمها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بالله لإلتمته الله نعمها في الدنيا وفتح له طباقاً من النار يذهب إن شامقه أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السكك على هرون فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك ، فقال : ما أحسن ما قلت ! فقال : يا أمير المؤمنين إن أراء الله جلالاً في خلقته وموضعا في حسيه وبسط له في ذات يده فغف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسيه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله ، فذا هرون بدواة وقرطاس وكتبه يده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يهيىء إلى المساكين فيقتد بهمهم ويقول : مسكين مع مساكين . وقال بعضهم : كما ذكره أن يراك الأغنياء في الثياب التدون فكذلك فاكده أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتنادون التواضع فقال لهم الحسن : أئذنون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد : إن الله تعالى لما أفرق قوم نوح عليه السلام شخمت الجبال وتطاوت وتواضع الجودي فرمعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان : إن الله عز وجل أطلع على قلوب آدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات : لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إلى أغشى أنهم حرموا بسبي . وقال : أرفع ما يكون للمؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه ، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمري : الزاهد بنير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن متادياً نادى بياض المسجد ليخرج شرك رحلا والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أو سمي قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبداً . وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة ويوح حرام فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا ، فبكي ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم ، قال : فرايت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنكم بدياء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشيلي رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النملة التي تحت الباء فقال له الشيلي : أباد الله شاهدك أو تعبد لنفسك موضعا . وقال الشيلي في بعض كلامه : ذل عطل ذل اليهود . ويقال : من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شرف قال : رأيت على أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له : يا أبا الحسن عظمي ، فقال لي : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله ! وأحسن من يبه الفقراء على الأغنياء فتهمة منهم بالله عز وجل ، وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف

نفسه . وقال أبو يزيد : ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقيل له : فتي يكون متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لواجتمع الخلق على أن يصنعوني كالصناعي عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصابيد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن عاكف البرمكي : الشرف إذا تنسكه تواضع ، والسفيه إذا تنسكه تعاظم . وقال يحيى بن معاذ : التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع ، وقال : التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن ، والتكبر في الخلق كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقيع . وقال : لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن عاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزجاني : النفس معجزة بالكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك ، فإذا حاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من لصرة الله تعالى ، وإذا حاجت نار الحسد في نفسه أدركتها الصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا حاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يكون في آخر الزمان زعيم القوم أزدلهم ^(١) ، ما تكلمت عليكم : وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ، ولعل مراده أن التواضع ثبتت نفسه ثم يضعها وللوح لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أوبرعها . وعن عمرو بن شبة قال : كنت بمكة بين الصفاء والمررة فرأيت رجلا راكبا بئلة وبين يديه غلمان وإذا هم ينفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : جلست أنظر إليه وأنا ماله فقال لي : مالك تنظر لي ؟ فقلت له : شيتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال لي ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعت الله حيث يترفع الناس . وقال الغيرة كان نهاب إبراهيم التيمي هيبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء . وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذ بهبطه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجل يصيبكم ، لومات صطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافي يقول سلوا على أبناء الدنيا يترك السلام عليهم . ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما تجروه ، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاسخت قرش عند سليمان الفارسي رضى الله عنه يوما فقال سليمان لكنني خلقت من لطفة قدوة ثم أعود جيفة منقطة ثم آتى الميدان فلن تقل فأنا كرم وإن خف فانا لثم وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجدنا الكرم في التقوى ، والفتى في البتة ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنتها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا

(١) حديث « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أزدلهم » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة « إذا أخذ الله دولا ... الحديث » وفيه « كان زعيم القوم أزدلهم ... الحديث » وقال فريب وله من حديث علي بن أبي طالب « إذا غلبت أمت خمس مدرة خسة حل بها البلاد » فذكر منها « وكان زعيم القوم أزدلهم » ولأن فيهم في الحلية من حديث حذيفة « من اقرب الساعة اثنا وسبعون خسة » فذكرها منها وليسها فرج بن فضالة شريف .

ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به ، وبه يتفصل الكبر عن العجب - كاسيائي - فإن العجب لا يستدعي غير للعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده قصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فبند ذلك يكون متكبرا ، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يكفي أن يستحضر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فبند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لأن هذه الرؤية تقي الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما يعتقد وعز في نفسه بسبب ذلك ، فذلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من نفخة الكبرياء »^(١) . وكذلك قال عمر أخفى أن تلتفت حتى تبلغ الثريا ، الذي استأذنه أن يخط بعد صلاة الصبح . فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتمزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وعظما ، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) قال عظمة لم يلبسوها ، ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا ، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراء وأقصاه عن نفسه وأبعدوه وترفع عن مجالسته ومواكفته ، ورأى أن حقه أن يقوم مائلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتيته ، فإن كان دون ذلك فأف من مساوئه وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يدهاء بالسلام واستبعد قصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاج أو ناظر أفت أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول ، وإن وعظ عنف في التصح ، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمسلمين واستذلهم وانهرهم وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى المسامة كأنه ينظر إلى الخير استهبالا لم يستحقار . والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة . فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلة هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلبا ينفك عنه العباد والزهاد والبلهاء فضلا عن عوام الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر »^(٢) ، ولأنما صار حجبا دون الجنة لأنه يحول بين المبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يخلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يجب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على التصح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول التصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيالهم وفيه العز : ولا معنى للتطويل فبا من خلق

(١) حديث « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » تقدم فيه . (٢) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم فيه .

ذمهم إلا وصاحب العز والتكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه . والأخلاق النسيمة متلازمة والبعض منها داع إلى البض لا محالة . وشتر أنواع التكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له . وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والتكبرين قال الله تعالى (والملائكة باسطوا أيديهم) إلى قوله (وكنتم من آياته تستكبرون) ثم قال (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المستكبرين) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشد هم عيا على الله تعالى فقال (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) وقال تعالى (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) وقال عز وجل (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا آتكم لنكنا مؤمنين) وقال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قيل في التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفي بعض التفسيرات سأحجب قلوبهم عن الملوكت . وقال ابن جرير : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويتمتعوا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام : إن الزرع يثبت في السهل ولا يثبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أن من شخ برأسه إلى السقف شبه ، ومن طأطأ أعلاه وأكته . فهذا مثل ضربته للتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جمود الحق في حد التكبر والكشف عن حقيقته وقال « من سفه الحق وغضب الناس »^(١) .

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات التكبر فيه

اعلم أن التكبر عليه هو الله تعالى أودسه أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذا تكبر باعتبار التكبر عليه ثلاثة أقسام :
الأول : التكبر على الله ؛ وذلك هو الخش أنواع التكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطين مثل ما كان من نمرود فإنه كان يحدث نفسه بأن يقابل رب السماء وكما يحكي عن جماعة من الجبهة . بل ما يحكي عن كل من ادعى الروبية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذ استكف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى (لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) الآية وقال تعالى (وإذا قيل لهم اجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسب لما تأمرنا وزادهم نفورا) .

القسم الثاني : التكبر على الرسل من حيث تعز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه ، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لانتواحه نفسه للانقياد الحق والتواضع للرسل ، كما حكى الله قولهم (أتؤمن لبشرين مثلاً) وقولهم (إن أنتم إلا بشر مثنا . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لحاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كثيراً . وقالوا لولا أنزل عليه

(١) حديث التكبر من سفه الحق وغضب الناس ؛ أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال « بطرلق وغط الناس » ورواه الترمذي قال « من بطرلق وغط الناس » وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عتبة عامر بن يقطين المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ربيعة مكدداً .

ملك) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه (أر جاء مني الملائكة مقرنين) وقال الله تعالى (واستكبر هو وجنوده في الأرض بنير الحق) فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً . قال وهب : قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان ، فشاور هامان فقال هامان : بينا أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد . فاستكبر عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام . وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم (ولاول هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) قال قتاده : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يلزم كيف يمشي الله إلينا ؟ فقال تعالى (أهم يسمون رحمة ربك) وقال الله تعالى (ليقولوا أمولاء من الله عليهم من بيننا) أي استخاروا لهم واستجابوا لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفرغمهم ، وتكبروا عن مجالستهم فأمر الله تعالى (ولا تظن الذين يدعون ربهم بالثناء والعشى) إلى قوله (ما عليك من حساب) وقال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالثناء والعشى يريدون وجهه ولا تمد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا^(١)) ثم أخبر الله تعالى عن جمعهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا (ما لنا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) قيل يمتنون عمارة وبلايا وصبيها والمقداد رضى الله عنهم ، ثم كان منهم من منه الكبر عن الفكر والمعرفة لجل كونه صلى الله عليه وسلم عبداً ، ومنهم من عرف ومنه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى خبرنا عنهم (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وقال (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله .

القسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحق غيره ، فتأني نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدرهم ويستصغبرهم ويألف عن مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين ؛ أحدهما : أن الكبر والمروءة والملاء لا يليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف الماجر الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بماله الكبر ؟ فهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا يليق إلا بجلاله ، ومثاله : أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضمها على رأسه ويجلس على سريره ، فما أعظم استحقاقه للقتل وما أعظم تدهفه للخرى والتكال . وما أشد استجراؤه على مولاه وما أبقح ما تمطاه ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى «المنظمة لزارى والكبرياء وحائق فن نازعني فيها قصته» أي إنه خاص صفى ولا يليق إلا بي ، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي ، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذي يستذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويرفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره ، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالحق كلهم عباد الله ولا المنظمة والكبرياء عليهم ، فن تكبر على عبد من عباده فقد نازع الله في حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون ، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك .

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجلس إليك وعندك هؤلاء ... الحديث « في نزول قوله تعالى (ولا تظن الذين يدعون ربهم بالثناء والعشى) أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص الأبي قال « فقال المرون » وقال ابن ماجه « قالت قريش » .

الوجه الثاني : الذي تعظم به وذبة الكبير أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره ، لأن التكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استكف عن قبوله وتفسر لجمده ، ولذلك ترى المخاطرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجادلون تجاهد التكبرين ، ومهما انضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتفسر لجمده واحتال دفعه بما يقدر عليه من التليس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون) فكل من ينظر للغلبة والإلحاح لا يلتزم الحق إذا غلبه فقد شاركهم في هذا الخلق ، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوصل كما قال تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف يقتل ، قام آخر فقال : يقتلون الذين يأمرون بالنقض من الناس ، يقتل المتكبر الذي عاله والذى أمره كبرا . وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال : عليك نفسك ! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل « كل يمينك » قال لا أستطيع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا استطعت ، فما منه إلا كبره » قال . فما رفعها بعد ذلك ^(١) أى اعتك بد . فلئذ تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدهو إلى التكبر على أمر الله ، وإنا ضرب إيليس مثلا لهذا ، وما حكا من أحواله إلا ليتبر به ، فإنه قال : أنا خير منه ، وهذا التكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خلقني من نار وخلقته من طين ، لحله ذلك على أن يتبع من السجود الذى أمره الله تعالى به ، وكان مبدؤ الكبر على آدم والحسده لجزء ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الأباد ، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآيتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس قال : يا رسول الله إني امرؤ قد حجب إلى من الجبال ما ترى ألن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لا ولكن الكبر من بطر الحق وخص الناس ^(٢) ، وفي حديث آخر « من سفه الحق ^(٣) ، وقوله « وخص الناس ، أى ازدراهم واستحرقهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذا آفة الأولى « وسفها الحق » هو رده على الآفة الثانية ، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بمن الاستصغار ، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بباطه وإتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال . وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، فالديني هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجبال والقوة والمال وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب .

الأول : العلم ؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء » ^(٤) فلا يليك

(١) حديث : قال لرجل « كل يمينك » قال : لا أستطيع قال « لا استطعت » الحديث أخرجه مسلم من حديث صفه بن الأكوع .
(٢) حديث : تحول ثابت بن قيس بن شماس إلى امرؤ قد حجب إلى من الجبال ما ترى... الحديث « وفيه » الكبر من بطر الحق وخص الناس « أخرجه مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بمحدثين (٣) حديث « الكبر من سفه الحق وخص الناس » تقدم منه (٤) حديث « آفة العلم الخيلاء » قلت : هكذا ذكره المستصف المروفي « آفة العلم النسيان وآفة الجبال الخيلاء » هكذا رواه القضاة في مستند الصحاب من حديث علي بن عبد الله ضعيف . وروى عنه أبو منصور الهيلي في مستند الرودوس « آفة الجبال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحميد الكوفي لا يدرى من هو حدث عن أبيه بمحدث موضوع لله صاحب المزان .

العلم أن يتميز بكرة العلم يستمر في نفسه جهال العلم وكأله ويستعظم نفسه ويستحق الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجملهم ويتوقع أن يدموه بالسلام ، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك ضيقة عنده وبدأ عليه يلومه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويغمدوه شكرًا له على ضيقه ، بل الغالب أنهم يرونه فلا يبرمون ويوردونه فلا يوردون ويعودونه فلا يعودون ويستعظم من عالته منهم ويستسخره في حوائجه ، فإن قصر فيه استكبره كأنهم عبيده أو أجراءه ، وكان تعليمه العلم ضيقة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو نفسه أكثر مما يرجو لهم ، وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما ، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحقيقة الله على الملأ وعظم خطر العلم فيه - كما سيأتي في طريق معالجة التكبر بالعلم - وهذا الميزيد خوفا وتواضعا وتقصعا ، ويتقضى أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في القيام بشكر نعمة السلم . ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علما ازداد وجها وهو كما قال .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ؟

فالجواب أن ذلك سببين : (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا ، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخفية والتواضع دون التكبر والامتنان . قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والحوار وفصل الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تجرد الإنسان لما حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفقا ، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما ، بل العلم هو معرفة العبودية والبرية وطريق العبادة ، وهذه تورث التواضع قالوا .

(السبب الثاني) أن يغوص العبد في العلم وهو خبيث الفحلة ردى النفس سيئ الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولا بتبذير نفسه وتركها قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه في خبيث الجوهر ، فإذا غاص في العلم - أي علم كان - صافى العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يلبث ثمرة ولم يظهر في الخير أثره . وقد ضرب هوب لهذا مثلا فقال : العلم كالنبت ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأبقار يبرقها فتحوه على قدر طعمها فيزداد المزماراة والحلو حلاوة ، فكذا العلم تحفظه الرجال فتحوه على قدر صحتها وأهوائها ، فيزيد للتكبر كبرا والتواضع تواضعا ، وهذا لأن من كانت همته التكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا ، وإذا كان الرجل غافيا مع جهله فازداد علما علم أن الحاجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا وإشفاقا وذلا وتواضعا ، فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام (وانخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) وقال عز وجل (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ووصف أوليائه فقال (أذلة على المؤمنين أوعدة على الكافرين) وكذلك قال صل الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون : قد قرأنا القرآن فنقرأ أمنا ومن أعلم منا ، ثم اتفقت إلى أصحابه وقال « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم

وقود النار^(١) ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفتي عليكم بمحكمكم . ولذلك استأذن نعيم الهاربي عمر رضي الله عنه في التخصص فأبى أن يأذن له وقال : إنه الذبح ، وستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال : إني أعاف أن تلتفتخ حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بجوم فلما سلم من صلاته قال : لتلتسن إماما غيري أو لتصلن وحدنا فأبى وأبى أن يفتي نفسه أنه ليس في القوم أفضل مني . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضملاء من متأخري هذه الأمة ؟ فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه من العلم وخيلاؤه ، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه ، فلا يقبض أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ؛ لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسمينا إليه رجاء أن تشملنا بركته ونسرى إلينا سيرته وحببته ، ومهيات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ؟ فهم أروباب الإقبال وأصحاب الدول قد اقرضوا في القرن الأول ومن يليهم ، بل يمر في زماننا عالم يحتلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الحصلة ، فذلك أيضا إما معدوم ولما عزيز . ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « سيأتي على الناس زمان من تمسكه فيه بشر ما أتم عليه نجا »^(٢) ، لكان جدرا بنا أن نفتحم والمياذ بالله تعالى وطمع اليأس والفتنوط مع ما نحن عليه من سوء أفعالنا ، ومن لنا أيضا بالنسك بشر ما كانوا عليه ، وليتنا تمسكنا بشر عشرة . ففسأل الله تعالى أن يعادانا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أفعالنا كما يقتضيه كرمه وفضله .

الثاني : العمل والعبادة ، وليس يغلو عن رذيلة المن والكبر واستقالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشع الكبر منهم في الدين والدنيا .

(أما في الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم يزيرونهم أولى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حاجتهم وتوفيقهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالروح والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحفظ - إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء - وكانهم يرون حياتهم منه على الخلق .

(وأما في الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا - مهما رأى ذلك - قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم »^(٣) ، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكروه غير عاقب من سطوته ، وكيف لا يخاف ؟ وكيف يشرا احتقاره لغيره . قال صلى الله تعالى عليه وسلم « كفى بالمرء شرا أن يحقر أعاء المسلم »^(٤) ، وكمن من الفرق بينه وبين من يحبه ويعظمه لعباده ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه ، فالحق يدركون الاتجاه بتعظيمهم لإياه الله ، فهم يقتربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمت إلى الله بالتزهد والتباعد منهم ، كأنه مرفوع عن مجالستهم ، فإجدد لهم إذ أجبره إصلاحه أن يتقلصا . إلى درجة في العمل ! وما أجدره إذ ازدراهم بيته أن يتقلص الله إلى حد الإهمال ! كما روى أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له : خليع بني إسرائيل - لكثرة فسادهم - من رجل آخر يقال له عابد بني إسرائيل ، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به قال الخليع في نفسه : أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل ،

(١) حديث العباس « يسكون قوم يرمون الفرقان لا يهاوون حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فنقرأنا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢) حديث « سيأتي على الناس زمان من تمسك بدمر ما أتم عليه نجا » أخرجه أحمد بن رواية رجل من أبي ذر .

(٣) حديث « إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث « كفى بالمرء شرا أن يحقر أعاء المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « امرؤ من المرء » .

فلو جلست إليه لعل الله يرحمني ! اجلس إليه فقال العابد : أنا عابد بنى إسرائيل وهذا خليع بنى إسرائيل فكيف يجلس إلى ؟ فأقن منه وقال له : قم عني ! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان : مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحببت عمل العابد . وفي رواية أخرى : فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع .

وهذا يمتزك أن الله تعالى إنما يريد من العبد قلوبهم ، فالجاهل المعاصي إذا تواضع هبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم التكبر والعابد المحجب . وكذلك روى أن رجلاً من بنى إسرائيل أتى عابداً من بنى إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال : أرفع فؤاذه لا ينفرا قلبك ^(١) فأوحى الله إليه أيها التائب بل أنت لا ينفرا قلبك وكذلك قال الحسن : وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطنز الخنز ، أى أن صاحب الخنز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً فلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استغنى به مستغنى أو آذاه مؤذ استبد أن ينفرا الله له ، ولا يشك أنه صار يعترفوا بتعديده ، ولما رأى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستكثار وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل وجمع بين التكبر والسجود واعتراها بقوله قد يلقي الحق والنيابة بعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سرون ما يجري عليه ؟ وإذا أصيب بشككة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ففهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكرهه في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتمى لأنبيائه به . ولعله في مقت الله إعجاب وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين .

(وأما الأكياس من العباد) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلي حين كان تهب ربحاً وأوقع صاعقة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة بجميعهم لولا كوفي فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقى الله ظاهراً وباطناً ، وهو وجل على نفسه مزدور لعمله وسعيه ، وذلك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والفعل ماهر خضعة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله . ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بمجهل جميع عمله ، فإن الجهل لأغش المعاصي وأعظم شئ يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلاً ذكر بغير النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك ، فقال : إني أرى في وجهه سقمة من الشيطان ، فلم يوقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أسألك بالله حدثت نفسك أن ليس في القوم أفضل منك ، قال : اللهم نعم ^(٢) فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما لا يستكين في قلبه سقمة في وجهه . وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله .

لكن العلماء والعابد في آفة التكبر على ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) أن يكون التكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويقبل

(١) حديث « الرجل من بنى إسرائيل أتى وطئ على رقبته عابد من بنى إسرائيل وهو ساجد فقال : أرفع فؤاذه لا ينفرا قلبك الله الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للمعاصي « والله لا ينفرا قلبك أبداً » وهو بنو هذا السياق وليناه حين (٢) حديث : أن رجلاً ذكر بغير النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال : « إني أرى في وجهه سقمة من الشيطان » الحديث أخرجه أحمد والبخاري والمصنف من حديث أس

فمن لم يرى غيره خيرا من نفسه ، وهنا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلمة .
(الثانية) أن يظهر ذلك على أفعالها بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر في حقها ، وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خدمته الناس كأنه معرض عنهم ، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستغنى لهم أو غصيان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصغر ولا في الرقبة حتى تقاطع ولا في الذيل حتى يعم : إنما الورع في القلوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره ^(١) فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وبيبا وإنسيا ^(٢) ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبني من القراء كل طليق مضحك ، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقك بعبوس من عليك بعله ، فلا أكثره في المسلمين مثله . ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبه صلى الله عليه وسلم : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شاكلتهم فأحواهم أخف حالا من هو في (الزية الثالثة) وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتركبة النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبه التمر في العلم والعمل .

أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد . من هو وما عمله ومن أين زعمه ؟ فيقول اللسان فيهم بالتقصي ، ثم يثنى على نفسه ويقول : إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا ألام الليل وأختم القرآن في كل يوم ، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة ، وما يجري مجراه ، وقد يركي نفسه خمتا فيقول : تصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض ، أو ما يجره مجراه ، يدعى الكرامة لنفسه . وأما مباهاة : فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي ، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيسكت نفسه الصبر ليظهرهم ويظهر له قوته وعجزهم ، وكذلك يشتد في العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه أو أغرى منه في دين الله .

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول : أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذي سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصتره ويظم نفسه . وأما مباهاة : فهو أنه يمتدح في المناظرة أن يظلب ولا يظلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المجالس ، كالمنظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله وقصان أقرانه ، ويفرح بهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوه إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه .

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يشرها التمرز بالعلم والعمل ، وأين من يظفر من جميع ذلك أو من بعضه ؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ^(٣) ، كيف يستظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار ؟ وإنما العظيم من خلاعة هذا ، ومن خلا عظم يكن فيه تعظم وتكبر ، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له : إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فلئن رأيت لما قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم

(١) حديث « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٢) حديث « كان أكرم الخلق وأتقاهم ... الحديث » هدم في كتاب أخلاق النبوة . (٣) حديث « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » هدم

هذا من الدين قام العالم عليه كذب ، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعلم .
الثالث : التكبر بالحب والحب ، فإلى له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه
علما وعلما ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعيد ويأنف من غلاتهم ومعالمتهم ، ومثرت على اللسان
التفاخر به يقول لغيره : يا بنى ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلان ابن فلان ، وأين الملك أن يكلمني
أو ينظر لي ؟ ومع مثل تكلم ؟ وما يجري مجراه . وذلك عرق ذفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان ضالما
وما قالا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب ألقا ذلك نور بصيرته وترشح منه كما
روى عن أبي ذر أنه قال : قالوا رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا ابن السوداء ! فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : يا أبا ذر طف الصاح طف الصاح ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل ^(١) ، فقال أبو ذر رحمه الله :
فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي . فانظر كيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا
بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ؟ وانظر كيف تابى قلع من نفسه شجرة الكبر بأخص قدم من تكبر عليه
لإدفع أن البر لا يقيمه إلا الله ؟ ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما
للاخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لأأم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتخر رجلا عند موسى عليه السلام
فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخربل التسعة من
أهل النار وأنت عاشرهم ^(٢) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا لحاف في جهنم
أو ليسكون أمون على الله من الجمعان التي تدفون بأناها القدر ^(٣) .

الرابع : التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التقص والتلب والفتية وذكر عيوب الناس
ومن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا
أى أنها قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد اغتبتها ^(٤) ، وهذا منقوش خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة
لما ذكرت بالقصير ، فكانها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس الكبر بالمال ؛ وذلك يجري بين الملوك في خزاينهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم
وبين للجملين في لباسهم وخبوهم ومراكبهم ، فيستحقن الفنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكذ ومسكين
وأنا لو أردت لا شترت مثلك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ ومالك وأمالك يفتي يساوى أكثر من جميع
مالك ؟ وأنا أنفق في اليوم مالا تأكله في سنة ؟ وكل ذلك لاستظامه للفنى واستحقاره للفقير ، وكل ذلك جهل منه
بفضيلة الفقر وآلة الفنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وعرى نفرا ﴾
حتى أجابه فقال ﴿ إن ترى أنا أقل منك مالا وولدا فمضى ربه أن يؤثني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من
السما فتصبح صعيدا زلفا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ﴾ وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ،

(١) حديث أبي ذر : قالوا رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا ابن السوداء ... الحديث « أخرجه ابن المبارك في
البر والصالحة مع اختلاف ولأحد من حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإني لست بخير من آخر أو أسوأ ولا أن
تجعله يلقى » (٢) حديث « أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت
لأأم لك ؟ ... الحديث » أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد وموفقا على
ماذ بقصة موسى فقط (٣) حديث « ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا لحاف في جهنم أو ليسكون أمون على الله من الجمعان ...
الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة . (٤) حديث عائشة : دخلت امرأة على النبي
صلى الله عليه وسلم فقلت يدي هكذا ، أى أنها قصيرة ... الحديث . نعم في آيات اللسان .

ثم بين الله عاقبة أمره بقوله (ياليتي لم أشرك بربي أحدا) ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لنوحط عظيم)

السادس : التكبر بالقوة وشدة العيش والتكبر به على أهل الضعف .

السابع : التكبر بالأنباج والأنصار والتلامذة والغلمان وبالمشيرة والأقارب والبنين ، ويمرر ذلك بين الملوك في المسكارة بالجنود ، وبين العلماء في المسكارة بالمستفيدين .

وبالجمل فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن في نفسه كالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن الخنف ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة الخشيش ، لأنه يرى ذلك كالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا انكالا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة التهور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كال وإن كان عصفيا فيه . فهذه جماع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدل بشيء منه على من لا يدل به ، أو على من يدل بما هو دونه في اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعلم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم والحسن اعتقاده في نفسه . لسأل المؤمن بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير .

بيان البواحي على التكبر وأسبابه للمهجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن ، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة ، ويجب أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس وورثة قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر . كما سيأتي معناه . فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر .

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب في التكبر وسبب في للتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بهما .

أما السبب الذي في للتكبر فهو : العجب ، والذي يتعلق بالتكبر عليه هو الحقد ، والحسد . والذي يتعلق بهما هو الرياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء . (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يورث التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال . (وأما الحقد) فإنه يحصل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدًا ورسخ في قلبه بغضه ، فهو لذلك لا تقاطوع نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع ، فكمن ردل لا تقاطوع نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه ؟ ويحصل ذلك على رد الحق إذا جاء من جهة وعلى الألفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه ، وإن علم أنه لا يستحق ذلك ، وعلى أن لا يستحله وإن ظله ، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولا يسأله عما هو جاهل به .

(وأما الحسد) فإنه أيضا يوجب البغض للسود وإن لم يكن من جهة إيلامه وسبب يقتضي الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم ، فكمن جاهل يشتاق إلى العلم وقديق في رذيلة الجهل لاستكفانه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه ؟ فهو يمرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل عليه ، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

(وأما الرياء) فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى إن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس يثبه

وبينه معرفة ولا عسدة ولا حقد ، ولكن يتبع من قول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه ، فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا منه بنفسه لكان لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالمحب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن متهما ماله ، وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينسب إلى ذلك النسب ويرفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواة في الكرامة والتوقير وهو عالم باطن بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين ، وكان اسم التكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن المحب والنظر إلى الغير بين الاحقار ، وهو إن سمي متكبرا فلاجل التشبه بأفعال الكبر . نسأل الله حسن التوفيق وانه تعالى أعلم .

بيان أخلاق للتواضعين وجماع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شاكل الرجل ، كصعري وجهه ونظرة شروا وإطراقه رأسه وجلوسه مرتبعا أو منكنا وفي أقواله حتى في صوته ولغته وصيغته في الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبحره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكاته ، وفي تعامله لأفواه وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض .

فإنما التكبر بأن يجب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلي نظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كرامته لذلك ^(١) .

ومنها أن لا يمشی إلا ومعه غيره يمشی خلفه . قال أبو الفراء : لا يزال العبد يرداد من الله بعدا مامشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة . ومشي قوم خلف الحسن البصري فنعهم وقال : ما بين هذا من قلب العبد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشی مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غارهم ^(٢) ، إما لتعلم غيره أوليتني عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والمحبة كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخلع لأحد هذين المنين ^(٣) .

ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن آدم : أن تعال لحدثنا ، فجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحق تبحث إليه بخل هذا ؟ فقال أردت أن أفكر كيف تواضعه ؟

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلانه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رقاد فس نظني فغذه فحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرت لي إلى نفسه وقال لي : لم تفعلوني في

(١) حديث أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، الحديث تقدم في آداب السجدة وفي أخلاق الجيرة . (٢) حديث : كان في بني الأوقات يمشی مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم فأخرجهم منصور البجلي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضيف جدا : أنه خرج يمشی إلى البقيع فنه أحماء فوقف فأمرهم أن يتقدموا ويحى خلفهم فقتل من ذلك فقال « أي سمعت خفي لئلا سمعتم فأسفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر » وهو منكسر فيه جماعة ضفاء . (٣) حديث : إخراج الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخلع قلت : المعروف نزع المراكب الجديد ورد المراكب الخلق في نزع الخيصة وليس الأبنجية ، وكلاما تقدم في الصلاة

ما يفعلون بالجبرة وإني لا أعرف رجلا منكم شرا مني؟ وقال أنس : كانت الوليدة من ولادة المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء ^(١).

ومنها أن يتوقى من مجالسة المرحى والمملولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر - ودخل رجل - وعليه جدري قد تمشى - على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فاجلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ^(٢) وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا يصحب عن طعامه يجذوما ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقدم على ما دعه .

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته ، والتواضع خلافه : روى أن عمر بن عبد العزيز أتم ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه ، قال : فأقابه الغلام ؟ فقال : هي أول نومة نامها ، فقام وأخذ البطة وملا المصباح زيتا فقال الضيف : قت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ناقص مني شيء ! وخير الناس من كان عند الله مقراضا .

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته ، وهو خلاف عادة المتواضعين ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ^(٣) وقال على كرم الله وجهه : لا ينقص الرجل الكامل من كاله ما حمل من شيء إلى عياله وكان أبر عيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام . وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حلب وهو يومئذ خليفة لمروان ، فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك! وعن الأصم بن نباة قال : كأنني أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحيا في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحيا بدم لحله في ملحنته ، فقلت له : أكل حنك يا أمير المؤمنين فقال : لا ، أبو النعيل أحن أن يحمل .

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : البذاعة من الإيمان ^(٤) ، فقال هرون : سألت معنأ عن البذاعة فقال : هو اللبسون من اللباس . وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم وهو تلبس على كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ويخضع له القلب . وقال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء في القلب وقال طائوس : إني لأغسل ثوبي هذين فأفكر قلبي ماذا ما تقيين . وروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار فيقول : ما أجودها لولا خشوة فيها : فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجودها لولا ليته ! فقتل له : أين لباسك ومركبك وطررك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لي نفسا ذواقا وإنها لم تنق من الدنيا طبقة إلا تاققت إلى الطبقة التي فوقها ، حتى إذا خافت الخلافة وهي أرفع الطباق تاققت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الحبيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك قلو ليست ؟ فنكس

(١) حديث أنس : كانت الوليدة من ولادة المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث يندم في آداب المدينة .
(٢) حديث : الرجل الذي به جدري ولجأه إلى جنبه تقدم قريبا . (٣) حديث حماد بن عمار عن أبيه . أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شراة لسراويل وحده وتقدم . (٤) حديث : البذاعة من الإيمان . أخرجه أبو داود وابن ماجه .
حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم .

وأه ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عتري الجنة ^(١) » ، فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمل في الثياب هل هو من التكبر فقال : لا ولكن من سفه الحق وغصص الناس ^(٢) » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فأعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال ، وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي حرقة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس إذ قال : إني امرؤ حبيب لي من الجمل ماترى ^(٣) فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا لتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من التكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب اللين قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمل أن يحب الجمل في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنوره داره ، فذلك ليس من التكبر . فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله : خيلاء القلب ؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب ، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم : إنه ليس من الكبر ، يعني أن الكبر لا يوجب ، ويجوز أن لا يوجب الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر . وبالجملة فالأحوال تقتضي في مثل هذا والمحجوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجوادة ولا بالروادة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا غيلة ^(٤) » . إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ^(٥) » وقال بكر بن عبد الله المزني : البسوا ثياب الملوك وأميثوا قولكم بالخفية ، وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب المذئاب الضواري ؟ البسوا ثياب الملوك وأميثوا قلوبكم بالخفية .

ومنها أن يتواضع بالاحتياط إذا سب وأوذى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتياط الأذى في كتاب الغضب والحسد . وبالجملة فيجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه فيلبيحني أن يقتدى به . ومنه يبينني أن يتعلم . وقد قال أبو سبله . قلت لأبي سعيد الجدي ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرى والمركب والمعلم ؟ فقال : يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله ، وكل شيء من ذلك دخله زهر أو مباحة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وحاج في بيتك من الخدمة ما كان يبالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ، كان يلقف التواضع ويعقل البعير ويقيم البيت ويحلب الشاة وينصف الثمل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشيء من السوق ولا يمنه الحياء أن يلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصانح النقي والفقير والكبير والصغير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحر حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمخذه وحلة فخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أسمع أخبر ، ولا يعقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف النخل ، لا يرفع غداة لعشاء ولا عشاء لعشاء ، حين المؤنة

(١) حديث « من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعا لله الحديث » أخرجه أبو سعيد الملقب في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس « من ترك زينة الله ... الحديث » وفي إسناده نظر (٢) حديث : سئل عن الجمل في الثياب هل هو من الكبر ؟ فقال : لا الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث : لمن ثابت بن قيس قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني امرؤ حبيب للجمل ماترى ... الحديث . هو الذي قبله سمى فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا غيلة » أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده (٥) حديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

لين الخلق كريم الطبيعة جميل للمعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك عرو من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قرين ومسلم ، رقيق القلب دائم الإطراق لم يهشم قط من شيع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ولم يبت إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحلب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليلظ جالماً يتنوى ليلته حتى يصبح فإيمته ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتي بكنوز الأرض ونمازها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل ، وربما بكيت رحمة له عما أوتي من الجوع فأمسح بعينه يدي وأقول : نفسي لك الفداء لو تبليت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمتلك من الجوع ؟ فيقول : يا عائشة إخواني من أول العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فاضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مأجهم وأجرل ثوابهم فأجدني أمتسي إن ترفعت في معيشتي أن يقصر في دولتهم فأصبر أيا ما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظي غذاً في الآخرة وما من شيء أحب إلى من اللوح بإخواني وأخلاقى ، قالت عائشة رضي الله عنها : فوارة ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل (١) .

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق للتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق عمله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فإشد جهله افلقد كان أعظم خلق الله متصبا في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب المز في غيره ، لما عوتب في بذائة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اطل أن الله عبادا يقال لهم الإبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض ، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن الثبة وسلامة الصدر لجميع المسلمين والتصحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجهن وتواضع في غير مذلة قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعمون صدقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه ، واعلم يا أخى أنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحترقونه ولا يقطولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرسون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكة وأطاهم نفساً ، علانهم السخاء ومهيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غلة ولكن مدامين على سالم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لاتدرهم الرياح المواصل ولا الحيل المجراة ، قلوبهم تصمد أرياحاً إلى الله وأشفاقاً إليه وقدماء في استباق الخيرات (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) قال الراوى : فقلت : يا أبا البرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها ؟ فقال : ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تفيض الدنيا ، فإنك إذا ابتضت الدنيا أقلت على حب الآخرة ، وبقدر حبله للآخرة تزدني الدنيا ويتدر ذلك تبصر ما ينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد وأكفنه بالعصمة ، واحط يا ابن أخى أن ذلك في كتاب الله تعالى للذلل (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) قال يحيى بن كسير : فنظرتُ

(١) حديث أبي سعيد الخدري وماتعة : قال الخدري لأبي سلمة مالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مالج في بيتك كان يفت الناس .. الحديث . وفيه : قال أبو سلمة فنزلت على عائشة فحدثتني بذلك عن أبي سعيد فقالت : ما أخطأ ولقد نصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعاً .. الحديث بطله له أم الله له حل إسناد

في ذلك فإنا تلذذ للتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من عبي المحبين لك يارب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضىته . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من الملوكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه ، وإزالته فرض عين ولا يروى بمجرد التقي بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القائمة له . وفي معالجته مقامان (أحدهما) استكمال أصله من سنخه وقلم حجرته من مفرسها في القلب . (الثاني) دفع المارضى منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره .

(للقيام الأول) في استكمال أصله ، وعلاجه على وعلى ، ولا يتم الشفاء إلا بجموعهما :

أما المعلى : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكتفيه ذلك في إزالة الكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والدلة واللمانة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا يليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته وجمده فاقول فيه بطول وهو متبى علم المكاشفة ، وأما معرفته نفسه فهو أيضا بطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة ، ويكتفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى (قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقتله ثم السيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فليخطر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حين العدم دعورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم ؟ وقد كان كذلك في التقدم ، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أقدرها إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظاما ، ثم كسا العظم لحما ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت ، إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يعطش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل حله وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلته قبل عداه وبفقره قبل غناه وبصوره قبل قدرته . فهذا معنى قوله (من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقتله) ومعنى قوله (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه (كذلك خلقه أولا ثم آمن عليه فقال (ثم السيل يسره) وهذا إشارة إلى ما ليس له في مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال (من نطفة أمشاج نبتليه لجميلنا سيما بصيرا إنا هدينا السيل إما شاكرا وإما كفورا) ومنه أنه أحياء بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا ، وأسمه بعد ما كان أسم ، وبصره بعد ما كان فأندا للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعله بعد الجهل ، وخلق له الأصنام بما فيها من العجائب والآيات بعد التقطع لما ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبهه بعد الجرح ، وكساه بعد العري ، وهدهد بعد الضلال . فانظر كيف يدبره ومصوره وإلى السيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ؟ فقال (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقنا من تراب ثم إذا هم بشركتنا فترعون) فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الدالة والقلة والحسة والقتارة إلى هذه الرقة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد اللوث وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وطالما بعد الجهل ومهديا بعد

الضلال وقادراً بعد العجز وغنياً بعد الفقر ؟ فكان في ذاته لاشيء وأى شيء أخس من لاشيء ؟ وأى قوة أقل من الدم المحض ؟ ثم صار بالله شيئاً . وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد المعصم المحض أيضاً ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه ، وإنما أكل النعمة عليه ليعرف بها وبه ويعلم بها عظمت وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا . ولذلك أمتن عليه فقال ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفهتين وهديناه النجدين ﴾ وعرف خسته أولاً فقال ﴿ ألم يك نطفة من منى يعني ثم كان حقة ﴾ ثم ذكر منه عليه فقال ﴿ خلق فسوى لجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ليوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالاختراع . فمن كان هذا بذوه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأشخاص وأضعف الضمائم ؟ ولكن هذه مادة الخسيس إذا رفع من خسته شمع بأفنه ونظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكله وقوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يعطى ويسوى للبدا والمثنى ، ولكنه سلب عليه في دوام وجوده الأمراض المسائلة والأقسام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة ، من اللزّة واللبغ والرجح والتمسك ببعض البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبى رضى أم سطع ، فيجرح كرها ويحطس كرها ويمرض كرها ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا ، يريد أن يعلم الشيء فيجهل ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء وينفل عنه فلا ينفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهيمه فيجول في أودية السواس والافتكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، ويشقى الشيء وربما يكون هلاكة فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه ، يستدك الأعمى وتهلك وترده ، ويستمتع الأدوية وهي تفسده ونجسه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، فهو مضطرب ذليل إن ترك يق وإن اختطف قى ، عبد ملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره ، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأى يليق الكبر به لو لاهله ؟ فهذا أوسط أحواله فليتامه .

وأما آخره ومورده فهو الموت للشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمه وبصره وعقله وقدرته وحسه وإدراكه وحركته ، فيموت جماناً كما كان أول مرة ، لا يبق إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قدوة كما كان في الأول لطفة مدرة ، ثم تبلى أعضاؤه وتفتت أجزاؤه وتنثر عظامه ويصير رمياً راقناً ، ويأكل الدود أجزائه فيبتهئ بمحدثيه فيقلعها ويخذه فيقطعها ، ويسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستتدركه كل إنسان ويهرب منه لشدّة الإتيان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان ، فيصير مفقوداً بعد ما كان موجوداً . وصار كأن لم يكن بالأمس حصيداً كما كان في أول أمره أمداً مديداً ، وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً . لا يلب بجميه بعد طول اللي ليقامى شديد البلاد ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمه وسما مشقة بمرة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكسرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملامكة غلاظ شداد وجنهم ترقر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحرر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له ﴿ اقرأ كتابك ﴾ فيقول : وما هو ؟ فيقال : كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان بقيان يكتبان عليك

ما كنت تطلق به أو تعله من قليل وكثير وتغير وقطعير وأكل وشرب وقيام وقعود ، قد نسيت ذلك وأحساه الله عليك فهل إلى الحساب واستمعة للجواب أو تساق إلى دار العذاب ، فيقطع قلبه فرجا من هول هذا الخطاب قبل أن تقتصر الصحيفة ويشاهد ما فيها من عذابه ، فإذا شاهده قال ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ فالن هذا حاله والتكبر والتعظم ؟ بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر ؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعاذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنسانا يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً ، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو يجرل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق . ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ربه لما توا من نته ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقي منه في بحار الدنيا لاصارت أنثى من الجيفة ، فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يفر الله عنه وهو على شكله من العفو - كيف يفرح ويظهر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً ؟ وأى عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يفر الله الكريم بفضلته ويجهز الكسر به ، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله . رأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنابته ضرب ألف سوط لحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى المرض وتقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدري أيعني عنه أم لا ؟ كيف يكون ذلك في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن ؟ وامن عبد مذنب إلا والدنيا بجهنمه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره ؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً . فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر .

. وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل وللسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كاصفاتهم وحكمتهم من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه « كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد »^(١) ، وقيل اسلمان . لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : إنما أنا عبد فلذا أعتقت يوماً ليست جديداً أشار به إلى المتق في الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان بالصلاة جميعاً ، وقيل الصلاة حماد الدين ، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت حماداً ، ومن جعلتها ما فيها من التواضع بالثول قائماً وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنشاء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا يثنى لأخذه ، ويقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : يا معشر النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا آخر إلا قائماً فإياه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكل إيمانه بعد ذلك^(٢) فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعف أمروا به لتتكسر بذلك خيلاؤهم ويرول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق ، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فليظن كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على تقضيه حتى يصير التواضع له خلقاً . فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً ، وذلك لحفاء الملاقة بين القلوب والجوارح وسر

(١) حديث : كان يأكل على الأرض ويقول « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد » تقدم في آداب المصيبة .

(٢) حديث حكيم بن حزام : يا معشر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا آخر إلا قائماً . الحديث رواه أحمد مختصراً على هذا وفيه لمؤمل حتى .

الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت (المقام الثاني) فيما يمرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل ، فأما ما عداه عما يفتنى بالمرت فكمال وهمي فمن هذا يمرض على العالم أن لا يتكبر ، ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الاسباب السبعة .
الأول : النسب فمن يفتريه الكبر من جهة النسب فليدأ قلبه بمعرفة أمرين (أحدهما) أن هذا جهل من حيث إنه تميز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن غرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن يش ما ولدوا

فالتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لي : ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي ؟ أقرى أن الدودة التي خلقت من بول لإنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس ؟ هيأت ! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة . (الثاني) أن يعرف نسبه الحقيقي ، فيعرف أباه وجده فإن أباه بالتقريب طفلة قدوة وجدته البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين) فمن أصله التراب المهيئن الذي يداس بالأقدام ثم خر طينة حتى صار حما مستوتا كيف يتكبر ؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنف من الحماة ويا أفقر من المصنفة .

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالتقريب دون البعيد ، فالطفلة والمصنفة أقرب إليه من الأب فليخسر نفسه بذلك ، ثم إن كان ذلك يوجب رغبة لقربه فألا بال الأجل من التراب فمن أين رفعت ؟ وإذا لم يكن له رغبة فمن أين جاءت الرفعة لو أنه ؟ فإذا أصله من التراب وفصله من الطفلة فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تفصل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والماء فلم يزل فيه نخوة الشرف فينبأ هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندی حجام يتعامل في التاذورات ، وكشفوا له وجه التليس عليه فلم يبق له شئ في صدقهم ، أقرى أن ذلك يبقى شيئا من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استعصا الخزي لحسته في شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من الطفلة والمصنفة والتراب ، إذ لو كان أبوه ممن يتعامل في نخل التراب أو يتعامل في الهمة بالحمامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أبيه لقراب والهم ، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه ؟

السبب الثاني : التكبر بالجمال ، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبايح ما يكره عليه تميزه بالجمال فإنه وكل به الاقتدار في جميع أجزائه : الجميع في أعضائه والبول في مثانته والخطأ في أنفه والبراق في فيه والوسخ في أذنيه والهم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ليله ، فيسل الفناط يده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم إلى الحمام مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليبرق قذارته وذله هذا في حال توسطه .

وفي أول أمره خلق من الاقتدار الشفيمة الصور ، من الطفلة ودم الحيض ، وأخرج من مجرى الاقتدار . إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى التذذر قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر علينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول

مرحين : وكذلك قال طالس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من في بطن خراف ؟ إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه .

ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعمدها بالتطيف والفضل لثارت منه الاتتان والأفذار ، وصار أفتن وأفذر من الدواب المهمة التي لا تتعمد نفسها قط . فإذا نظر أنه خلق من أفذار وأسكن في أفذار ، وسميت فيصير جيفة أفذر من سائر الأفذار لم يفخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البربادى ، فينتا هو كذلك إذ صار هشيا تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح غالبا لكان يجب أن لا يتكبر به على التسبيح ، إذ لم يكن فيسح التسبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجليل إليه حتى يحمد عليه ؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يذول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب ؛ فكمن وجوه جميلة قد سمحت بهذا الأسباب ؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدي ، ويمنه من ذلك أن يعلم ما سيطر عليه من الملل والأمراض ، وأنه لو وجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستغفده منه وأن بقعة لو دخلت في أنفه أو ثملة دخلت في أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته ، وأن حتى يوم تغفل من قوته مالا ينجز في مدة . فمن لا يطيع شوكة ولا يقاوم بقعة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا يفتنى أن يفخر بقوته ؟ ثم إن قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأي افتخار في صفة يسبقه فيها البهائم ؟ .

السبب الرابع والخامس : التنى وكثرة اللال ، وفي مناه كثرة الإتياع والألفار والتكبر بولاية السلاطين والتكبر من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أفتج أنواع الكبر ، فإن للتكبر جماله كأنه متكبر بفكره وداره ولو مات فكره وانهدمت داره لعاد ذليلا ، وللتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه ، بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، فإن تغير عليه كان أذل الخلق ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف وللتكبر بالتنى لو تأمل لراى في اليهود من يزيد عليه في الفنى والثروة والتجمل ؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودى ! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعمود صاحبه ذليلا مفلسا ؟ فهذه أسباب ليست في ذاته ، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال ، فالتفاخر بقاءة الجهل ، وكل ماليس إليك فليس لك ، وشئ من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك ، وما أنت إلا عبد ملوك لا تقدر على شئ . ومن عرف ذلك لا بد وأن يذول كبره .

ومثاله : أن يفخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلباته ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه وقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له ، فلم ذلك وحكمه الحاكم ، لجاء مالكا فأخذ ، وأخذ جميع ما في يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يماقيه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكا يعرف أن له مالكا ، ثم نظر البعد فرأى نفسه محبوسا في منزل قد أحقدت به الحيات والعقارب والحوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا للخلاص ألبتة ، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكأله أم يذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه

برى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضائه وماله ، وهو مع ذلك بين آفات وشبهات وأمراض وأسقام هي كالغبار والحيات يخاف منها الملاك . فن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدره إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة . فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أمون من علاج التكبر بالملم والمعمل ، فإنهما كالان في النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره .

السبب السادس : الكبر بالملم ، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدا عن قبول العلاج إلا بشدة وجهد جهيد ، وذلك لأن قدر الملم عظيم عند الله عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل . ولذلك قال كعب الأحبار : إن العلم طينانا كطينان المال . وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : الملم إذا زل زل يزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما تنطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بصفة أسرين : (أحدهما) أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم ، فإن من عصي الله تعالى عن معرفة وعلم بجنائته أنشأ ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أكتابه فيدور بها كابدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت أسر بالخبر ولا آية وأنبي عن الشر وآية ^(١) » ، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالخبر والكلب فقال عز وجل « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » أراد به علماء اليهود . وقال في بلعم بن باعوراء « وائل عليم نبأ الذي آتياه آياتا فانسف منها ^(٢) حتى بلغ ^(٣) فله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » قال ابن عباس رضي الله عنهما : أدنى بلعم كتابا فأخذ إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فله بالكلب ^(٤) (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوتها لا يدع شهوته ، ويمكن العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالخبر الذي لا يأتيه ؟ فهما خطر العالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتذكر في الخطر العظيم الذي هو بصده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كمالك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتبه أن يكون قد كان فقيرا ، فكمن من عالم يشتبه في الآخرة سلامة الجهال ؟ والعياذ بالله منه . فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخزي أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتني لم تلدن أبى ! وأبأخذ الآخر تبة من الأرض ويقول : يا ليتني كنت هذه التبة ! ويقول الآخر : ليتني كنت طيرا أكل ! ويقول الآخر : ليتني لم أكن شيئا مذكورا أكل ذلك خروفا من خطر العافية ، فكأنوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب . ومهما أطال فكر في الخطر الذي هو بصده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق .

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل الثقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا ؟ فأخبره غيره أن سيده أرسل إليه رسولا يخرج من كل ما هو فيه هريانا ذبيلا ويلقيه على باب في الحز والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أسرف رفع حسابه

(١) حديث « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أكتابه ... الحديث » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بنحظ « يؤتى بالربيل » وهم في العلم .

وقتش عن جميع أعماله قليلا وكثيرا ثم أمر به إلى محض ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة ، وقد علم أن سيده قد فعل بطواغيف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أى الفريقين يكون ؟ فلماذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذلل ويذل عزه وكبره وظهر حوته وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعاؤه عند نزول العذاب ، فكذلك العالم إذا تفكر فيما حسيه من أوامر ربه بحضائيات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والمحب والنفق وغيره ، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فأرقه كبره لا محالة .

(الأمر الثاني) أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار يموتوا عند الله ينضيا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندى قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت نفسك قدرا فلا قدر لك عندى ، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه . وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك . وهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علوا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه ، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله علمهم ، فهذا أيضا مما يمتثل على التواضع لاحالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق للتظاهر بالفسق وللمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والمباداة عند الله تعالى ، وكيف يشبه أن ينظر إليه خطر العلم وهو يعلم أن خطر العاصق والمبتدع أكثر ؟ فأعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكير في خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يعلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر ، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة من هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك ، فكيف من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقه وازدواه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين ؟ إلا أبا بكر وحده فالمراتب مطوية عن العباد ولا ينظر الماقل إلا إلى العافية ، وجميع الفضائل في الدنيا تزداد العافية . فإذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال : هذا عصي الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني . وإن نظر إلى عالم قال : هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال : هذا قد أطاع الله قبل فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى صغير قال : إن عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : ما يدري له يختم له بالإسلام ويختم له بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداءها إلى ؟ فبملاحظة الخاتمة يتقدم على أن ينفي الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله ، لا فيما يظهر في الدنيا بما لا يبقاء له ، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ، ولكن حتى على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لأن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فلذا حبس جماعة في جناية ووجدوا بأن تعذب وقابهم لم يتفزعوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عهم الخطر ، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيته وخطره .

فإن قلت : فكيف أنضج للمبتدع في الله وأنضج الفاسق وقد أمرت ينضجها ، ثم مع ذلك أتواضع لها والجمع بينهما متناقض ؟ فأعلم أن هذا أمر مشبه بيلتصق على أكثر الخلق ، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق

بكبر النفس والإدلال بالملم والورع ، فكم من جاهد جاهل وعالم منور إذا رأى قاصفا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتوهم عند بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله ؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليمهم ؛ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والخذو منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن التضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه وللتكبر غضب ، وأحدهما يشر الآخر وبوجه ، وهما بمنزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا للوقوفون .

والذي يخلصك من هذا أن يكون المحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور : (أحدها) التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ليصرف عند ذلك قدرك في عينك . (والثاني) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من الملم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمته من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لا تمج بنفسك ، وإذا لم تحب لم تكبر . (والثالث) ملاحظة إلهام قاتلك ، وقاتلك أنه ربما يحتم لك بالسوء ويتمم به بالحسن ، حتى يشغلك الحروف عن التكبر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولايك وسيدك ، إذ أمرك أن تغضب له لأنفسك ، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالحقيقة ، وأعرفك ذلك بمثال تعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المنضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول : إذا كان لك غلام وولد هو قوة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه . فإن كان الغلام عيا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التعزيب بامتنال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه ، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لأمه من الغلام . فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسن في الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأسرة لمولايك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة . فكمنا يكون بعض العلماء الأكياس فيتعظم إليه الحرف والتواضع . وأما الغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن صمى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانته بحكم الأسرة .

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة ، وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد ، وسيله أن يارم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقتم عليه بالملم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان ، لما عرفه من فضيلة الملم ، وقد قال تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ^(١) ، إلى غير ذلك مما ورد في فضل الملم .

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وهم في العلم .

فإن قال العابد : ذلك لئلا حامل بمله وهذا عالم تاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنة يذهب السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما يمكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يمر له أن يحتمر طالما بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن مسح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام : فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي ، فأعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وعاقبة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه حينئذ هو عند الله عظيم وقد مقت به ، وإذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا ، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء ، وذلك يمنه من التكبر بكل حال . فهذا العابد مع العالم ، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكتوفين ، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فله أقل عنه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حياء . وأما المكتوف حاله إن لم يظهر لك من الثوب إلا ما يزيد عليه ذنوبك في طول عمرك . فلا يبغي أن يتكبر عليه ، ولا يمكن أن يقول هو أكثر مني ذنبا ، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تعد على إحصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك فلا يبغي أن يتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والفن واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله ، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا ، وقد جرى الفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتظيم ما أنت عال عنه ، وقد كفره بذلك عنه سيئاته ، فيتكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدراجات ، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك يبغي أن يكون قريبا عندك إن كنت مشغافا لنفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لفيرك بل فيما هو غرض في حقلك ، فإنه لا تحوز وأزرقوزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك ، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك .

وقد قال وهب بن منبه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال ، فمقدسة حتى يلح الماشر فقال : العاشرة ! وما العاشرة ! ما شاد يجده وبها صلا ذكره ! أن يرى الناس كلهم خيرا منه . وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هي أفضل منه وأرفع ، وفرقة هي شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأملك أنا فلا تراه إلا خائفا من الماشر فيقوم لعل يره هذا باطن فذلك خيرا له ، ولا أدنى لعل فيه خطا كرميا بينه وبين الله فهو حملاؤه ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، ويرى ظاهر فذلك شر . فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطها ، ثم قال : لحيث كل عقله وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جاوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال .

ثم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن طابعا آوى إلى جبل قيل له في النوم : ائت فلانا الإسكافي فسله أن يحو لك . فأناه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكسب

فيتصدق بيعته ويعظم عياله يبعثه ، فرجع وهو يقول : إن هذا الحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لخدمة الله ، فأتى في اليوم ثانياً فقيل له : ائت فلانا الإسكافي فقل له : ما هذا الصغار الذي يوجهك ؟ فأخاه فسأله فقال له : ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي : أنه سيخبر وأهلك أنا ، فقال العابد : بهذه

والذي يدل على فضيلة هذه الحصة قوله تعالى (يُتَوَنَّنُونَ مَا آتَا وَهُوَ يَتَوَنَّنُ عَلَيْهِمْ وَجَلَّ اللَّهُ إِلَهُهُمْ رَجَبُهُمْ وَاجْمَعُونَ) أي أنهم يتوتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) وقال تعالى (إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أُمَّلَتَا مُشْفِقِينَ) وقد وصف الله تعالى للملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدوام بالإشفاق والحذر عما سبق به الغفلة في الأزل — وبكشف صدقاته الأجل — غلب الأمان من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمان والأمان مهلك . والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ؛ فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الحق والنظر إليهم بين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال . فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير ، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تنصر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهي كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ونسيت وعددها ، فملي هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكل بالعمل وتجرب بأفعال للتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس .

وبيانه أن يجتمع النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الأول : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فقل عليه قبره والاعتقاد له الاعتراف به والشكر له على تفضيله وتسميته وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتنقذ فيه ويشغل بعلاجه . أما من حيث العلم فإن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر طاقته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فإن يكلف نفسه ما تقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالمدح والثناء ، ويقر على نفسه بالمعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن ما فطنت له وقد كنت ظافلاً عنه جزاك الله خيراً كما نهى له ! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها يلينى أن يشكر من دله عليها . فإذا غاب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبيعياً ، وسقط تقل الحق من قلبه وغاب له قبره . ومهما تقل عليه الثناء على أقرانه بما فهم فيه كبر ، فإن كان ذلك لا يقل عليه في الخلوة ويقل عليه في المأفليس فيه كبر وإنما فيه رياء ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعتي في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن تقل عليه في الخلوة والملا جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه التخلص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني . فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان .

الامتحان الثاني : أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحته ، فإن تقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكاملاً حتى يسقط عنه قلبه . فبذلك يراه الكبر وهما الشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف الشمال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأردال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك ينصف على صدور المتكبرين إذ يؤمنون أنهم تركوا مكانهم بالاستشفاق والتفضل ، فيكون قد تكبر وتكبر في أظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بينهم ولا ينطع عنهم إلى صف

التمتع ، فذلك هو الذي يخرج خيب الكبير من الباطن .

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويبر إلى السوق في حاجة الرضاء والآطرب ، فإن قتل ذلك عليه فهو كبير ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ليس إلا لحب في الباطن ، فليستغل بإزالتها بالمواظبة عليه مع تذكر جميع مآذ كثرته من المعارف التي تريل ذاه الكبير .

الامتحان الرابع : أن يعمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقاه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبير أو رياء ، فإن كان يقتل ذلك عليه مع خلق الطريق فهو كبير ، وإن كان لا يقتل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلة المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهل الناس طب القلوب واشتغلوا بطلب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لأعماله ، والقلوب لا تترك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في غلبته وبنتك ما بينك ١ قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك ؟ فلم يتنع منها بما أعطته من العزم على ترك الألفة حتى جربها أمي صادقة أم كاذبة ؟ وفي الخير « من حل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبير » (١) .

الامتحان الخامس : أن يلبس ثياباً بدلة ، فإن نفور النفس عن ذلك في الملابس وفي الخلوة كبير . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبير » (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأقفل البعير وألق أصابعي وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سقني فليس بي شيء » (٣) . وروى أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أفراساً يتخفون عن الجلبة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصل فيها بالناس . وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فلا يجتمع بالملأ فهو الرياء ، وما يكون في الخلوة فهو الكبير ؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه ،

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة : فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا . والمحمودان يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاس ، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوسطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع : أي وضع شيئا من قدره الذي يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتحت له عن جلسته وأجلسه فيه ثم تقدم وسقى له لعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاس وتذلل ، وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل ؛ وهو أن يعطى كل ذي حق حقه ، فيليني أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوق فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستغفره وهو لا يعرف عاقبة

(١) حديث « من حل الشيء والفاكهة فقد برئ » من الكبير « أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وحفظه
« من حل بضاعته » . (٢) حديث « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ » من الكبير « أخرجه البيهقي في الشعب من
حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده التماس المسمى ضعيف جدا . (٣) حديث « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس
الصوف ... الحديث » يهدم بنفسه ولم أجد يقيته .

أمره . فإذا سيطر في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في عمارن العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع ، وإن كان ينقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع ، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية ، فإن خف ذلك وصار بحيث ينقل عليه رعاية قدره حتى أحب التلقى والتخاسس فقد خرج إلى طرف التقصان فليرفع نفسه إذ ليس للؤمن أن تنذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، وذلك فاعض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق . وليل عن الوسط إلى طرف التقصان وهو التعلق أهون من الميل إلى طرف الإيالة بالتكبر ، كما أن الليل إلى طرف التبذير في المال أحد عند الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أخش ، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التقصص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والمادة وتقتصر على هذا التدرج من بيان أخلاق الكبر والتواضع .

الشطر الثاني : من الكتاب في العجب ، وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحذرها ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه .

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وستة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى ﴿ ويوم نحين إذ أهبطكم كمثرى لم تفلن عنكم شيئا ﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل (وشرنا أنهم ما لغتهم حصونهم من الله فانام الله من حيث لم يحتسبوا) فرد على الكفار في إعجابهم بمصونهم وشوكتهم وقال تعالى (وم يحسبون أنهم يمسون صنما) وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بالعمل هو غطى فيه كما يجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه^(١) ، وقال لأبي ثعلبة - حيث ذكر آخر هذه الآله فقال - إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك^(٢) . وقال ابن مسعود: المهلاك في الثنتين القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمر ، والقنوط لا يسمى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سمد وقد غفر بمراده فلا يسعى . فالوجود لا يطلب ، والجمال لا يطلب ، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب ساعلة ومستحيلة في اعتقاد القنوط ، فمن هنا جمع بينهما . وقد قال تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم) قال ابن جرير : معناه إذا علمت خيرا فلا تقل علمت . وقال زيد بن أسلم . لا يبروها ، أى لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب . ووق طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه ، فكانه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح ، فتفرس ذلك عمر فيه فقال . مازال يعرف في طلحة فأمر منذ أصيبت أصبح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) . والتأثر : هو العجب . في اللغة - إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلوا لما كان وقت الشورى قاله ابن عباس أين أنت من طلحة ؟ قال : ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثاله فكيف يتخلص الضمير من

(١) حديث ثلاث مهلكات ... الحديث « تقدم غير مرة (٢) حديث أبي ثعلبة « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم .

(٣) حديث « وق طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه » أخرجه البخاري من رواية ليس بن أبي حمزة قال : رأيت ذات طلحة شلا وق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يأخذوا حذرهم ؟ قال مطرف : لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلى من أبيت قائما وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب »^(١) ، لجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذا رموا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة ، فأطال الصلاة يوما ووجل خلفه ينظر ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يسجلك ما رأيت مني ، فإن إبليس لئنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه . وقيل لمائسة رضى الله عنها : متى يكون الرجل ميثا : قالت ؟ إذا ظن أنه محسن ، وقد قال تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم باللغو والآذى ﴾ ولئن نتيجة استظام الصدقة ، واستظام العمل هو العجب . فظهر بهذا أن العجب مذموم جذا .

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه - كما ذكرناه - فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تحصى ، هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدتها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها ، وما يتذكره منها فيستغفره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتعجب بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتكثير منها ، ثم إذا عجب بها عنى عن آفاتنا . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائما ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نية عن التوابع قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يقلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب ، والعجب يغتر بنفسه ويرأيه وإمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطياه ، ويغترجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويمجدها ويركبها ، وإن أعجب برأيه وصله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يجيب بال رأى الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه ، فإن كان رأيه في أمر ديني فيحقق فيه ، وإن كان في أمر ديني لاسيا فيها يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو أنهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بهلاء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابح سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب فذلك كان من المهلكات ، ومن اعظم آفاته أن يغتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه . نسأل الله تعالى العظم حسن التوفيق لمطاعته .

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا عالة ، والعالم بكال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحداهما) أن يكون خائفا على زواله ومشققا على تكذره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لا يكون عاتما من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لامن حيث إضافته إلى نفسه

(١) حديث « لو لم تذبوا لحشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجيب » أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أس وفيه سلام بن أبي أنسباء قال البخاري منكر الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور البهقي في مسند الفردوس من حديث أبي سفيان بنه ضيف جدا .

وهذا أيضا ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هي العجب وهي أن يكون غير عاقل عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كالوليمة وخير ورفعة لامن حيث إنه عطية من الله تعالى ولعنة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفة ومنسوب إليه بأنه لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله فهما شاء سلها عنه زال العجب بذلك عن نفسه . فإذا العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم . فإن الحضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أنه عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاد ما يجرى على الفاسق سمي هذا إدلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويعين عليه فيكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوه كان مدلا عليه .

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى لا تدل بمملك وفي الخبر « إن صلاة للدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تصحك وأنت متعريف بملك خير من أن تبكى وأنت مدل بمملك »^(١) ، والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء ، فإن توقع إجابة دعوته واستكثر دعما يباطله وتعجب منه كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتمتع من رد دعاء الفاسق ويتمتع من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات التكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

بيان علاج العجب على الجلة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلّة العجب الجهول المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهول فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار البعد كالعبادة والصدقة والزور وسبابة الخلق وإصلاحهم ؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

فتقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يجب إنما يجب به من حيث إنه فيه فهو محله وجرأه ، أو من حيث إنه منه وبسببه وقدرة وقوته ؛ فإن كان يجب به من حيث إنه فيه وهو محله وجرأه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهول ، لأن المحل مسخر ويجرى لا يدخل له في الإيجاد والتحصيل ، فكيف يجب بما ليس إليه؟ وإن كان يجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرة تم ، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدل بها فينبغي أن يكون إجماعه بجود الله وكرمه وفعله ، إذ أقاض عليه ما لا يستحق وآثره على غيره من غير سابقة ووسيلة ففما برز الملك لغناه وفطر لإلهم وخلع من جهلهم على واحد منهم لالصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة ، فينبغي أن يتمتع بالنعمة عليه من فضل الملك وحسبه وإثارة من غير استحقاق وإجماعه بنفسه من أين وما سببه ؟ ولا يبغي أن يجب بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد يقول : الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلو أنه تفضل في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإثارة بالخلعة ولما آثر بها ، فيقال : وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك ، من غير وسيلة ، أو هي عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يمكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا

(١) حديث « إن صلاة الدل لا ترفع فوق رأسه ... الحديث » لم أجده أصلا .

فلم تعجب به . فأعطاك علامة فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطاني علامة لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، يقال : وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والفرس مما أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ! فإذا كان الشكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لنفسك . وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار التامر ملكه للملك المفرد باختراع الجميع المفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنه إن أعجب بمادتك قلت : وفقى للعبادة لحيه ، يقال : ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فتقول : هو ، يقال : فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ! فإذا لامنى لمحب العابد بعبادته وعجب العالم بعله وعجب الجليل بجماله وعجب الفنى بفناءه ! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده .

فلن قلت : لا يمكننى أن أجهل أعمالى وإنى أنا محتيا فلانى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عمل لما انتظرت ثوابا ، فلان كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب ؟ وإن كانت الأعمال منى وبقدرته فكيف لا أعجب بها ؟ فاعلم أن جوابك من وجهين (أحدهما) هو صريح الحق (والآخر) فيه مسأحة .

أما صريح الحق : فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه ، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضاع من إحصاء المين ، بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تتق شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات فى أعضائك مستقبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد ، ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم ، فتدبره فى الخلق شيئا بعد شيء هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلظت . وليرضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه أليق به فالرجع إليه .

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مسأحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ؟ ولا تصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لامتلك ! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح يداؤه ، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السمادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهى بيد الله لا بحاله . أراعت لورائت خزائن الدنيا بمجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد عازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار عما فيها ، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فعدت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مئة اليد وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المنة فى تمريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح . فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وحرف تلك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل من عليك ، وتمريك البواعث وحرف الموانع وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك ، فمن العجايب أن تعجب بنفسك

ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بمجوده وفضله وكرمه في إثارة إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك ، وسلط أخذان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، ومكنتهم أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك ، وصرف عنهم براعت الخير ودواعيه وسلطانها عليك ، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر ! فقل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي ، بل أترك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعده فا عجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك ! فإذا لاتصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها ، فكأنه الذي احتطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا له الفكر والمنة لا لك - وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما ستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا عالق سواه - والعجب بمن يتعجب - إذا رزقه الله عقلا وأقره - من أفاض عليه المال من غير علم فيقول : كيف منق قوت يوي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظنا ، ولا يدري المفروء أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال ، إذ يقول الجاهل الفقير : يارب لم جمعت له بين العقل والنقي وحرمتني منهما فها جمعتما لي أو هلا رزقتي أحدهما ؟ وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له : ما بال المقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عرضا عن عقلك وفكرك لامتنع عنه ! فإذا ذلك يدل على أن لمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسنة الفقيرة ترى الحلى والجواهر على البهيمة القبيحة فتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ؟ ولا تدري المفروء أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال ؟ فإذا نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقوله : يارب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجاهل ؟ كتول من أعطاه الملك فرسا فيقول : أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول : كنت لاتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس ! فهب أني ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى ؟ فهذه أوام لا تغفل الجاهل عنها ، ومنشأ جميع ذلك الجهل ، وبوالذلك بالمحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق ، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام : يارب ما تأق ليلة إلا وإفسان من آل داود صائم - وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابدين آل داود يمدك إما يصل ولما يصوم ولما يذكرك - فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ومن أين لهم ذلك ! إن ذلك لم يكن إلا في ولولا عوفي لإياك ما فويت وسأكله إلى نفسك ، قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بسببه بعلمه إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أودته الحزن والندم . وقال داود : يارب إنني إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فقال : إنني ابتليتكم فصبروا ، فقال : يارب وأنا إن ابتليتني صبرت ، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى : فأنق لم أخبرم بأى شيء ابتليهم ولأنى أى شهر ولأنى أى يوم ، وأنا أخبرك هذه فسنتك هذه وشهرك هذا ابتليك غدا بأمرأة فاحذر نفسك ، فوقع فيها وقع فيه . وكذلك لما أمكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم

ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لآنقلب اليوم من قلة ^(١) وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ ويوم حين إذ أجمعتم كركمكم فلم تنفعكم شيئا وصافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ . روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال : إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي ، فتردى من غمامة بعشرة آلاف صوت . يا أيوب أنى لك ذلك ؛ أى من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا ووضعته على رأسه وقال : منك يارب منك يارب ، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس : ما منكم من أحد ينجي عمله ، قالوا : ولأنك يا رسول الله ؟ قال : ولأننا إلا أن يتفدني الله برحمته ^(٢) ، ولقد كان أصحابه من بعده يمتنون أن يكونوا ترابا وتينا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لدى بصيرة أن يعجب بعمله أويذل به ولا يخاف على نفسه ؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب . ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه التعممة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والناساق وقد سلخوا نعمة الإيمان والطاعة بنير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبال أن يجرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبال أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتد وطمع قد فسق وختم له بسوء ! وهذا لا يلقى منه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتشكر - كما ذكرناه - وقد يعجب بما لا يتشكر به كعجبه بالرائى الخطأ الذى يرين له لجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

(الأول) أن يعجب بيده في جماله وهيئته ومجته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجملة تفصيل خلقته ، فيلتمس إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو برمضة الزوال في كل حال ، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكير في أقذار باطله وفي أوّل امره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأتلفت في القبور حتى استفترتها الطلياع .

(الثانى) البطش والقوة كما حكى عن قوم ما حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وكما ائتمل عروج على قوته وأعجب بها فأتطلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فغلب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر همدد ضعيف المتأخر حتى صارت في عنقه ، وقد يشكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ! ولم يقل إن شاء الله تعالى ، لحرم ما أراد من الولد ^(٣) وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليت صبرت . وكان إعجابا به بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر . ويررت العجب بالقوة المجهوم في الحروب والقائه النفس في الهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حتى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أصعب بها وربما سلّحها الله تعالى بأذى آفة يسلبها عليه .

(١) حديث : قولهم يوم حين لأنقلب اليوم من قلة . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسل : أن رجلا قال يوم حين لأنقلب اليوم من قلة فغنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبذل الله عز وجل ﴿ ويوم حين إذا جمعتم كركمكم ﴾ ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس : لما اتفقا يوم حين أجمعتم كركمكم فقالوا : اليوم نقال ؟ ففروا . فيه القرح بن نقالة من الجمهور (٢) حديث « ما منكم من أحد ينجي عمله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث : قال سليمان : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ... الحديث « أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لتناقض الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وشره الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل السلم لإعراضا عنهم بالاستثناء بالرأى والعقل واستخارارهم وإهانة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأذى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويحين بحيث يضل منه ! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يتم بشكره ، وليست قصر عقله وعله ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا وإن اتسع عليه ، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ وأن يتم عقله وينظر إلى الحق كيف يحبون بقولهم ويضلل الناس منهم ؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري . فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لئلا يفتخر ، ومن أعدائه لئلا يصدق ، فإن من يداهنه ينثى عليه فيزيده عجا وهو لا يظن بنفسه إلا الخبير ولا يظن لجهل نفسه فيزداد عجا .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية ، حتى يظن بعضهم أنه ينجر بشرف نسبه ونجاة آباءه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعاله وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اتقى آباءه لما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستظام الخلق وذمة النفس ، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والحاصل الحيدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساوم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ أى لانفوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ، ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل : من ينتمى إلى نسي ولكن قال « أكرمهم أكثرهم للرب ذكرًا وأشدهم له استمدا »^(١) ، ولما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة : فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وعلاء بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فقال تعالى ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » أى كبرها — كلكم بنو آدم وأدم من تراب^(٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « يامعشر قريش لاتأق الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد ها أقول هكذا — أى أعرض عنكم —^(٣) » فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَخْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يا قاطبة بنت محمد ياسفة بنت عبد المطلب حمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعلم أن نفسك فاني لا أخفى عنك من الله شيئا^(٤) » ، فن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر حموه وقد كان من عادة آباءه التواضع اقتدى بهم في التقوى

- (١) حديث : لما قيل له : من أكرم الناس من أكيس الناس ؟ قال « أكرمهم للرب ذكرًا .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر قوله « وأكرم الناس » وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت أكثر الكتاب .
(٢) حديث « لن الله قد أذهب عنكم عيبية الجاهلية ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وسنن حديث ابن هريرة ورواه الترمذي أيضا من حديث ابن عمر قال غريب .
(٣) حديث « يامعشر قريش لاتأق الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث همران بن حصين إلا أنه قال : يامعشر بني هاشم وسننه ضيف . (٤) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَخْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال « يا قاطبة بنت محمد ياسفة بنت عبد المطلب .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه سلم من حديث عائشة .

والتواضع ، وإلا كان طاعنا في نسب نفسه - بلسان حاله - مهما اتقى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والحرف والإشفاق .

فلن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم بد قوله لفاطمة وصفية « إني لأخفى عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رجاءا سألها بيلالا^(١) » . وقد عليه الصلاة والسلام « أترجو سليم شفاعةي ولا يرجوها بنو عبد المطلب^(٢) » ، فذلك يدل على أنه سيخصص قراته بالشفاعة ؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتق الله أن يغضب عليه ، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب الموت فلا يؤذن في الشفاعة له ، ولما يمتنع عنه بسبب الغفاعة ، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيها اشتد عليه غضب الملك ، فمن الذنوب مالا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ويقول (من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه) ويقول (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ويقول (فأتضعفهم شفاعة الضاعفين) وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلى مالا يشفع فيه وجب الحرف والإشفاق لعمالة ، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة . فالإنهالك في الذنوب وترك التقوى انكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهالك المريض في شهراته اعتيادا على طيب حاذق قريب مشفق من اب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعى الطبيب ومعه وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتيادا على مجرد الطب ، بل الطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال الزواج . فهكذا ينبغي أن تفهم غاية الشفاعة من الأتقياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا ، وذلك لا يزال الحرف والحذر ، وكيف يزيل وغير الحق يمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يمتنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمام بالجنة عامة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلموا عليه ولم يفارق الحرف والخضوع قلوبهم ؟ فكيف يسحب بنفسه ويشكل على الشفاعة من ليس له مثل محبتهم وما يقتضيه ؟

(الخامس) العجب بنسب السلاطين الظلة وأعرانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في غناهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم المقفوتون عند الله تعالى ، ولو نظر إلى صوره في الآثار وأتانه وأقذارهم لاستكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولا تنكر على من نسب إليهم استنذارا واستخار لهم ، ولو انكسفت له ذلم في القيامة وقد تعلق الحملاء بهم وللأمة أخذون بنواصيرهم يجرؤنهم على وجوعهم إلى جحيم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ، ولكن انقسابه إلى الكلب والحذير أحب إليه من الانتساب إليهم ، حتى أولاد الظلة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لأبائهم إن كانوا مسلمين ! فأما العجب لجهل بعض .

(١) حديث : قوله بد قوله المتمدن لفاطمة وصفية « ألا إن لك رجاءا سألها بيلالا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « غير أن لكم رجاءا سألها بيلالا » (٢) حديث « أترجو سليم شفاعةي ولا يرجوها بنو عبد المطلب » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أمير بن جوشب بن إسحاق بن واسل وكلاما ضيف جدا .

(السادس) العجب بكرة العدد من الأولاد والخدم والعتان والمشيئة والآقارب والأناصير والاتباع كما قال الكفار (نحن أكثر أموالا وأولادا) وكما قال المؤمنون يوم حنين : لا تغلب اليوم من قلة ، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفه وأن كلهم عبيد عجزه لا يمكنون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . (كم من قلة قليلة غلبت فئة كثيرة إذ أن الله) ثم كيف يعجب بهم وأهم سيفتقرون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حم ولا عشير ، فيسلوته إلى البلى والحيات والقنابر والدينان ولا ينتنون عنه شيئا وفي أحوج أوقاته إليهم ، وكذلك يبرون منه يوم القيامة (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبليته) الآية . فأى خير فيمن يفارقه في أشد أحواله ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عليك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تتسكل على من لا ينفعك ، وتنفى لهم من يملك نفعك وحرك وموتك وحياتك .

(السابع) العجب بالمال كما قال تعالى إنيبارا عن صاحب الجنين إذ قال (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانتفض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام : أخشيت أن يبدو إليك فقره ^(١) ، وذلك العجب بالثنى ، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غواثه ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى اللال غاد ورائع ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : بيننا رجل يتبخر في حله قد أعجبت نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهر يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ^(٢) ، وأشار به إلى عقوبة إغياه بماله ونفسه . وقال أبو ذر : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال له : يا أبا ذر ارفع رأسك ، فرفت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياذم قال : ارفع رأسك ، فرفت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلفة فقال له : يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ^(٣) ، وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشراف الفقراء عند الله تعالى ، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يغلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضع في حقه ، ومن لا يفعل ذلك قصيره إلى الخزي والبور فكيف يعجب بماله ؟

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى (أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا) وقال تعالى (وهم يحسبون أنهم يمضون حسنا) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ذلك يناب على آخر هذه الأمة ^(١) ، وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افرقت فرقا فكل معجب برأيه (وكل حزب بما لديهم فرحون) وجميع أهل البدع والضلال إنما أصرروا عليها لمعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بنفسه ولو عرفه لتركه ، ولا يبالغ البناء الذي لا يعرف والمجهل داء لا يعرف تقصير مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين الجاهل جهله ويزيله

- (١) حديث : رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانتفض عنه ... الحديث . رواه أحمد في الزهد .
(٢) حديث : بينا رجل في حله قد أعجبت نفسه ... الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .
(٣) حديث أبي ذر : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال له : يا أبا ذر ارفع رأسك ، فرفت رأسي ... الحديث . وفيه : هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا « أخرجه ابن حبان في صحيحه .
(٤) حديث « أنا يناب على آخر هذه الأمة الإيجاب بالرأى » هو حديث أبي نبله المتقدم « فإذا رأيت هذا سلطانا وهو متبنا واعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن بغامة نفسك » وهو عند أبي داود والترمذي .
(٤٨) — إسماء : علوم الدين — (٢)

عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهه فإيه لا يصنى إلى المآل ويهتمه ، قد تسلط الله عليه بيلة تهلك وهو ينظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطالب الحرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متبها لرأيه أبدا لا يفتقر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمير في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومداورة العلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الناطق في بعض الأمور ، والصواب لمن لم يفتزع لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصنى إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بحملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتفتير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصديقا ويشتمل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن عاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد ملك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك بما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فسال الله تعالى العصمة من الضلال ونعموه به من الاضطرار بخيالات الجهال .

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يده مفاليد الأمور ، وقدرته مفاتيح الخيرات والشعور ، غرغ أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطبات الغرور ، والصلاة على محمد غرغ الخلاق من الديجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تهرم الحياة الدنيا ولم يفرم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على عز الدهور ومكر الساعات والشعور .

أما بعد : ففتاح السعادة التيقظ والنفطة ، ومنع الشقاوة الغرور والنفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نعمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا دأى إليها سوى عى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرواب البصائر قلوبهم (كشكة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من نجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يطفى . ولولم تمسه نار نور على نور) والمنغرون قلوبهم (كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه محاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور) فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمنغرون هم الذين أراد الله أن يضلهم لجل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصمد في السماء . والغرور هو الذي لم تنته بصيره ليكون جديا في نفسه كغفلا وثقي في العمى فانغذ الهوى قائدا والشيخان

دليلاً (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سبيلاً) وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مدخله وجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه ، ليحذره المرء بعد معرفته فيتيقن ، فالمرء من المبادئ يعرف مدخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره ويحس على الحزم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف للمغترين من القضاة والملاء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور ، الجلية ظواهرها القبيحة سرائرها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة نفى عن الاحتقاص ، وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف (الصف الأول) من الملاء (الصف الثاني) من المباد (الصف الثالث) من المتصوفة (الصف الرابع) من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ، فمن رأى لشكر معروفا كالأذى يتخذ المسجد ويخرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يبين بين ما يسمى فيه لنفسه وبين ما يسمى فيه لله تعالى كالواظ الذى غرضه التقبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشغل بالنافلة ، ومنهم من يترك الباب ويشغل بالقشر ، كالأذى يكون همه فى الصلاة مقصوراً على تصحيح خارج الحروف إلى غير ذلك من مدخل لا تتسع إلا بتفصيل الفرق وحرب الأمثلة . ولنبداً أولاً بذكر غرور الملاء . ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى (فلا تمنكم الحياة الدنيا ولا يترنم بالله الغرور) وقوله تعالى (ولكم فتنة أنفسكم وتربصت وادبرتهم وغرمتكم الأمانى) الآية . كافى فى ذم الغرور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبذا نوم الأكياس وفطرم كيف يفتنون سحر الحق واجتهادهم ولثقال ذوة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »^(٢) ، وكل ماورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يستند الشيء وبراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعى الغرور : مغروراً فيه خصوصاً ومغروراً به وهو الذى يفره . فهما كأن الجهل للفتنة شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة وخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم غطون فيه ، فأكثر الناس إذ ذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور المعصاة والفساق فزود لها أمثلة لحقيقة الغرور .

كتاب ذم الغرور

(١) حديث « حبذا نوم الأكياس وفطرم ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الفداء بنحوه وفيه اتصال وفى بعض الروايات : أبى الورد ، موضع أبى الفداء ولم أجده معروفاً (٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

(المثال الأول) غرور الكفار ، فهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور ، أما الذين غرهم الحياة الدنيا : فهم الذين قالوا : التقدر خير من النسبة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهي إذن خير فلا بد من إيمانها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات النبايين ولذات الآخرة شك فلا ترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة تنبئ قياس إبليس حيث قال ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون ﴾ وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان ؛ أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله ﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾ وفي قوله عز وجل ﴿ وما عند الله خير ﴾ وقوله ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ وقوله ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لمعاج الغرور ﴾ وقوله ﴿ فلا تفرنكم الحياة الدنيا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوا موصدقه وأمنوا به ولم يطلبوا به البرهان ^(١) ، ومنهم من قال : نفدتلك الله أبنتك الله رسولا ؟ فكان يقول « نعم » فيصدق ^(٢) وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور ، ويؤلف هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور للسب مع أنه لا يدري وجه كونه خيرا . وأما للمعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي لظنه في قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فغروره سبب ، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على لظنه بألفاظ العلماء . فالقياس الذي لظنه الشيطان فيه أصلان (أحدهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح (والآخر) قوله : إن التقدر خير من النسبة ، وهذا على التلخيص فليس الأمر كذلك ، بل إن كان التقدير النسبية في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير ، فإن الكافر المغرور يبدل في تجارتهم دورها ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول التقدر خير من النسبة فلا أتركه ، وإذا حذره الطبيب الفراء ولا تأخذ الإطعمة ترك ذلك في الحال خوفا من ألم المرض في المستقبل ؛ فقد ترك التقدر ورحى بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ويتبعون في الأسفار نقدا لأجل الراحة والريح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، وإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر حشر من جزء من ألف جزء من الآخرة . فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنهات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة ، فإذن قد غلط في قوله : التقدر خير من النسبة ، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغلط به المغرور من خصوص معناه . فإن من قال : التقدر خير من النسبة ، أراد به خيرا من نسيئة هي مثله وإن لم يصرح به .

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو : أن اليقين خير من الشك إذا الآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأول لأن كلا أصليه باطل ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله ، وإلا فالتاجر في تعب على يقين

(١) حديث : تصديق عمر الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالب بالبرهان هو جمهور في السنن ، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم وهي عند أحد من حديث ياروق : حتى بيثا الله إليه من يثرب فأوفوا وصداقه ليخرج الرجل منا فيؤمن به ويقره القرآن فيعطي له الله فيسلمون بإسلامه . . الحديث . وهي عند أحمد بإسناد جيد .

(٢) حديث : قول من قال له نفدتلك الله أبنتك الله رسولا ؟ فيقول « نعم » فيصدق . شفق عليه من حديث أسرى في قصة ضياع ابن حنبل وقوله النبي صلى الله عليه وسلم آفة أرسلت الناس كلهم ؟ فقال « اللهم نعم » وفي آخره : فقال الرجل آمنت بما جئت به وأطعنا من حديث ابن عباس في ضياع قال : نفدتك به أمو أرسلته بما أنزلنا كتبك وأتانا رسلك أن نعبد أن لاله إلا الله وأن نعبث اللات والعزى ؟ قال « نعم » الحديث .

وفى ربه على شكك ، والمتفقه على جهاده على يقين وفى إدراكه رتبة العلم على شكك . والصيد فى ترده فى القمص على يقين وفى الظفر بالصيد على شكك ، وكلنا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ، ولكن التاجر يقول : إن لم أثمر بقيت جائلاً وعظم ضررى ، وإن انجرت كان تعبى قليلاً وربحى كثيراً ؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البتبع الكريه وهو من الشفاء على شكك ومن مرارة الدواء على يقين ، ولكن يقول : ضرر مرارة الدواء قليل بالإحاطة إلى ما أعافه من المرض والموت ، فكذلك من شكك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر فلائل وهو ينتهى العمر بالإحاطة إلى ما يقال من أمر الآخرة ، فإن كان ما نيل فيه كذباً ؛ فما يفوتى إلا التسم أيام حياتى وقد كنت فى المدم من الأزل إلى الآن لا أتمم ، فأحسب أنى بقيت فى المدم . وإن كان ما قيل صدقاً ، فأبقى فى النار أبد الأباد وهذا لا يطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ما قلته حقا فقد تخلص وتخلصنا ، وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكك ؛ وما قال هذا من شك منه فى الآخرة ولكن كالم الملح على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مفروء .

وأما الأصل الثانى من كلامه : وهو أن الآخرة شكك ، فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقين مدركان .

أحدهما : الإيمان والتصديق تخليداً للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل النزور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواءه ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه التبت الفلانى فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية ، بل يثق بقولهم ويحمل به ، ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالنواثر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأخبر منه فضلاً وأعلم منه بالطلب ، بل لا علم له بالطلب ، فيعلم كذبه بقولهم ولا يستدركهم بكذبه ، ولا يفتري عليهم بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معنوفاً مفروءاً ، فكذلك من نظر إلى القزوين بالآخرة والخبيرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدهم غير خلق الله وأعلام رتبة فى البصيرة والمعرفة والمقل ، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتباعهم عليه الخلق على أحنافهم ، وشذ منهم أحد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى الفتن ، فمظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الانحراف بأنهم من أهل النار لمحذوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكأن قول الصبي وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الألباء فكذلك قول هذا التقى الذى استرقت الشهوات لا يشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا التصور من الإيمان كافٍ لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحق على العمل لا محالة والنزور يزول به .

وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء ، ولا تظن أن معرفة الله عليه السلام لأمر الآخرة ولا مود الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالصباح منه ، كما أن معرفتك تقليد لنبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما تختلف للقلد فقط ومهايات القول التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون بمعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها فتشاهدونها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لاهن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل اللهى ؛ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات

بل الملائكة الملائكة عالم الأمور وعالم الحق ، وهما خلقوا الأمر ، والأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق إذا الخلق عبارة عن التقدير في وضع الشأن ، وكل موجود مذكور عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة في ذكره لاستمرار أكثر الخلق بسببه كسر التقدير الذي منع من إنشائه . فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف وبه ، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وضرته ، وأنه في العالم الجسدي غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمصيبة وهي التي حلتها من الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فلما في جوار الرب تعالى ، وأنه أمر رباني وحقيقته إلى جواب الرب تعالى له طبعي ذاتي ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فيبقى عند ذلك نفسه وربه . ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم المفلتون) أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومقتضى استحقاقهم . يقال : فسدت الرتبة عن كاملها ؛ إذا خرجت عن مذهبها الفطري . وهذه إشارة إلى أسرارها لا يستشاق روايتها البارفون وتقدم من معاج ألقاها القاصرون فلما تعرض لهم كما تضر رباح الورد بالجل ، وبهر أعينهم الضميمة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا ، وهي مبادئ مقامات الأنبياء . وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء . ولترجع إلى الفرض المطلوب فالقصد أن غرور الشيطان بأن الآخرة شله يدفع إما بيقين تقليدي ، وأما بصورة ومشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنين بألسنتهم وبمقارنهم إذا ضيقوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولا بسوا الضمير والمصاحف فهم مشاركون الكفار في هذا الفرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يصممهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بدحين ، ولكنهم أيضا من الفرورين لأنهم اغترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، وبجرد الإيمان لا يكفي الفوز قال تعالى (وإن لنفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقال تعالى (إن رحمتنا قريب من المحسنين) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ^(١) ، وقال تعالى (والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فورد للفرور في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده ، فهؤلاء أيضا مفرورون أحن المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها للفرورين بضمها المحين لها . الكارهين للوئ خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الفرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا .

ولنذكر الفرور بالله مثالين من غرور الكافرين والمؤمنين . فأما غرور الكفار بالله : فأنه قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم : إنه لو كان له من معاد فمن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال (وما أظن الساعة تأتيه ولن رددت إلى ربي لأجدهن خيرا منها متفليا) وجملة أمرهما تقتل في التفسير : أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار ، وفي ذلك كله بطن المؤمن ويقول : اشتريت قصرا بئى واشترى بستانا بألف دينار ولا اشتريت قصرا في الجنة لأينى ، واشتريت بستانا بخرب وبئى ألا اشتريت بستانا في الجنة لأينى وخدما لأينون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت ، وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ما هناك شيء وما

(١) حديث « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث ابن عمر وفيه عدم .

قيل من ذلك فهو أكاذيب ! وإن كان فليكون لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص
ابن وائل إذ يقول (لاولين مالا وولنا) فقال الله تعالى ردا عليه (أطلع الشيب أم اتخذ عند الرحمن عدا
كلا) وروى عن خباب بن الارت أنه قال : كان لي على العاص بن وائل دين لثمت أمتاعاه فلم يقض لي فقلت :
إني أخذه في الآخرة ؛ فقال لي : إذا حرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولنا أفضلك منه . فأول الله تعالى قوله
(أرايت الذي كفر بآياتنا وقال لاولين مالا وولنا ^(١)) وقال الله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء
منه ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده الحسن) وهذا كله من الغرور باه .

وسببه قياس من أقيسه لإيلس لعمد باه منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون
عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى (ويقولون
في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) فقال تعالى جوابا لقولهم (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) ومرة
ينظرون إلى المؤمنين ؛ وهم فراء شعث غير فيددون بهم ويستحقرونهم ، فيقولون (أهؤلاء من الله عليهم من
يبتنا) ويقولون (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) وترتيب القياس الذي لفظه في قلوبهم أنهم يقولون : قد أحسن
الله إلينا بنعم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا في المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والمحب إذ يقول : لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما
أحسن إلى . والتليس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لايل تحت ظنه أن إفضاءه عليه في الدنيا إحسان ، فقد اغترباه
إذ ظن أنه كريم عنده دليل لايدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على المهران . ومثاله : أن يكون للرجل
عبدان صنفان يفيض أحدهما ويحب الآخر ، فأولى يحبه يمنه من الحب ويلزمه المكتسب ويحببه فيه ليله الأدب ،
ويمنه من الفواكه وملاذ الأطلعة التي تضره ، ويسقيه الأدوية التي تنفضه . والذي يفيضه يمله ليعيش كيف يريد
فيلعب ولايدخل المكتب ويأكل كل مايشتهى ، فيظن هذا العبد الممل أن عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من
شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنه ولم يصبر عليه ، وذلك بعض الغرور ، وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها
فإنها مهلكات ومبيدات من الله ، فإن الله يحصى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحدكم مريضه من الطعام والشراب
وهو يحبه ^(٢) ، هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر .

وكان أبواب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزونا وقالوا : ذنب مجلت عقوبته وأروا ذلك علامة للفت
والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشمار الصالحين . وللغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة
من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمته
ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أمان) فأجاب الله عن ذلك (كلا)
أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء لعمد باه من شر البلاء ولسأل الله التثبيت ، فيئن أن ذلك غرور . قال الحسن
كذبهما جميعا بقوله (كلا) يقول ليس هذا لي كراي ولا هذا هوان ، ولكن الكرم من أكرمت بطاعتي غنيا كان
أو فقيرا ، والمهان من أمت بصي غنيا كان أو فقيرا .

(١) حديث : خباب بن الارت ، قال كان لي على العاص بن وائل دين لثمت أمتاعاه . الحديث . في نزوله تعالى (أرايت
الذي كفر بآياتنا) الآية أخرجه البخاري ومسلم (٢) حديث : أن القيس ميمه من الدنيا وهو يحبه ... الحديث . أخرجه
الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث لقادة بن الصالح .

وهذا النور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوأن إما بالبصيرة أو بالتقليد (أما البصيرة) فإن يعرف وجه كون الانتفات إلى شواهد الدنيا مبدع عن الله ووجه كون التباعد عنها مقرباً إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام في منازل المارفين والأولياء، وشرحه من جملة علوم للكاشفة ولا يليق بعم العامة (وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى (أصبون أن ما نخدم به من مال وبين نأرح لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وقال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال تعالى (قتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وفي تفسير قوله تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أنهم كلما أخذوا ذنباً أخذناهم نعمة ليؤدب غرورهم وقال تعالى (إنما نخل لهم ليردادوا وإنما) وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) إلى غير ذلك ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فمن آمن به تخلس من هذا النور فلن مضاً هذا النور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يفت بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم كدمير! فقال تعالى (هل تحس منهم من أحد) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراج فقال (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وقال تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقال عروجل (ومكروا ومكر الله والله خير للماكرين) وقال تعالى (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فهل الكافرين أمهلهم وريداً) فكان لا يجوز لعبد المهيمل أن يستدل بإعمال السيد إياه وتمكيته من التمس على حب السيد، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرًا منه وكيداً مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه، فإن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره واستدراج أوله، فإذن من آمن مكر الله فهو مكر، ومضاً هذا النور أنه استدل بنعم الدنيا بل أنه كرم عند ذلك المنعم، واحتل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يرافقه وهو التصديق بدلائله على الكرامة وهذا هو حد النور.

(المثال الثاني) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، وانكاهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تنبهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن لمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عيم، وأن مصاصي السباد في بحر رحمته وإنا موحدون ومؤمنون؟ فترجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبهم، كأغترار العلوية بنسبهم وغالفسيرة آباؤهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم على الله من آباؤهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا عاتفين، وهم مع غاية الفسق والفسور آمنون. وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى. فقياس الشيطان للعلوية. أن من أحب أنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيجبكم فلا محتاجون إلى الطاعة، وفي نفس المفرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستمعب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من الفرقين (فقال رب إن ابنى من أهلك) فقال تعالى (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لآبيه فلم ينفعه. وأن نيناصاً عليه وسلم وصل كل عبد مصطفي استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار، جلس يكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله (١) فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله

(١) حديث: أنه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له الاستغفار. الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

تمال يحب للطيع ويغضب العاصي ، فمكا أنه لا يغضب الأب الطيع بنفسه الولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب الطيع ، ولولا كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا بل الحق أن لا زور وأزرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروي بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل إلى الكسبة ويراهم بمش أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يحصى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس ، وعند الله جزاء التقوى (يوم يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه) إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له - كما سبق في كتاب الكبر والسجب .

فإن قلت : فأين القلظ في قول العصاة والتجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته ، وقد قال أنا عند ظن عدي في فليظن في خيرا ، فإ هذا الكلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب ؟ فاعلم أن الشيطان لا ينوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما انتفعت به القلوب ، ولكن التي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والاعمى من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) ، وهذا هو الحق على الله تعالى الله تعالى غير الشيطان اسمه فسياء : رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) يبنى أن الرجاء بهم البقي وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وقال تعالى (وإنما نؤتيهم أجوركم يوم القيامة) أفترى أن من استوجر على إصلاح أدوار وشرط له أجره عليها وكان الشارط كريما يني بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويوعظ أن المستاجر كريم ، أفترى العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا أورا جيا ؟ وهذا الجهل بالفرق بين الرجاء والتوكل . قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيقون العمل فقال : هيات هيات ! تلك أمانيتهم يرجعون فيها ، من رجاء شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سمعت البارحة حتى سقطت ثيبي ! فقال له رجل : إن النرجواه ! فقال مسلم : هيات هيات ؟ من رجاء شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وكان الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو بعد لم يتكبح أو تكبح ولم يجمع أو جامع ولم ينزل ! فهو معتوه فكذلك من رجاء رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك للعاصي فهو مغرور . فمكا أنه إذا تكبح ووطى وأزول بقي مترددا في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبني مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يؤمن عليه وأن يخلف له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبتته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ، ويحرس قلبه عن الليل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى للعاصي فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله (وسوف يعلمون حين يرون المذاب من أضل سبيل - وتلتعن بناء بعد حين) وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحا إنا موقنون) أي علينا أنه كما لا يولد إلا بوقوع ونكاح ولا ينجب زرع إلا بجماعة ويك بذر ، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا لنعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى - كلما أتى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير) أي أن سمعتم كسنة الله في عبادته (توفي

كل نفس ما كسبت) وأن (كل نفس بما كسبت رهينة) فما الذي غرّم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ (قالوا) لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فأقول أنه محمود في موضعين :

أحدهما : في حق العاصي المنهك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى (فيجب عند هذا أن يقطع القنوط بالرجاء ويتذكر (إن الله يغفر الذنوب جميعا) وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفُسهم لا تفسدوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) واننيوا إلى ربكم) أمرهم بالإنيابة وقال تعالى (وإنى انغار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) فلذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق غطر له أن يسمى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إن الله لا تدرك الجمعة فأقم على موضعه فكذب الشيطان ومر يمدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يبرها فهو مغرور .

الثاني : أن تفر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعم الله تعالى وما وعده الصالحين حتى يلبس من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى (قد أطلع المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون) إلى قوله (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) فالرجاء الأول : يقطع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثاني : يقطع القنوط المانع من النشاط والتشمر ، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة ، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك وإنياء نفسك وتمذهبا ولك رب كريم غفور رحيم ؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم غفار في الكفار في النار أبدا لا يباد ، مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلب العذاب والمحن والأمراض والمعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها ، فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغفره ؟ .

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يثبتان الناس على العمل ، فما لا يثبت على العمل فهو تيم وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إغراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للأخرة ، فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن التورر سيتلب على قلوب آخر هذه الأمة ^(١) وقد كان ما وعده صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس في الأعصار الأول يراغبون على العبادات ويؤثرون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى بهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشهوات والشبهات ويكون على أنفسهم في الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمتين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المصاعب وانهما كهم في الدنيا وإغراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واتقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون

(١) حديث « لن التورر يتلب على آخر هذه الأمة » تقدم في آخر ذم السكر والحب وهو حديث أمي ثلبة . في إيجاب كل ذي رأى برأيه .

لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه عالم يعرفه الأنبياء والصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالتي وبالخبري فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الحروف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار : يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبل مني ، وإن أساء قال : يتغفر لي ^(١) ، فأخبر أنهم يضرعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخريفات القرآن وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى (تخلف من بعدهم خلف وروا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) ومعناه أنهم (وروا الكتاب) أي هم علماء (يأخذون عرض هذا الأدنى) أي شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا . وقد قال تعالى (ولن عاف مقام ربه جنتان - ذلك لمن خاف مقامي وعاف وصدح) والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف ، لا يتفكر فيه متفكر إلا يسلط حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه . وترى الناس يهذونه هذا ، يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها وارتفاعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب لاجتماع الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه ، وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أشعة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والقرور ، ويقرب منه غرور طوائف لم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون للمغفرة ويظنون أنهم ترجع كافة حسناتهم مع أن ما في كافة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضغاثه ، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين وهو يتكلم عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصديق بمشرقة من الحرام أو الحلال ، وما هو إلا كن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله . نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لاجتساب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالتي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يقتاب المسلمين ويترق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سبخته أنها تستغفر الله مائة مرة وغفل عن هدياته طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكابيون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) فهذا أبدا يتأمل في فضائل التسميحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبات لمتأين والكاذبين والناسمين والمتافقين ، يظهرون من الكلام مالا يضرهم ولا يفيدهم إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور . ولعمري لو كان الكرام الكابيون يطلبون منه أجره النسخ لما يكتبونه من هدياته الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في قراءته كان يهدمه ويحسيه ويرأضه بتسميحاته ، حتى لا يفضل عليه أجره نسجه ! فيا عجبا لمن يجاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط بفوته في الأجره على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونسيه ! ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها ! لقد دفننا إلى أمر إن شككتنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحق المبرورين ! فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وإنما نرى إلى الله أن تكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التلبه واليقين مع هذا البيان ،

(١) حديث : معقل بن يسار « يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال الحديث » أخرجه أبو منصور الهيثمي في مستند الفردوس من حديث ابن جهمي نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل .

وما أجدر من يبتدر على تسليط مثل هذه المغلة والغرور على القلوب أن ينشئ ويتق ولا يبتدر به انكالا على باطلين الحق وتماثيل الشيطان والهووى ، والله أعلم .

بيان أصناف الغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمعترون منهم فرق :

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأعملوا وفقها الجوارح وحفظوا عن المعاصي وإلزامها الطاعات ، واغترروا بعلومهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يذب الله عنهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، نالهم لو فظروا وبين البصيرة علوا أن العلم علان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة ؛ وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة : علم المعرفة . فأما العلم بالمعاملة : كعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والقرار منها ، فهي علوم لا تزد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل . فقال هذا : كريض به حلة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسمى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تمتلئ ، وسله كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وجمعه ، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشغل بشرها واستمالها ، أقرى أن ذلك ينفي عنه من مرجه شيئا ؟ هيات هيات ! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم ينته ذلك من مرجه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه كما تعلم ويشره ويصبر على مرارته ، ويكون شره في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه ، وإذ أفلس جميع ذلك فهو على خطر من شفاؤه فكيف إذا لم يشره أصلا ؟ فهما ظن أن ذلك بكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره . وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور ، إذ قال تعالى (قد أفلس من زكاهم) ولم يقل قد أفلس من تعلم كيفية تركيبتها وكتب علم ذلك وعلم الناس ! وعند هذا يقول له الشيطان : لا يفر لك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنما مطلبك القرب من الله وقوابه والمطلب الثواب ، ويتولى عليه الأخبار الواردة في فضل العلم . فإن كان المسكين مستواه مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأعمل العمل ، وإن كان كيسا فيقول للشيطان : أنذركني فضائل العالم وتنسفي ما ورد في العالم التاجر الذي لا يعمل ببله كقولته تعالى (فله كثر السكب) وكقولته تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) فأى خزي أعظم من التمثيل بالسكب والحمار ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا »^(١) وقال أيضا « يلقى العالم في النار فتندلق أكتابه فيندور بها في النار كما يدور الحمار في الرعي »^(٢) ، وكقولته عليه الصلاة والسلام « شر الناس العلماء السوء »^(٣) ، وقول أبي الدرداء : ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات ، أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له : ماذا عملت فيها علمت وكيف قضيت شكر الله ؟

(١) حديث « من ازداد علما ولم يزد هدى ... الحديث » تقدم في العلم (٢) حديث « يلقى العالم في النار فتندلق أكتابه ... الحديث » تقدم في معرفة (٣) حديث « شر الناس علماء السوء » تقدم في العلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « أخذ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ^(١) ، فهذا وأمثاله ما أورثناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر ، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قبله إلى ما يهواه وذلك عين الغرور ، فإنه إن نظر بالبصيرة فثابه ما ذكرناه ، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بدم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال . فبعد ذلك اعتقاده أنه خير على من تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذي يدعى علوم المكاشفة : كالم علم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يحمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده وفروقه أشد ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته وجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما ينضرب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما ينضرب به عليه ، وطايل عن جميع ما يحبه من زينة وكلام وحركة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطفاً بجميع ما يكرهه الملك ، طاعلاً عن جميع ما يحبه ، متوسلاً إليه بمعرفة له وللبس واسمه وبهده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمان ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جداً إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قرب به والاختصاص به ، بل قصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأساس دون الماني ، إذ لو عرف الله حق معرفته لحشيه واتفاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد قائل لم لا يتقيه ولا يخافه ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفي كما تخاف السبع الضاري . نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ماعرف الأسد ، فن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك الصالحين ولا يبالي ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلاماً مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وفاقحة الزبور « رأس الحكمة خشية الله » وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً وكنى بالاعتزاز بالله جهلاً . واستغنى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال : وهل رأيت فقهاً قط ؟ الفقيه القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله . فإن قيلت منه حمد الله وإلزام ردت عليه حمد الله . فإذا الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ﴿ ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ﴾ وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

(وفرقة أخرى) أحكروا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا اللماضي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليحوا الصفات اللدومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاء والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحيز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم « أدنى الرياء شرك ^(٢) » وإلى قوله عليه السلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ^(٣) » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ^(٤) » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « حب للشرف والمال ينبتان التفاسق كما ينبت الماء البقل ^(٥) » إلى

(١) حديث « أخذ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه » تقدم في . (٢) حديث « أدنى الرياء شرك » تقدم في ذم الجاه والرياء . (٣) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم في ذم الرياء . (٤) حديث « الحسد يأكل الحسنات ... الحديث » تقدم في العلم وغيره . (٥) حديث « حب للعرف والمال ينبتان التفاسق كما ينبت الماء البقل ... الحديث » تقدم

غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربيع الهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهلوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(١) ، فتمهدوا الأعمال وما تمهدوا القلوب - والقلب هو الأصل - إذ لا ينجز إلا من أتى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كثير الحش ظاهراً ما جس وباطنها تن ، أو كقبور الموتى ظاهراً ما من وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستثار ظاهره وباطنه مظلم ، بل أقرب مثال إليه : رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتقنية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يحرق رموسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فقتبت ، لأن مفارص المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب ، فمن لا يظهر القلب منها لاتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمرض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فاطلاء ليزيل ماعلى ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فتنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقي يتناول ما يزد في المادة ، فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن .

(وفرة أخرى) علوا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لمعجب بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يتلهم بذلك ، وإنما يتل به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأما ما فاعظم عند الله من أن يتلهم ، ثم إذا ظهر عليهم غايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا : ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ! وإلى لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لثمت في أعناء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذلك ذلاً على الإسلام ونسب المفرور أن عدوه الذي حذره منه هؤلاء هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، ونسب أن النبي صلى الله عليه وسلم بساذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسب ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقتاحة بالفقر والمسكة ، حتى عوب عمر رضى الله عنه في بذاعة زبه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أحرنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره . ثم هذا المفرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبق والإبريسم - المحوم - والحجول والمراكب ويهم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين ! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحدس في أقواله أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حدس ولكن قال : إنما هذا غضب للحق . زود على المجل في عدوانه وظلّه ، ولم يظن بنفسه الحدس ، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أوقع غيره من رياسة وزوسم فيها هل كان غضبه وعداؤه مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لا ينضب مهما طعن في عالم آخر ومنع ؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقاربه من حيث باطنه ، وهكذا يرائي بأعماله وعلمه وإذا خطر له خاطر الرياء قال : هيأت ! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق لي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المفرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لمرح يصلحهم على يد من كان - كمن له عيب مرضى يريد معالجته فأنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يظنه الشيطان أيضاً ويقول : إنما ذلك لأنهم إذا امتدوا في كان الأجرب لي والواب لي فلأنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولي ! هذا ما يظنه

بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في المحرور وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار ، وحبس مع ذلك في يمن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، وكذلك يدخل على السلطان ويتردد إليه ويؤتى عليه ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلطين الظلمة حرام قال له الشيطان : هيات ! إنما ذلك عند الطمع في ما لم تأمأ أنت ففرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك ! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضر عن جميع المسلمين فقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالظن فيه والكذب عليه لفعل . وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من ما لهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان : هذا مال لا مال لك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وطالمهم وبلك قوام الدين ! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ .

فيفتقر بهذا التليس في ثلاثة أمور (أحدها) في أنه مال لا مال له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أسياء وأولادهم وورثتهم أسياء ، وغاية الأمر وقوع الخلف في أموالهم ، ومن غضب مائة دينار من عشرة أنفس وعاطلها فلا خلاف في أنه مال حرام ، ولا يقال هو مال لا مال له ، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة ، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر (الثاني والثالث) في قوله إنك من مصالح المسلمين وبلك قوام الدين ؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلطين وريغوا في طلب الدنيا والإقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة يسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوا وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين . إذ الإمام : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصالحين وعلماء السلف . والدجال : هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا . فلهل موت هذا انتفع للمسلمين من حياته وهو يرغمهم أعوام الدين . ومثله كآل المسيح عليه السلام للعالم السوء : إنه كمصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع . وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيها ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

(وفرقة أخرى) أحكوا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب الملو ، وجاهدوا أنفسهم في التبرى منها وقفلوا من القلوب منابتها الجليلة القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا ما كابد الشيطان وخبايا خداع النفس مائق وغش مندركة فلم يفتنوا لها وأصموا ، وإنما مثاله من يريد تقيّة الزرع من الحشيش ، فدار عليه وقش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بمد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شرب لطف فأنهبطت تحت القرب فأهمها وهو يظن أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها في غفلة وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفتد للباطن قراء يسر له ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أنّ باعته الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته . ولعل باعته الحق هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وإطلاق الألسنة عليه

بالتناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له في المهمات وإثارة في الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة والتلاذذ بحسن الإحصاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحرك الرؤوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتمسك به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقلبين على الدنيا ، لاعتناء بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتيقن واعتداد بالتخصيص . ولعل هذا المسكين المفلت من حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإدارة وعز وإقياذ وتوقير وحسن تمام ، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فساء ينتوس عليه قلبه وتحتلأ أوراده وظائفه . وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه . وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره ، وينبو قلبه عن عرف حد فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقديمه في الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأبغ لمراعاة وأكثر تلاءم عليه وأشد إحصاء إليه وأحرص على خدمته . ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق عليه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تجميع النية فيه . وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إثارة الخول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقدته في العزلة ولا خفاء لفدته القبول وعزة الرئاسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع من فيجهل وقمع في حيايل . وعساه يصنف ويجهل فيه ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به وإعمازيه به استطارة اسمه بحسن التصنيف ، فلو ادعى مدح تصنيفه وعما حتمه ونسبه إلى نفسه قتل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ، ولعله في تصنيفه لا يخلو من التناء على نفسه إما . بما بالماوى الطويلة العريضة وإما صمناً بالعلم في غيره ، ليستبين من طمعه في غيره ، أنه أفضل من طمعه فيه وأعظم منه علماً ولقد كان في غيبة عن الطعن فيه ، ولعله يحكى من الكلام المريف ما يزيد تزييفه فيعزبه إلى قائله وما يستحسنه فلمه لا يعزبه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قبصاً فيستخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسميته وتحسين نظمها كيلا ينسب إلى الزكاه ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتسميتها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافلاً عما روى أن بعض الحكماء وضع لثلاثة مصنف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقاً وإنى لأقبل من نفاقك شيئاً . ولعل جماعة من هذا الصنف من المتقين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة من عيوب القلب وخفاياه فلو اختلفوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يبقيه وأه أكثر تباعاً أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الاتباع منه ، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتخاصدوا ولعل من يختلج إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره قتل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فيعد ذلك لاجتراحه لأكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ، ولا يحرص على التناء عليه كما أي مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز من له فته أخرى كان أنفع له في دينه لأقمن الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ، ومع ذلك لا نزول النفرة عن قلبه ، ولعل واحداً منهم إذا تحركت فيه مبادئ المسلم يقدر على إظهاره فيتمثل بالعلم في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ، ويقول إنما غضبت لدين الله لأنفسى . ومهما

ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أتى عليه وبما ساءه وكرهه ، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه . يظهر أنه كاره لنية المسلمين . وسر قلبه راض به ومريد له ، والله مطلع عليه في ذلك . فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفتن له إلا الأكياس ولا يتزده عنه إلا الأقوياء ، ولا مطمح فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك وبكرهه ويحصر على إصلاحه ، فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بميوب نفسه ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المرور للمزكي لنفسه الممتن على الله بعمله وحله الظان أنه من خيار خلقه ، فهوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم .

ولندكر الآن غرور الذين تمعوا من العلوم بما لم يفهم وتركوا المهم وهم بمفقرون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاعتصارهم عليه . فهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات ومخاضيل المعاملات الدينية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسماه الفقه وعلم المذاهب ، وربما ضموا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يغرسوا اللسان عن النية ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ، ولم يغرسوا قلوبهم عن الكبر والحد والرياء وسائر المهلكات . هؤلاء مفرورون من وجهين (أحدهما) من حيث العمل (والآخر) من حيث العلم .

أما العمل : فقد ذكرنا وجه المرور فيه وأن مثالم مثل المريض إذا تعلم نسمة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثالم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك وعتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم أدواء الاستحاضة ويتكرر ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لا يحض ولا يستحاض ، ولكن يقول : ربما تنفع علة الاستحاضة لامرأة وتسلمني عن ذلك ، وذلك غاية الزور . فكذلك المثقفة المسكين قد تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يحفظه الموت قبل التوبة والثلاثي فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار والمان والجراحات والديات والدمائى والبيئات وكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره نفسه ، وإذا احتاج غيره كان في الفتنة كثرة فيشتغل بذلك ويحصر عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال ، وقد دماه الشيطان وما يشمر ، إذ يظن المرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض المين معصية . هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى ، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل .

وأما غروره من حيث العلم : بحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما طعن في المحدثين وقال : إنهم نقله أخبارا ووجه أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويعمل على التقوى ، فقرأه أمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرجعه فإنه قوم دينه ، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعلم الحلال والحرام فقد ترك العلوم التى هي أهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ماسع في الشرع من تنظيم الفقه ولم يدرك أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفته صفاته المحذوفة والمرجوة ليستشعر القلب الحق ويلزم التقوى ، إذ قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا) (٥٠ — ليعلم علوم الدين — ٣)

لإيهم لعلهم يحدرون) والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم : حفظ الأموال بشروط للعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات ، والسالك في طريق الله آفة والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله . فثابه في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الرواية والحج ، ولا شك في أنه لو لم يكن لتعلم الحج ، ولكن يقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله - وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم - ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافات ولم يمه إلا تعلم طريق المجاهدة والإلزام وإلزام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفتد لميوس الأقران والتلفد لأنواع التسيئات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء ومهمهم السفه ، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بحسب الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستخرونه ويسمونه الذوق وكلام الوعاظ ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العريضة التي تجري بين المتصارعين في الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً ، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أدلة الأحكام فيبغضون عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيها . وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعمدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإلزام وإقامة سوق الجدل بها فرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من فرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادة في الآراء والرد على المخالفين وتبصير مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المسائل المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك والحامهم ، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح لإيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أحرف بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يمتد به مذهبهم ولم يتعلم عليهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : حالة وحمة : فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنة ، والحقة هي التي تدعو إلى السنة والفور شامل لجميعهم . أما الضالة : فلعلها عن ضلالها وظننا بنفسها التجارة ، وهم فرق كثيرة يفكر بعضهم بعضاً ، وإنما أتيت من حيث إنها لم تبهم رأياً ولم تحكم أولاً شروط الأدلة ومنهجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة . وأما الفرقة الحق : فإنما اختارها من حيث إنها نلت بالجدل أنه أم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس يؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله

فهذا الظن القاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأما أولئك أنفسهم وقلوبهم حتى عمت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لا تناديه بالغلبة والإلزام ولذة الرئاسة وعن الالتئام إلى الذب عن دين الله تعالى عمت بصيرته فلم يفتت إلى القرن الأول ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد

أدركوا كثيراً من أهل البدع والهموى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للنصومات والمجاهلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته ، وإذا رأوا مصراً على ضلالة مجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إن الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما مثل قوم قط يمد يدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ^(١) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فوق في وجهه حب الزمان ^(٢) - محررة من الغضب - فقال : « لهذا يمتن أبهذا أمرتم أن تعزبوا كتاب الله ببعضه بعضاً افتروا إلى ما أمرتم به فاعلموا وما نهيتهم عنه فاتبعوا ، فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بحث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإلغام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام ، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يرد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والسهة ثم لا يقدر على حوها من قلوبهم ، وما كان يحجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام ، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يفتروا هذا وقالوا لو نجما أهل الأرض وعلكنا لم تنفعنا مجادلتهم ولو نجونا وعلكنا لم يضربنا هلاكهم ، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلتهم فالتنازع لا نضع العمر ولا نصره في ما يفتننا في يوم قفركنا وفانثنا ؟ ولم نخوض فيها لأننا آمن على أنفسنا الخطأ في تفاسيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته مجادله بل يريد التمسك والخصومة تشدداً في بدعته ، فاشتغلت بمخاصمة نفس ومجادلتها ومجادلتها للآخر أول ، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه ؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أنفق نفسي وأنظر من صفاتها ما يرضه الله تعالى وما يحبه لآمنه مما يرضه وأتمسكه بما يحبه .

(وفرة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأعلام رعية من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والفكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونفاثه ، وهم مفرودون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تجرأوا في علم المحبة إلا وهم محبون لله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم عاقلون ، وما قفروا على خفايا عيوب النفس إلا وهم منزهون : ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والهدم وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع التنازل في طريق الله ! فالتسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو المقترب المضمين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساعطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من التسكين على المزم والجماء والملاصبات ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يراني يذكره ليستند فيه أنه لولا أنه مخلص لما اعتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها

(١) حديث « ما مثل قوم يمد يدي كانوا على لا أوتوا الجدل » يمد في العلم وفي آفات السان . (٢) حديث : خرج يوماً على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون ، غضب حتى كأنه فوق في وجهه حب الزمان ... الحديث » تقدم .

فهو يظهر الهدى إلى الله وهو خذ فآز ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن . ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقترب إلى الله وهو منه متباعد ، ويبحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا - لو منع عن مجلسه لآذى يذهب الناس فيه إلى الله لضافت عليه الأرض بما رحبت - ويوعز أن غرضه لإصلاح الخلق ولو ظهر من أفرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ، ولو أتى أحد من المتردين إليه على بعض أفرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهو له أعظم الناس غرة وأبعد من التلبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمخبر عن المذمومة هو العلم بنوازلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشقه حب دعوة الخلق عن العمل به . فيعد ذلك بماذا يعالج وكيف يسيل تخوفه ؟ وإنما يخوف ما يتلو على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف فمن إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله فالذي تركه من محاب نفسه لاجله ؟ ويدعى الخوف فالذي امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد فالذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الانس بالله فبني طاب له الخلة ! متى استوحش من مشاهدة الخلق لا يرى قلبه يمتلئ بالخلاوة إذا أحرق به المردون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ويستوحش منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطلبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموافق من الله غليظ والمفترون يصنعون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون على بطرحون في النار فتندلق أفتابهم فيدور بها أحدم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم بأسرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر وأتونه وإنما وقع الضرر هؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئا ضيقا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله عله وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لانصافهم بها وذبح عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجربان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الانصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين في الانصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف ، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى ؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف للمرض ويصف دواءه بقصاحته ، ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والانصاف به وإنما يفارقهم في الوصف والعلم والطب ، فقلته عند عله بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل ، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الانصاف بمقتضاها . ومن التلبه عليه وصف الحقائق بالانصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الرعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل مناهج وعظم مناهج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم .

(وفرقة أخرى) منهم عدلوا عن المنهج الواجب في الوظ وهم ووطأ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله ، على التدور في بعض أطراف البلاد إن كان ولنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطعامات والطلح وتلفيق كلمات غارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للإغراب . وطائفة شغلوا بطيارات التكث وتجميع الألفاظ وتلفيقها فأكثر منهم بالاجتماع والاستشهاد بأشعار الرمال والفراق ، وغرضهم أن تمكث في مجالسهم الزخات والتراجمد ولو على أغراض فاسدة ، فهو له شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد

أصلحوا غيرهم وصحروا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ويجهلون الحق إلى الغرور بالله بلطف الرباء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا ، لاسيما إذا كان الواظ متزينا بالثياب والحيل والراكب فإنه تشبه هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفد هذا المنور أكثر ما يصلحه بل لا يصلح أصلا ويضل خلفا كثيرا ولا يفتنى وجهه كونه مغرورا .

(وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فيعظم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلوس وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوق والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض ، وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفي . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة المألفة فهمه أحد من يدور في البلاد ويرى الشيوخ يقول : أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعنى من الإسناد ما ليس مع غيره . وغرورهم من وجوه : منها أنهم كلمة الأسفار فإنهم لا يصرفون النية إلى فهم معاني السنة ففهم قاصر وليس معهم إلا التقل ويظنون أن ذلك يكفهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشغلون بتسكير الأسانيد وطلب المال منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك ومنها وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع فإن السماع بمجرد وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلا لإثبات الحديث إذ التفتهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم ، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر . وهؤلاء انقصوا من الجملة كل السماع ثم تركوا حقيقة السماع ، فقرأ الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب ، ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدى لسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يفتنى ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع . فإن تجوزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعه عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصفى لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا أو خطأ غلط .

ولحفظه طريقان (أحدهما) أن تحفظ بالقلب وتسد به بالذكر والتكرار كما تحفظ ساجرى على سماعه في مجارى الأحوال . (والثاني) أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظه للكتاب مملوك وفي خزائنه ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره ، فإذا لم تحفظه لم تنشر بشيء فيكون محفوظا قبله أو بكتابه فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغير والتحريف .

فإذا لم تحفظ بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سماعه صوت غفل وطارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للفسحة التي سمعته لم يجر ذلك أن يقول : سمعت هذا الكتاب ، فإنه لا تسرى لذلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئا يخالف ما فيه ولو في كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ

بقبلتك ولا تفتحه صحيفة استقرت عليها اتقابل بها فن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا تفتق ما ليس لك به علم ﴾ وقول الشيخ كلهم في هذا الزمان إنما سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشمر منه بالتغيير ولو جاز أن يكتب سماع العبي والعاقل والثائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع الجنون والعبي في المهد ، ثم إذا بلغ العبي وأفاق الجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع العبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالعبي الذي لا يلعب والعاقل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ ، وإن استجرأ جاهل فقال : يكتب سماع العبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فانيضع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ، فليقتصر إذا صار شيئا على أن يقول : سمعت بعد بلوغه أي في صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدري ما هو ؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتا غفلا لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهول . ومن أين يأخذ هذا جهل السماع مسند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوجاها فأدأها كما سمعها » ، وكيف يؤدي كاسمع من لا يدري ما سمع فهذا الخش أنواع الفرور . وقد بلى هذا أهل الزمان ولو اختلط أهل الزمان لم يجدوا شيئا مما لا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الفتنة ، إلا أن للحدثين في ذلك جاها وقبولا ، غفلا للمساكين أن يشترطوا ذلك فيقول من يجمع لذلك في حلقهم فيقتصع جاههم ، وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوا بهذا الشرط بل ربما عدمو ذلك واقتضوا ، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري ؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مفرورين في اقتصارهم على النقل وإفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار ، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة وسالك طريقها بما يكتفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا ينهيه »^(١) ، فقام وقال : يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الفرور .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغترروا به وزعموا أنهم قد غلظهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأغنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ، ومثلهم كمن يغنى جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتصحيحها ويرى أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لم أن أنه يكتفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفا كان والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو حقل لعرف أن لغة العرب لكفة الترك والمضيق عمره في معرفة لغة العرب كالضيق له في معرفة لغة الترك والمند ، وإنما فارقتها لغة

(١) حديث « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوجاها » . الحديث « أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأبي (٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا ينهيه » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسن حسلا وقد تقدم .

العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكنى من اللغة علم الفريين في الأحاديث والكتب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التحقق فيه إلى درجات لانتهائى فهو فضول مستغنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور ، بل مثاله مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح عارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى أن يشرب السكجيين ليؤول ما به من الصفراء وضع أوقاته في تحسين التذبح الذى يشرب فيه السكجيين فهو من الجهال المغرورين ، فذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في غلج الحروف مهما تعمقوا فيها ويجردوا لما وعرجوا عليها - أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التى هي فرض عين - فالبالغ الاتصى هو العمل والذى فوّه هو معرفة العمل ، وهو كالتقشر للعمل وكالبالإضافة إلى ما فوّه وما فوّه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية ، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوّه ، وما فوّه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو التقشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقائلون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يصرح عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بمحققة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره في حل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيها عن النوايب والآفات . فهذا هو المقصود المخدم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقصور له ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد غاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متمثلة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم يتألون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان التزود بها أقل من التزود بعلوم الشرع ، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها عمودة كما يشارك التقشر الب في كونه عمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنهى . والثاني عمود الوصول به إلى المقصود الاتصى فن اتخذ التقشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به .

(وقرّة أخرى) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الخيل في دفع الحقوق وأسأموا تأويل الألفاظ المهمة واغتروا بالظواهر وأخطروا فيها . وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتوى عما يكفر . ولكن هذا نوع عم الكافة إلا ألكياس منهم فنفسي إلى أمثلة : فن ذلك قترام بأن المرأة متى أبرأت من الصدق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى ، وذلك خطأ بل الزوج قد يسمى إلى الزوجة بحيث يضيّق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو إرأه لا على طيبة نفس وقد قال تعالى ﴿ فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَمَا تَسْكُونُ ﴾ طيبة النفس غير طيبة القلب ، فقد يريد الإنسان قلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامه قبله ولكن تكرهها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقايله حتى إذا وددت بين ضررين اختارت أمرهما فهذه مصادرة على التحقيق بالإكراه الباطن . نعم القاضى في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدّى القاضى الأكبر في صعيد القيامه القضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مقيدا في تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحمل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطلب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالا على ملا من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يرد أن يكون سواه في خوة حتى لا يعطيه ، ولكن عاف ألم مذمة الناس وعاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما

فاختار أهون الألام وهو ألم التسليم فله ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة لإلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب يذل المال فيختار أهون الألام ، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ، ولا فرق بين حرب الباطن وحرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر ، وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وميت لأنه لا يمكنه الوقوف على مافي القلب ، وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سماعته فهو حرام عليه ، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال - بعد أن غفر له - يارب كيف لي بنفسى ؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر بتدأته في صخرة بيت المقدس ، فسادى : يا أوروبا ، فأجاب : لييك يابى الله أخرجتى من الجنة فإذا تريد ؟ فقال : إني أسأت إليك في أمر فبه لي ، قال : قد فعلت ذلك يابى الله ، فأنصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما علمت ؟ قال : لا ، قال : فارجع فبين له ، فرجع فناداه فقال : لييك يابى الله ، فقال : إني أذنبت إليك ذنبا ، قال : ألم أهب لك ؟ قال : ألا تسألني ما ذكك الذنب ؟ قال : ما هو يابى الله ؟ قال : كنذا وكنذا ، وذكر شأن المرأة فاقطع الجواب ، فقال يا أوروبا ألا تجهينى ؟ قال : يابى الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف مملكين يدى الله ، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستمره منه في الآخرة . فهكذا ينبغي أن الهبة من غير طيبة قلب لا نفيد ، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة ، فكذا طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا دخل الإنسان واختباره ، حتى تبيض الدواشى من ذات نفسه لأن أن تضطر براعة إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتباه ما لها لإسقاط الزكاة ، فالفقيه يقول : سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساحى سقطت عنه فقد صدق فإن مطمع نظرم ظاهر الملك وقد زال ، وإن ظرائفه يسلم في القيامة ويكون كن لم يملك المال ، أو ركن باع حاجته إلى المسح لاعل هذا التقصد فاعظم جهل بفقهاء الدين وسر الزكاة ، فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع ^(١) ، وإنما صار شح مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا . فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه المال وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنيط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والنزور ، ومن ذلك إياحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة ، والفقهاء المفرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات وبين الحاجات ، بل كل مالاتهم وعبوتهم إلا به يروونه حاجة وهو محض الفرور ، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة ، فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ، ولو ذهبتا نصف فرور الفقهاء في أمثال هذا المأثرا فيه مجلدات والفرص من ذلك الفقيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول .

الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل والمفرورون منهم فرق كثيرة ففهم من غروره في الصلاة . ومنهم من غروره في تلاوة القرآن . ومنهم في الحج . ومنهم في الفزو . ومنهم في الوعد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس عاليا عن فرور إلا الأكياس وقليل مام .

(ففهم فرقه) أمهلوا الفراض واشتغلوا بالفصائل والتوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان

والسرف ، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الرضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدّر الاحتالات البعيدة قريبة في التجاسة ، وإذا أُلّا الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توساً عمر رضى الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال التجاسة وكان مع هذا يلح أرباباً من الحلال عفاقة من الوقوع في الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منى عنه ^(١) ، وقد يطول الأمر حتى يضع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء ، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعر الأشياء . فيأله مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سئ ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة في حدم عن الله بمثل ذلك .

(و فرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته ، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد ينيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم ينفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قولهم ، ويعتدون بذلك ويقولون أنهم إذا أنعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

(و فرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من غارجهما فلا يزال احتياط في التشديدات والفرق بين الضاد والطاء وتصحيح غارج الحروف في جميع صلاته ، لاهمه غيره ولا يتفكر فيها سواء ذاهلاً عن معنى القرآن والاتماظ به وصرف البهم إلى أسرارهم . وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق غارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأق في غارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو في ذلك خافل عن مقصود الرسالة وسراعة حرمة المجلس لما أحرأه بأن تمام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

(و فرقة أخرى) اغترروا بقراءة القرآن فيهدونه هنا وربما يحتتموه في اليوم والليل مرة ، ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد في أودية الأمان إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينجز برؤا جره ويتطع بمواظعته ويذف عند أوامره ونواهيها ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة . فهو مغرور يظن أن المقصود من إزال القرآن المهمة به مع النغلة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحظه وحفظه يراد لمناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويعتز باستلذاده ويظن أن ذلك لذته مناجاة الله تعالى وسماح كلامه وإتمام لذته في صوته ،

(١) حديث : النبي صلى الله عليه وسلم في الإسراف في الرضوء . أخرجه الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب « أن هوزوء شيطاناً يخاله الهولان ... الحديث » وهدم في مجاب القلب .

ولو ردد الحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتئاذ ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن لفظه ومعانيه أو بصوته .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن التبيية وسخاوطهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيحمل القرائض ويطلب التمل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والقرائن ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الطلقة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفق على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السعة والرياء فيصهي الله تعالى في كسب الحرام أولاً وفي إنفاقه بالرياء ثانياً فلا هو أخذ من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت قلب ملوث برذائل الأخلاق وذم الصفات لم يقدم تطلهه على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرم بالخير صنف وطلب الرياسة والمزة وإذا باشر منكر أو رد عليه غضب وقال : أنا المختسب فكيف تنكر على ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام يتعهد المسجد غيره لمرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم آخذ حق وزوجت على مرتبي ، وكذلك قد يتقدم إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلم تقدم غيره وإن كان أروع وأعلم منه قتل عليه .

(وفرقة أخرى) جاؤروا بمكة أو المدينة واغثروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهريهم وباطنيهم فقلوبهم مملقة بيلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلانا مجاور بذلك ، وتراه يتحدثى ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة ، وإذا سمع أن ذلك يبيع ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد مجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أهوال الناس وإذا جمع من ذلك شيئاً شبع به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المملكات كان عنياً مجرول ترك المجاورة ، ولكن حب العظمة وأن يقال إنه من المجاورين الزمة المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتنا واعتد عليها فهو مغرور ، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة ، وفي الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب .

(وفرقة أخرى) زهدت في المال وقنعت من البلباس والطعام بالديون ومن المسكن بالمساجد وظننت أنها أدركت رمية الزهاد ، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالملم أو بالوظ أو بمجد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين وباه بأعظم المهلكين ، فإن الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا

(فرقة أخرى) حرصت على التوافق ولم يحظم اعتدائها بالفرائض، ترى أحدهم بفرح بصلاة الفصحى وبصلاة الليل وأمثال هذه التوافقات ولا يجد للفرصة لذة ولا يشتد حصره على المبادأة بها في أول الوقت، ويلبى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه «ما تقرب المتقربون إلى مثل أداء ما افترضت عليهم»^(١) وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور. بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يصيق وقته والآخر يقع وقته. فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ماهرة وإنما النامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم العرائض كلها على التوافقات، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، كتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الآدمي على فروض الأعيان على مادونه، وتقدم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالد على حاجة الولد إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وآله تعالى عليه وسلم فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال «أمك»، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك، قال: ثم من؟ قال: وأذاك فأذكاك^(٢)، فينبغي أن يبدأ بالصلة بالأقرب، فلئن استويا فالأحوج، فلئن استويا فبالاقتى والأودع. وكذلك من لا ينفي ماله بنفقة الوالدین والحج فربا يصح وهو مغرور بل ينبغي أن يقدم حقوقهما على الحج، وهذا من تقدم فرض أم على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العيد معاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاستغفار

(١) حديث « ما تروى عنهم من حديثي لم يزل آدماء ما اقتضت عليهم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ « ما تروى عنهم من حديثي لم يزل آدماء ما اقتضت عليهم » أخرجه الترمذي والمالك ومعه من حديث زيد بن حكيم عن أبي عبد الله . (٢) حديث : من أضر قال « أمك... الحديث » أخرجه الترمذي والمالك ومعه من حديث زيد بن حكيم عن أبي عبد الله .

بالوفاء بالوعد مصيبة وإن كان هو طاعة في نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه التجاسة فينقلب القول على أوبه وأهله بسبب ذلك فالتجاسة محدورة وإلغاؤها محذور ، والمحذور من الإيذاء أم من الحذر من التجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مفرور . وهذا غرور في غاية الغموض لأن الغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يظن بصيرورة الطاعة مصيبة حيث ترك بها طاعة واجبة هي أم منها . ومن جعلته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من يبق عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه . فعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولادة البهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يفتري به مع نفسه ويظن أنه مشغول بهم دية .

الصنف الثالث : المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمعتزون منهم فرق كثيرة .

(فرقة منهم) وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والمنطق ، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زعيمهم وهيتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفي أحوالهم الظاهرة في السباح والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالتفكير وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشائكل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها غنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتبنوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياسة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ، ولو فرغوا من جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية ؟ كيف ولم يحرموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ؟ بل يشككون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على التقير والتقلير ويمزق بعضهم أعراض بعض مها خالفه في شيء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالمهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والابطال من الخاقانين ثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتأقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعته على رأسها مغفرا وتعلبت من رجس الابطال آياتا وتمودت إيراد تلك الآيات بفنائهم حتى تيسرت عليها وتعلبت كيفية تبخرهم في الميدان وكيف تحريكهم الأيدي وتلفقت جميع شئامهم في الزى والمنطق والحركات والسكات ، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت إلى المعسكر أفندت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المنفر والدرع وينظر مائحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عتاتها في الشجاعة ، فلما جردت عن المنفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تليق حل الدرع والمنفر فقيل لها أجبتي للاستزاء بالملك وللإستخفاف بأهل حضرته والتليس عليهم خذوها فالتقىهم فقدم القليل لستخفها فألقيت إلى القيل . فكيفنا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضى الإكبر الذى لا ينظر إلى الزى والموقع بل إلى القلب .

(وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاعة الثياب والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيمهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبا المرقعات النفيسة والفرط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقما ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة

لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت فيهم عثرة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديداً ما قطع القوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتاده ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المخرورين ، فإنهم يتعممون بنفيس الثياب ولذيد الأطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المأصالي الظاهرة فضلاً عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق لإذهلاك من يقتدي بهم ، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول السان في الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم .

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاورة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يردد ما يظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والحدادين وأصناف العلماء بين الإزراء فضلاً عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلزمهم أيا ما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيردد ما كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحق بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنهم أجراء متمبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحدث عن الله محجورون ؛ ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقرين ، وهو عند الله من الضعفاء المتأففين ، وعند أبواب القلوب من الخلق الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه .

(وفرقة أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن علمي فلم أتعب نفسي ؛ وبعضهم يقول : قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كفوا ما لا يمكن ، وإنما يفتربه من لم يهرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال . ولا يعلم إلا الحق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والنفس بل إنما كفوا قلع ما فيها بحيث يتقاد كل واحد منها لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالمجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلته إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا ما كفة في حجرة البرية فنحن مع الشهوات بالطواهر لا بالقلوب ، ويؤمنون إنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأتقياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدم عن طريق الله خطيئة واحدة . حتى كانوا يكونون عليها وينوحون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط وسواوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول .

(وفرقة أخرى) : جازت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلعت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآثارها . ففهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه والله بالله ولله قد تمخيل في الله خيالات هي بدعة أو كثر فيدعي حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مفارقة ما يكره الله عز وجل وعن إثارة هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى . وليس يدري أكل ذلك يناقض

الحب وبعضهم ربما يميل إلى الفتاحة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصح دعوى التوكل ، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنتقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واتفق به ، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربيع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

(و فرقة أخرى) ضيق على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الحاصل وأهلوا بفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدري للسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والماعى . فن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيهِ وينجيه فهو مغرور .

(و فرقة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسباحة فتصدوا الخدمة الصوفية لجمعوا غراما وتكلفوا بمخدمتهم واتخذوا ذلك الرياضة وجمع المال ، وإنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإرتقاء وغرضهم الاستقياح ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والحلويات وينفقون عليهم لشكر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم ، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم ، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويرغم أن غرضه البر والإتقان ، وباصح جميعهم الرياء والسمة ، وآية ذلك إهمالهم بجمع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضام بأخذ الحرام والإتقان منه . ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كن يعمر مساجد الله فيعطينا بالمدة ويدعم أن قصده الممارسة .

(و فرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فأتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفه خدعها علما وحرقة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتنا ، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والاتفات إلى كونه عيبا عيب ، ويشغفون فيه بكتات سلسلة تضعف الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كن اشتغل بالتفتيش عن عرائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يمتيه .

(و فرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدعوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشموا من مبادئ المعرفة راحة تجسروا منها وفرحوا بها وأعجبهم غرابتها فقيدت قلوبهم بالاتفات إليها والتفكير فيها ، وفي كيفية افتتاح بابها عليهم والسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرمت الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب مبدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثله ، فوقف ينظر إليها ويتمتع حتى فاتته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

(و فرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأوار في الطريق ولا إلى ما يمسهم من المطايا الجريئة ولم يبرجوا على الترح بها والاتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله ففرقوا وغلطوا فإن الله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى

إخباراً عنه (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً ، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس إله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يفتره الكوكب الذي لا يترّ السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر اثنيات الكوكب فاستعير له لفظه وأعطها الشمس وبينهما رتبة القمر ، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أقول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترنّ إليه ويقول : قد وصلت فكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الألف الذي لا وصول إلا بعده ، فقال (هذا أكبر) فلما ظهر له أنه مع عظمه غير حال عن الهوى في حضيض النقص والاضططاط عن ذروة الكمال (قال لأحب الآفاين - إلى أن قال - إن وجهي وجهي للذي فطر السموات والأرض) وسالك هذه الطريق تفتقر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يفتر بالحجاب الأول ، وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى ؛ أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه يتسع لجلّة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالسائر له فإذا تجلّى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله القاطع ما يدهشه ، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول : أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك أفر به ووقف عليه ومالك ، وكان قد أفر بكونه صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مفرور وهذا عل الالتباس ، إذ المتجلى يلبس بالمتجلى فيه كما يلبس لون ما يترامى في المرأة بالمرأة فيظن أنه لون المرأة ، وكما يلبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل :

رق الزجاج ورقه الخمر فقشاهما فقشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر التصاوي إلى المسيح فقرأوا إشراق نور الله قد تلالاً فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمضيه إليه ليأخذه وهو منور ، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في جملات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لا رخصة في ذكره ، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذي لم يسلكه لا يتفهم بسماعه بل ربما يستعز به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم ، ولكن فيه فائدة وهو إخراجهم من الغرور الذي هو فيه بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه وما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجده المخرف ويصدق أيضاً بما يحكي له من المكاشفات التي أخبر عنها أمهلياء الله ، ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما يسمعه من قبل .

الصنف الرابع : أبواب الأموال ؛ والمغتربون منهم فرق : (فقرة منهم) يحرصون على بناء المساجد والملازم والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويتكبرون أسامهم بالأجر عليها ليتخذوا كرم ويقيم بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك . وقد اعتبروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والتهب والرشا والجهات المحظورة ، فهم قد ترمضوا لسطط الله في كسبها وتمرضوا لسططه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الإمتناع عن كسبها ، فإذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردما إلى ملاكها إما بأعيانها وإما بربدها عند الحجر ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردما إلى الورثة فإن لم يبق للظلم وراثت فالواجب صرفها إلى أم المصالح ، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالأجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لابقاء الخير .

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لثق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، وانه مطاع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولولا أنه يريد به وجه الناس لأوجه الله لما افتقر إلى ذلك ،

(و فرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مقرورة من وجهين : أحدهما . الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو ببلده فقراء وصرف المال إليهم أم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها ، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليطهر ذلك بين الناس .

والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجدين وتزيينه بالنقوش التي هي منى عنهما وشاغلة لقلوب المسلمين ومغلفة بأبصارهم ^(١) والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المسلمين ويجعل قلوبهم بذلك ، ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يفتخر به ويرى أنه من الخيرات ويمد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد ترمض لسطط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له ويمتثل لأمره ، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخره من المسجد وربما شوقهم إلى الزخارف الدنيا ، فيفتنون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رفقة ؛ إذ المسجد التواضع ولحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك بن دينار : أتى رجلا من مسجداً فوق أحدهما على الباب وقال : مثلي لا يدخل بيت الله ، فكتبه للملكان عند الله صديقا . فهكلنا ينبغي أن نمنظ للمساجد وهو أن يرى تلويح المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لأن يرى تلويح المسجد بالحرام أو يزخره الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون لليسع عليه السلام : انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه فقال : أمتي أمتي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بنوب أمه ، إن الله لا يميل بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا ، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمد الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك وقال أبو الرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زخرتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم ^(٢) ، وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبنى مسجداً للدينه أتاه جبريل عليه السلام فقال له : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخره ولا تمشقه ^(٣) ، فزور هذا من حيث أنه رأى للتكر والتكل عليه .

(و فرقة أخرى) ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجماعية ، ومن

(١) حديث : التي من زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش . أخرجه البخاري من قول عمر بن الخطاب : أكن الناس ولا تعمر ولا تلمس (٢) حديث : إذا زخرتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم . أخرجه ابن المبارك في الزهد وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الرداء (٣) حديث الحسن مهمل : لما أراد أن يبنى مسجداً للدينه أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخره ولا تمشقه لم أجده .

الفقراء من عاده الشكر والإقضاء للمروف وبكروهون التصدق في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جنابة عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيجمعون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا حبيبتهم جياحا ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يكون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مساكين ، يهوى بأحدهم بعينه بين الرمال والقفار ويهمله مأسور إلى جنبه لا يواسيه . وقال أبو نصر القار : إن رجلا جاء يردع بشر بن الحارث وقال : قد حرمت على الحج فأشركت بشيء ؟ فقال له : كم أهددت لفنقة ؟ فقال : ألني درهم . قال بشر : فأى شيء تبتغي بصحك ؟ زهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتتفق ألني درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أنفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعمل يقضى عياله ، ومربي يقيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطيا واحدا فأفعل فإن لإعمالك السرور على قلب المسلم وإغاثة الملهان وكشف الضر وإغاثة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، ثم فأخرجها كما أمرناك وإلا لاقض لنا ما في قلبك ؟ فقال : يا أبا نصر سغرى أقوى في قلبي ، فتيسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آتى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

(و فرقة أخرى) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويسكنونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالمبادات الدينية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مفرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قومه لإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل موستغنى عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكبين ليسكن به الصغراء ، ومن قتله الحية متى يحتاج إلى السكبين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الفتي كثير الصوم والصلاة فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجهيمه نفسه ومن صلاته لنفسه من جملة الدنيا ومنه للفقراء .

(و فرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ، ثم إنهم يفرجون من المال الخفيف الرديء الذي يرضون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم ، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستئجار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض ، أو يسلمون ذلك إلى من يمينه واحدا من الأكاريم يستظهر بحمسه لينال بذلك عنده منزلة فيقرم بمجاهاته . وكل ذلك مقصدات لثنية ومبطلات للعمل وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره ، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يصحى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس النور .

(و فرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يفيهم ويكفيهم واعتقدوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الانهماط أجرا ، وهم مفرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه سرعيا في الخير فإن لم يبيح الرغبة فلا خير فيه ، والرغبة عمودة لأنها تبتس على العمل فإن حشفت عن العمل فلا خير فيها ، وما يبراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك التبر فلا قيمة له ، وربما يتما بقر يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كركة

النساء فيسكن ولا هرم ، وربما يسمع كلاما مخوفاً فلا يريد على أن يصفق بيده ويقول : يا سلام ! أو نعوذ بالله أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم يتصرف ، وذلك لا يفتي عنه من مرضه وجوعه شيئاً . فكذلك يسمع وصف الطاعات دون العمل بها لا يفتي من الله شيئاً . فكل وعظ لم يغير منك صفة تشييراً بغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيت وسيلة لك كنت مغروراً .

فإن قلت : فاذا ذكرته من مداخل التورور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يرجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟ فأقول : الإنسان إذا افتقرت منه في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستترع الطريق ، وإذا صح منه الهوى امتدى إلى الحيل واستبط بديق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستزل الطير الخلق في جو السماء مع بعده منه استزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه ، وإذا أراد أن يقتص الوحوش المطلقة في البراري والبحار اقتصها ، وإذا أراد أن يستخرج السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استخرجها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويبيت بها أخذها واستخرج الدباب من أجوافها ، وإذا أراد أن يتخذ الدباب اللون المقتض من ورق الثوت اتخذ ، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بديق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستبط الحيل وإعداد الآلات ، ففسر الفرس للركوب والكلب للصيد وسحر البازي لاقتراس الطيور وحيا الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي . كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه ، فله همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه ففجر من تقويم قلبه وتخاذل ، وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه ؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح ومعه هذا المم الواحد بل هو كما يقال « لو صح منك الهوى أرشدت للحيل » فهذا شيء لم يجر عنه السلف الصالحون ومن أتبعهم بإحسان . فلا يجر عنه أيضاً من صدقت إرادته وقوت همه ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استبط الحيل الدنيا ونظم أسبابها .

فإن قلت : قد تزيت الأمر فيه مع أنك أكثر في ذكر مداخل التورور فبهم ينجو العبد من التورور ؟ فأقول أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالفعل والعلم والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل : فأخى به الفطرة الفريضة والنور الأصل الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء كالقطة والكنيس فطرة ، والحق والبلادة فطرة والبلد لا يقدر على التصفط عن التورور ، فصفا العقل وذكا الفهم لا بد منه في أصل الفطرة ، فهذا إن لم يقدر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن . نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكنيسة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتنا (١) » ، إن الرجلين ليستوى علمهما وبرهما وصومهما وصلتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالنرة في جنب أحد ، وما قسم الله خلقه حظوا أفضل من العقل واليقين . وعن أبي الدرداء أنه قيل : يا رسول الله أرايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويمسك ويتصدق

(١) حديث « تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلات في أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه نحوه من حديث أبي حنيفة وهو ضعيف أيضاً .

ويترو في سبيل الله ويعود المريض ويشبع الجناز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما يجزي على قدر عقله »^(١) ، وقال أنس : أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف عقله ؟ » قالوا : يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وعقله فقال : كيف عقله فإن الآحق يصيب بحكمة أعظم من لجور الفاجر . وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم^(٢) ، وقال أبو البرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال : أرجوه ، وإن قالوا غير ذلك قال : لن يبلغ^(٣) ، وذكر له شدة عبادة رجل فقال : كيف عقله ، قالوا : ليس بشيء قال : لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون ، فالدكاك صحيح وغريرة العقل نعمة من الله تعالى في أصل القطرة فإن قامت ببلادة وحماقة فلا تنلوك لها .

الثاني . المعرفة : وأحيان المعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة : فيعرف نفسه بالمبودية والذل ويكون غريبا في هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات الهيمنة ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا عالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستمن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبيه على الجلالة وكآل المعرفة وراءه ، فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نكتب في هذا الكتاب إلا في علوم للعامة . وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله سبحانه ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفضه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها ، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستماعة على سلوك طريق الآخرة . وصحت نيته وأنذفع عنه كل غرور مغشوقه بمجاذب الأغراض والتزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو الفساد للنية . وعادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفة بالله ونفسه الصادرة عن كآل عقله فيجتأج إلى المنى الثالث وهو العلم : أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بأفان الطريق وعصياته وغرائله (وجميع ذلك قد أوردناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربح العبادات شروطها فيراعيها وآفاتا فيجتنيها ، ومن ربح العادات أسرار المعاش وما هو مضطر إليه فيأخذ به بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربح المهلكات يعلم جميع القبائح المأمنة في طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ربح النجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفا عن المذمومة بد غيرها) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يتلب

(١) حديث أبي البرداء « أرايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ... الحديث » وفيه « إنما يجزي على قدر عقله » أخرجه الحطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وصفه ولم أره من حديث أبي البرداء .

(٢) حديث أنس : أتى على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « كيف عقله ؟ » . الحديث « أخرجه داود بن الحفري في كتاب البطل وهو ضعيف وهن في العلم » (٣) حديث أبي البرداء : كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة ، سأل من عقله .. الحديث . أخرجه الترمذي المحكم في التواتر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وصفه .

حب الله على القلب يسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به التوبة ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس إلى معرفته من دين الله ، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ورواقب القلب حتى صفاء من جميع المكشورات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا م واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقاءه ، وقد فجر الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والتصح لهم والدعاء إلى الله ، فيخطر البعد برحته إلى العبد فيأمره فيأمرهم أحرهم سكارى في دينهم صما عيا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدكم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق له ، وقد كان لذلك يسهر ليه ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهذا بالنار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك الملة بينهما وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السباه أنيهم فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أزجي زمان ، فأخذته الرحمة والرفقة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشق من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل دأؤهم وقرب هلاكهم وإشغافهم ، وسهل عليه دأؤهم فأنبهت من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بتصحهم وحرزهم الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة ، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياضة دعاء خفيا أخفى من ديب الخلق لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الديب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنفات والحركات والتصنع في الزي والهيئة ، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويحجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شائبا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فأثروا بأبائهم وأمورهم وصاروا له بخولا كالعبد والخدم يخدمونه وقدموه في المحافل وحكوه على الملوك والسلاطين ، فمند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذائق لذة بالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحضر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فمند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتنعت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة . وأما رة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدى الخلق غضب ، فإذا أترك على نفسه ما وجدته من الغضب بادر الشيطان خليل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريد في أنه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور ، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في التوبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذي هو نمزء عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحتر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبق الضحك أو قر عن بعض الأوراد جوعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأنبع ذلك بالاستغفار وتفس الصداء ،

وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشیطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركوا الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ، ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يجب ذلك ويستشربه ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يفتنم ذلك ، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقفوا في بئر وتغطى . رأس البئر بحجر كبير فمجروا عن الرق من البئر بسبيه ، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه لجأه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونجاه نفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرضه التناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فلماذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه ، أرايت لو اتمدوا جميعهم من أنفسهم أكان يبنين أنه يقتل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم ؟ فإذا اتمدوا بغيره فلم يثقل عليه ؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبار القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنمؤذ بالله من زيف القلوب بعد الهدى ومن أعوجاج النفس بعد الاستواء .

فإن قلت : فني يصح له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يرد لو وجد من يمينه ، أو لو اتمدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حدم وذمهم فلم يبال بدمهم إذا كان الله يحمدوهم ولم يفرح بخدمهم إذا لم يقرن به حمد الله تعالى ، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم . أما إلى السادات : فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالحقارة . وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المزية في قلوبهم فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتنصع ! بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع اللدب عنها دون نظر الماشية إليه . فإلم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسل من الاشتغال بإصلاحهم . نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويمترق في نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب ؟ فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »^(١) ، ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت الماشية وهلكت القلوب والأبدان جميعا ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا يزيغ الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم ، فلم يترك النصح وذكر مافي حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلبها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكذلك لا تزال السنة الوعظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول : إن الوعظ لحب الرياسة حرام ، كما لا يدع الحق الشرب والزنا والسرقة والربا والظلم وسائر المماص قول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام ، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا أخلاق لهم ،

(١) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا .

فلما يخشى أن يفسد طريق الاتعاط ، فأما أن تغرس السنة الوعاط ووراءه باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا .

فإن قلت : فإن علم المرید هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى يقى بين يديه من الأخطار وحبال الإغترار ؟ فأعلم أنه يقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتني وأظف من بكائك وكال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك وعقلك إذ قواك على قهرى ومكانك من التفتن لجميع مداخل غرورى ! فيصنى إليه ويمدته ويمسج بنفسه فى فراره من الضرور كله ، فيكون إجمابه بنفسه غاية الضرور وهو المهلك الأكبر ، فالمسج أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان : يا ابن آدم إذا غشيت أنك بملكك تخلفت منى فيهلك قد وقعت فى حبالى .

فإن قلت : فلم يسج بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لآمنه وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعوته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فلماذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذى يخاف عليه بعد نقي المسج ؟ فأقول : يخاف عليه الضرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يقى على هذه الوثيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والانتقال ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ، ومن آمن مكر الله فهو حاسر جدا ، بل سيئله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم عافيا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو خافل عنه ، ويكون عافيا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا خافل عن خطر الحاتمة . وهذا خطر لا يحصى عنه وخوف لا نهائة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت الزرع وكان قد يقى له نفس فقال : أفلت منى يا فلان ؟ فقال : لا ، بعد . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى إلا المألون ، والمألون كلهم هلكى إلا الماملون ، والماملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فلئن المضرور حاله والمخلص الفار من الضرور على خطر فذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا .

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الحاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها .

تم كتاب ذم الضرور ، وبه تم ربيع المهلكات ، وبتوته فى أول ربيع المنجيات ، كتاب التوبة ، والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين
وبطيه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة

فهرس

الجزء الثالث من إحياء علوم الدين

صفحة	صفحة
٤٨ كتاب رياضة النفس	٢ كتاب شرح عجائب القلب
وتهديب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب	وهو الكتاب الأول من ربيع المهلكات
وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات	٣ بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل
٤٩ بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق	وما هو المراد بهذه الأسامي
٥٢ بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق	٥ بيان جنود القلب
٥٦ بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة	٦ بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة
٥٨ بيان السبب الذي به يخال حسن الخلق	٧ بيان عاصية قلب الإنسان
على الجملة	١٠ بيان مجاميع أوصاف القلب وأمثاته
٦٠ بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق	١٣ بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة
٦٢ بيان علامات أمراض القلوب وعلامات	١٦ بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم
عودها إلى الصحة	القلبية والدينية والدنيوية والأخرى
٦٤ بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان	١٨ بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق
معيوب نفسه	بين طريق الصوفية في استكشاف الحق
٦٥ بيان شواهد النقل من أبواب البصائر	وطريق النظار
وشواهد الشرع على أن الطريق في	٢٠ بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس
معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات	٢٣ بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل
وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات	التصوف في اكتساب المعرفة لأمن التعلم
٦٩ بيان علامات حسن الخلق	ولا من الطريق المتعاد
٧٧ بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول	٢٦ بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس
نصوم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم	ومعنى الوسوسة وسبب ظليتها
٧٤ بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهد	٢٧ بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب
وتدريج المريء في سلوك سبيل الرياضة	٤١ بيان ما يؤخذ به الصمد من وسوس
٧٩ كتاب كسر الشهوتين	القلوب ومهما وغواطرها وقصردها
وهو الكتاب الثالث مع ربيع المهلكات	وما يعني عنه ولا يؤخذ به
٨٠ بيان فضيلة الجوع وذم الشبع	٤٣ بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع
٨٤ بيان فوائد الجوع وآفات الشبع	بالكلية عند الذكر أم لا
٨٩ بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن	٤٥ بيان سرعة قلب القلب وانقسام القلوب
	في التثنية والتثبات

مصحف

مصحف

- ٩٦ بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته
واختلاف أحوال الناس فيه
- ٩٨ بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك
الشهوات وقلل الطعام
- ٩٩ القول في شهوة الفرج
- ١٠١ بيان ماعلى المريد في ترك التزويج ونعله
- ١٠٤ بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين
- ١٠٧ كتاب آفات اللسان
وهو الكتاب الرابع من ربيع المهلكات
- ١٠٨ بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت
- ١١٢ الآفة الأولى من آفات اللسان الكلام
فيا لا يمتنعك
- ١١٤ الآفة الثانية فضول الكلام
- ١١٥ الآفة الثالثة الخوض في الباطل
- ١١٦ الآفة الرابعة المراء والجدال
- ١١٨ الآفة الخامسة الخصومة
- ١٢٠ الآفة السادسة التعمري الكلام بالتفندق
وتكلف السجع والفصاحة الخ
- ١٢١ الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان
- ١٢٢ الآفة الثامنة المن
- ١٢٦ الآفة التاسعة الفناء والفسر
- ١٢٧ الآفة العاشرة المزاح
- ١٣١ الآفة الحادية عشرة السخيرة والاستهزاء
- الآفة الثانية عشرة إفساء السر
- ١٣٢ الآفة الثالثة عشرة الوعد والكاذب
- ١٣٣ الآفة الرابعة عشرة الكذب في القول واليمين
- ١٣٧ بيان ما رخص فيه من الكذب
- ١٣٩ بيان الحذر من الكذب بالمعارض
- ١٤١ الآفة الخامسة عشرة الغيبة
- ١٤٣ بيان معنى الغيبة وحدودها
- ١٤٤ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
- ١٤٦ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
- ١٤٨ بيان العلاج الذي به يمنع اللسان من الغيبة
- ١٥٠ بيان تحريم الغيبة بالغلب
- ١٥٢ بيان الأضرار المرخصة في الغيبة
- ١٥٣ بيان كفارة الغيبة
- ١٥٤ الآفة السادسة عشرة الغيبة
- ١٥٩ بيان حد الغيبة وما يجب في ردّها
- ١٥٨ الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين
- ١٥٩ الآفة الثامنة عشرة المدح
- ١٦١ بيان ماعلى المدح
- ١٦١ الآفة التاسعة عشرة التفة عن دقائق
الخطأ في لغوى الكلام
- ١٦٢ الآفة العشرون سؤال العوام من صفات
الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف الخ
- ١٦٤ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد
- وهو الكتاب الخامس من ربيع المهلكات
- ١٦٤ بيان ذم الغضب
- ١٦٦ بيان حقيقة الغضب
- ١٦٩ بيان أن الغضب هل يمكن إزالته أصله
بالرياضة أم لا
- ١٧٢ بيان الأسباب المهيجة للغضب
- ١٧٣ بيان علاج الغضب بحد ميجانه
- ١٧٥ بيان فضيلة كظم الغيظ
- ١٧٦ بيان فضيلة الحلم
- ١٧٩ بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتفندق
به من الكلام
- ١٨١ القول في معنى الحقد وتناجه وفضيلة
المغفر والرفق
- ١٨٢ فضيلة المغفر والإحسان
- ١٨٤ فضيلة الرفق
- ١٨٦ القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه
ومعالجته وظاية الواجب في إزالته
- بيان ذم الحسد
- ١٨٩ بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

مصحف

- ١٩٢ بيان أسباب الحسد والمنافسة
١٩٤ بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقارب والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وحفظه
١٩٦ بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب
١٩٩ بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب
٢٠٢ كتاب ذم الدنيا
وهو الكتاب السادس من ربيع المهلكات
٢٠٢ بيان ذم الدنيا
٢١١ بيان المواقف في ذم الدنيا وصفتها
٢١٤ بيان صفة الدنيا بالأمثلة
٢١٩ بيان حقيقة الدنيا وما هيئتها في حق العبد
٢٢٤ بيان حقيقة الدنيا في تفهيمها وأشغالها التي استغرقتهم الخلق حتى أنفسهم أنفسهم وعالمهم ومصدومهم وعوردهم
٢٣١ كتاب ذم البخل وحم الحمال
وهو الكتاب السابع من ربيع المهلكات
٢٣٢ بيان ذم المال وكراهة حبه
٢٣٤ بيان مدح المال والجمع بينه وبين النعم
٢٣٥ بيان تفصيل آفات المال وفوائده
٢٣٧ بيان ذم الحرص والطعم ومدح القناعة واليأس عما في أيدي الناس
٢٤١ بيان صلاح الحرص والطعم والدواء الذي يكتب به صفة القناعة
٢٤٣ بيان فضيلة السخاء
٢٤٧ حكايات الأسخياء
٢٥٢ بيان ذم البخل
٢٥٦ حكايات البخل
٢٥٧ بيان الإيثار ونضله
٢٥٩ بيان حد السخاء والبخل وحقيقتيهما
٢٦١ بيان علاج البخل

مصحف

- ٢٦٢ بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله
٢٦٤ بيان ذم التقي ومدح الفقر
٢٧٤ كتاب ذم الجاه والرياء
وهو الكتاب الثامن من ربيع المهلكات وفيه شطران
٢٧٤ الشطر الأول في حب الجاه والشهرة وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول الخ
بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
٢٧٦ بيان فضيلة الخمول
٢٧٨ بيان ذم حب الجاه
٢٧٨ بيان معنى الجاه وحقيقته
٢٩٩ بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يتصور عنه قلب إلا بشهد الجماعة
٢٨٧ بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له
٢٨٥ بيان ما يجمد من حب الجاه وما يذم
٢٨٦ بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه ويغضها للذم وتفرتها منه
٢٨٧ بيان علاج حب الجاه
٢٨٩ بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة النعم
٢٩٠ بيان علاج كراهة النعم
٢٩١ بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والنعم
٢٩٣ الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمزلة بالمعادات وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء إلى آخره
٢٩٣ بيان ذم الرياء
٢٩٧ بيان حقيقة الرياء وما يراه به
٣٠١ بيان درجات الرياء
٣٠٥ بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب القل

صحيفة

- ٣٠٧ بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفى والجلل وما لا يحبط
 ٣١٠ بيان ادوار الرياء وطريق معالجة القلب فيه
 ٣١٧ بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
 ٣١٩ بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم لها
 ٣٢٢ بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات
 ٣٣٠ بيان ما يصح من نشاط العبد المبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
 ٣٣٢ بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل ويعدده وفيه
 ٣٣٦ كتاب ذم الكبر والعجب
 ٣٣٦ بيان ذم الكبر والعجب
 ٣٣٩ بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب
 ٣٤٠ بيان فضيلة التواضع
 ٣٤٢ بيان حقيقة الكبر وآفته

صحيفة

- ٣٤٥ بيان المتكبر عليه ودرياته وأقسامه وثمرات الكبر فيه
 ٣٤٧ بيان ما به التكبر
 ٣٥٢ بيان البواعث على التكبر وأسبابه المحيطة له
 ٣٥٤ بيان أخلاق المتواضعين وبما هم ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
 ٣٥٨ بيان الطريق في معالجة الكبر وكذا كتاب التواضع له
 ٣٦٨ بيان غاية الرياضة في خلق التواضع
 ٣٦٩ بيان ذم العجب وآفاته
 ٣٧٠ بيان آفة العجب
 ٣٧١ بيان علاج العجب على الجملة
 ٣٧٤ بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه
 ٣٧٨ كتاب ذم الفروغ
 ٣٧٩ بيان ذم الفروغ وحقيقته وأمثلته
 ٣٨٨ بيان أصناف المفترين وأقسام فرق كل صنف

SEAGELDIN



IS00163